الميزان في تفسير القرآن

للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

المجلد التاسع عشر

منشورات
مؤسسة الأعلى للمطبوعات
بيروت - لبنان

الميزان
في
تفسير القرآن
١٩

الميزان
في
تفسير القرآن
١٩

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net < رابط بديل

الميزان في تفسير القرآن

كتاب علمي ، فني ، فلسفي ، أدبي ، تاريخي ، روائي ، اجتماعي ، حديث يفسر القرآن بالقرآن

تاليف

العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

المجلد التاسع عشر

الطبعة الثانية
حقوق الطبع والتقليد محفوظة ومسجلة للناشر
١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م

تمتاز هذه الطبعة عن غيرها بالتحقيق والتصحيح الكامل
وإضافات وتغييرات هامة من قبل المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(سورة الطور مكية ، وهي تسع وأربعون آية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . وَٱلطُّورِ ــ ١ . وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ــ ٢ .
فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ــ ٣ . وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ــ ٤ . وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ــ ٥ .
وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ــ ٦ . إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ــ ٧ . مَّا لَهُ مِن
دَافِعٍ ــ ٨ . يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَاءُ مَوْرًا ــ ٩ . وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ــ ١٠ .

(بيان)

غرض السورة إنذار أهل التكذيب والعناد من الكفار بالعذاب الذي أعدّ لهم يوم القيامة فتبدأ بالإنباء عن وقوع العذاب الذي أنذروا به وتحققه يوم القيامة بأقسام مؤكدة وأيمان مغلظة ، وأنه غير تاركهم يومئذ حتى يقع بهم ولا مناص .

ثم تذكر نبذة من صفة هذا العذاب والويل الذى يعمهم ولا يفارقهم ثم تقابل ذلك بشمة من نعيم أهل النعيم يومئذ وهم المتقون الذين كانوا في الدنيا مشفقين في أهلهم يدعون الله مؤمنين به موحدين له .

ثم تأخذ في توبيخ المكذبين على ما كانوا يرمون النبي ﷺ وما أنزل عليه من القرآن وما أتى به من الدين الحق .

وتختم الكلام بتكرار التهديد والوعيد وأمر النبي ﷺ بتسبيح ربه . والسورة مكية كما يشهد بذلك سياق آياتها .

قوله تعالى : « والطور » قيل : الطور مطلق الجبل وقد غلب استعماله في الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ، والأنسب أن يكون المراد به في الآية جبل موسى عليه السلام أقسم الله تعالى به لما قدسه وبارك فيه كما أقسم به في قوله : « وطور سنين » التين : ٢ ، وقال : « وناديناه من جانب الطور الأيمن » مريم : ٥٢ ، وقال في خطابه لموسى عليه السلام : « فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى » طه: ١٢ ، وقال :« نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة » القصص : ٣٠ .

وقيل : المراد مطلق الجبل أقسم الله تعالى به لما أودع فيه من أنواع نعمه قال تعالى : « وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها » حم السجدة : ١٠ .

قوله تعالى : « وكتاب مسطور في رقّ منشور » قيل : الرق مطلق ما يكتب فيه وقيل : هو الورق ، وقيل : الورق المأخوذ من الجلد ، والنشر هو البسط ، والتفريق.

والمراد بهذا الكتاب قيل : هو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه ما كان وما يكون وما هو كائن تقرؤه ملائكة السماء ، وقيل: المراد به صحائف الأعمال تقرؤه حفظة الأعمال من الملائكة ، وقيل : هو القرآن كتبه الله في اللوح المحفوظ ، وقيل : هو التوراة وكانت تكتب في الرق وتنشر للقراءة .

والأنسب بالنظر إلى الآية السابقة هو القول الأخير .

قوله تعالى : « والبيت المعمور » قيل : المراد به الكعبة المشرفة فإنها أول بيت وضع للناس ولم يزل معموراً منذ وضع إلى يومنا هذا قال تعالى : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين » آل عمران : ٩٦ .

وفي الروايات المأثورة أن البيت المعمور بيت في السماء بحذاء الكعبة تزوره الملائكة.

وتنكير « كتاب » للإيماء إلى استغنائه عن التعريف فهو تنكير يفيد التعريف ويستلزمه .

قوله تعالى : « والسقف المرفوع » هو السماء .

قوله تعالى : « والبحر المسجور » قال الراغب : السجر تهييج النار ، وفي المجمع: المسجور المملوء يقال : سجرت التنور أي ملأتها ناراً ، وقد فسرت الآية بكل من المعنيين ويؤيد المعنى الأول قوله : « وإذا البحار سجرت » التكوير : ٦ ، أي سعرت وقد ورد في الحديث أن البحار تسعّر ناراً يوم القيامة ، وقيل : المراد أنها تغيض مياهها بتسجير النار فيهـا .

قوله تعالى : « إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع »جواب القسم السابق والمراد بالعذاب المخبر بوقوعه عذاب يوم القيامة الذي أوعد الله به الكفار المكذبين كما تشير اليه الآية التالية ، وفي قوله : « ما له من دافع » دلالة على أنه من القضاء المحتوم الذي لا محيص عن وقوعه قال تعالى:وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور»الحج:٧.

وفي قوله : « عذاب ربك » بنسبة العذاب إلى الرب المضاف إلى ضمير الخطاب دون أن يقال : عذاب الله تأييد للنبي ﷺ على مكذبي دعوته وتطييب لنفسه أن ربه لا يخزيه يومئذ كما قال : « يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه » التحريم : ٨ .

قوله تعالى : « يوم تمور السماء موراً وتسير الجبال سيراً » ظرف لقوله : « إن عذاب ربك لواقع » .

والمور – على ما في المجمع – تردد الشيء بالذهاب والمجيء كما يتردد الدخان ثم يضمحل ، ويقرب منه قول الراغب : إنه الجريان السريع .

وعلى أي حال فيه إشارة إلى انطواء العالم السماوي كما يذكره تعالى في مواضع من كلامه كقوله : « إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت » الانفطار : ٢ ، وقوله : « يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب » الأنبياء : ١٠٤ ، وقوله:« والسماوات مطويات بيمينه » الزمر : ٦٧ .

كما أن قوله : « وتسير الجبال سيراً » إشارة إلى زلزلة الساعة في الأرض التي يذكرها تعالى في مواضع من كلامه كقوله : إذا رجّت الأرض رجاً وبسّت الجبال بساً فكانت هباء منبثاً » الواقعة : ٦ ، وقوله : وسيرت الجبال فكانت سراباً » النبأ : ٢٠ .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « والطور وكتاب مسطور » قال : الطور جبل بطور سيناء .

وفي المجمع « والبيت المعمور » وهو بيت في السماء الرابعة بحيال الكعبة يعمره الملائكة بما يكون منها فيه من العبادة . عن ابن عباس ومجاهد ، وروي أيضاً عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : ويدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون اليه أبداً .

أقول : كون البيت المعمور بيتاً في السماء يطوف عليه الملائكة واقع في عدّة أحاديث من طرق الفريقين غير أنها مختلفة في محله ففي أكثرها أنه في السماء الرابعة وفي بعضها أنه في السماء الاولى ، وفي بعضها السابعة .

وفيه : « والسقف المرفوع » وهو السماء عن علي عليه السلام .

وفي تفسير القمي « والسقف المرفوع » قال : السماء ، « والبحر المسجور » قال : تسجر يوم القيامة .

وفي المجمع « والبحر المسجور » أي المملوء . عن قتادة ، وقيل: هو الموقد المحمّى بمنزلة التنور . عن مجاهد والضحاك والأخفش وابن زيد . ثم قيل : إنه تحمى البحار يوم القيامة فتجعل نيراناً ثم تفجر بعضها في بعض ثم تفجر إلى النار . ورد به الحديث .

* * *

فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ــ ١١. الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ــ ١٢. يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ــ ١٣ . هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ــ ١٤ . أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ــ ١٥ . اِصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ــ ١٦ . إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ــ ١٧ . فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ

رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ - ١٨. كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ - ١٩.
مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ - ٢٠. وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ
مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ - ٢١. وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ
مِمَّا يَشْتَهُونَ - ٢٢. يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ - ٢٣.
وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ - ٢٤. وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ - ٢٥: قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ - ٢٦.
فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ - ٢٧. إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ
نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ - ٢٨.

(بيان)

تذكر الآيات من يقع عليهم هذا العذاب الذي لا ريب في تحققه ووقوعه ، وتصف حالهم إذ ذاك ، وهذا هو الغرض الأصيل في السورة كما تقدمت الإشارة اليه وأما ما وقع في الآيات من وصف حال المتقين يومئذ فهو من باب التطفل لتأكيد الإنذار المقصود .

قوله تعالى : « فويل يومئذ للمكذبين » تفريع على ما دلت عليه الآيات السابقة من تحقق وقوع العذاب يوم القيامة أي إذا كان الأمر كما ذكر ولم يكن محيص عن وقوع العذاب فويل لمن يقع عليه وهم المكذبون لا محالة فالجملة تدل على كون المعذبين هم المكذبين بالاستلزام وعلى تعلق الويل بهم بالمطابقة .

أو التقدير إذا كان العذاب واقعاً لا محالة ولا محالة لا يقع إلا على المكذبين لأنهم الكافرون بالله المكذبون ليوم القيامة فويل يومئذ لهم ، فالدال على تعلق العذاب بالمكذبين

هو قوله : « عذاب ربك » لأن عذاب الله إنما يقع على من دعاه فلم يجبه و كذب دعوته .

قوله تعالى : « الذين هم في خوض يلعبون » الخوض هو الدخول في باطل القول قال الراغب : الخوض هو الشروع في الماء والمرور فيه ، ويستعار في الامور وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه انتهى ، وتنوين التنكير في « خوض » يدل على صفة محذوفة أي في خوض عجيب .

ولما كان الاشتغال بباطل القول لا يفيد نتيجة حقة إلا نتيجة خيالية يزينها الوهم للخائض سماه لعباً – واللعب من الأفعال ما ليس له إلا الأثر الخيالي – .

والمعنى: الذين هم مستمرون في خوض عجيب يلعبون بالمجادلة فيآيات الله وإنكارها والاستهزاء بها .

قوله تعالى : « يوم يدعون إلى نار جهنم دعا » الدعّ هو الدفع الشديد، والظاهر أن « يوم » بيان لقوله : « يومئذ » .

قوله تعالى : « هذه النار التي كنتم بها تكذبون » أي يقال لهم : هذه النار التي كنتم بها تكذبون ، والمراد بالتكذيب بالنار التكذيب بما أخبر به الأنبياء عليهم السلام بوحي من الله من وجود هذه النار وأنه سيعذب بها المجرمون ومحصل المعنى: هذه مصداق ما أخبر به الأنبياء فكذبتم به .

قوله تعالى : « أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون » تفريع على قوله : « هذه النار التي كنتم بها تكذبون » ، والاستفهام للإنكار تفريعاً لهم أي إذا كانت هذه هي تلك النار التي كنتم تكذبون بها فليس هذا سحراً كما كنتم ترمون إخبار الأنبياء بها أنه سحر وليس هذا أمراً موهوماً خرافياً كما كنتم تتفوهون به بل أمر مبصر معاين لكم فالآية في معنى قوله تعالى : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق » الأحقاف : ٣٤ .

وبما مر من المعنى يظهر أن « أم » في قوله : « أم أنتم لا تبصرون » متصلة وقيل: منقطعة ولا يخلو من بعد .

قوله تعالى : « اصلوها فاصبروا أو لا تبصروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون » ، الصلي بالفتح فالسكون مقاساة حرارة النار فمعنى اصلوها قاسوا حرارة نار جهنم .

وقوله : « فاصبروا أو لا تصبروا » تفريع على الأمر بالمقاساة ، والترديد بين الأمر والنهي كناية عن مساواة الفعل والترك ، ولذا أتبعه بقوله : « سواء عليكم » أي هذه المقاساة لازمة لكم لا تفارقكم سواء صبرتم أو لم تصبروا فلا الصبر يرفع عنكم العذاب أو يخففه ولا الجزع وترك الصبر ينفع لكم شيئاً .

وقوله : «سواء عليكم» خبر مبتدأ محذوف أي هما سواء وإفراد « سواء » لكونه مصدراً في الأصل .

وقوله : « إنما تجزون ما كنتم تعملون» في مقام التعليل لما ذكر من ملازمة العذاب ومساواة الصبر والجزع .

والمعنى : إنما يلازمكم هذا الجزاء السيء ولا يفارقكم لأنكم تجزون بأعمالكم التي كنتم تعملونها ولا تسلب نسبة العمل عن عامله فالعذاب يلازمكم أو إنما تجزون بتبعات ما كنتم تعملون وجزائه .

قوله تعالى : « إن المتقين في جنات ونعيم » الجنة البستان تجنبه الأشجار وتستره ، والنعيم النعمة الكثيرة أي إن المتصفين بتقوى الله يومئذ في جنات يسكنون فيها ونعمة كثيرة تحيط بهم .

قوله تعالى : « فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم » الفاكهة مطلق الثمرة ، وقيل : هي الثمرة غير العنب والرمان ، ويقال : تفكّه وفكه إذا تعاطى الفكاهة ، وتفكّه وفكه إذا تناول الفاكهة ، وقد فسّرت الآية بكل من المعنيين فقيل : المعنى : يتحدثون بما آتاهم ربهم من النعيم ، وقيل : المعنى : يتناولون الفواكه والثمار التي آتاهم ربهم ، وقيل : المعنى : يتلذذون بإحسان ربهم ومرجعه إلى المعنى الأول ، وقيل : معناه فاكهين معجبين بما آتاهم ربهم ، ولعل مرجعه إلى المعنى الثاني .

وتكرار «ربهم» في قوله: « ووقاهم ربهم عذاب الجحيم » لإفادة مزيد العناية بهم .

قوله تعالى : « كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون » أي يقال لهم: كلوا واشربوا أكلاً وشرباً هنيئاً أو طعاماً وشراباً هنيئاً ، فهنيئاً وصف قائم مقام مفعول مطلق أو مفعول به .

وقوله: «بما كنتم تعملون» متعلق بقوله: « كلوا واشربوا» أو بقوله: «هنيئاً» .

قوله تعالى : « متكئين على سرر مصفوفة وزوّجناهم بحور عين » الاتكاء الاعتماد على الوسادة ونحوها ، والسرر جمع سرير ، ومصفوفة من الصف أي مصطفة موصولة بعضها ببعض ، والمعنى : متكئين على الوسائد والنمارق قاعدين على سرر مصطفة .

وقوله : « وزوّجناهم بحور عين » المراد بالتزويج القرن أي قرنّاهم بهنّ دون النكاح بالعقد ، والدليل عليه تعدّيه بالباء فإن التزويج بمعنى النكاح بالعقد متعدّ بنفسها ، قال تعالى : « زوّجناكها » الأحزاب : ٣٧ ، كذا قيل .

قوله تعالى : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء » الخ ، قيل : الفرق بين الاتباع واللحوق مع اعتبار التقدم والتأخر فيهما جميعاً أنه يعتبر في الاتباع اشتراك بين التابع والمتبوع في مورد الاتباع بخلاف اللحوق فاللاحق لا يشارك الملحوق في ما لحق به فيه .

ولات وألات بمعنى نقص فمعنى ما ألتناهم ما نقصناهم شيئاً من عملهم بالإلحاق .

وظاهر الآية أنها في مقام الامتنان فهو سبحانه يمتنّ على الذين آمنوا أنه سيلحق بهم ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان فتقرّ بذلك أعينهم ، وهذا هو القرينة على أن التنوين في « إيمان » للتنكير دون التعظيم .

والمعنى : اتبعوهم بنوع من الإيمان وإن قصر عن درجة إيمان آبائهم إذ لا امتنان لو كان إيمانهم أكمل من إيمان آبائهم أو مساوياً له .

وإطلاق الاتباع في الإيمان منصرف إلى اتباع من يصح منه في نفسه الإيمان ببلوغه حداً يكلف به فالمراد بالذرية الأولاد الكبار المكلفون بالإيمان فالآية لا تشمل الأولاد الصغار الذين ماتوا قبل البلوغ ، ولا ينافي ذلك كون صغار أولاد المؤمنين محكومين بالإيمان شرعاً .

اللهم إلا أن يستفاد العموم من تنكير الإيمان ويكون المعنى : واتبعتهم ذريتهم بإيمان مّا سواء كان إيماناً في نفسه أو إيماناً بحسب حكم الشرع .

وكذا الامتنان قرينة على أن الضمير في قوله : « وما ألتناهم من عملهم من شيء » للذين آمنوا كالضميرين في قوله : « واتبعتهم ذريتهم » إذ قوله : « وما ألتناهم من عملهم من شيء » مسوق حينئذ لدفع توهم ورود النقص في الثواب على تقرير الإلحاق وهو ينافي

الامتنان ومن المعلوم أن الذي ينافي الامتنان هو النقص في ثواب الآباء الملحق بهم دون الذرية .

فتحصّل أن قوله : « والذين آمنوا » الخ ، استئناف يمتنّ تعالى فيه على الذين آمنوا بأنه سيلحق بهم أولادهم الذين اتبعوهم بنوع من الإيمان وإن كان قاصراً عن درجة إيمانهم لتقرّ به أعينهم ، ولا ينقص مع ذلك من ثواب عمل الآباء بالإلحاق شيء بل يؤتيهم مثل ما آتاهم أو بنحو لا تزاحم فيه على ما هو أعلم به .

وفي معنى الآية أقوال أخر لا تخلو من سخافة كقول بعضهم إن قوله : « والذين آمنوا » معطوف على « حور عين » والمعنى : وزوجناهم بحور عين وبالذين آمنوا يتمتعون من الحور العين بالنكاح وبالذين آمنوا بالرفاقة والصحبة ، وقول بعضهم : إن المراد بالذرية صغار الأولاد فقط ، وقول بعضهم : إن الضميرين في « وما ألتناهم من عملهم من شيء » للذرية والمعنى: وما نقصنا الذرية من عملهم شيئاً بسبب إلحاقهم بآبائهم بل نوفيهم أعمالهم من خير أو شر ثم نلحقهم بآبائهم .

وقوله : « كل امرىء بما كسب رهين » تعليل لقوله : « وما ألتناهم من عملهم من شيء » على ما يفيده السياق ، والرهن والرهين والمرهون ما يوضع وثيقة للدين على ما ذكره الراغب قال : ولما كان الرهن يتصوّر منه حبسه استعير ذلك لحبس أي شيء كان . انتهى .

ولعل هذا المعنى الاستعاري هو المراد في الآية والمرء رهن مقبوض ومحفوظ عند الله سبحانه بما كسبه من خير أو شر حتى يوفيه جزاء ما عمله من ثواب أو عقاب فلو نقص شيئاً من عمله ولم يوفه ذلك لم يكن رهين ما كسب بل رهين بعض ما عمل وامتلك بعضه الآخر غيره كذريته الملحقين به .

وأما قوله تعالى : « كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين » المدثر : ٣٩ ، فالمراد كونها رهينة العذاب يوم القيامة كما يشهد به سياق ما بعده من قوله : « في جنات يتساءلون عن المجرمين » المدثر : ٤١ .

وقيل : المراد كون المرء رهين عمله السيء كما تدل عليه آية سورة المدثر المذكورة آنفاً بشهادة استثناء أصحاب اليمين ، والآية أعني قوله : « كل امرىء بما كسب رهين » جملة معترضة من صفات أهل النار اعترضت في صفات أهل الجنة .

وحمل صاحب الكشاف الآية على نوع من الاستعارة فرفع به التنافي بين الآيتين قال : كأن نفس العبد رهن عند الله بالعمل الصالح الذي هو مطالب به كما يرهن الرجل عبده بدين عليه فإن عمل صالحاً فكها وخلصها وإلا أوبقها . انتهى .

وأنت خبير بأن مجرد ما ذكره لا يوجه اتصال الجملة أعني قوله : « كل امرىء بما كسب رهين » بما قبلها .

قوله تعالى : وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون » بيان لبعض تمتاتهم وتمتعاتهم في الجنة المذكورة إجمالاً في قوله السابق : « كلوا واشربوا هنيئاً » الخ .

والإمداد الإتيان بالشيء وقتاً بعد وقت ويستعمل في الخير كما أن المد يستعمل في الشر قال تعالى : « ونمد له من العذاب مداً » مريم : ٧٩ .

والمعنى : انا نرزقهم بالفاكهة وما يشتهونه من اللحم رزقاً بعد رزق ووقتاً بعد وقت من غير انقطاع .

قوله تعالى : « يتنازعون فيها كاساً لا لغو فيها ولا تأثيم » التنازع في الكأس تعاطيها والاجتماع على تناولها، والكأس القدح ولا يطلق الكأس إلا فيما كان فيها الشراب.

والمراد باللغو لغو القول الذي يصدر من شاربي الخمر في الدنيا ، والتأثيم جعل الشخص ذا إثم وهو أيضاً من آثار الخمر في الدنيا ، ونفي اللغو والتأثيم هو القرينة على أن المراد بالكأس التي يتنازعون فيها كأس الخمر .

قوله تعالى : « ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون » المراد به طوافهم عليهم للخدمة قال بعضهم : قيل : « غلمان لهم » بالتنكير ولم يقل : غلمانهم لئلا يتوهم أن المراد بهم غلمانهم الذين كانوا يخدمونهم في الدنيا فهم كالحور من مخلوقات الجنة كأنهم لؤلؤ مكنون مخزون في الحسن والصباحة والصفا .

قوله تعالى : « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » أي يسأل كل منهم غيره عن حاله في الدنيا وما الذي ساقه إلى الجنة والنعم ؟

قوله تعالى : « قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين » قال الراغب: والإشفاق عناية مختلطة بخوف لأن المشفق يحب المشفق عليه ويخاف ما يلحقه قال تعالى : « وهم من الساعة

مشفقون » فإذا عدي بمن فمعنى الخوف فيه أظهر ، وإذا عدي بفي فمعنى العناية فيه أظهر قال تعالى : « إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين » ، انتهى .

فالمعنى: إنا كنا في الدنيا ذوي إشفاق في أهلنا نعتني بسعادتهم ونجاتهم من مهلكة الضلال فنعاشرهم بجميل المعاشرة ونسير فيهم ببث النصيحة والدعوة إلى الحق .

قوله تعالى : « فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم » المن على ما ذكره الراغب الإنعام بالنعمة الثقيلة ويكون بالفعل وهو حسن ، وبالقول وهو قبيح من غيره تعالى ، قال تعالى : « يمنّون عليك أن أسلموا قل لا تمنّوا عليّ إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين » الحجرات : ١٧ .

ومنّه تعالى على أهل الجنة إسعاده إياهم لدخولها بالرحمة وتمامه بوقايتهم عذاب السموم .

والسموم – على ما ذكره الطبرسي – الحر الذي يدخل في مسامّ البدن يتألم به ومنه ريح السموم .

قوله تعالى : « إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البرّ الرحيم » تعليل لقوله : « فمنّ الله علينا » الخ ، كما أن قوله : « إنه هو البرّ الرحيم » تعليل له .

وتفيد هذه الآية مع الآيتين قبلها أن هؤلاء كانوا في الدنيا يدعون الله بتوحيده للعبادة والتسليم لأمره وكانوا مشفقين في أهلهم يقرّبونهم من الحق ويجنّبونهم الباطل فكان ذلك سبباً لمنّ الله عليهم بالجنة ووقايتهم من عذاب السموم ، وإنما كان ذلك سبباً لذلك لأنه تعالى برّ رحيم فيحسن لمن دعاه ويرحمه .

فالآيات الثلاث في معنى قوله : « إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » العصر : ٣ .

والبر من أسماء الله تعالى الحسنى ، وهو من البر بمعنى الإحسان ، وفسّره بعضهم باللطيف .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن أبي بكر عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم » قال : فقال : قصرت الأبناء

عن عمل الآباء فألحقوا الأبناء بالآباء لتقرّ بذلك أعينهم .

أقول : ورواه أيضاً في التوحيد بإسناده إلى أبي بكر الحضرمي عنه عليه السلام .

وفي تفسير القمي حدثني أبي عن سليمان الديلمي عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال : إن أطفال شيعتنا من المؤمنين تربيهم فاطمة عليها السلام ، وقوله : « ألحقنا بهم ذريتهم » قال : يهدون إلى آبائهم يوم القيامة .

أقول : وروى في المجمع ذيل الحديث عنه عليه السلام مرسلاً .

وفي التوحيد بإسناده عن أبي بصير قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : إذا مات الطفل من أطفال المؤمنين نادى منادٍ في ملكوت السماوات والأرض ألا إن فلان بن فلان قد مات فإن كان قد مات والداه أو أحدهما أو بعض أهل بيته من المؤمنين دفع اليه يغذوه ، وإلا دفع إلى فاطمة تغذوه حتى يقدم أبواه أو أحدهما أو بعض أهل بيته من المؤمنين فيدفعه اليه .

وفي الفقيه: وفي رواية الحسن بن محبوب عن علي عن الحلبي عن أبي عبدالله عليه السلام قال : إن الله تبارك وتعالى كفّل إبراهيم وسارة أطفال المؤمنين يغذوانهم بشجرة في الجنة لها أخلاف كأخلاف البقر في قصر من درّة فإذا كان يوم القيامة ألبسوا وطُيّبوا وأهدوا إلى آبائهم فهم ملوك في الجنة مع آبائهم ، وهذا قول الله تعالى : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم » .

وفي المجمع روى زاذان عن علي عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن المؤمنين وأولادهم في الجنة ، ثم قرأ هذه الآية .

وفي الدر المنثور أخرج البزار وابن مردويه عن ابن عباس رفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن الله يرفع ذرية المؤمن اليه في درجته وإن كانوا دونه في العمل ثم قرأ « والذين آمنوا واتبعتهم ذرياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء » قال : وما نقصنا الآباء بما أعطينا الأبناء .

وفيه أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وذريته وولده فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك فيقول: يا رب قد عملت لي ولهم فيؤمر بإلحاقهم به وقرأ ابن عباس : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان » الآية .

أقول : والآية لا تشمل الآباء المذكورين في الحديث ، والأنسب للدلالة عليه ما ذكره تعالى في دعاء الملائكة « ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم » الآية المؤمن : ٨ .

وفي تفسير القمي قوله : « لا لغو فيها ولا تأثيم » قال : ليس في الجنة غناء ولا فحش ، ويشرب المؤمن ولا يأثم « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » قال : في الجنة .

* * *

فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ـــ ٢٩ . أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ـــ ٣٠ . قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ـــ ٣١ . أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ـــ ٣٢ . أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَا يُؤْمِنُونَ ـــ ٣٣ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ـــ ٣٤ . أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ـــ ٣٥ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ ـــ ٣٦ . أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ـــ ٣٧ . أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ـــ ٣٨ . أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ـــ ٣٩ . أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِن مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ـــ ٤٠ . أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ـــ ٤١ . أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ـــ ٤٢ . أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا

يُشْرِكُونَ ــ ٤٣ . وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ــ ٤٤ .

(بيان)

لما أخبر عن العذاب الواقع يوم القيامة وأنه سيصيب المكذبين،والمتقون في جنات ونعيم قريرة العيون أمر النبي ﷺ أن يمضي في دعوته وتذكرته مشيراً إلى أنه صالح لإقامة الدعوة الحقة ، ولا عذر لهؤلاء المكذبين في تكذيبه ورد دعوته .

فنفى جميع الأعذار المتصورة لهم وهي ستة عشر أمراً شطر منها راجع إلى النبي ﷺ لو تحقق شيء منه فيه سلب صلاحيته للاتباع وكان مانعاً عن قبول قوله ككونه كاهناً أو مجنوناً أو شاعراً أو متقولاً مفترياً على الله وكسؤاله الأجر على دعوته وشطر منها راجع إلى المكذبين أنفسهم مثل كونهم خلقوا من غير شيء أو كونهم الخالقين أو أمر عقولهم بالتكذيب إلى غير ذلك ولا تخلو الآيات مع ذلك عن توبيخهم الشديد على التكذيب .

قوله تعالى : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون » تفريع على ما مرّ من الإخبار المؤكد بوقوع العذاب الإلهي يوم القيامة ، وأنه سيغشى المكذبين والمتقون في وقاية منه متلذذون بنعيم الجنة .

فالآية في معنى أن يقال: إذا كان هذا حقاً فذكر فإنما تذكر وتنذر بالحق وليست كما يرمونك كاهناً أو مجنوناً .

وتقييد النفي بـ : « بنعمة ربك » يفيد معنى الامتنان على النبي ﷺ خاصة وليس هذا الامتنان الخاص من جهة مجرد انتفاء الكهانة والجنون فأكثر الناس على هذه الصفة بل من وجهة تلبسه ﷺ بالنعمة الخاصة به المانع من عروض هذه الصفات عليه من كهانة أو جنون وغير ذلك .

قوله تعالى : « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون » أم منقطعة ، والتربص

الانتظار، وفي مجمع البيان : التربص الانتظار بالشيء من انقلاب حال له إلى خلافها والمنون المنية والموت ، والريب القلق والاضطراب . فريب المنون قلق الموت .

ومحصل المعنى : بل يقولون هو أي النبي ﷺ شاعر ننتظر به الموت حتى يموت ويخمد ذكره وينسى رسمه فنستريح منه .

قوله تعالى : « قل تربصوا فإني معكم من المتربصين » أمر النبي ﷺ أن يأمرهم بالتربص كما رضوا لأنفسهم ذلك ، وهو أمر تهديدي أي تربصوا كما ترون لأنفسكم ذلك فإن هناك أمراً من حقه أن ينتظر وقوعه ، وأنا أنتظره مثلكم لكنه عليكم لا لكم وهو هلاككم ووقوع العذاب عليكم .

قوله تعالى : « أم تأمرهم أحلامهم بهذا » الأحلام جمع حلم وهو العقل ، وأم منقطعة والكلام بتقدير الاستفهام والإشارة بهذا إلى ما يقولونه للنبي صلى الله عليه وآله ويتربصون به .

والمعنى : بل أتأمرهم عقولهم أن يقولوا هذا الذي يقولونه ويتربصوا به الموت ؟ فأي عقل يدفع الحق بمثل هذه الأباطيل ؟

قوله تعالى : « بل هم قوم طاغون » أي أن عقولهم لم تأمرهم بهذا بل هم طاغون حملهم على هذا طغيانهم .

قوله تعالى : « أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون » قال في المجمع : التقول تكلف القول ولا يقال ذلك إلا في الكذب ، والمعنى بل يقولون : افتعل القرآن ونسبه إلى الله كذباً وافتراء . لا بل لا يؤمنون فيرمونه بهذه الفرية .

قوله تعالى : « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » جواب عن قولهم : «تقوله» بأنه لو كان كلاماً للنبي ﷺ كان كلاماً بشرياً مماثلاً لسائر الكلام ويماثله سائر الكلام فكان يمكنهم أن يأتوا بحديث مثله فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين في دعواهم التقول بل هو كلام إلهي لائحة عليه دلائل الإعجاز يعجز البشر عن إتيان مثله ، وقد تقدم الكلام في وجوه إعجاز القرآن في تفسير سورة البقرة الآية ٢٣ تفصيلاً .

ويمكن أن تؤخذ الآية رداً لجميع ما تقدم من قولهم المحكي أنه كاهن أو مجنون أو

شاعر أو متقول لأن عجز البشر عن الإتيان بمثله يأبى إلا أن يكون كلام الله سبحانه لكن الأظهر ما تقدم .

قوله تعالى : « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون » إتيان « شيء » منكراً بتقدير صفة تناسب المقام والتقدير من غير شيء خلق منه غيرهم من البشر .

والمعنى : بل أخلق هؤلاء المكذبون من غير شيء خلق منه غيرهم من البشر فصلح لإرسال الرسول والدعوة إلى الحق والتلبس بعبوديته تعالى فهؤلاء لا يتعلق بهم تكليف ولا يتوجه اليهم أمر ولا نهي ولا تستتبع أعمالهم ثواباً ولا عقاباً لكونهم مخلوقين من غير ما خلق منه غيرهم .

وفي معنى الجملة أقوال أخر .

فقيل : المراد أم أحدثوا وقدروا هذا التقدير البديع من غير مقدر وخالق فلا حاجة لهم إلى خالق يدبر أمرهم .

وقيل : المراد أم خلقوا من غير شيء حي فهم لا يؤمرون ولا ينهون كالجمادات .

وقيل : المعنى أم خلقوا من غير علة ولا لغاية ثواب وعقاب فهم لذلك لا يسمعون.

وقيل : المعنى أم خلقوا باطلاً لا يحاسبون ولا يؤمرون ولا ينهون .

وما قدمناه من المعنى أقرب إلى لفظ الآية وأشمل .

وقوله : « أم هم الخالقون » أي لأنفسهم فليسوا مخلوقين لله سبحانه حتى يربهم ويدبر أمرهم بالأمر والنهي .

قوله تعالى : « أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون » أي أم أخلقوا العالم حتى يكونوا أرباباً آلهة ويجلوا من أن يستعبدوا ويكلفوا بتكليف العبودية بل هم قوم لا يوقنون .

قوله تعالى : «أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون» أي بل أعندهم خزائن ربك حتى يرزقوا النبوة من شاؤا ويمسكوها عمن شاؤا فيمنعوك النبوة والرسالة .

وقوله : « أم هم المصيطرون » المسيطرة — وربما يقلب سينها صاداً — الغلبة والقهر والمعنى : بل أهم الغالبون القاهرون على الله سبحانه حتى يسلبوا عنك ما رزقك الله من النبوة والرسالة .

قوله تعالى : « أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين » السلم المرقاة ذات الدرج التي يتوسل بالصعود فيه إلى الأمكنة العالية ، والاستماع مضمن معنى الصعود ، والسلطان الحجة والبرهان .

والمعنى : بل أعندهم سلم يصعدون فيه إلى السماء فيستمعون بالصعود فيه الوحي فيأخذون ما يوحى اليهم ويردّون غيره ؟ فليأت مستمعهم أي المدعي للاستماع منهم بحجة ظاهرة .

قوله تعالى : « أم له البنات ولكم البنون » قيل : فيه تسفيه لعقولهم حيث نسبوا اليه تعالى ما أنفوا منه .

قوله تعالى : « أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون » قال الراغب : الغرم – بالضم فالسكون – ما ينوب الإنسان في ماله من ضرر لغير جناية منه أو خيانة انتهى والإثقال تحميل الثقل وهو كناية عن المشقة .

والمعنى : بل أتسألهم أجراً على تبليغ رسالتك فهم يتحرجون عن تحمل الغرم الذي ينوبهم بتأدية الأجر ؟

قوله تعالى : « أم عندهم الغيب فهم يكتبون » ذكر بعضهم أن المراد بالغيب اللوح المحفوظ المكتوب فيه الغيوب والمعنى : بل أعندهم اللوح المحفوظ يكتبون منه ويخبرون به الناس فما أخبروا به عنك من الغيب الذي لا ريب فيه .

وقيل : المراد بالغيب علم الغيب ، وبالكتابة الإثبات والمعنى : بل أعندهم علم الغيب فهم يثبتون ما علموه شرعاً للناس عليهم أن يطيعوهم فيما أثبتوا ، وقيل : يكتبون بمعنى يحكمون .

قوله تعالى : « أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون » الكيد ضرب من الاحتيال على ما ذكره الراغب ، وفي المجمع : الكيد هو المكر ، وقيل : هو فعل ما يوجب الغيظ في خفية . انتهى .

ظاهر السياق أن المراد بكيدهم هو مكرهم بالنبي ﷺ بما رموه به من الكهانة والجنون والشعر والتقول ليعرض عنه الناس ويبتعدوا عنه فتبطل بذلك دعوته وينطفىء نوره ، وهذا كيد منهم ومكر بأنفسهم حيث يحرمون لها السعادة الخالدة والركوب على

صراط الحق بذلك بل كيد من الله بقطع التوفيق عنهم والصبع على قلوبهم .

وقيل: المراد بالكيد الذي يريدونه هو ما كان منهم في حقه ﷺ في دار الندوة والمراد بالذين كفروا المذكورون من المكذبين وهم أصحاب دار الندوة ، وقد قلب الله كيدهم إلى أنفسهم فقتلهم يوم بدر ، والكلام على هذا من الإخبار بالغيب لنزول السورة قبل ذلك بكثير ، وهو بعيد من السياق .

قوله تعالى : « أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون » فإنهم إذا كان لهم إله غير الله كان هو الخالق لهم والمدبر لأمرهم فاستغنوا بذلك عن الله سبحانه واستجابة دعوة رسوله ونصرهم إلههم ودفع عنهم عذاب الله الذي أوعد به المكذبين وأنذرهم به رسوله .

وقوله : « سبحان الله عما يشركون » تنزيه له تعالى أن يكون له شريك كما يدّعون ، وما في قوله : « عما يشركون » مصدرية أي سبحانه عن شركهم .

قوله تعالى : « وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم » الكسف بالكسر فالسكون القطعة ، والمركوم المتراكم الواقع بعضه على بعض .

والمعنى : أن كفرهم وإصرارهم على تكذيب الدعوة الحقة بلغ إلى حيث لو رأوا قطعة من السماء ساقطاً عليهم لقالوا سحاب متراكم ليست من آية العذاب في شيء فهو كقوله : « ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا» الحجر : ١٥ .

* * *

فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ـ ٤٥ . يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ـ ٤٦ . وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ـ ٤٧ . وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ـ ٤٨ . وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ ـ ٤٩ .

(بيان)

الآيات تختم السورة وتأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يترك أولئك المكذبين وشأنهم ولا يتعرض لحالهم ، وأن يصبر لحكم ربه ويسبح بحمده ، وفي خلالها مع ذلك تكرار إيعادهم بما أوعدهم به في أول السورة من عذاب واقع ليس له من دافع ، وتضيف اليه الإيعاد بعذاب آخر دون ذلك للذين ظلموا .

قوله تعالى : « فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون » : ذرهم » أمر بمعنى اتركهم وهو فعل لم يستعمل من تصريفاته إلا المستقبل والأمر ، و « يصعقون » من الإصعاق بمعنى الإماتة وقيل : من الصعق بمعنى الإماتة .

لما أنذر سبحانه المكذبين لدعوته بعذاب واقع لا ريب فيه ثم رد جميع ما تعلل به أو يفرض أن يتعلل به أولئك المكذبون ، وذكر أنهم في الإصرار على الباطل بحيث لو عاينوا أوضح آية للحق أوّلوه وردّوه ، أمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يتركهم وشأنهم ، وهو تهديد كنائي بشمول العذاب لهم وحالهم هذه الحال .

والمراد باليوم الذي فيه يصعقون يوم نفخ الصور الذي يصعق فيه من في السماوات والأرض وهو من أشراط الساعة قال تعالى : « ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض » الزمر : ٦٨ .

ويؤيد هذا المعنى قوله في الآية التالية : « يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون » فإن انتفاء إغناء الكيد والنصر من خواص يوم القيامة الذي يسقط فيه عامة الأسباب والأمر يومئذ لله .

واستشكل بأنه لا يصعق يوم النفخ إلا من كان حياً وهؤلاء ليسوا بأحياء يومئذ والجواب أنه يصعق فيه جميع من في الدنيا من الأحياء ومن في البرزخ من الأموات وهؤلاء إن لم يكونوا في الدنيا ففي البرزخ .

على أنه يمكن أن يكون ضمير « يصعقون » راجعاً إلى الأحياء يومئذ ، والتهديد إنما هو بالعذاب الواقع في هذا اليوم لا بالصعقة التي فيه .

وقيل : المراد به يوم بدر وهو بعيد ، وقيل : المراد به يوم الموت ، وفيه أنه لا

يلائم السياق الظاهر في التهديد بما وقع في أول السورة وهو عذاب يوم القيامة لا عذاب يوم الموت .

قوله تعالى : « وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون » لا يبعد أن يكون المراد به عذاب القبر ، وقوله : « ولكن أكثرهم لا يعلمون » مشعر بأن فيهم من يعلم ذلك لكنه يصرّ على كفره وتكذيبه عناداً وقيل : المراد به يوم بدر لكن ذيل الآية لا يلائمه تلك الملاءمة .

قوله تعالى : « فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا » عطف على قوله : « فذرهم » وظاهر السياق أن المراد بالحكم حكمه تعالى في المكذبين بالإمهال والإملاء والطبع على قلوبهم ، وفي النبي ﷺ أن يدعو إلى الحق بما فيه من الأذى في جنب الله فالمراد بقوله : « فإنك بأعيننا » أنك بمرئى منا نراك بحيث لا يخفى علينا شيء من حالك ولا نغفل عنك ففي تعليل الصبر بهذه الجملة تأكيد للأمر بالصبر وتشديد للخطاب .

وقيل : المراد بقوله : « فإنك بأعيننا » أنك في حفظنا وحراستنا فالعين مجاز عن الحفظ ، ولعل المعنى المتقدم أنسب للسياق .

قوله تعالى : « وسبّح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبّحه وإدبار النجوم » الباء في « بحمد » للمصاحبة أي سبح ربك ونزهه حال كونه مقارناً لحمده .

والمراد بقوله : « حين تقوم » قيل هو القيام من النوم ، وقيل : هو القيام من القائلة ، فهو صلاة الظهر ، وقيل : هو القيام من المجلس ، وقيل : هو كل قيام ، وقيل : هو القيام إلى الفريضة وقيل : هو القيام إلى كل صلاة ، وقيل : هو الركعتان قبل فريضة الصبح سبعة أقوال كما ذكره الطبرسي .

وقوله : « ومن الليل فسبحه » أي من الليل فسبح ربك فيه ، والمراد به صلاة الليل ، وقيل : المراد صلاتا المغرب والعشاء الآخرة .

وقوله : « وإدبار النجوم » قيل : المراد به وقت إدبار النجوم وهو اختفاؤها بضوء الصبح ، وهو الركعتان قبل فريضة الصبح ، وقيل : المراد فريضة الصبح ، وقيل : المراد تسبيحه تعالى صباحاً ومساء من غير غفلة عن ذكره .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « وسبح بحمد ربك حين تقوم » قال : لصلاة الليل « فسبحه » قال : صلاة الليل .

أقول : وروى هذا المعنى في مجمع البيان عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام .

وفيه بإسناده عن الرضا عليه‌السلام قال : ادبار السجود أربع ركعات بعد المغرب وإدبار النجوم ركعتان قبل صلاة الصبح .

أقول : وروى ذيله في المجمع عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام ، والقمي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه‌السلام .

وقد ورد من طرق أهل السنة في عدة من الروايات أن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كان إذا قام من مجلسه سبّح الله وحمده ويقول : إنه كفارة المجلس لكنها غير ظاهرة في كونها تفسيراً للآية .

* * *

(سورة النجم مكية ، وهي اثنان وستون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ــ ١ . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ــ ٢ . وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ــ ٣ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ــ ٤ . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ــ ٥ . ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ــ ٦ . وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ــ ٧ . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ــ ٨ . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ــ ٩ . فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ــ ١٠ . مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ

مَا رَأَىٰ ــ ١١ . أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ــ ١٢ . وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً
أُخْرَىٰ ــ ١٣ . عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ــ ١٤ . عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ــ ١٥ .
إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ــ ١٦ . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ــ ١٧ .
لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ــ ١٨ .

(بيان)

غرض السورة تذكير الاصول الثلاثة : وحدانيته تعالى في ربوبيته والمعاد والنبوة فتبدأ بالنبوة فتصدق الوحي إلى النبي ﷺ وتصفه ثم تتعرض للوحدانية فتنفي الأوثان والشركاء أبلغ النفي ثم تصف انتهاء الخلق والتدبير اليه تعالى من إحياء وإماتة وإضحاك وإبكاء وإغناء وإقناء وإهلاك وتعذيب ودعوة وإنذار ، وتختم الكلام بالإشارة إلى المعاد والأمر بالسجدة والعبادة .

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها ولا يصغى إلى قول بعضهم بكون بعض آياتها أو كلها مدنية ، وقد قيل : إنها أول سورة أعلن النبي ﷺ بقراءتها فقرأها على المؤمنين والمشركين جميعاً ، ومن غرر الآيات فيها قوله تعالى : « وأنّ إلى ربك المنتهى » وقوله : « وأن ليس للانسان إلا ما سعى » .

ومـا أوردناه من الآيات هي الفصل الأول من فصول السورة الثلاثة وهي الآيات اللاتي تصدق الوحي إلى النبي ﷺ وتصفه ، لكن هناك روايات مستفيضة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ناصّة على أن المراد بالآيات ليس بيان صفة كل وحي بل بيان وحي المشافهة الذي أوحاه الله سبحانه إلى نبيه ﷺ ليلة المعراج فالآيات متضمنة لقصة المعراج وظاهر الآيات لا يخلو من تأييد لهذه الروايات وهو المستفاد أيضاً من أقوال بعض الصحابة كابن عباس وأنس وأبي سعيد الخدري وغيرهم على ما روي عنهم وعلى ذلك جرى كلام المفسرين وإن اشتد الخلاف بينهم في تفسير مفرداتها وجملها .

قوله تعالى : « والنجم إذا هوى » ظاهر الآية أن المراد بالنجم هو مطلق الجرم

السماوي المضيء وقد أقسم الله في كتابه بكثير من خلقه ومنها عدة من الأجرام السماوية كالشمس والقمر وسائر السيارات ، وعلى هذا فالمراد بهوي النجم سقوطه للغروب .

وقيل : المراد بالنجم القرآن لنزوله نجوماً ، وقيل : الثريا ، وقيل : الشعرى ، وقيل : الشهاب الذي يرمى به شياطين الجن لأن العرب تسميه نجماً ، وللهوي ما يناسب لكل من هذه الأقوال من المعنى ، لكن لفظ الآية لا يساعد على شيء من هذه المعاني .

قوله تعالى : « ما ضل صاحبكم وما غوى » الضلال الخروج والانحراف عن الصراط المستقيم ، والغي خلاف الرشد الذي هو إصابة الواقع ، قال الراغب : الغي جهل من اعتقاد فاسد ، وذلك أن الجهل قد يكون من كون الإنسان غير معتقد اعتقاداً لا صالحاً ولا فاسداً ، وقد يكون من اعتقاد شيء فاسد ، وهذا النحو الثاني يقال له غي ، قال تعالى : « ما ضل صاحبكم وما غوى » . انتهى . والمراد بالصاحب هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

والمعنى : ما خرج صاحبكم عن الطريق الموصل إلى الغاية المطلوبة ولا أخطأ في اعتقاده ورأيه فيها ، ويرجع المعنى إلى أنه لم يخطىء لا في الغاية المطلوبة التي هي السعادة الإنسانية وهو عبوديته تعالى ، ولا في طريقها التي تنتهي اليها .

قوله تعالى : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى » المراد بالهوى هوى النفس ورأيها ، والنطق وإن كان مطلقاً ورد عليه النفي وكان مقتضاه نفي الهوى عن مطلق نطقه صلى الله عليه وآله وسلم لكنه لما كان خطاباً للمشركين وهم يرمونه في دعوته وما يتلو عليهم من القرآن بأنه كاذب متقول مفتر على الله سبحانه كان المراد بقرينة المقام أنه صلى الله عليه وآله وسلم ما ينطق فيما يدعوكم إلى الله أو فيما يتلوه عليكم من القرآن عن هوى نفسه ورأيه بل ليس ذلك إلا وحياً يوحى اليه من الله سبحانه .

قوله تعالى : « علمه شديد القوى » ضمير « علمه » للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أو للقرآن بما هو وحي أو لمطلق الوحي والمفعول الآخر لعلمه محذوف على أي حال والتقدير علم النبي الوحي أو علم القرآن أو الوحي إياه .

والمراد بشديد القوى — على ما قالوا — جبريل وقد وصفه الله بالقوة في قوله : « ذي قوة عند ذي العرش مكين » التكوير : ٢٠ ، وقيل : المراد به هو الله سبحانه .

قوله تعالى : « ذو مرة فاستوى » المرة بكسر الميم الشدة ، وحصافة العقل

والرأي ، وبناء نوع من المرور وقد فسرت المرة في الآية بكل من المعاني الثلاثة مع القول بأن المراد بذي مرة جبريل ، والمعنى : هو أي جبريل ذو شدة في جنب الله أو هو ذو حصافة في عقله ورأيه ، أو هو ذو نوع من المرور بالنبي ﷺ وهو في الهواء.

وقيل : المراد بذو مرة النبي ﷺ فهو ذو شدة في جنب الله أو ذو حصافة في عقله ورأيه أو ذو نوع من المرور عرج فيه إلى السماوات .

وقوله : « فاستوى » بمعنى استقام أو استولى وضمير الفاعل راجع إلى جبريل والمعنى : فاستقام جبريل على صورته الأصلية التي خلق عليها على ما روي أن جبريل كان ينزل على النبي ﷺ في صور مختلفة ، وإنما ظهر له في صورته الأصلية مرتين أو المعنى : فاستولى جبريل بقوته على ما جعل له من الأمر .

وإن كان الضمير للنبي ﷺ فالمعنى فاستقام واستقر .

قوله تعالى : « وهو بالافق الأعلى » الافق الناحية قيل: المراد بالافق الأعلى ناحية الشرق من السماء لأن أفق المشرق فوق المغرب في صعيد الأرض لا في الهواء وهو كما ترى والظاهر أن المراد به أفق أعلى من السماء من غير لعتبار كونه أفقاً شرقياً .

وضمير هو في الآية راجع إلى جبريل أو إلى النبي ﷺ ، والجملة حال من ضمير « استوى » .

قوله تعالى : « ثم دنا فتدلى » الدنوّ القرب ، والتدلي التعلق بالشيء ويكنى به عن شدة القرب ، وقيل : الإمتداد إلى جهة السفل مأخوذ من الدلو .

والمعنى : على تقدير رجوع الضميرين لجبريل : ثم قرب جبريل فتعلق بالنبي ﷺ ليعرج به إلى السماوات ، وقيل : ثم تدلى جبريل من الافق الأعلى فدنا من النبي ﷺ ليعرج به .

والمعنى : على تقدير رجوع الضميرين إلى النبي ﷺ : ثم قرب النبي من الله سبحانه وزاد في القرب .

قوله تعالى : « فكان قاب قوسين أو أدنى » قال في المجمع: القاب والقيب والقاد والقيد عبارة عن مقدار الشيء انتهى . والقوس معروفة وهي آلة الرمي ، ويقال قوس على الذراع في لغة أهل الحجاز على ما قيل .

والمعنى : فكان البعد قدر قوسين أو قدر ذراعين أو أقرب من ذلك .

وقيل : القاب ما بين مقبض القوس وسيتها ففي الكلام قلب والمعنى: فكان قابي قوس ، واعترض عليه بأن قابي قوس وقاب قوسين واحد فلا موجب للقلب .

قوله تعالى : « فأوحى إلى عبده ما أوحى » ضمير أوحى في الموضعين لجبريل على تقدير رجوع الضمائر السابقة إلى جبريل ، والمعنى : فأوحى جبريل إلى عبدالله وهو النبي ﷺ ما أوحى ، قيل : ولا ضير في رجوع الضمير اليه تعالى من عدم سبق الذكر لكونه في غاية الوضوح . أو الضمائر الثلاث لله والمعنى : فأوحى الله بتوسط جبريل إلى عبده ما أوحى أو الضمير الأول لجبريل والثاني والثالث لله والمعنى فأوحى جبريل ما أوحى الله اليه إلى عبد الله .

والضمائر الثلاث كلها لله على تقدير رجوع الضمائر السابقة إلى النبي ﷺ والمعنى : فأوحى الله إلى عبده ما أوحى ، وهذا المعنى أقرب إلى الذهن من المعنى السابق الذي لا يرتضيه الذوق السليم وإن كان صحيحاً .

قوله تعالى : « ما كذب الفؤاد ما رأى » الكذب خلاف الصدق يقال : كذب فلان في حديثه ، ويقال : كذبه الحديث بالتعدي إلى مفعولين أي حدثه كذباً والكذب كما يطلق على القول والحديث الذي يلفظه اللسان كذلك يطلق على خطاء القوة المدركة يقال : كذبته عينه أي أخطأت في رؤيتها .

ونفي الكذب عن الفؤاد إنما هو بهذا المعنى سواء أخذ الكذب لازماً والتقدير ما كذب الفؤاد فيما رأى أو متعدياً إلى مفعولين، والتقدير ما كذب الفؤاد – فؤاد النبي – النبي ما رآه أي إن رؤية فؤاده فيما رآه رؤية صادقة .

وعلى هذا فالمراد بالفؤاد فؤاد النبي ﷺ ، وضمير الفاعل في « ما رأى » راجع إلى الفؤاد والرؤية رؤيته .

ولا بدع في نسبة الرؤية وهي مشاهدة العيان إلى الفؤاد فإن للإنسان نوعاً من الإدراك الشهودي وراء الإدراك بإحدى الحواس الظاهرة والتخيل والتفكر بالقوى الباطنة كما أننا نشاهد من أنفسنا أننا نرى وليست هذه المشاهدة العيانية إبصاراً بالبصر ولا معلوماً بفكر ، وكذا نرى من أنفسنا أننا نسمع ونشم ونذوق ونلمس ونشاهد أننا

نتخيل ونتفكر وليست هذه الرؤية ببصر أو بشيء من الحواس الظاهرة أو الباطنة فإنا كما نشاهد مدركات كل واحدة من هذه القوى بنفس تلك القوة كذلك نشاهد إدراك كل منها لمدركها وليس هذه المشاهدة بنفس تلك القوة بل بأنفسنا المعبر عنها بالفؤاد .

وليس في الآية ما يدل على أن متعلق الرؤية هو الله سبحانه وأنه لمرئي له ﷺ بل المرئي هو الافق الأعلى والدنو والتدلي وأنه أوحي اليه فهذه هي المذكورة في الآيات السابقة وهي آيات له تعالى ، ويؤيد ذلك ما ذكره تعالى في النزلة الاخرى من قوله : « ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

على أنها لو دلّت على تعلق الرؤية به تعالى لم يكن به بأس فإنها رؤية القلب ورؤية القلب غير رؤية البصر الحسية التي تتعلق بالأجسام ويستحيل تعلقها به تعالى وقد قدمنا كلاماً في رؤية القلب في تفسير سورة الأعراف الآية ١٤٣ .

وما قيل: إن ضمير « ما رأى » للنبي ﷺ والمعنى: ما قال فؤاده ﷺ لما رآه ببصره لم أعرفك ولو قال ذلك لكان كاذباً لأنه عرفه بقلبه كما رآه ببصره ، ومحصله أن فؤاده صدق بصره فيما رآه .

وكذا ما قيل: إن المعنى أن فؤاده لم يكذب بصره فيما رآه بل صدقه واعتقد به ، ويؤيده قراءة من قرأ « ما كذّب » بتشديد الذال .

ففيه أن الذي يعطيه سياق الآيات تأييده تعالى صدق النبي ﷺ فيما يدّعيه من الوحي ورؤية آيات الله الكبرى ، ولو كان ضمير « ما رأى » للنبي ﷺ كان محصل معنى الآية الاحتجاج على صدق رؤيته باعتقاده ذلك بفؤاده وهو بعيد من دأب القرآن وهذا بخلاف ما لو رجع ضمير « ما رأى » إلى الفؤاد فإن محصل معناه تصديقه تعالى لفؤاده فيما رآه ويجري الكلام على السياق السابق الآخذ من قوله : « ما ضلّ صاحبكم وما غوى إن هو إلا وحي يوحى » الخ .

فان قلت : إنه تعالى يحتج في الآية التالية « أفتمارونه على ما يرى » برؤيته ﷺ على صدقه فيما يدّعيه فليكن مثله الاحتجاج باعتقاد فؤاده بما يراه بعينه .

قلت : ليس قوله : « أفتمارونه على ما يرى » مسوقاً للاحتجاج برؤيته على صدقه بل توبيخ على مماراتهم إياه ﷺ على أمر يراه ويبصره ومجادلتهم إياه فيه ، والمراءة والمجادلة

إنما تصح – لو صحت – في الآراء النظرية والاعتقادات الفكرية وأما فيما يرى ويشاهد عياناً فلا معنى للمماراة والمجادلة فيه ، وهو ﷺ إنما كان يخبرهم بما يشاهده عياناً لا عن فكر وتعقل .

قوله تعالى : « أفتمارونه على ما يرى » الاستفهام للتوبيخ والخطاب للمشركين والضمير للنبي ﷺ ، والمماراة الإصرار على المجادلة ، والمعنى : أفتصرون في جدالكم على النبي ﷺ أن يذعن بخلاف ما يدعيه ويخبركم به وهو يشاهد ذلك عياناً .

قوله تعالى: «ولقد رآه نزلة أخرى» النزلة بناء مرة من النزول فمعناه نزول واحد، وتدل الآية على أن هذه قصة رؤية في نزول آخر والآيات السابقة تقص نزولاً آخر غيره .

وقد قالوا : إن ضمير الفاعل المستكن في قوله «رآه» للنبي ﷺ ، وضمير المفعول لجبريل ، وعلى هذا فالنزلة نزول جبريل عليه ﷺ ليعرج به إلى السماوات ، وقوله: « عند سدرة المنتهى » ظرف للرؤية لا للنزلة ، والمراد برؤيته رؤيته وهو في صورته الأصلية .

والمعنى : أنه نزل عليه ﷺ نزلة اخرى وعرج به إلى السماوات وتراءى له ﷺ عند سدرة المنتهى وهو في صورته الأصلية .

وقد ظهر مما تقدم صحة إرجاع ضمير المفعول اليه تعالى والمراد بالرؤية رؤية القلب والمراد بنزلة اخرى نزلة النبي ﷺ عند سدرة المنتهى في عروجه إلى السماوات فالمفاد أنه ﷺ نزل نزلة اخرى أثناء معراجه عند سدرة المنتهى فرآه بقلبه كما رآه في النزلة الاولى.

قوله تعالى : « عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى » السدر شجر معروف والتاء للوحدة ، والمنتهى – كأنه – اسم مكان ولعل المراد به منتهى السماوات بدليل كون الجنة عندها والجنة في السماء ، قال تعالى : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » الذاريات : ٢٢ .

ولا يوجد في كلامه تعالى ما يفسر هذه الشجرة ، وكأن البناء على الإبهام كما يؤيده قوله بعد : « إذ يغشى السدرة ما يغشى » وقد فسّر في الروايات أيضاً بأنها شجرة فوق السماء السابعة اليها تنتهي أعمال بني آدم وستمر ببعض هذه الروايات .

وقوله : « عندها جنة المأوى » أي الجنة التي يأوي اليها المؤمنون وهي جنة الآخرة فإن جنة البرزخ جنة معجلة محدودة بالبعث ، قال تعالى : « فلهم جنات المأوى

نزلاً بما كانوا يعملون» السجدة: ١٩ ، وقوله: «فإذا جاءت الطامة الكبرى - إلى أن قال - فإن الجنة هي المأوى» النازعات: ٤١ وهي في السماء على ما يدل عليه قوله تعالى: «وفي السماء رزقكم وما توعدون» الذاريات: ٢٢ ، وقيل: المراد بها جنة البرزخ.

وقوله: «إذ يغشى السدرة ما يغشى» غشيان الشيء الإحاطة به ، و «ما» موصولة ، والمعنى: إذ يحيط بالسدرة ما يحيط بها ، وقد أبهم تعالى هذا الذي يغشى السدرة ولم يبين ما هو كما تقدمت الإشارة اليه.

قوله تعالى: «ما زاغ البصر وما طغى» الزيغ الميل عن الاستقامة ، والطغيان تجاوز الحد في العمل ، وزيغ البصر إدراكه المبصر على غير ما هو عليه ، وطغيانه إدراكه ما لا حقيقة له ، والمراد بالبصر بصر النبي ﷺ.

والمعنى: أنه ﷺ لم يبصر ما أبصره على غير صفته الحقيقية ولا أبصر ما لا حقيقة له بل أبصر غير خاطىء في إبصاره.

والمراد بالإبصار رؤيته ﷺ بقلبه لا بجارحة العين فإن المراد بهذا الإبصار ما يعنيه بقوله: «ولقد رآه نزلة اخرى» المشير إلى مماثلة هذه الرؤية لرؤية النزلة الاولى التي يشير اليها بقوله: «ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى» فافهم ولا تغفل.

قوله تعالى: «لقد رأى من آيات ربه الكبرى» «من» للتبعيض ، والمعنى: أقسم لقد شاهد بعض الآيات الكبرى لربه ، وبذلك تمّ مشاهدة ربه بقلبه فإن مشاهدته تعالى بالقلب إنما هي بمشاهدة آياته بما هي آياته فإن الآية بما هي آية لا تحكي إلا ذا الآية ولا تحكي عن نفسه شيئاً وإلا لم تكن من تلك الجهة آية.

وأما مشاهدة ذاته المتعالية من غير توسّط آية وتخلل حجاب فمن المستحيل ذلك قال تعالى: «ولا يحيطون به علماً» طه: ١١٠.

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى: «والنجم إذا هوى» قال: النجم رسول الله ﷺ «إذا هوى» لما أسري به إلى السماء وهو في الهويّ.

أقول : وروى تسميته صلى الله عليه وآله بالنجم بإسناده عن أبيه عن الحسين بن خالد عن الرضا عليه السلام ، وهو من البطن .

وفي الكافي عن القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن محمد بن مسلم قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام : قول الله عز وجل : « والليل إذا يغشى » « والنجم إذا هوى » وما أشبه ذلك ؟ قال : إن لله عز وجل أن يقسم من خلقه بما شاء ، وليس لخلقه أن يقسموا إلا به .

أقول : وفي الفقيه عن علي بن مهزيار عن أبي جعفر الثاني مثله .

وفي المجمع وروت العامة عن جعفر الصادق أنه قال: إن محمداً صلى الله عليه وآله نزل من السماء السابعة ليلة المعراج ولما نزلت السورة أخبر بذلك عتبة بن أبي لهب فجاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وطلّق ابنته وتفل في وجهه وقال : كفرت بالنجم ورب النجم ، فدعا صلى الله عليه وآله عليه وقال: اللهم سلّط عليه كلباً من كلابك .

فخرج عتبة إلى الشام فنزل في بعض الطريق وألقى الله عليه الرعب فقال لأصحابه أنيموني بينكم ليلاً ففعلوا فجاء أسد فافترسه من بين الناس .

أقول : ثم أورد الطبرسي شعر حسان في ذلك ، وروى في الدر المنثور القصة بطرق مختلفة .

وفي الكافي بإسناده إلى هشام وحماد وغيره قالوا : سمعنا أبا عبد الله عليه السلام يقول: حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدي وحديث جدي حديث الحسين وحديث الحسين حديث الحسن وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وحديث رسول الله صلى الله عليه وآله قول الله عز وجل .

وفي تفسير القمي بإسناده إلى ابن سنان في حديث : قال أبو عبدالله عليه السلام: وذلك أنه يعني النبي صلى الله عليه وآله أقرب الخلق إلى الله تعالى وكان بالمكان الذي قال له جبرئيل لما أسري به إلى السماء : تقدم يا محمد فقد وطأت موطناً لم يطأه ملك مقرّب ولا نبي مرسل ، ولولا أن روحه ونفسه كان من ذلك المكان لما قدر أن يبلغه ، وكان من الله عز وجل كما قال الله عز وجل : « قاب قوسين أو أدنى » أي بل أدنى .

وفي الاحتجاج عن علي بن الحسين عليه السلام في حديث طويل: أنا ابن من علا فاستعلى فجاز سدرة المنتهى فكان من ربه قاب قوسين أو أدنى .

أقول : وقد ورد هذا المعنى في كثير من روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام .

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : لما أسري بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم اقترب من ربه فكان قاب قوسين أو أدنى . قال : ألم ترَ إلى القوس ما أقربها من الوتر ؟

وفيه أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : « ثم دنا فتدلى » قال : هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم دنا فتدلى إلى ربه عز وجل .

وفي المجمع وروي مرفوعاً عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله: « فكان قاب قوسين أو أدنى » قال : قدر ذراعين أو أدنى من ذراعين .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: « فأوحى إلى عبده ما أوحى » قال: وحي مشافهة .

وفي التوحيد بإسناده إلى محمد بن الفضيل قال : سألت أبا الحسن عليه السلام هل رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ربه عز وجل ؟ فقال : نعم بقلبه رآه ، أما سمعت الله عز وجل يقول : « ما كذب الفؤاد ما رأى » ؟ لم يرَه بالبصر ولكن رآه بالفؤاد .

وفي الدر المنثور أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : قالوا : يا رسول الله هل رأيت ربك ؟ قال : لم أرَه بعيني ورأيته بفؤادي مرتين ثم تلا « ثم دنا فتدلى » .

أقول : وروى هذا المعنى النسائي عن أبي ذر – على ما في الدر المنثور – ولفظه رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ربه بقلبه ولم يرَه ببصره .

وعن صحيح مسلم والترمذي وابن مردويه عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : هل رأيت ربك ؟ فقال : نوراني أراه .

أقول : « نوراني » منسوب إلى النور على خلاف القياس كجسماني في النسبة إلى جسم ، وقرىء « نور إني أراه » بتنوين الراء وكسر الهمزة وتشديد النون ثم ياء المتكلم ، والظاهر أنه تصحيف وإن أيّد برواية اخرى عن مسلم في صحيحه وابن مردويه عن أبي ذر أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : هل رأيت ربك ؟ فقال : رأيت نوراً .

وكيف كان فالمراد بالرؤية رؤية القلب فلا الرؤية رؤية حسية ولا النور نور حسي .

وفي الكافي بإسناده عن صفوان بن يحيى قال: سألني أبو قرّة المحدث أن ادخله إلى

أبي الحسن الرضا عليه السلام فاستأذنته في ذلك فأذن لي فدخل عليه فسأله عن الحلال والحرام والأحكام . إلى قوله: قال أبو قرّة : فإنه يقول : «ولقد رآه نزلة اخرى» فقال أبو الحسن عليه السلام : إن بعد هذه الآية ما يدل على ما رأى حيث قال : «ما كذب الفؤاد ما رأى» يقول : ما كذب فؤاد محمد ما رأت عيناه ثم أخبر بما رأى فقال : «لقد رأى من آيات ربه الكبرى» وآيات الله غير الله .

أقول : الظاهر أن كلامه عليه السلام مسوق لإلزام أبي قرة حيث كان يريد إثبات رؤيته تعالى بالعين الحسية فألزمه بأن الرؤية إنما تعلقت بالآيات وآيات الله غير الله ولا ينافي ذلك كون رؤية الآيات بما هي آياته رؤيته وإن كانت آياته غيره ، وهذه الرؤية إنما كانت بالقلب كما مرّت عدة من الروايات في هذا المعنى .

وفي تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن هشام عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : انتهيت إلى سدرة المنتهى وإذا الورقة منها تظلّ امة من الامم فكنت من ربي كقاب قوسين أو أدنى .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد وابن جرير عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انتهيت إلى السدرة فإذا نبقها مثل الجراد ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تحوّلت ياقوتاً وزمرداً ونحو ذلك .

وفي تفسير القمي بإسناده إلى اسماعيل الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل: فلما انتهى به إلى سدرة المنتهى تخلّف عنه جبرئيل فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: في هذا الموضع تخذلني ؟ فقال : تقدّم أمامك فوالله لقد بلغت مبلغاً لم يبلغه أحد من خلق الله قبلك فرأيت من نور ربي وحال بيني وبينه السبحة .

قلت: وما السبحة جعلت فداك ؟ فأومى بوجهه إلى الأرض وأومأ بيده إلى السماء وهو يقول : جلال ربي جلال ربي ثلاث مرات .

أقول : السبحة الجلال كما فسّر في الرواية ، والسبحة ما يدل على تنزهه تعالى من خلقه ومرجعه إلى المعنى الأول ، ومحصل ذيل الرواية أنه صلى الله عليه وآله وسلم رأى ربه برؤية آياته .

وفيه في قوله تعالى : «ولقد رآه نزلة اخرى عند سدرة المنتهى» قال : في السماء السابعة .

وفيه في قوله تعالى : « إذ يغشى السدرة ما يغشى » قال : لما رفع الحجاب بينه وبين رسول الله ﷺ غشي نور السدرة .

أقول: وفي المعاني السابقة روايات اخرى وقد تقدم في أول تفسير سورة الإسراء روايات جامعة لقصة معراجه ﷺ .

وقد نقلنا هناك في ذيل الروايات الاختلاف في كيفية معراجه ﷺ أنه كان في المنام أو في اليقظة وعلى الثاني بجسمه وروحه معاً أو بروحه فحسب ، ونقلنا عن صاحب المناقب أن الإمامية ترى أن إسراءه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان بالروح والجسم معاً على ما تدل عليه آية الإسراء ، وأما من المسجد الأقصى إلى السماوات فقد قال قوم بكونه بالروح والجسم معاً أيضاً ووافقهم كثير من الشيعة ومال بعضهم إلى كونه بالروح ومال اليه بعض المتأخرين .

ولا ضير في القول به لو أيدته القرائن الحافة بالآيات والروايات غير أن من الواجب حينئذ أن يحمل قوله تعالى : « عندها جنة المأوى » على جنة البرزخ ليحمل كونها عندها على نحو من التعلق كما ورد أن القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ، أو توجه الآية بما لا ينافي كون العروج في السماوات روحياً .

وأما كون الإسراء في المنام فقد تقدم في تفسير آية الإسراء أنه مما لا ينبغي أن يلتفت اليه .

وأما تطبيق الإسراء إلى السماوات على تسييره ﷺ ليلاً في الكواكب الاخرى غير الأرض من منظومتنا الشمسية أو في منظومات اخرى غير منظومتنا أو في مجرّات اخرى غير مجرّتنا فمما لا يلائمه الأخبار الواردة في تفصيل القصة البتة بل ولا محصل مضامين الآيات المتقدمة .

* * *

أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى ــ ١٩ . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ــ ٢٠ . أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ــ ٢١ . تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى ــ ٢٢ . إِنْ

هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ
يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى – ٢٣.
أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى – ٢٤ . فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى – ٢٥ . وَكَمْ
مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمٰوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ
اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى – ٢٦ . إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ
الْمَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى – ٢٧ . وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ
إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً – ٢٨ . فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى
عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا – ٢٩ . ذٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى – ٣٠ .
وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا
وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى – ٣١ . الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ
وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ
مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ
هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى – ٣٢ .

(بيان)

شطر من آيات الفصل الثاني من الفصول الثلاثة في السورة تتعرض لأمر الأوثان وعبادتها بدعوى أنها ستشفع لهم والردّ عليهم أبلغ الردّ ، وفيها إشارة إلى أمر المعاد وهو مقصد الفصل الثالث .

قوله تعالى : «أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى» لما سجل في الآيات السابقة صدق النبي ﷺ وأنه وحي يوحى اليه وترتب عليه حقية النبوة المبنية على التوحيد ونفي الشركاء ، فرّع عليه الكلام في الأوثان : اللات والعزى ومناة وهي عند المشركين تماثيل للملائكة بدعوى أنهم إناث أو بعضها للملائكة وبعضها للانسان كما قـــاله بعضهم ونفي ربوبيتها وألوهيتها واستقلال الملائكة الذين هم أرباب الأصنام في الشفاعة وأنوثيتهم وأشار إلى حقائق اخرى تنتج المعاد وجزاء الأعمال .

واللات والعزى ومناة أصنام ثلاث كانت معبودة لعرب الجاهلية ، وقـد اختلفوا في وصف صورها ، وفي موضعها الذي كانت منصوبة عليه ، وفي من يعبدها من العرب ، وفي الأسباب التي أوجبت عبادتهم لهـــا ، وهي أقوال متدافعة لا سبيل إلى الاعتماد على شيء منها ، والمتيقن منها ما أوردناه .

والمعنى : إذا كان الأمر على ما ذكرناه من حقية الدعوة وصدق النبي ﷺ في دعوى الوحي والرسالة من عند الله سبحانه فأخبروني عن اللات والعزى ومناة التي هي ثالثـــة الصنمين وغيرهما — وهي التي تدّعون أنها أصنام الملائكة الذين هم بنات الله على زعمكم — .

قوله تعالى : «ألكم الذكر وله الانثى تلك إذاً قسمة ضيزى» استفهام إنكاري مشوب بالاستهزاء ، وقسمة ضيزى أي جائرة غير عادلة .

والمعنى : إذا كان كذلك وكانت أرباب هذه الأصنام من الملائكة بنات الله ، وأنتم لا ترضون لأنفسكم إلا الذكر من الأولاد فهل لكم الذكر ولله سبحانه الانثى من الأولاد ؟ تلك القسمة إذاً قسمة جائرة غير عادلة — استهزاء — .

قوله تعالى : «إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان» الخ، ضمير «هي» للات والعزى ومناة أولها بما هي أصنام، وضمير «سميتموها» للأسماء وتسمية الأسماء جعلها أسماء ، والمراد بالسلطان البرهان .

والمعنى : ليست هذه الأصنام الآلهة إلا أسماء جعلتموها أسماء لها أنتم وآباؤكم ليست لهذه الأسماء وراءها مصاديق ومسميات مـا أنزل الله معها برهاناً يستدل به على ربوبيتها وألوهيتها .

ومحصل الآية الرد على المشركين بعدم الدليل على ألوهية آلهتهم .

وقوله : «إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس» «ما» موصولة والضمير العـائد

اليها محذوف أي الذي تهواه النفس ، وقيل : مصدرية والتقدير هوى النفس والهوى الميل الشهواني للنفس والجملة مسوقة لذمّهم في اتباع الباطل وتأكيد لما تقدم من أنه لا برهان لهم على ذلك .

ويؤكده قوله : « ولقد جاءهم من ربهم الهدى » والجملة حالية .

والمعنى: إن يتبع هؤلاء المشركون في أمر آلهتهم إلا الظن وما يميل اليه أنفسهم شهوة يتبعون ذلك والحال أنه قد جاءهم من الله وهو ربهم الهدى وهي الدعوة الحقة أو القرآن الذي يهديهم إلى الحق .

والالتفات في الآية من الخطاب إلى الغيبة للإشعار بأنهم أحط فهماً من أن يخاطبوا بهذا الكلام على أنهم غير مستعدين لأن يخاطبوا بكلام برهاني وهم أتباع الظن والهوى .

قوله تعالى : « أم للإنسان ما تمنى » « أم » منقطعة والاستفهام إنكاري ، والكلام مسوق لنفي أن يملك الإنسان ما يتمناه بمجرد أنه يتمناه أي ليس يملك الإنسان ما يتمناه بمجرد أنه يتمناه حتى يملك المشركون ما يتمنونه بهوى أنفسهم من شفاعة الملائكة الذين هم أرباب أصنامهم وبنات لله بزعمهم أو يملكوا الوهية آلهتهم بمجرد التمني .

وفي الكلام تلويح إلى أنهم ليس لهم للدلالة على صحة الوهيـة آلهتهم أو شفاعتهم إلا التمني ، ولا يملك شيء بالتمني .

قوله تعالى : «فلله الآخرة والاولى» تفريعه على سابقه من تفريع العلة للمعلول للدلالة على التعلق والارتباط ففيه تعليل للجملة السابقة ، والمعنى : ليس يملك الإنسان ما تمناه بمجرد التمني لأن الآخرة والاولى لله سبحانه ولا شريك له في ملكه .

قوله تعالى : « وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى» الفرق بين الإذن والرضا أن الإذن إعلام ارتفاع المانع من قبل الآذن ، والرضا ملاءمة نفس الراضي للشيء وعدم امتناعها فربما تحقق الإذن بشيء مع عدم الرضا ولا يتحقق رضاً إلا مع الإذن بالفعل أو بالقوة .

والآية مسوقة لنفي أن يملك الملائكة من أنفسهم الشفاعة مستغنين في ذلك عن الله سبحانه كما يروم اليه عبدة الأصنام فإن الأمر مطلقاً إلى الله تعالى فإنما يشفع من يشفع منهم بعد إذنه تعالى له في الشفاعة ورضاه بها .

وعلى هذا فالمراد بقوله : « لمن يشاء » الملائكة ، ومعنى الآية : وكثير من الملائكة

في السماوات لا تؤثر شفاعتهم أثراً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء منهم أي من الملائكة ويرضى بشفاعته .

وقيل : المراد بمن يشاء ويرضى الإنسان، والمعنى : إلا من بعد أن يأذن الله في شفاعة من يشاء أن يشفع له من الإنسان ويرضى ، وكيف يأذن ويرضى بشفاعة من كفر به وعبَدَ غيره ؟

والآية تثبت الشفاعة للملائكة في الجملة ،وتقيد شفاعتهم بالإذن والرضا من الله سبحانه.

قوله تعالى : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمُّون الملائكة تسمية الانثى » رد لقولهم بانوثية الملائكة بعد رد قولهم بشفاعتهم .

والمراد بتسميتهم الملائكة تسمية الانثى قولهم : إن الملائكة بنات الله فالمراد بالانثى الجنس أعم من الواحد والكثير .

وقيل : إن الملائكة في معنى استغراق المفرد فيكون التقدير ليسمُّون كل واحد من الملائكة تسمية الانثى أي يسمونه بنتاً فالكلام على وزان « كسانا الأمير حلّة » أي كسا كل واحد منا حلة .

قال بعضهم : في تعليق التسمية بعدم الإيمان بالآخرة إشعار بأنها في الشناعة والفظاعة واستتباع العقوبة في الآخرة بحيث لا يجترىء عليها إلا من لا يؤمن بها رأساً . انتهى .

قوله تعالى : « وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً » العلم هو التصديق المانع من النقيض ، والظن هو التصديق الراجح ويسمى المرجوح وهماً ، وقولهم بانوثية الملائكة كما لم يكن معلوماً لهم كذلك لم يكن مظنوناً إذ لا سبيل إلى ترجيح القول به على خلافه لكنه لما كان عن هوى أنفسهم أثبته الهوى في أنفسهم وزيّنه لهم فلم يلتفتوا إلى خلافه ، وكلما لاح لهم لائح خلافه أعرضوا عنه وتعلقوا بما يهوونه ، وبهذه العناية سمي ظناً وهو في الحقيقة تصوُّر فقط .

وبهذا يظهر استقامة قول من قال : إن الظن في هذه الآية وفي قوله السابق : « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس » بمعنى التوهم دون الاعتقاد الراجح وأُيّد بما يظهر من كلام الراغب : إن الظن ربما يطلق على التوهم .

وقوله : « إن الظن لا يغني من الحق شيئاً » الحق ما هو عليه الشيء وظاهر أنه لا يدرك إلا بالعلم الذي هو الاعتقاد المانع من النقيض لا غير وأما غير العلم مما فيه احتمال

الخلاف فلا يتعين فيه المدرك على ما هو عليه في الواقع فلا يجوز لأن يعتمد عليه في الحقائق قال تعالى : « ولا تقفُ ما ليس لك به علم » أسرى : ٣٦ .

وأما العمل بالظن في الأحكام العملية فإنما هو لقيام دليل عليه يقيد به إطلاق الآية ، وتبقى الامور الاعتقادية تحت إطلاق الآية .

قال بعضهم : وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: « إن الظن لا يغني » ليجري الكلام مجرى المثل .

قوله تعالى : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا » تفريع على اتباعهم الظن وهوى الأنفس ، فقوله : « فأعرض عمن » الخ ، أمر بالإعراض عنهم وإنما لم يقل : فأعرض عنهم ، ووضع قوله : « من تولى عن ذكرنا » الخ، موضع الضمير للدلالة على علة الأمر بالإعراض كأنه قيل : إن هؤلاء يتركون العلم ويتبعون الظن وما تهوى الأنفس وإنما فعلوا ذلك لأنهم تولوا عن الذكر وأرادوا الحياة الدنيا فلا همّ لهم إلا الدنيا فهي مبلغهم من العلم ، وإذا كان كذلك فأعرض عنهم لأنهم في ضلال .

والمراد بالذكر إما القرآن الذي يهدي متبعيه إلى الحق الصريح ويرشدهم إلى سعادة الدار الآخرة التي وراء الدنيا بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة التي لا تبقى معها وصمة شك.

وإما ذكر الله بالمعنى المقابل للغفلة فإن ذكره تعالى بما يليق بذاته المتعالية من الأسماء والصفات يهدي إلى سائر الحقائق العلمية في المبدء والمعاد هداية علمية لا ريب معها .

قوله تعالى : « ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى» الإشارة بذلك إلى أمر الدنيا وهو معلوم من الآية السابقة وكونه مبلغ علمهم من قبيل الاستعارة كأن العلم يسير إلى المعلوم وينتهي اليه وعلمهم انتهى في مسيره إلى الدنيا وبلغها ووقف عندها ولم يتجاوزها، ولازم ذلك أن تكون الدنيا متعلق إرادتهم وطلبهم، وموطن همتهم ، وغاية آمالهم لا يطمئنون إلى غيرها ولا يقبلون إلا عليها .

وقوله : «إن ربك هو أعلم» الخ، تأكيد لمضمون الجملة السابقة وشهادة منه تعالى عليه.

قوله تعالى : « ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى » يمكن أن يكون صدر الآية حالاً من فاعل « أعلم » في الآية السابقة والواو للحال ، والمعنى: إن ربك هو أعلم بالفريقين الضالين والمهتدين والحال أنه يملك ما في السماوات وما في الأرض فكيف يمكن أن لا يعلم بهم وهو مالكهم ؟

وعلى هذا فالظاهر تعلق قوله : « ليجزي » الخ » بقوله السابق: « فأعرض عمن تولى » الخ » والمعنى : أعرض عنهم وكِلْ أمرهم إلى الله ليجزيهم كذا وكذا ويجزيك ويجزي المحسنين كذا وكذا .

ويمكن أن يكون قوله : « ولله مـا في السماوات » الخ » كلاماً مستأنفاً للدلالة على أن الأمر بالإعراض عنهم لا لإهمالهم وتركهم سدى بل الله سبحانه يجزي كلاً بعمله إن سيئاً وإن حسناً ، ووضع اسم الجلالة وهو ظاهر موضع الضمير للدلالة على كمال العظمة .

وقوله : « لله ما في السماوات وما في الأرض » إشارة إلى ملكه تعالى للكل ومعناه قيام الأشياء به تعالى لكونه خالقهم الموجد لهم فالملك ناشىء من الخلق وهو مع ذلك منشأ للتدبير فالجملة دالة على الخلق والتدبير كأنه قيل : ولله الخلق والتدبير .

وبهذا المعنى يتعلق قوله : « ليجزي » الخ » واللام للغاية، والمعنى: له الخلق والتدبير وغاية ذلك والغرض منه أن يجزي الذين أساؤا الخ » والمراد بالجزاء ما يخبر عنه الكتاب من شؤن يوم القيامة ، والمراد بالإساءة والإحسان المعصية والطاعة ، والمراد بما عملوا جزاء ما عملوا أو نفس ما عملوا ، وبالحسنى المثوبة الحسنى .

والمعنى : ليجزي الله الذين عصوا بمعصيتهم أو بجزاء معصيتهم ويجزي الذين أطاعوا بالمثوبة الحسنى ، وقد أوردوا في الآية احتمالات اخرى وما قدمناه هو أظهرها .

قوله تعالى : « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة » الخ » الإثم هو الذنب وأصله - كما ذكره الراغب - الفعل المبطىء عن الثواب والخير ، وكبائر الإثم المعاصي الكبيرة وهو على ما في الرواية [1] ما أوعد الله عليه النار ، وقد تقدم البحث عنها في تفسير قوله تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » الآية » النساء : ٣١ .

والفواحش الذنوب الشنيعة الفظيعة ، وقد عدّ تعالى في كلامه الزنا واللواط من الفواحش ولا يبعد أن يستظهر من الآية اتحادها مع الكبائر .

وأما اللمم فقد اختلفوا في معناه فقيل : هو الصغيرة من المعاصي ، وعليه فالاستثناء منقطع، وقيل : هو أن يلمّ بالمعصية ويقصدها ولا يفعل والاستثناء أيضاً منقطع ، وقيل:

---

(١) رواها في ثواب الاعمال عن عباد بن كثير النوا عن أبي جعفر عليه السلام .

هو المعصية حيناً بعد حين من غير عادة أي المعصية على سبيل الاتفاق فيكون أعم من الصغيرة والكبيرة وينطبق مضمون الآية على معنى قوله تعالى في وصف المتقين المحسنين : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون » آل عمران : ١٣٥ .

وقد فسر في روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام بثالث المعاني[1] .

والآية تفسر ما في الآية السابقة من قوله : « الذين أحسنوا » فهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ومن الجائز أن يقع منهم لمم .

وفي قوله : « إن ربك واسع المغفرة » تطميعهم في التوبة رجاء المغفرة .

وقوله : « هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض » قال الراغب : النشء والنشأة إحداث الشيء وتربيته . انتهى . فإنشاؤهم من الأرض ما جرى عليهم في بدء خلقهم طوراً بعد طور من أخذهم من المواد العنصرية إلى أن يتكونوا في صورة المني ويردوا الأرحام .

وقوله : « وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم » الأجنة جمع جنين ، والكلام معطوف على « إذ » السابق أي وهو أعلم بكم إذ كنتم أجنة في أرحام أمهاتكم يعلم ما حقيقتكم وما أنتم عليه من الحال وما في سرّكم وإلى ما يؤل أمركم .

وقوله : فلا تزكّوا أنفسكم » تفريع على العلم أي إذا كان الله أعلم من أول أمر فلا تزكّوا أنفسكم بنسبتها إلى الطهارة هو أعلم بمن اتقى .

* * *

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ـــ ٣٣ . وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى ـــ ٣٤ . أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ـــ ٣٥ . أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ـــ ٣٦ . وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ـــ ٣٧ . أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ

---

(١) ففي اصول الكافي عن ابن عمار عن الصادق عليه السلام : اللمم الرجل يلم بالذنب فيستغفر الله منه ، وفيه بإسناده عن محمد بن مسلم عن الصادق عليه السلام قال : هو الذنب يلم به الرجل فيمكث ما شاء الله ثم يلم به بعده وفيه بإسناده عن ابن عمار عن الصادق عليه السلام قال : اللمام العبد الذي يلم بالذنب بعد الذنب ليس من سليقته أي من طبعه .

أُخرى ـــ ٣٨ . وَأَن لَيسَ لِلإِنسانِ إِلا ما سَعى ـــ ٣٩ . وَأَنَّ سَعيَهُ
سَوفَ يُرى ـــ ٤٠ . ثُمَّ يُجزاهُ الجَزاءَ الأَوفى ـــ ٤١ . وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ
المُنتَهى ـــ ٤٢ . وَأَنَّهُ هُوَ أَضحَكَ وَأَبكى ـــ ٤٣ . وَأَنَّهُ هُوَ أَماتَ
وَأَحيا ـــ ٤٤ . وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوجَينِ الذَّكَرَ وَالأُنثى ـــ ٤٥ . مِن
نُطفَةٍ إِذا تُمنى ـــ ٤٦ . وَأَنَّ عَلَيهِ النَّشأَةَ الأُخرى ـــ ٤٧ . وَأَنَّهُ هُوَ
أَغنى وَأَقنى ـــ ٤٨ . وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعرى ـــ ٤٩ . وَأَنَّهُ أَهلَكَ عاداً
الأُولى ـــ ٥٠ . وَثَمُودَ فَما أَبقى ـــ ٥١ . وَقَومَ نُوحٍ مِن قَبلُ إِنَّهُم
كانُوا هُم أَظلَمَ وَأَطغى ـــ ٥٢ . وَالمُؤتَفِكَةَ أَهوى ـــ ٥٣ . فَغَشّاها
ما غَشّى ـــ ٥٤ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارى ـــ ٥٥ . هٰذا نَذِيرٌ مِنَ
النُّذُرِ الأُولى ـــ ٥٦ . أَزِفَتِ الآزِفَةُ ـــ ٥٧ . لَيسَ لَها مِن دُونِ اللهِ
كاشِفَةٌ ـــ ٥٨ . أَفَمِن هٰذا الحَدِيثِ تَعجَبُونَ ـــ ٥٩ . وَتَضحَكُونَ وَلا
تَبكُونَ ـــ ٦٠ . وَأَنتُم سامِدُونَ ـــ ٦١ . فَاسجُدُوا لِلّهِ وَاعبُدُوا ـــ ٦٢ .

(بيان)

سياق التسع آيات الواقعة في صدر هذا الفصل يصدق ما ورد في أسباب النزول أن رجلاً من المسلمين كان ينفق من ماله في سبيل الله فلامه بعض الناس على كثرة الإنفاق وحذّره وخوّفه بنفاد المال والفقر وضمن حمل خطاياه وذنوبه فأمسك عن الإنفاق فنزلت الآيات .

أشار سبحانه بالتعرض لهذه القصة ونقل ما نقل من صحف ابراهيم وموسى عليهما

السلام إلى بيان وجه الحق فيها ، والى ما هو الحق الصريح فيا تعرض له الفصل السابق من أباطيل المشركين من أنهم إنما يعبدون الأصنام لأنها تماثيل الملائكة الذين هم بنات الله يعبدونهم ليشفعوا لهم عند الله سبحانه وقد أبطلتها الآيات السابقة أوضح الإبطال .

وقد أوضحت هذه الآيات مـــا هو وجه الحق في الربوبية والالوهية وهو أن الخلق والتدبير لله سبحانه ، اليه ينتهي كل ذلك ، وأنه خلق ما خلق ودبر ما دبر خلقاً وتدبيراً يستعقب نشأة أخرى فيها جزاء الكافر والمؤمن والمجرم والمتقي ومن لوازمه تشريع الدين وتوجيه التكاليف وقد فعل ، ومن شواهده إهلاك من أهلك من الامم الدارجة الطاغية كقوم نوح وعاد وثمود والمؤتفكة .

ثم عقب سبحانه هذا الذي نقله عن صحف النبيين الكريمين بالتنبيه على أن هذا النذير من النذر الاولى الخالية وأن الساعة قريبة ،وخاطبهم بالأمر بالسجود لله والعبادة، وبذلك تختتم السورة .

قوله تعالى : « أفرأيت الذي تولى وأعطى قليلاً وأكدى» التولي هو الإعراض والمراد به بقرينة الآية التالية الإعراض عن الإنفاق في سبيل الله ، والإعطاء الإنفاق والإكداء قطع العطاء ، والتفريع الذي في قوله : « أفرأيت » مبني على ما قدمنا من تفرع مضمون هذه الآيات على ما قبلها .

والمعنى : فأخبرني عمن أعرض عن الإنفاق وأعطى قليلاً من المال وأمسك بعد ذلك أشدّ الإمساك .

قوله تعالى : «أعنده علم الغيب فهو يرى» الضمائر لمن تولى والاستفهام للإنكار والمعنى: أيعلم الغيب فيترتب عليه أن يعلم أن صاحبه يتحمل عنه ذنوبه ويعذب مكانه يوم القيامة لو استحق العذاب . كذا فسروا .

والظاهر أن المراد نفى علمه بما غاب عنه من مستقبل حاله في الدنيا والمعنى : أيعلم الغيب فهو يعلم أنه لو أنفق ودام على الإنفاق نفد ماله وابتلي بالفقر وأمـا تحمل الذنوب والعذاب فالمتعرض له قوله الآتي : « أن لا تزر وازرة وزر أخرى » .

قوله تعالى : « أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفـّى » صحف موسى التوراة ،وصحف إبراهيم ما نزل عليه من الكتاب والجمع للإشارة إلى كثرته بكثرة أجزائه .

والتوفية تأدية الحق بتمامه وكماله ، وتوفيته ﷺ تأديته ما عليه من الحق في العبو...

أتم التأدية وأبلغها قال تعالى : « وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن » البقرة : ١٢٤ .

وما نقله الله سبحانه في الآيات التالية من صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام وإن لم يذكر في القرآن بعنوان أنه من صحفهما قبل هذه الآيات لكنه مذكور بعنوان الحكم والمواعظ والقصص والعبر فمعنى الآيتين : أم لم ينبأ بهـــذه الامور وهي في صحف إبراهيم وموسى .

قوله تعالى : « ألا تزر وازرة وزر أخرى » الوزر الثقل وكثر استعماله في الإثم ، والوازرة النفس التي من شأنها أن تحمل الإثم ، والآية بيان ما في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام ، وكذا سائر الآيات المصدرة بأن وأنّ إلى تمام سبع عشرة آية .

والمعنى: ما في صحفهما هو أنه لا تحمل نفس إثم نفس أخرى أي لا تتأثم نفس بما لنفس أخرى من الإثم فلا تؤاخذ نفس بإثم نفس أخرى .

قوله تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » قال الراغب : السعي المشي السريع وهو دون العــدو ، ويستعمل للجد في الأمر خيراً كان أوشراً قال تعالى : « وسعى في خرابها » . انتهى واستعماله في الجد في الفعل استعمال استعاري .

ومعنى اللام في قوله : « للانسان » الملك الحقيقي الذي يقوم بصاحبه قياماً باقياً ببقائه يلازمه ولا يفارقه بالطبع وهو الذي يكتسبه الانسان بصالح العمل أو طالحه من خير أو شر ، وأما ما يراه الإنسان مملوكاً لنفسه وهو في ظرف الاجتماع من مال وبنين وجاه وغير ذلك من زخارف الحياة الدنيا وزينتها فكل ذلك من الملك الاعتباري الوهمي الذي يصاحب الإنسان ما دام في دار الغرور ويودعه عند ما أراد الانتقال الى دار الخلود وعالم الآخرة .

فالمعنى : وأنه لا يملك الإنسان ملكاً يعود اليه أثره من خير أو شر أو نفع أو ضر حقيقة إلا ما جدّ فيه من عمل فله ما قام بفعله بنفسه وأما مـــا قام به غيره من عمل فلا يلحق بالإنسان أثره خيراً أو شراً .

وأما الانتفاع من شفاعة الشفعاء يوم القيامة لأهل الكبائر فلهم في ذلك سعي جميل حيث دخلوا في حضيرة الإيمان بالله وآياته ، وكذا استفادة المؤمن بعد موته من استغفار المؤمنين له ، والأعمال الصالحة التي تهدي اليه مثوباتها هي مرتبطة بسعيه في الدخول في زمرة المؤمنين وتكثير سوادهم وتأييد إيمانهم الذي من آثاره ما يأتون به من الأعمال الصالحة .

وكذا من سن سنة حسنة فله ثوابها وثواب من عمل بها ، ومن سن سنة سيئة كان له وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة فإن له سعياً في عملهم حيث سن السنة وتوسل بها إلى أعمالهم كما تقدم في تفسير قوله تعالى : « ونكتب ما قدموا وآثارهم » يس : ١٢ ، وقد تقدم في تفسير قوله : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم » النساء : ٩ ، وتفسير قوله : « ليميز الله الخبيث من الطيّب » الأنفال : ٣٧ ، كلام نافع في هذا المقام .

قوله تعالى : « وأن سعيه سوف يرى » المراد بالسعي ما سعى فيه من العمل وبالرؤية المشاهدة ، وظرف المشاهدة يوم القيامة بدليل تعقيبه بالجزاء فالآية قريبة المعنى من قوله تعالى : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء » آل عمران : ٣٠ ، وقوله : « يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » الزلزال : ٨ .

وإتيان قوله : « سوف يرى » مبنياً للمفعول لا يخلو من إشعار بأن هناك من يشاهد العمل غير عامله .

قوله تعالى : « ثم يجزاه الجزاء الأوفى » الوفاء بمعنى التمام لأن الشيء التام يفي بجميع ما يطلب من صفاته ، والجزاء الأوفى الجزاء الأتم .

وضمير « يجزاه » للسعي الذي هو العمل والمعنى : ثم يجزي الانسان عمله أي بعمله أتمّ الجزاء .

قوله تعالى : « وأن إلى ربك المنتهى » المنتهى مصدر ميمي بمعنى الانتهاء وقد أطلق إطلاقاً فيفيد مطلق الانتهاء، فما في الوجود من شيء موجود إلا وينتهي في وجوده وآثار وجوده إلى الله سبحانه بلا واسطة أو مع الواسطة ، ولا فيه أمر من التدبير والنظام الجاري جزئياً أو كلياً إلا وينتهي اليه سبحانه إذ ليس التدبير الجاري بين الأشياء إلا الروابط الجارية بينها القائمة بها وموجد الأشياء هو الموجد لروابطها المجري لها بينها فالمنتهى المطلق لكل شيء هو الله سبحانه .

قال تعالى : « الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل له مقاليد السماوات والأرض» الزمر : ٦٣ ، وقال : « ألا له الخلق والأمر » الأعراف : ٥٤ .

والآية تثبت الربوبية المطلقة لله سبحانه بإنهاء كل تدبير وكل التدبير اليه وتشما

انتهاء الأشياء اليه من حيث البدء وهو الفطر ، وانتهاءها اليه من حيث العود والرجوع وهو الحشر .

ومما تقدم يظهر ضعف ما قيل في تفسير الآية إن المراد بذلك رجوع الخلق اليه سبحانه يوم القيامة ، وكذا ما قيل : إن المعنى أن إلى ثواب ربك وعقابه آخر الأمر ، وكذا ما قيل : المعنى أن إلى حساب ربك منتهاهم ، وكذا ما قيل : اليه سبحانه ينتهي الأفكار وتقف دونه ، ففي جميع هذه التفاسير تقييد الآية من غير مقيد .

قوله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى » الآية وما يتلوها الى تمام اثنتي عشرة آية بيان لموارد من انتهاء الخلق والتدبير الى الله سبحانه .

والسياق في جميع هذه الآيات سياق الحصر ، وتفيد انحصار الربوبية فيه تعالى وانتفاء الشريك ،ولا ينافي ما في هذه الموارد من الحصر توسط أسباب أخر طبيعية أو غير طبيعية فيها كتوسط السرور والحزن وأعضاء الضحك والبكاء من الانسان في تحقق الضحك والبكاء ، وكذا توسط الأسباب المناسبة الطبيعية وغير الطبيعية في الإحياء والإماتة وخلق الزوجين والغنى والقنى وإهلاك الامم الهالكة وذلك أنها لما كانت مسخرة لأمر الله غير مستقلة في نفسها ولا منقطعة عما فوقها كانت وجوداتها وآثار وجوداتها وما يترتب عليها لله وحده لا يشاركه في ذلك أحد .

فمعنى قوله : « وأنه هو أضحك وأبكى » أنه تعالى هو أوجد الضحك في الضاحك وأوجد البكاء في الباكي لا غيره تعالى :

ولا منافاة بين انتهاء الضحك والبكاء في وجودهما إلى الله سبحانه وبين انتسابهما الى الانسان وتلبسه بهما لأن نسبة الفعل الى الانسان بقيامه به ونسبة الفعل اليه تعالى بالايجاد وكم بينهما من فرق .

ولا أن تعلق الارادة الالهية بضحك الانسان مثلاً يوجب بطلان إرادة الانسان للضحك وسقوطها عن التأثير لأن الارادة الالهية لم تتعلق بمطلق الضحك كيفما كان وإنما تعلقت بالضحك الارادي الاختياري من حيث انه صادر عن ارادة الانسان واختياره فإرادة الانسان سبب لضحكه في طول ارادة الله سبحانه لا في عرضها حتى تتزاحما ولا تجتمعا معاً فنضطر الى القول بأن أفعال الانسان الاختيارية مخلوقة لله ولا صنع للإنسان فيها كما يقوله الجبري أو أنها مخلوقة للإنسان ولا صنع لله سبحانه فيها كما يقوله المعتزلي .

ومما تقدم يظهر فساد قول بعضهم : إن معنى الآية أنه خلق قوتي الضحك والبكاء ، وقول آخرين: إن المعنى أنه خلق السرور والحزن، وقول آخرين : إن المعنى أنه أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماء بالمطر ، وقول آخرين : إن المعنى أنه أضحك أهل الجنة وأبكى أهل النار .

قوله تعالى : « وأنه هو أمات وأحيا » الكلام في انتساب الموت والحياة إلى أسباب أخر طبيعية وغير طبيعية كالملائكة كالكلام في انتساب الضحك والبكاء إلى غيره تعالى مع انحصار الإيجاد فيه تعالى ، وكذا الكلام في الامور المذكورة في الآيات التالية .

قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والانثى من نطفة إذا تمنى » النطفة ماء الرجل والمرأة الذي يخلق منه الولد، وأمنى الرجل أي صبّ المني، وقيل: معناه التقدير، وقوله : « الذكر والانثى » بيان للزوجين .

قيل : لم يذكر الضمير في الآية على طرز ما تقدم – أنه هو – لأنه لا يتصور نسبة خلق الزوجين إلى غيره تعالى .

قوله تعالى : «وأن عليه النشأة الاخرى» النشأة الاخرى الخلقة الاخرى الثانية وهي الدار الآخرة التي فيها جزاء ، وكون ذلك عليه تعالى قضاؤه قضاء حتم وقد وعد به ووصف نفسه بأنه لا يخلف الميعاد .

قوله تعالى : « وأنه هو أغنى وأقنى » أي أعطى الغنى وأعطى القنية ، والقنية ما يدوم من الأموال ويبقى ببقاء نفسه كالدار والبستان والحيوان، وعلى هذا فذكر « أقنى » بعد « أغنى » من التعرض للخاص بعد العام لنفاسته وشرفه .

وقيل : الإغناء التمويل والإقناء الإرضاء بذلك ، وقال بعضهم : معنى الآية أنه هو أغنى وأفقر .

قوله تعالى : « وأنه هو رب الشعرى » كأن المراد بالشعرى الشعرى اليمانية وهي كوكبة مضيئة من الثوابت شرقي صورة الجبار في السماء .

قيل : كانت الخزاعة وحمير تعبد هذه الكوكبة، وممن كان يعبده أبو كبشة أحد أجداد النبي ﷺ من جهة امه ، وكان المشركون يسمونه ﷺ ابن أبي كبشة لمخالفته إياهم في الدين كما خالف أبو كبشة قومه في عبادة الشعرى .

قوله تعالى : « وأنـه أهلك عاداً الاولى » وهم قوم هود النبي عليه السلام ووصفوا بالاولى لأن هناك عاداً ثانية هم بعد عاد الاولى .

قوله تعالى : « وثمود فما أبقى » وهم قوم صالح النبي عليه السلام أهلك الله الكفـار منهم عن آخرهم ، وهو المراد من قوله : « فما أبقى » وإلا فهو سبحانه نجّى المؤمنين منهم من الهلاك كما قال : « ونجّينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » فصّلت : ١٨ .

قوله تعالى : « وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى » عطف كسابقه على قوله : « عاداً » والإصرار بالتأكيد على كونهم أظلم وأطغى ، أي من القومين عاد وثمود على مـا يعطيه السياق لأنهم لم يجيبوا دعوة نوح عليه السلام ولم يتعظوا بموعظته فيما يقرب من ألف سنة ولم يؤمن منهم معه إلا أقل قليل .

قوله تعالى : « والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى » قيل : إن المؤتفكة قرى قوم لوط ائتفكت بأهلها أي انقلبت والائتفاك الانقلاب ، والإهواء الإسقاط .

والمعنى : وأسقط القرى المؤتفكة إلى الأرض بقلبها وخسفها فشملها وأحاط بهـا من العذاب ما شملها وأحاط بها .

واحتمل أن يكون المراد بالمؤتفكة مـا هو أعم من قرى قوم لوط وهي كل قرية نزل عليها العذاب فباد أهلها فبقيت خربة دائرة معالمها خاوية على عروشها .

قوله تعالى : « فبأي آلاء ربك تتمارى » الآلاء جمع إلى بمعنى النعمـة ، والتماري التشكك ، والجملة متفرعة على ما تقدم ذكره مما ينسب اليه تعالى من الأفعال .

والمعنى : إذا كان الله سبحانه هو الذي نظم هـذا النظام البديع من صنع وتدبير بالإضحاك والإبكاء والإماتة والإحياء والخلق والإهلاك إلى آخر ما قيل ، فبأيّ نعَم ربك تتشكك وفي أيّها تريب ؟

وعد مثل الإبكاء والاماتة وإهلاك الامم الطاغية نعماً لله سبحانه لما فيها من الدخل في تكون النظام الأتم الذي يجرى في العالم وتنساق به الامور في مرحلة استكمال الخلق ورجوع الكل إلى الله سبحانه .

والخطاب في الآية للذي تولى وأعطى قليلا وأكدى أو للنبي صلى الله عليه وآله وسلم من باب إياك أعني واسمعي يا جارة ، والاستفهام للانكار .

قوله تعالى : « هذا نذير من النذر الاولى » قيل : النذير يأتي مصدراً بمعنى الإنذار ووصفاً بمعنى المنذر ويجمع على النذر بضمتين على كلا المعنيين والإشارة بهذا الى القرآن أو النبي ﷺ .

قوله تعالى : « أزفت الآزفة »أي قربت القيامة والآزفة من أسماء القيامة قال تعالى: « وأنذرهم يوم الآزفة » المؤمن : ١٨ .

قوله تعالى : « ليس لها من دون الله كاشفة » أي نفس كاشفة والمراد بالكشف إزالة ما فيها من الشدائد والأهوال ، والمعنى : ليس نفس تقدر على إزالة ما فيها من الشدائد والأهوال إلا أن يكشفها الله سبحانه .

قوله تعالى : « أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون » الإشارة بهذا الحديث إلى ما تقدم من البيان ، والسمود اللهو ، والآية متفرعة على ما تقدم من البيان ، والاستفهام للتوبيخ .

والمعنى : إذا كان الله هو ربكم الذي ينتهي اليه كل أمر وعليه النشأة الاخرى وكانت القيامة قريبة وليس لها من دون الله كاشفة كان عليكم أن تبكوا لما فرطتم في جنب الله ، وتعرضتم للشقاء الدائم أفمن هذا البيان الذي يدعوكم الى النجاة تعجبون إنكاراً وتضحكون استهزاء ولا تبكون ؟

قوله تعالى : « فاسجدوا لله واعبدوا » تفريع آخر على ما تقدم من البيان والمعنى : إذا كان كذلك فعليكم أن تسجدوا لله وتعبدوه ليكشف عنكم ما ليس له من دونه كاشفة .

(بحث روائي)

في الكشاف في قوله تعالى : « أفرأيت الذي تولى » الخ ، روي أن عثمان كان يعطي ماله في الخير فقال له عبد الله بن سعد بن أبي سرح وهو أخوه من الرضاعة : يوشك أن لا يبقى لك شيء فقال عثمان : إن لي ذنوباً وخطايا ، وإني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه فقال عبد الله : أعطني ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن العطاء فنزلت ، ومعنى : « تولى » ترك المركز يوم أحد فعاد عثمان إلى أحسن من ذلك وأجمل .

أقول : وأورد القصة في مجمع البيان ونسبها إلى ابن عباس والسدّي والكلبي وجماعة من المفسرين ، وفي انطباق « تولى » على تركه المركز يوم أحد نظر والآيات مكية .

وفي الدر المنثور أخرج الفاريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : « أفرأيت الذى تولى » قال : الوليـد بن المغيرة كان يأتي النبي ﷺ وأبا بكر فسمع ما يقولان وذلك ما أعطى من نفسه ، أعطى الاستماع « وأكدى » قال : انقطع عطاؤه نزل في ذلك « أعنده علم الغيب » قال: الغيب القرآن أرأى فيه باطلاً أنفذه ببصره إذ كان يختلف إلى النبي ﷺ وأبي بكر .

أقول : وأنت خبير بأن الآيات بظاهرها لا تنطبق على ما ذكره .

وروي أنها نزلت في العاص بن وائل ، وروي أنها نزلت في رجل لم يذكر اسمه .

وفي تفسير القمي في قوله تعـالى : « وإبراهيم الذي وفى » قال : وفى بما أمره الله به من الأمر والنهي وذبح ابنه .

وفي الكافي بإسناده عن إسحاق بن عمار عن أبي إبراهيم عليه‌السلام قال: سألته عن الرجل يحج فيجعل حجته وعمرته أو بعض طوافه لبعض أهله وهو عنه غائب في بلد آخر ؟ قال: قلت : فينتقص ذلك من أجره ؟ قال : هي له ولصاحبه وله أجر سوى ذلك بما وصل . قلت : وهو ميت أيدخل ذلك عليه ؟ قال : نعم حتى يكون مسخوطاً عليه فيغفر له أو يكون مضيقاً عليه فيوسع له . قلت : فيعلم هو في مكانه أنه عمل ذلك لحقه ؟ قال : نعم. قلت : وإن كان ناصباً ينفعه ذلك ؟ قال : نعم يخفف عنه .

أقول : مورد الرواية إهداء ثواب العمل دون العمل نيابة عن الميت .

وفيه بإسناده عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه‌السلام قال: قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : يقول الله عز وجل للملك الموكل بالمؤمن إذا مرض : اكتب له ما كنت تكتب له في صحته فإني أنا الذي صيّرته في حبالي [1] .

وفي الخصال عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال : ليس يتبع الرجل بعـد موته من الأجر إلا ثلاث خصال : صدقة أجراها في حياته فهي تجري بعـــد موته إلى يوم القيامة صدقة

---

(١) الحبالة : الوثاق .

موقوفة لا تورث ، وسنّة هدى سنّها وكان يعمل بها وعمل بها من بعده غيره ، وولد صالح يستغفر له .

أقول : وهذه الروايات الثلاث – وفي معناها روايات كثيرة جداً عن أئمة أهل البيت عليهم السلام – توسع معنى السعي في قوله تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » وقد تقدمت إشارة اليها .

وفي اصول الكافي بإسناده إلى سليمان بن خالد قال : قال أبو عبد الله عليه‌السلام : إن الله يقول : « وإن إلى ربك المنتهى » فإذا انتهى الكلام إلى الله فأمسكوا .

أقول : وهو من التوسعة في معنى الإنتهاء .

وفيه بإسناده إلى أبي عبيدة الحذّاء قال : قال أبو جعفر عليه‌السلام : يا زياد إياك والخصومات فإنها تورث الشك ، وتحبط العمل ، وتردي صاحبها ، وعسى أن يتكلم بالشيء فلا يغفر له . إنه كان فيما مضى قوم تركوا علم ما وكّلوا به ، وطلبوا علم ما كفوه حتى انتهى كلامهم إلى الله فتحيّروا حتى كان الرجل يدعى من بين يديه فيجيب من خلفه ، ويدعى من خلفه فيجيب من بين يديه . قال : وفي رواية اخرى : حتى تاهوا في الأرض .

وفي الدر المنثور أخرج أبو الشيخ عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله : تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتهلكوا .

أقول : وفي النهي عن التفكر في الله سبحانه روايات كثيرة أخر مودعة في جوامع الفريقين ، والنهي إرشادي متعلق بمن لا يحسن الورود في المسائل العقلية العميقة فيكون خوضه فيها تعرضاً للهلاك الدائم .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى » قال : أبكى السماء بالمطر ، وأضحك الأرض بالنبات .

أقول : هو من التوسعة في معنى الإبكاء والإضحاك .

وفي المعاني بإسناده إلى السكوني عن جعفر بن محمد عن آبائهم عليهم السلام قال : قال أمير المؤمنين عليه‌السلام في قول الله عز وجل : « وأنه هو أغنى وأقنى » قال : أغنى كل إنسان بمعيشته ، وأرضاه بكسب يده .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وأنه هو رب الشعرى » قال : النجم في السماء يسمى الشعرى كانت قريش وقوم من العرب يعبدونه ، وهو نجم يطلع في آخر الليل .

أقول : الظاهر أن قوله : وهو نجم يطلع في آخر الليل تعريف له بحسب زمان صدور الحديث وكان في الصيف وإلا فهو يستوفي في مجموع السنة جميع ساعات الليل والنهار .

وفيه في قوله تعالى : « أزفت الآزفة » قال : قربت القيامة .

وفي المجمع في قوله تعالى : « أفمن هذا الحديث تعجبون » يعني بالحديث ما تقدم من الأخبار .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ « أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون » فما روي النبي بعدها ضاحكاً حتى ذهب من الدنيا .

* * *

(سورة القمر مكية ، وهي خمس وخمسون آية)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . إِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ــ ١ .
وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ــ ٢ . وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا
أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ــ ٣ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ
مُزْدَجَرٌ ــ ٤ . حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ــ ٥ . فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ
يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ ــ ٦ . خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ
الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ــ ٧ . مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ
الْكَافِرُونَ هٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ــ ٨ .

(بيان)

سورة ممحضة في الإنذار والتخويف إلا آيتين من آخرها تبشران المتقين بالجنة والحضور عند ربهم .

تبدأ السورة بالإشارة إلى آية شق القمر التي أتى بها رسول الله ﷺ عن اقتراح من قومه ، وتذكر رميهم له بالسحر وتكذيبهم به واتباعهم الأهواء مع ما جاءهم أنباء زاجرة من أنباء يوم القيامة وأنباء الامم الماضين الهالكين ثم يعيد تعالى عليهم نبذة من تلك الأنباء إعادة ساخط معاتب فيذكر سيء حالهم يوم القيامة عند خروجهم من الأجداث وحضورهم للحساب .

ثم تشير إلى قصص قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون وما نزل بهم من أليم العذاب إثر تكذيبهم بالنذر وليس قوم النبي ﷺ بأعز عند الله منهم وما هم بمعجزين ، وتختتم السورة ببشرى للمتقين .

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها ، ولا يعبأ بما قيل : إنها نزلت ببدر ، وكذا بما قيل : إن بعض آياتها مدنية ، ومن غرر آياتها ما في آخرها من آيات القدر .

قوله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر » الاقتراب زيادة في القرب فقوله : « اقتربت الساعة » أي قربت جداً ، والساعة هي الظرف الذي تقوم فيه القيامة .

وقوله : « وانشق القمر » أي انفصل بعضه عن بعض فصار فرقتين شقتين تشير الآية إلى آية شق القمر التي أجراها الله تعالى على يد النبي ﷺ بمكة قبل الهجرة إثر سؤال المشركين من أهل مكة ، وقد استفاضت الروايات على ذلك ، واتفق أهل الحديث والمفسرون على قبولها كما قيل . ولم يخالف فيه منهم إلا الحسن وعطاء والبلخي حيث قالوا: معنى قوله : « انشق القمر » سينشق القمر عند قيام الساعة وإنما عبر بلفظ الماضي لتحقق الوقوع .

وهو مزيف مدفوع بدلالة الآية التالية « وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » فإن سياقها أوضح شاهد على أن قوله « آية » مطلق شامل لانشقاق القمر فعند وقوعه إعراضهم وقولهم: سحر مستمر ومن المعلوم أن يوم القيامة يوم يظهر فيه الحقائق ويلجؤن فيه إلى المعرفة ، ولا معنى حينئذ لقولهم في آية ظاهرة : إنها سحر مستمر فليس إلا أنها

آية قد وقعت للدلالة على الحق والصدق وتأبى لهم أن يرموها عناداً بأنها سحر .

ومثله في السقوط ما قيل : إن الآية إشارة الى ما ذهب اليه الرياضيون أخيراً أن القمر قطعة من الأرض كما أن الأرض جزء منفصل من الشمس فقوله : « وانشق القمر » اشارة الى حقيقة علمية لم ينكشف يوم النزول بعد .

وذلك أن هذه النظرية على تقدير صحتها لا يلائمها قوله : « وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » إذ لم ينقل عن أحد أنه قال للقمر : هو سحر مستمر .

على أن انفصال القمر عن الأرض اشتقاق والذي في الآية الكريمة انشقاق ، ولا يطلق الانشقاق إلا على تقطع الشيء في نفسه قطعتين دون انفصاله من شيء بعدما كان جزء منه .

ومثله في السقوط ما قيل : إن معنى انشقاق القمر انكشاف الظلمة عند طلوعه وكذا ما قيل : إن انشقاق القمر كناية عن ظهور الأمر ووضوح الحق .

والآية لا تخلو من إشعار بأن انشقاق القمر من لوازم اقتراب الساعة .

قوله تعالى : « وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » الاستمرار من الشيء مرور منه بعد مرور مرة بعد مرة ، ولذا يطلق على الدوام والاطراد فقولهم: سحر مستمر أي سحر بعد سحر مداوماً .

وقوله : « آية » نكرة في سياق الشرط فتفيد العموم ، والمعنى وكل آية يشاهدونها يقولون فيها إنها سحر بعد سحر ، وفسر بعضهم المستمر بالمحكم الموثق ، وبعضهم بالذاهب الزائل ، وبعضهم بالمستبشع المنفور ، وهي معان بعيدة .

قوله تعالى : « وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر » متعلق التكذيب بقرينة ذيل الآية هو النبي ﷺ وما أتى به من الآيات أي وكذبوا بالنبي ﷺ وما أتى به من الآيات والحال أن كل أمر مستقر سيستقر في مستقره فيعلم أنه حق أو باطل وصدق أو كذب فسيعلمون أن النبي ﷺ صادق أو كاذب ، على الحق أو لا فقوله : « وكل أمر مستقر » في معنى قوله : « ولتعلمن نبأه بعد حين » ص : ٨٨ .

وقيل متعلق التكذيب انشقاق القمر والمعنى: وكذبوا بانشقاق القمر واتبعوا أهواءهم ، وجملة « وكل أمر مستقر » لا تلائمه تلك الملاءمة .

قوله تعالى : « ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر » المزدجر مصدر ميمي وهو الاتعاظ ، وقوله : « من الأنبـــاء » بيان لما فيه مزدجر ، والمراد بالأنباء أخبار الامم

الدارجة الهالكة أو أخبار يوم القيامة وقد احتمل كل منهما ، والظاهر من تعقيب الآية بأنباء يوم القيامة ثم بأنباء عدة من الامم الهالكة أن المراد بالأنباء التي فيها مزدجر جميع ذلك .

قوله تعالى : « حكمة بالغة فما تغن النذر » الحكمة كلمة الحق التي ينتفع بها ، والبلوغ وصول الشيء إلى ما تنتهي اليه المسافة ويكنى به عن تمام الشيء وكماله فالحكمة البالغة هي الحكمة التامة الكاملة التي لا نقص فيها من حيث نفسها ومن حيث أثرها .

وقوله : «فما تغن النذر» الفاء فيه فصيحة تفصح عن جملة مقدرة تترتب عليها الكلام، والنذر جمع نذير بمعنى المنذر أو بمعنى الإنذار والكل صحيح وإن كان الأول أقرب إلى الفهم.

والمعنى : هذا القرآن أو الذي يدعون اليه حكمة بالغة كذبوا بها واتبعوا أهواءهم فما تغني المنذرون أو الإنذارات ؟

قوله تعالى : « فتولَّ عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر » التولي الإعراض والفاء في « فتولَّ » لتفريع الأمر بالتولي على ما تقدمه من وصف حالهم أي إذا كانوا مكذبين بك متبعين أهواءهم لا يغني فيهم النذر ولا تؤثر فيهم الزواجر فتولَّ عنهم ولا تلح عليهم بالدعوة.

وقوله : « يوم يدع الداع إلى شيء نكر » قال الراغب : الإنكار ضد العرفان يقال : أنكرت كذا ونكرت ، وأصله أن يرد على القلب ما لا يتصوره ، وذلك ضرب من الجهل قال تعالى : « فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم » . قال : والنكر الدهاء والأمر الصعب الذي لا يعرف . انتهى .

وقد تم الكلام في قوله : « فتولَّ عنهم » ببيان حالهم تجاه الحكمة البالغة التي ألقيت اليهم والزواجر التي ذكّروا بها على سبيل الإنذار ، ثم أعاد سبحانه نبذة من تلك الزواجر التي هي أنباء من حالهم يوم القيامة ومن عاقبة حال الامم المكذبين من الماضين في لحن العتاب والتوبيخ الشديد الذي تهز قلوبهم للانتباه وتقطع منابت أعذارهم في الإعراض .

فقوله : « يوم يدع الداع » الخ ، كلام مفصول عما قبله لذكر الزواجر التي أشير اليها سابقاً في مقام الجواب عن سؤال مقدر كأنه لما قال : « فتولَّ عنهم » سئل فقيل : فإلى مَ يؤول أمرهم ؟ فقيل : « يوم يدع » الخ ، أي هذه حال آخرتهم وتلك عاقبة دنيا أشياعهم وأمثالهم من قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، وليسوا خيراً منهم .

وعلى هذا فالظرف في « يوم يدع » متعلق بما سيأتي من قوله : « يخرجون » والمعنى :

يخرجون من الأجداث يوم يدعو الداعي إلى شيء نكر ، الخ ، وإما متعلق بمحذوف ، والتقدير اذكر يوم يدعو الداعي ، والمحصل اذكر ذاك اليوم وحالهم فيه ، والآية في معنى قوله : « هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم » الزخرف : ٦٦ ، وقوله : « فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم » يونس : ١٠٢ .

ولم يسمّ سبحانه هذا الداعي من هو ؟ وقد نسب الدعوة في موضع من كلامه إلى نفسه فقال : « يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده » أسرى : ٥٢ .

وإنما أورد من أنباء القيامة نبأ دعوتهم للخروج من الأجداث والحضور لفصل القضاء وخروجهم منها خشّعاً أبصارهم مهطعين إلى الداعي ليحاذي به دعوتهم في الدنيا إلى الإيمان بالآيات وإعراضهم وقولهم : سحر مستمر .

ومعنى الآية : اذكر يوم يدعو الداعي إلى أمر صعب عليهم وهو القضاء والجزاء .

قوله تعالى : « خشّعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر » الخشع جمع خاشع والخشوع نوع من الذلة ونسب إلى الأبصار لأن ظهوره فيها أتم .

والأجداث جمع جدث وهو القبر ، والجراد حيوان معروف ، وتشبيههم في الخروج من القبور بالجراد المنتشر من حيث أن الجراد في انتشاره يدخل البعض منه في البعض ويختلط البعض بالبعض في جهات مختلفة فكذلك هؤلاء في خروجهم من القبور ، قال تعالى: «يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون خاشعة أبصارهم» المعارج : ٤٤.

قوله تعالى: «مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر» أي حال كونهم مسرعين إلى الداعي مطيعين مستجيبين دعوته يقول الكافرون : هذا يوم عسر أي صعب شديد .

(بحث روائي)

في تفسير القمي « اقتربت الساعة » قال : اقتربت القيامة فلا يكون بعد رسول الله ﷺ إلا القيامة وقد انقضت النبوة والرسالة .

وقوله : « وانشق القمر » فإن قريشاً سألت رسول الله ﷺ أن يريهم آية فدعا الله فانشق القمر نصفين حتى نظروا اليه ثم التأم فقالوا : هذا سحر مستمر أي صحيح .

وفي أمالي الشيخ بإسناده عن عبيد الله بن علي عن الرضا عن آبائه عن علي عليهم السلام قال : انشق القمر بمكة فلقتين فقال رسول الله ﷺ : اشهدوا اشهدوا .

أقول : ورد انشقاق القمر لرسول الله ﷺ في روايات الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام كثيراً وقد تسلمه محدثوهم والعلماء من غير توقف .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد ومسلم وابن جرير وابن المنذر والترمذي وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أنس قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ آية فانشق القمر بمكة فرقتين فنزلت « اقتربت الساعة وانشق القمر » إلى قوله : « سحر مستمر » أي ذاهب .

وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي وكلاهما في الدلائل من طريق مسروق عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد النبي ﷺ فقال قريش : هذا سحر ابن أبي كبشة فقالوا : انتظروا ما يأتيكم به السفار فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم فجاء السفار فسألوهم فقالوا: نعم قد رأيناه فأنزل الله « اقتربت الساعة وانشقّ القمر » .

وفيه أخرج مسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والحاكم والبيهقي وأبو نعيم في الدلائل من طريق مجاهد عن ابن عمر في قوله : « اقتربت الساعة وانشق القمر » قال : كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فرقتين : فرقة من دون الجبل وفرقة خلفه فقال النبي ﷺ : اللهم اشهد .

وفيه أخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير والحاكم وأبو نعيم والبيهقي عن جبير بن مطعم في قوله : « وانشق القمر » قال : انشق القمر ونحن بمكة على عهد رسول الله ﷺ حتى صار فرقتين : فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل فقال الناس : سحرنا محمد فقال رجل : إن كان سحركم فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم .

وفيه أخرج ابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس في قوله : « اقتربت الساعة وانشقّ القمر » قال : قد مضى ذلك قبل الهجرة انشقّ القمر حتى رأوا شقيه .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم عن أبي عبد الرحمان السلمي قال : خطبنا حذيفة بن اليمان بالمدائن

فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال: اقتربت الساعة وانشق القمر ألا وإن الساعة قد اقتربت . ألا وإن القمر قد انشق على عهد رسول الله ﷺ . ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق . ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق .

أقول : وقد روي انشقاق القمر بدعاء النبي ﷺ بطرق مختلفة كثيرة عن هؤلاء النفر من الصحابة وهم أنس ، وعبد الله بن مسعود ، وابن عمر ، وجبير بن مطعم ، وابن عباس ، وحذيفة بن اليمان ، وعد في روح المعاني ممن روي عنه الحديث من الصحابة علياً ﷺ ثم نقل عن السيد الشريف في شرح المواقف وعن ابن السبكي في شرح المختصر أن الحديث متواتر لا يمترى في تواتره . هذه حال الحديث عند أهل السنة وقد عرفت حاله عند الشيعة .

(كلام فيه إجمال القول في شق القمر)

آية شق القمر بيد النبي ﷺ بمكة قبل الهجرة باقتراح من المشركين مما تسلمها المسلمون بلا ارتياب منهم .

ويدل عليها من القرآن الكريم دلالة ظاهرة قوله تعالى: « اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » القمر: ٢ ، فالآية الثانية تأبى إلا أن يكون مدلول قوله : « وانشق القمر » آية واقعة قريبة من زمان النزول أعرض عنها المشركون كسائر الآيات التي أعرضوا عنها وقالوا : سحر مستمر .

ويدل عليها من الحديث روايات مستفيضة متكاثرة رواها الفريقان وتسلمها المحدثون، وقد تقدمت نماذج منها في البحث الروائي .

فالكتاب والسنة يدلان عليها وانشقاق كرة من الكرات الجوية ممكن في نفسه لا دليل على استحالته العقلية ، ووقوع الحوادث الخارقة للعادة – ومنها الآيات المعجزات – جائز وقد قدمنا في الجزء الأول من الكتاب تفصيل الكلام فيها إمكاناً ووقوعاً ومن أوضح الشواهد عليه القرآن الكريم فمن الواجب قبول هذه الآية وإن لم يكن من ضروريات الدين.

واعترض عليها بأن صدور الآية المعجزة منه ﷺ باقتراح من الناس ينافي قوله تعالى: وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما

نرسل بالآيات إلا تخويفاً » أسرى : ٥٩ فإن مفاد الآية إما أنا لا نرسل بالآيات إلى هذه الامة لأن الامم السابقة كذبوا بها وهؤلاء يماثلونهم في طباعهم فيكذبون بها ، ولا فائدة في الإرسال مع عدم ترتب أثر عليه أو المفاد أنا لا نرسل بها لأنا أرسلنا إلى أوليهم فكذبوا بها فعذبوا وأهلكوا ولو أرسلنا إلى هؤلاء لكذبوا بها وعذبوا عذاب الاستئصال لكنا لا نريد أن نعاجلهم بالعذاب ، وعلى أي حال لا نرسل بالآيات إلى هذه الامة كما كانت ترسل إلى الامم الدارجة .

نعم هذا في الآيات المرسلة باقتراح من الناس دون الآيات التي تؤيد بها الرسالة كالقرآن المؤيد لرسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكآيتي العصا واليد لموسى عليه السلام وآية إحياء الموتى وغيرها لعيسى عليه السلام ، وكذا الآيات النازلة لطفاً منه سبحانه كالخوارق الصادرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا عن اقتراح منهم .

ومثل الآية السابقة قوله تعالى : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً – إلى أن قال – قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً » أسرى : ٩٣ وغير ذلك من الآيات .

والجواب عن هذا الاعتراض يحتاج إلى تقديم مقدمة هي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث رسولاً إلى أهل الدنيا كافة بنبوة خاتمة كما يدل عليه قوله تعالى : « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً » الأعراف : ١٥٨ ، وقوله : « وأوحي إليّ هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ » الأنعام : ١٩ ، وقوله : « ولكن رسول الله وخاتم النبيين » الأحزاب : ٤٠ إلى غير ذلك من الآيات .

وقد بدأ صلى الله عليه وآله وسلم وهو بمكة بدعوة قومه من أهل مكة وحواليها فقابلوه بما استطاعوا من الشقاق والإيذاء والاستهزاء وهمّوا بإخراجه أو إثباته أو قتله حتى أمره ربه بالهجرة غير أنه آمن به وهو بمكة جمع كثير منهم وإن كانت عامتهم على الكفر والمؤمنون وإن كانوا قليلين بالنسبة إلى المشركين مضطهدين مفتّنين لكنهم كانوا في أنفسهم جمعاً ذا عدد كما يدل عليه قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة » النساء : ٧٧ . فقد استجازوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يقاتلوا المشركين فلم يأذن الله لهم في ذلك على ما روي في سبب نزول الآية ، وهذا يدل على أنهم كانوا ذوي عُدّة وعِدّة في الجملة ولم يزالوا يزيدون جمعاً .

ثم هاجر ﷺ إلى المدينة وبسط هنالك الدعوة ونشر الإسلام فيها وفي حواليها وفي القبائل وفي اليمن وسائر أقطار الجزيرة ما عدا مكة وحواليها ثم بسط الدعوة على غير الجزيرة فكاتب الملوك والعظماء من فارس والروم ومصر سنة ست من الهجرة ثم فتح مكة سنة ثمان من الهجرة وقد أسلم ما بين الهجرة والفتح جمع من أهلها وحواليها .

ثم ارتحل ﷺ وكان من انتشار الإسلام ما كان ، ولم يزل الإسلام يزيد جمعاً وينتشر صيتاً الى يومنا هذا وقد بلغوا خمس أهل الأرض عدداً .

إذا تمهد هذا فنقول : كانت آية انشقاق القمر آية اقتراحية تستعقب العذاب لو كذبوا بها وقد كذبوا وقالوا : سحر مستمر وما كان الله ليهلك بها جميع من أرسل اليهم النبي ﷺ وهم أهل الأرض جميعاً لعدم تمام الحجة عليهم يومئذ وقد كان الانشقاق سنة خمس قبل الهجرة ، وقد قال تعالى : « ليهلك من هلك عن بيّنة » الأنفال : ٤٢ .

وما كان الله ليهلك جميع أهل مكة وحواليها خاصة وبينهم جمع من المسلمين كما قال تعالى : « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرّة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً» الفتح : ٢٥ .

وما كان الله سبحانه لينجي المؤمنين ويهلك كفارهم وقد آمن جمع كثير منهم فيما بين سنة خمس قبل الهجرة وسنة ثمان بعد الهجرة عام فتح مكة ثم آمنت عامتهم يوم الفتح والإسلام كان يكتفي منهم بظاهر الشهادتين .

ولم تكن عامة أهل مكة وحواليها أهل عناد وجحود وإنما كان أهل الجحود والعناد عظماؤهم وصناديدهم المستهزئين بالنبي ﷺ المعذبين للمؤمنين ، المقترحين عليه بالآيات وهم الذين يقول تعالى فيهم : « إن الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » البقرة : ٦ ، وقد أوعد الله هؤلاء الجاحدين المقترحين بتحريم الإيمان والهلاك في مواضع من كلامه فلم يؤمنوا وأهلكهم الله يوم بدر وتمّت كلمة الرب صدقاً وعدلاً .

وأما التمسك لنفي إرسال الآيات مطلقاً بقوله تعالى : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » فالآية لا تشمل قطعاً الآيات المؤيدة للرسالة كالقرآن المؤيد لرسالة النبي ﷺ ، وكذا الآيات النازلة لطفاً كالخوارق الصادرة عن النبي ﷺ من الإخبار بالمغيبات وشفاء المرضى بدعائه وغير ذلك .

فلو كانت مطلقة فإنما تشمل الآيات الاقتراحية وتفيد أن الله سبحانه لم يرسل الآيات

التي اقترحتها قريش – أولم [١] يرسل النبي ﷺ بالآيات التي اقترحوها – لأن الامم السابقة كذبوا بها وطباع هؤلاء المقترحين طباعهم يكذبون بها ولازمها نزول العذاب والله لا يريد أن يعذبهم عاجلاً .

وقد أوضح سبحانه سبب عدم معاجلتهم بالعذاب بقوله : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون» الأنفال: ٣٣ ، واستبان بذلك أن المانع من عذابهم وجود الرسول فيهم كما يفيده أيضاً قوله تعالى : « وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً » أسرى : ٧٦ .

ثم قال تعالى : « وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدّون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » الأنفال : ٣٥ والآيات نزلت عقيب غزوة بدر .

والآيات تبين أنه لم يكن من قبلهم مانع من نزول العذاب غير وجود النبي ﷺ بينهم فإذا زال المانع بخروجه من بينهم فليذوقوا العذاب وهو ما أصابهم في وقعة بدر من القتل الذريع .

وبالجملة كان المانع من إرسال الآيات تكذيب الأولين ومماثلتهم لهم في خصيصة التكذيب ووجود النبي ﷺ بينهم المانع من معاجلة العذاب فإذا وجد مقتض للعذاب كالصد والمكاء والتصدية وزال أحد ركني المانع وهو كونه ﷺ فيهم فلا مانع من العذاب ولا مانع من نزول الآية وإرسالها ليحق عليهم القول فيعذبوا بسبب تكذيبهم لها وبسبب مقتضيات أخر كالصد ونحوه .

فتحصل أن قوله تعالى : « وما منعنا أن نرسل بالآيات » الخ ، إنما يفيد الإمساك عن إرسال الآيات ما دام النبي ﷺ فيهم وأما إرسالها وتأخير العذاب الى خروجه من بينهم فلا دلالة فيه عليه وقد صرح سبحانه بأن وقعة بدر كانت آية وما أصابهم فيها كان عذاباً ، وكذا لو كان مفاد الآية هو الامتناع عن الإرسال لكونه لغواً بسبب كونهم مجبولين على التكذيب فإن إرسالها مع تأخيرالعذاب والنكال الى خروج النبي ﷺ من

(١) اول شقي الترديد مبني على كون الباء في قوله : « نرسل بالآيات » زائدة والآيات مفعول نرسل ، والثاني مبني على كونها بمعنى المصاحبة والمفعول محذوفاً .

بينهم من الفائدة ليحق الله الحق ويبطل الباطل فلتكن آية انشقاق القمر من الآيات النازلة التي من فائدتها نزول العذاب عليهم بعد خروج النبي ﷺ من بينهم .

وأما قوله تعالى : « قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً » فليس مدلوله نفي تأييد النبي ﷺ بالآيات المعجزة وإنكار نزولها من أصلها كيف ؟ وهو ينفيها عن نفسه بما أنه بشر رسول ، ولو كان المراد ذلك لأفاد إنكار معجزات الأنبياء جميعاً لكون كل منهم بشراً رسولاً ، وصريح القرآن فيما حدث من قصص الأنبيـــاء وأخبر عن آياتهم يناقض ذلك ، وأوضح من الجميع في مناقضة ذلك نفس الآية التي هي من القرآن المتحدي بالإعجاز .

بل مدلوله أن النبي ﷺ بشر رسول غير قادر من حيث نفسه على شيء من الآيات التي يقترحون عليه ، وإنما الأمر الى الله سبحانه إن شاء أنزلها وان لم يشأ لم يفعل قال تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون » الأنعام : ١٠٩ ، وقال حاكياً عن قوم نوح : « قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين قال إنما يأتيكم به الله إن شاء » هود : ٣٣ ، وقال :« وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله » المؤمن: ٨٧ ، والآيات في هذا المعنى كثيرة .

ومن الاعتراض على آية الانشقاق ما قيل : إن القمر لو انشق كما يقال لرآه جميع الناس ولضبطه أهل الأرصاد في الشرق والغرب لكونه من أعجب الآيات السماوية ولم يعهد فيما بلغ الينا من التاريخ والكتب الباحثة عن الأوضاع السماوية له نظير والدواعي متوفرة على استماعه ونقله .

وأجيب بما حاصله أن من الممكن أولاً : أن يغفل عنه فلا دليل على كون كل حادث أرضي أو سماوي معلوماً للناس محفوظاً عندهم يرثه خلف عن سلف .

وثانياً : أن الحجاز وما حولها من البلاد العربية وغيرها لم يكن بها مرصد للأوضاع السماوية ،وإنما كان ما كان من المراصد بالهند والمغرب من الروم واليونان وغيرهما ولم يثبت وجود مرصد في هذا الوقت – وهو على ما في بعض الروايات أول الليلة الرابعة عشرة من ذي الحجة سنة خمس قبل الهجرة – .

على أن بلاد الغرب التي كانوا معتنين بهذا الشأن بينها وبين مكة من اختلاف الافق ما

يوجب فصلاً زمانياً معتداً به وقد كان القمر – على ما في بعض الروايات – بدراً وانشق في حوالي غروب الشمس حين طلوعه ولم يبق على الانشقاق إلا زماناً يسيراً ثم التأم فيقع طلوعه على بلاد الغرب وهو ملتئم ثانياً .

على أنا نتهم غير المسلمين من أتباع الكنيسة والوثنية في الامور الدينية التي لها مساس نفع بالاسلام .

ومن الاعتراض عليها ما قيل : إن الانشقاق لا يقع إلا ببطلان التجاذب بين الشقتين وحينئذ يستحيل الالتيام فلو كان منشقاً لم يلتئم أبداً .

والجواب عنه أن الاستحالة العقلية ممنوعة ، والاستحالة العادية بمعنى اختراق العادة لو منعت عن الالتيام بعد الانشقاق لمنعت أولاً عن الانشقاق بعد الالتيام ولم تمنع وأصل الكلام مبني على جواز خرق العادة .

* * *

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ
وَازْدُجِرَ – ٩ . فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ – ١٠ . فَفَتَحْنَا
أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ – ١١ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ
عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ – ١٢ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ – ١٣ .
تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ – ١٤ . وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ
مِنْ مُدَّكِرٍ – ١٥ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ – ١٦ . وَلَقَدْ
يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ – ١٧ . كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ
كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ – ١٨ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ
نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ – ١٩ . تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ – ٢٠ .

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ــ ٢١ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ
فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ــ ٢٢ . كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ــ ٢٣ . فَقَالُوا أَبَشَراً
مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ــ ٢٤ . ءَأُلْقِيَ الذِّكْرُ
عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ــ ٢٥ . سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ
ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ــ ٢٦ . إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ
وَٱصْطَبِرْ ــ ٢٧. وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ــ ٢٨.
فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ــ ٢٩. فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ــ ٣٠.
إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ــ ٣١ .
وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ــ ٣٢ . كَذَّبَتْ قَوْمُ
لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ــ ٣٣ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ
بِسَحَرٍ ــ ٣٤ . نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ــ ٣٥ .
وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِٱلنُّذُرِ ــ ٣٦ . وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ
ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ــ ٣٧ . وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ
بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ــ ٣٨ . فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ــ ٣٩. وَلَقَدْ
يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ــ ٤٠ . وَلَقَدْ جَاءَ آلَ
فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ــ ٤١ . كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ
مُقْتَدِرٍ ــ ٤٢ .

(بيان)

إشارة إلى بعض ما فيه مزدجر من أنباء الامم الدارجة خص بالذكر من بينهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون فذكّرهم بأنبائهم وأعاد عليهم إجمال ما قص عليهم سابقاً من قصصهم وما آل اليه تكذيبهم بآيات الله ورسله من أليم العذاب وهائل العقاب تقريراً لقوله : « ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر » .

ولتوكيد التقرير وتمثيل ما في هذه القصص الزاجرة من الزجر القارع للقلوب عقّب كل واحدة من القصص بقوله خطاباً لهم : « فكيف كان عذابي ونذر » ثم ثنّاه بذكر الغرض من الإنذار والتخويف فقال : « ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر » .

قوله تعالى : « كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر » التكذيب الأول منزل منزلة اللازم أي فعلت التكذيب ، وقوله : « فكذبوا عبدنا » الخ ، تفسيره كما في قوله : « ونادى نوح ربه فقال » الخ ، هود : ٤٥ .

وقيل : المراد بالتكذيب الأول التكذيب المطلق وهو تكذيبهم بالرسل ، وبالثاني التكذيب بنوح خاصة كقوله في سورة الشعراء : « كذبت قوم نوح المرسلين » الشعراء : ١٠٥ ، والمعنى : كذبت قوم نوح المرسلين فترتب عليه تكذيبهم لنوح ، وهو وجه حسن .

وقيل : المراد بتفريع التكذب على التكذيب الإشارة إلى كونه تكذيباً إثر تكذيب بطول زمان دعوته فكلما انقرض قرن منهم مكذب جاء بعدهم قرن آخر مكذب ، وهو معنى بعيد .

ومثله قول بعضهم : إن المراد بالتكذيب الأول قصده وبالثاني فعله .

وقوله : « فكذبوا عبدنا » في التعبير عن نوح عليه‌السلام بقوله : « عبدنا » في مثل المقام تجليل لمقامه وتعظيم لأمره وإشارة إلى أن تكذيبهم له يرجع اليه تعالى لأنه عبد لا يملك شيئاً وما له فهو لله .

وقوله : « وقالوا مجنون وازدجر » المراد بالازدجار زجر الجن له إثر الجنون ، والمعنى : ولم يقتصروا على مجرد التكذيب بل نسبوه إلى الجنون فقالوا هو مجنون وازدجره الجن فلا يتكلم إلا عن زجر وليس كلامه من الوحي السماوي في شيء .

وقيل : الفاعل المحذوف للازدجار هو القوم ، والمعنى : وازدجره القوم عن الدعوة والتبليغ بأنواع الإيذاء والتخويف ، ولعل المعنى الأول أظهر .

قوله تعالى : « فدعا ربه أني مغلوب فانتصر » الانتصار الانتقـــام ، وقوله : « إني مغلوب » أي بالقهر والتحكم دون الحجة ، وهذا الدعاء تلخيص لتفصيل دعائه ، وتفصيل دعائه مذكور في سورة نوح وتفصيل حججه في سورة هود وغيرها .

قوله تعالى : « ففتحنا أبواب السماء بمـــاء منهمر » قال في المجمع : الهمر صب الدمع والماء بشدة ،والانهمار الانصباب ، انتهى. وفتح أبواب السماء وهي الجو بماء منصب استعارة تمثيلية عن شدة انصباب الماء وجريان المطر متواليا كأنه مدخر وراء باب مسدود يمنع عن انصبابه ففتح الباب فانصب أشد ما يكون .

قوله تعالى : «وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر »قال في المجمع :التفجير تشقيق الأرض عن الماء ،والعيون جمع عين الماء وهو ما يفور من الأرض مستديراً كاستدارة عين الحيوان . انتهى .

والمعنى : جعلنا الأرض عيوناً منفجرة عن الماء تجري جرياناً متوافقاً متتابعاً .

وقوله : «فالتقى الماء على أمر قد قدر »أي فالتقى الماءان ماء السماء وماء الأرض مستقراً على أمر قدره الله تعالى أي حسب ما قدر من غير نقيصة ولا زيادة ولا عجل ولا مهل .

فالماء اسم جنس أريد به ماء السماء وماء الأرض ولذلك لم يثن ، والمراد بأمر قد قدر الصفة التي قدرها الله لهذا الطوفان .

قوله تعالى : « وحملناه على ذات ألواح ودسر » المراد بذات الألواح والدسر السفينة ، والألواح جمع لوح وهو الخشبة التي يركب بعضها على بعض في السفينة ، والدسر جمع دسار ودسر وهو المسمار الذي تشد بها الألواح في السفينة ، وقيل فيه معـان أخر لا تلائم الآية تلك الملاءمة .

قوله تعالى : « تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر » أي تجري السفينة على الماء المحيط بالأرض بأنواع من مراقبتنا وحفظنا وحراستنا ، وقيل : المراد تجري بأعين أوليائنا ومن وكلناه بها من الملائكة .

وقوله : « جزاء لمن كان كفر » أي جريان السفينة كذلك وفيه نجاة من فيها من الهلاك ليكون جزاء لمن كان كفر به وهو نوح عليه السلام كفر به وبدعوته قومه ، فالآية في معنى

قوله : « ونجيناه وأهله من الكرب العظيم – إلى أن قال – إنا كذلك نجزي المحسنين » الصافات : ٨٠ .

قوله تعالى : « ولقد تركناها آية فهل من مدكر » ضمير « تركناها » للسفينة على ما يفيده السياق واللام للقسم ، والمعنى : أقسم لقد أبقينا تلك السفينة التي نجينا بها نوحاً والذين معه ، وجعلناها آية يعتبر بها من اعتبر فهل من متذكر يتذكر بها وحدانيته تعالى وأن دعوة أنبيائه حق ، وأن أخذه أليم شديد ؟ ولازم هذا المعنى بقاء السفينة إلى حين نزول هذه الآيات علامة دالّة على واقعة الطوفان مذكرة لها ، وقد قال بعضهم في تفسير الآية على ما نقل : أبقى الله سفينة نوح على الجودي حتى أدركها أوائل هذه الامة [١] ، انتهى. وقد أوردنا في تفسير سورة هود في آخر الأبحاث حول قصة نوح خبر أنهم عثروا في بعض قلل جبل آراراط وهو الجودي قطعات أخشاب من سفينة متلاشية وقعت هناك ، فراجع .

وقيل : ضمير « تركناها » لما مر من القصة بما أنها فعله .

قوله تعالى : « فكيف كان عذابي ونذر » النذر جمع نذير بمعنى الإنذار ، وقيل : مصدر بمعنى الإنذار . والظاهر أن « كان » ناقصة واسمها « عذابي » وخبرها « فكيف » ، ويمكن أن تكون تامة فاعلها قوله : « عذابي » وقوله : « فكيف » حالاً منه .

وكيف كان فالاستفهام للتهويل يسجل به شدة العذاب وصدق الإنذار .

قوله تعالى : « ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر » التيسير التسهيل وتيسير القرآن للذكر هو إلقاؤه على نحو يسهل فهم مقاصده للعامي والخاصي والأفهام البسيطة والمتعمقة كل على مقدار فهمه .

ويمكن أن يراد به تنزيل حقائقه العالية ومقاصده المرتفعة عن أفق الأفهام العادية إلى مرحلة التكليم العربي تناله عامة الأفهام كما يستفاد من قوله تعالى : « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعليّ حكيم » الزخرف : ٤ .

والمراد بالذكر ذكره تعالى بأسمائه أو صفاته أو أفعاله ، قال في المفردات : الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للانسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة وهو كالحفظ

(١) رواه في الدر المنثور عن عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة .

إلا أن الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه ، والذكر يقال اعتباراً باستحضاره وتارة يقال لحضور الشيء القلب أو القول ، ولذلك قيل : الذكر ذكران : ذكر بالقلب وذكر باللسان وكل واحد منهما ضربان : ذكر عن نسيان وذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ ، وكل قول يقال له ذكر . انتهى .

ومعنى الآية : وأقسم لقد سهلنا القرآن لأن يتذكر به ، فيذكر الله تعالى وشؤنه ، فهل من متذكر يتذكر به فيؤمن بالله ويدين بما يدعو اليه من الدين الحق ؟

فالآية دعوة عامة إلى التذكر بالقرآن بعد تسجيل صدق الإنذار وشدة العذاب الذي أنذر به .

قوله تعالى : « كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر » شروع في قصة اخرى من القصص التي فيها الازدجار ولم يعطف على ما قبلها – ومثلها القصص الآتية – لأن كل واحدة من هذه القصص مستقلة كافية في الزجر والردع والعظة لو اتعظوا بها .

وقوله : « فكيف كان عذابي ونذر » مسوق لتوجيه قلوب السامعين إلى ما يلقى اليهم من كيفية العذاب الهائل بقوله : « إنا أرسلنا » الخ ، وليس مسوقاً للتهويل وتسجيل شدة العذاب وصدق الإنذار كسابقه وإلا لتكرر قوله بعد : « فكيف كان » الخ ، كذا قيل وهو وجه حسن .

قوله تعالى : « إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر » بيان لما استفهم عنه في قوله : « فكيف كان عذابي ونذر » والصرصر – على ما في المجمع – الريح الشديدة الهبوب ، والنحس بالفتح فالسكون مصدر كالنحوسة بمعنى الشؤم ، و « مستمر » صفة لنحس ، ومعنى إرسال الريح في يوم نحس مستمر إرسالها في يوم متلبس بالنحوسة والشأمة بالنسبة اليهم المستمرة عليهم لا يرجى فيه خير لهم ولا نجاة .

والمراد باليوم قطعة من الزمان لا اليوم الذي يساوي سبع الاسبوع لقوله تعالى في موضع آخر من كلامه : « فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات » حم السجدة ١٦ ، وفي موضع آخر : « سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً » الحاقة : ٧ .

وفسّر بعضهم النحس بالبرد .

قوله تعالى : « تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر » فاعل « تنزع » ضمير راجع إلى

الريح أي تنزع الريح الناس من الأرض ، وأعجاز النخل أسافله ، والمنقعر المقلوع من أصله ، والمعنى ظاهر ، وفي الآية إشعار ببسطة القوم أجساماً .

قوله تعالى : « فكيف كان عذابي – إلى قوله – مدكر » تقدم تفسير الآيتين .

(كلام في سعادة الأيام ونحوستها والطيرة والفأل ، في فصول)

١ – **في سعادة الأيام ونحوستها :** نحوسة اليوم أو أي مقدار من الزمان أن لا يعقب الحوادث الواقعة فيه إلا الشر ولا يكون الأعمال أو نوع خاص من الأعمال فيه مباركة لعاملها ، وسعادته خلافه .

ولا سبيل لنا إلى إقامة البرهان على سعادة يوم من الأيام أو زمان من الأزمنة ولا نحوسته وطبيعة الزمان المقدارية متشابهة الأجزاء والأبعاض ، ولا إحاطة لنا بالعلل والأسباب الفاعلة المؤثرة في حدوث الحوادث وكينونة الأعمال حتى يظهر لنا دوران اليوم أو القطعة من الزمان من علل وأسباب تقتضي سعادته أو نحوسته ، ولذلك كانت التجربة الكافية غير متأتية لتوقفها على تجرّد الموضوع لأثره حتى يعلم أن الأثر أثره وهو غير معلوم في المقام .

ولما مر بعينه لم يكن لنا سبيل إلى إقامة البرهان على نفي السعادة والنحوسة كما لم يكن سبيل إلى الإثبات وإن كان الثبوت بعيداً فالبعد غير الاستحالة . هذا بحسب النظر العقلي .

وأما بحسب النظر الشرعي ففي الكتاب ذكر من النحوسة وما يقابلها ، قال تعالى : « إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر » القمر : ١٩ ، وقال : « فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات » حم السجدة : ١٦ ، لكن لا يظهر من سياق القصة ودلالة الآيتين أزيد من كون النحوسة والشؤم خاصة بنفس الزمان الذي كانت تهبّ عليهم فيه الريح عذاباً وهو سبع ليال وثمانية أيام متوالية يستمر عليهم فيها العذاب من غير أن تدور بدوران الأسابيع وهو ظاهر وإلا كان جميع الزمان نحساً ، ولا بدوران الشهور والسنين .

وقال تعالى : « والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة » الدخان : ٣ ، والمراد بها ليلة القدر التي يصفها الله تعالى بقوله : « ليلة القدر خير من ألف شهر » القدر: ٣ ، وظاهر

أن مباركة هـــذه الليلة وسعادتها إنمـا هي بمقارنتها نوعاً من المقارنة لامور عظام من الإفاضات الباطنية الإلهية وأفاعيل معنوية كإبرام القضاء ونزول الملائكة والروح وكونها سلاماً ، قال تعالى : « فيها يفرق كل أمر حكيم » الدخان : ٤ ، وقال: « تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر » القدر : ٥ .

ويؤول معنى مباركتها وسعادتها إلى فضل العبادة والنسك فيها وغزارة ثوابهـا وقرب العناية الإلهية فيها من المتوجهين إلى ساحة العزة والكبرياء .

وأما السنّة فهنـاك روايات كثيرة جداً في السعد والنحس من أيام الاسبوع ومن أيام الشهور العربية ومن أيام شهور الفرس ومن أيام الشهور الرومية ، وهي روايات بالغـة في الكثرة مودعة في جوامع الحديث [1] أكثرها ضعاف من مراسيل ومرفوعات وإن كان فيها ما لا يخلو من اعتبار من حيث أسنادها .

أما الروايات العادّة للأيام النحسة كيوم الاربعاء والاربعاء لا تدور[2] وسبعة أيام من كل شهر عربي ويومين من كل شهر رومي ونحو ذلك ، ففي كثير منها وخاصة فيما يتعرض لنحوسة أيام الاسبوع وأيام الشهور العربيـــة تعليل نحوسة اليوم بوقوع حوادث مرة غير مطلوبة بحسب المذاق الديني كرحلة النبي ﷺ وشهادة الحسين عليه السلام وإلقـاء إبراهيم عليه السلام في النار ونزول العذاب بامة كذا وخلق النار وغير ذلك .

ومعلوم أن في عدّها نحسة مشومة وتجنب اقتراب الامور المطلوبة وطلب الحوائج التي يلتذ الإنسان بالحصول عليها فيها تحكيماً للتقوى وتقوية للروح الدينية وفي عـدم الاعتناء والاهتمام بهـا والاسترسال في الاشتغال بالسعي في كل ما تهواه النفس في أي وقت كان إضراباً عن الحق وهتكاً لحرمة الدين وإزراء لأوليائه ، فتؤل نحوسة هذه الأيام إلى جهات من الشقاء المعنوي منبعثة عن علل وأسباب اعتبارية مرتبطة نوعاً من الارتباط بهذه الأيام تفيد نوعاً من الشقاء الديني على من لا يعتني بأمرها .

وأيضاً قد ورد في عدة من هذه الروايات الاعتصام بالله بصدقة أو صوم أو دعـاء أو قراءة شيء من القرآن أو غير ذلك لدفع نحوسة هذه الأيام كما عن مجالس ابن الشيخ بإسناده

---

(١) أوردت منها في الجزء الرابع عشر من كتاب البحار أحاديث جمة .

(٢) اربعاء لا تدور هي آخر اربعاء في الشهر .

عن سهل بن يعقوب الملقب بأبي نواس عن العسكري عليه السلام في حديث قلت : يا سيدي في أكثر هذه الأيام قواطع عن المقاصد لما ذكر فيها من النحس والمخاوف فتدلني على الاحتراز من المخاوف فيها فإنما تدعوني الضرورة إلى التوجه في الحوائج فيها ؟ فقال لي : يا سهل إن لشيعتنا بولايتنا لعصمة لو سلكوا بهـا في لجة البحار الغامرة وسباسب[1] البيداء الغائرة بين سباع وذئاب وأعادي الجن والإنس لأمنوا من مخاوفهم بولايتهم لنا، فثق بالله عز وجل وأخلص في الولاء لأئمتك الطاهرين وتوجه حيث شئت واقصد ما شئت. الحديث.

ثم أمره عليه السلام بشيء من القرآن والدعاء أن يقرأه ويدفع بـه النحوسة والشأمة ويقصد ما شاء.

وفي الخصال بإسناده عن محمـد بن رباح القلاء قال : رأيت أبا إبراهيم عليه السلام يحتجم يوم الجمعة فقلت : جعلت فداك تحتجم يوم الجمعة ؟ قال : أقرأ آية الكرسي فإذا هاج بك الدم ليلاً كان أو نهاراً فاقرأ آية الكرسي واحتجم.

وفي الخصال أيضاً بإسناده عن محمد بن أحمد الدقاق قال : كتبت إلى أبي الحسن الثاني عليه السلام أسأله عن الخروج يوم الاربعاء لا تدور ، فكتب عليه السلام : من خرج يوم الاربعاء لا تدور خلافاً على أهل الطيرة وُقي من كل آفة وعوفي من كل عاهة وقضى الله له حاجته. وكتب اليه مرة اخرى يسأله عن الحجامة يوم الاربعـاء لا تدور ، فكتب عليه السلام : من احتجم في يوم الاربعاء لا تدور خلافاً على أهل الطيرة عوفي من كل آفة ، ووُقي من كل عاهة ، ولم[2] تخضر محاجمه.

وفي معناها ما في تحف العقول : قال الحسين بن مسعود : دخلت على أبي الحسن علي ابن محمد عليه السلام وقد نكبت إصبعي وتلقاني راكب وصدم كتفي ، ودخلت في زحمـة فخرقوا علي بعض ثيابي فقلت : كفاني الله شرك من يوم فما أيشمك . فقال عليه السلام لي : يا حسن هذا وأنت تغشانا ترمي بذنبك من لا ذنب له ؟

قال الحسن : فأثاب إلي عقلي وتبينت خطاي فقلت : يا مولاي أستغفر الله . فقال :

---

(١) السباسب جمع سبسب : المفازة.

(٢) هذه الجملة إشارة إلى نفي ما في عدة من الروايات أن من احتجم في يوم الاربعاء أو يوم الاربعاء لا تدور اخضرت محاجمه ، وفي بعضها خيف عليه أن تخضر محاجمه.

يا حسن ما ذنب الأيام حتى صرتم تتشاءمون بها إذا جوزيتم بأعمالكم فيها ؟ قال الحسن : أنا أستغفر الله أبداً ، وهي توبتي يا ابن رسول الله .

قال : ما ينفعكم ولكن الله يعاقبكم بذمّها على ما لا ذم عليها فيه . أما علمت يا حسن أن الله هو المثيب والمعاقب والمجازي بالأعمال عاجلاً وآجلاً ؟ قلت : بلى يا مولاي . قال : لا تعد ولا تجعل للأيام صنماً في حكم الله . قال الحسن : بلى يا مولاي .

والروايات السابقة – ولها نظائر في معناها – يستفاد منها أن الملاك في نحوسة هذه الأيام النحسات هو تطيّر عامة الناس بها وللتطير تأثير نفساني كما سيأتي ، وهذه الروايات تعالج نحوستها التي تأتيها من قبل الطيرة بصرف النفس عن الطيرة إن قوي الإنسان على ذلك ، وبالالتجاء إلى الله سبحانه والاعتصام به بقرآن يتلوه أو دعاء يدعو به إن لم يقوَ عليه بنفسه .

وحمل بعضهم هذه الروايات المسلمة لنحوسة بعض الأيام على التقية ،وليس بذاك البعيد فإن التشاؤم والتفاؤل بالأزمنة والأمكنة والأوضاع والأحوال من خصائص العامة يوجد منه عندهم شيء كثير عند الامم والطوائف المختلفة على تشتتهم وتفرقهم منذ القديم إلى يومنا وكان بين الناس حتى خواصهم في الصدر الأول في ذلك روايات دائرة يسندونها إلى النبي ﷺ لا يسع لأحد أن يردها كما في كتاب المسلسلات بإسناده عن الفضل بن الربيع قال : كنت يوماً مع مولاي المأمون فأردنا الخروج يوم الاربعاء فقال المأمون : يوم مكروه سمعت أبي الرشيد يقول : سمعت المهدي يقول : سمعت المنصور يقول : سمعت أبي محمد بن علي يقول : سمعت أبي علياً يقول : سمعت أبي عبد الله بن عباس يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن آخر الاربعاء في الشهر يوم نحس مستمر .

وأما الروايات الدالة على الأيام السعيدة من الاسبوع وغيرها فالوجه فيها نظير ما تقدمت اليه الإشارة في الأخبار الدالة على نحوستها من الوجه الأول فإن في هذه الأخبار تعليل بركة ما عده من الأيام السعيدة بوقوع حوادث متبركة عظيمة في نظر الدين كولادة النبي ﷺ وبعثه وكما ورد أنه ﷺ دعا فقال : اللهم بارك لامتي في بكورها يوم سبتها وخميسها ، وما ورد أن الله ألان الحديد لداود ﷺ يوم الثلاثاء، وأن النبي ﷺ كان يخرج للسفر يوم الجمعة ، وأن الأحد من أسماء الله تعالى .

فتبين مما تقدم علىطوله أن الأخبار الواردة في سعادة الأيام ونحوستها لا تدل على أزيد

من ابتنائها على حوادث مرتبطة بالدين توجب حسناً وقبحاً بحسب الذوق الديني أو بحسب تأثير النفوس ، وأما اتصاف اليوم أو أي قطعة من الزمان بصفة الميمنة أو المشأمة واختصاصه بخواص تكوينية عن علل وأسباب طبيعية تكوينية فلا ، وما كان من الأخبار ظاهراً في خلاف ذلك فإما محمول على التقية أو لا اعتماد عليه .

٢ – **في سعادة الكواكب ونحوستها** وتأثير الأوضاع السماوية في الحوادث الأرضية سعادة ونحوسة . الكلام في ذلك من حيث النظر العقلي كالكلام في سعادة الأيام ونحوستها فلا سبيل إلى إقامة البرهان على شيء من ذلك كسعادة الشمس والمشتري وقران السعدين ونحوسة المريخ وقران النحسين والقمر في العقرب .

نعم كان القدماء من منجمي الهند يرون للحوادث الأرضية ارتباطاً بالأوضاع السماوية مطلقاً أعم من أوضاع الثوابت والسيارات ، وغيرهم يرى ذلك بين الحوادث وبين أوضاع السيارات السبع دون الثوابت وأوردوا لأوضاعها المختلفة خواص وآثاراً تسمى بأحكام النجوم يرون عند تحقق كل وضع أنه يعقب وقوع آثاره .

والقوم بين قائل بأن الأجرام الكوكبية موجودات ذوات نفوس حية مريدة تفعل أفاعيلها بالعلية الفاعلية ، وقائل بأنها أجرام غير ذات نفس تؤثر أثرها بالعلية الفاعلية ، أو هي معدات لفعله تعالى وهو الفاعل للحوادث أو أن الكواكب وأوضاعها علامات للحوادث من غير فاعلية ولا إعداد ، أو أنه لا شيء من هذه الارتباطات بينها وبين الحوادث حتى على نحو العلامية وإنما جرت عادة الله على أن يحدث حادثة كذا عند وضع سماوي ، كذا .

وشيء من هذه الأحكام ليس بدائمي مطرد بحيث يلزم حكم كذا وضعا كذا فربما تصدق وربما تكذب لكن الذي بلغنا من عجائب القصص والحكايات في استخراجاتهم يعطي أن بين الأوضاع السماوية والحوادث الأرضية ارتباطاً ما إلا أنه في الجملة لا بالجملة كما أن بعض الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام يصدق ذلك كذلك .

وعلى هذا لا يمكن الحكم البتي بكون كوكب كذا أو وضع كذا سعداً أو نحساً وأما أصل ارتباط الحوادث والأوضاع السماوية والأرضية بعضها ببعض فليس في وسع الباحث الناقد إنكار ذلك .

وأما القول بكون الكواكب أو الأوضاع السماوية ذوات تأثير فيما دونها سواء قيل

بكونها ذوات نفوس ناطقة أو لم يقل فليس مما يخالف شيئاً من ضروريات الدين إلا أن يقال بكونها خالقـــة موجدة لما دونها من غير أن ينتهي ذلك اليه تعالى فيكون شركاً لكنه لا قائل به حتى من وثنية الصابئة التي تعبد الكواكب، أو أن يقال بكونها مدبرة للنظام الكوني مستقلة في التدبير فيكون ربوبية تستعقب المعبودية فيكون شركاً كما عليه الصابئة عبدة الكواكب .

وأما الروايات الواردة في تأثير النجوم سعداً ونحساً وتصديقاً وتكذيباً فهي كثيرة جداً على أقسام :

منها: ما يدل بظاهره على تسليم السعادة والنحوسة فيها كما في الرسالة الذهبية عن الرضا عليه‌السلام : اعلم أن جماعهنّ والقمر في برج الحمل أو الدلو من البروج أفضل وخير من ذلك أن يكون في برج الثور لكونه شرف القمر .

وفي البحار عن النوادر بإسناده عن حمران عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال : من سافر أو تزوّج والقمر في العقرب لم يرَ الحسنى الخبر ، وفي كتاب النجوم لابن طاووس عن علي عليه‌السلام : يكره أن يسافر الرجل في محاق الشهر وإذا كان القمر في العقرب .

ويمكن حمل أمثال هذه الروايات على التقيّة على ما قيل ، أو على مقارنة الطيرة العامة كما ربما يشعر به ما في عدة من الروايات من الأمر بالصدقة لدفع النحوسة كما في نوادر الراوندي بإسناده عن موسى بن جعفر عن أبيه عن جده في حديث :إذا أصبحت فتصدق بصدقة تذهب عنك نحس ذلك اليوم ، وإذا أمسيت فتصدّق بصدقة تذهب عنك نحس تلك الليلة الخبر ، ويمكن أن يكون ذلك لارتباط خاص بين الوضع السماوي والحادثـة الأرضية بنحو الاقتضاء .

ومنها : ما يدل على تكذيب تأثيرات النجوم في الحوادث والنهي الشديد عن الاعتقاد بها والاشتغال بعلمهـا كما في نهج البلاغة : المنجّم كالكاهن والكاهن كالساحر والساحر كالكافر والكافر في النار . ويظهر من أخبار أُخر تصدّقها وتجوز النظر فيها أن النهي عن الاشتغال بها والبناء عليها إنما هو فيما اعتقد لها استقلال في التأثير لتأديته إلى الشرك كما تقدّم .

ومنها : ما يدل على كونه حقاً في نفسه غير أن قليله لا ينفع وكثيره لا يدرك كما في الكافي بإسناده عن عبد الرحمان بن سيابة قال : قلت لأبي عبد الله عليه‌السلام : جعلت فداك

إن الناس يقولون : إن النجوم لا يحلّ النظر فيها وهو يعجبني فإن كانت تضر بديني فلا حاجة لي في شيء يضر بديني ، وإن كانت لا تضر بديني فوالله إني لأشتهيها وأشتهي النظر فيها . فقال : ليس كما يقولون لا يضر بدينك ثم قال : إنكم تنظرون في شيء منها كثيره لا يدرك وقليله لا ينتفع به . الخبر .

وفي البحار عن كتاب النجوم لابن طاوس عن معاوية بن حكيم عن محمد بن زياد عن محمد بن يحيى الخثعمي قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن النجوم حق هي ؟ قال لي : نعم فقلت له : وفي الأرض من يعلمها ؟ قال : نعم وفي الأرض من يعلمها ، وفي عدة من الروايات : ما يعلمها إلا أهل بيت من الهند وأهل بيت من العرب وفي بعضها : من قريش .

وهذه الروايات تؤيد ما قدمناه من أن بين الأوضاع والأحكام ارتباطاً ما في الجملة .

نعم ورد في بعض هذه الروايات أن الله أنزل المشتري على الأرض في صورة رجل فلقي رجلاً من العجم فعلمه النجوم حتى ظن أنه بلغ ثم قال له : انظر أين المشتري ؟ فقال : ما أراه في الفلك وما أدري أين هو ؟ فنحاه وأخذ بيد رجل من الهند فعلمه حتى ظن أنه قد بلغ وقال : انظر إلى المشتري أين هو ؟ فقال : إن حسابي ليدل على أنك أنت المشتري قال : فشهق شهقة فمات وورث علمه أهله فالعلم هناك . الخبر ، وهو أشبه بالموضوع .

٣ – في التفاؤل والتطير وهما الاستدلال بحادث من الحوادث على الخير وترقبه وهو التفاؤل أو على الشر وهو التطير وكثيراً ما يؤثران ويقع ما يترقب منهما من خير أو شر وخاصة في الشر وذلك تأثير نفساني .

وقد فرّق الإسلام بين التفاؤل والتطير فأمر بالتفاؤل ونهى عن التطير ، وفي ذلك تصديق لكون ما فيهما من التأثير تأثيراً نفسانياً .

أما التفاؤل ففيما روي عن النبي صلى الله عليه وآله : تفاءلوا بالخير تجدوه ، وكان صلى الله عليه وآله كثير التفاؤل نقل عنه ذلك في كثير من مواقفه (١) .

وأما التطير فقد ورد في مواضع من الكتاب نقله عن أمم الأنبياء في دعواتهم لهم حيث كانوا يظهرون لأنبيائهم أنهم اطيروا بهم فلا يؤمنون ، وأجاب عن ذلك أنبياؤهم

---

(١) كما ورد في قصة الحديبية : جاء سهيل بن عمرو فقال صلى الله عليه وآله : قد سهل عليكم أمركم . وكما في قصة كتابه الى خسرو برويز يدعوه الى الإسلام فمزق كتابه وأرسل اليه قبضة من تراب فتفاءل صلى الله عليه وآله منه أن المؤمنين سيملكون أرضهم .

بما حاصله أن التطير لا يقلب الحق باطلاً ولا الباطل حقاً ، وأن الأمر إلى الله سبحانه لا إلى الطائر الذي لا يملك لنفسه شيئاً فضلاً عن أن يملك لغيره الخير والشر والسعادة والشقاء قال تعالى : « قالوا إنا تطيّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسّنكم منا عذاب أليم قالوا طائركم معكم » يس : ١٩ ، أي ما يجرُّ اليكم الشر هو معكم لا معنا ، وقال : « قالوا اطّيّرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله » النمل : ٤٧ ، أي الذي يأتيكم به الخير أو الشر عند الله فهو الذي يقدر فيكم ما يقدر لا أنا ومن معي فليس لنا من الأمر شيء .

وقد وردت أخبار كثيرة في النهي عن الطيرة وفي دفع شؤمها بعدم الاعتناء أو بالتوكل والدعاء ، وهي تؤيد ما قدمناه من أن تأثيرها من التأثيرات النفسانية ففي الكافي بإسناده عن عمرو بن حريث قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : الطيرة على ما تجعلها إن هوّنتها تهونت ، وإن شددتها تشددت ، وإن لم تجعلها شيئاً لم تكن شيئاً . ودلالة الحديث على كون تأثيرها من التأثيرات النفسانية ظاهرة ، ومثله الحديث المروي من طرق أهل السنة : ثلاث لا يسلم منها أحد : الطيرة والحسد والظن . قيل : فما نصنع ؟ قال : إذا تطيرت فامض ، وإذا حسدت فلا تبغ ، وإذا ظننت فلا تحقق .

وفي معناه ما في الكافي عن القمي عن أبيه عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : كفارة الطيرة التوكل . الخبر وذلك أن في التوكل إرجاع أمر التأثير إلى الله تعالى ، فلا يبقى للشيء أثر حتى يتضرر به ، وفي معناه ما ورد من طرق أهل السنة على ما في نهاية ابن الأثير : الطيرة شرك وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل .

وفي المعنى السابق ما روي عن موسى بن جعفر عليه السلام أنه قال : الشؤم للمسافر في طريقه سبعة أشياء : الغراب الناعق عن يمينه ، والكلب الناشر لذنبه ، والذئب العاوي الذي يعوي في وجه الرجل وهو مقع على ذنبه ثم يرتفع ثم ينخفض ثلاثاً ، والظبي السانح عن يمين إلى شمال ، والبومة الصارخة ، والمرأة الشمطاء تلقى فرجها ، والأتان العضباء يعني الجدعاء ، فمن أوجس في نفسه منهن شيئاً فليقل : اعتصمت بك يا رب من شر ما أجد في نفسي فيعصم من ذلك [١] .

---

(١) الخبر على ما في البحار مذكور في الكافي والخصال والمحاسن والفقيه وما في المتن مطابق لبعض نسخ الفقيه .

ويلحق بهذا البحث الكلامي في نحوسة سائر الامور المعدودة عند العامة مشؤمة نحسة كالعطاس مرة واحدة عند العزم على أمر وغير ذلك وقد وردت في النهي عن التطير بها والتوكل عند ذلك روايات في أبواب متفرقة ، وفي النبوي المروي من طرق الفريقين : لا عدوى [1] ، ولا طيرة ، ولا هامة ، ولا شؤم ، ولا صفر ، ولا رضاع بعد فصال ، ولا تعرّب بعد هجرة ، ولا صمت يوماً إلى الليل ، ولا طلاق قبل نكاح ، ولا عتق قبل ملك ، ولا يتم بعد إدراك .

* * *

قوله تعالى : « كذبت ثمود بالنذر » النذر إما مصدر كما قيل والمعنى : كذبت ثمود بإنذار نبيهم صالح عليه‌السلام ، وإما جمع نذير بمعنى المنذر ، والمعنى : كذبت ثمود بالأنبياء لأن تكذيبهم بالواحد منهم تكذيب منهم بالجميع لأن رسالاتهم واحدة لا اختلاف فيها فيكون في معنى قوله : « كذبت ثمود المرسلين » الشعراء : ١٤١ ، وإما جمع نذير بمعنى الإنذار ومرجعه إلى أحد المعنيين السابقين .

قوله تعالى : « فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفي ضلال وسعر » تفريع على التكذيب والسعر جمع سعير بمعنى النار المشتعلة ، واحتمل أن يكون بمعنى الجنون وهو أنسب للسياق ، والظاهر أن المراد بالواحد الواحد العددي ، والمعنى : كذبوا به فقالوا : أبشراً من نوعنا وهو شخص واحد لا عدة له ولا جموع معه نتبعه إنا إذاً مستقرون في ضلال عجيب وجنون .

فيكون هذا القول توجيهاً منهم لعدم اتباعهم لصالح لفقده العدة والقوة وهم قد اعتادوا على اتباع من عنده ذلك كالملوك والعظماء وقد كان صالح عليه‌السلام يدعوهم إلى طاعة نفسه ورفض طاعة عظمائهم كما يحكيه الله سبحانه عنه بقوله : « فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين » الشعراء : ١٥١ .

---

(١) العدوى مصدر كالأعداء بمعنى تجاوز مرض المريض منه الى غيره كما يقال في الجرب والوباء والجدري وغيرها ، والمراد بنفي العدوى كما يفيده مورد الرواية أن يكون العدوى مقتضى المرض من غير انتساب الى مشية الله تعالى ، والهامة ما كان أهل الجاهلية يزعمون أن روح القتيل تصير طائراً يأوي الى قبره ويصيح ويشتكي العطش حتى يؤخذ بثأره ، والصفر هو التصفير عند سقاية الحيوان وغيره .

ولو أخذ الواحد واحداً نوعياً كان المعنى : أبشراً هو واحد منا أي هو مثلنا ومن نوعنا نتبعه ؟ وكانت الآية التالية مفسرة لها .

قوله تعالى : « ءألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر » الاستفهام كسابقه للإنكار والمعنى : ءأنزل الوحي عليه واختص به من بيننا ولا فضل له علينا ؟ لا يكون ذلك أبداً ، والتعبير بالإلقاء دون الإنزال ونحوه للإشعار بالعجلة كما قيل .

ومن المحتمل أن يكون المراد نفي أن يختص بإلقاء الذكر من بينهم وهو بشر مثلهم فلو كان الوحي حقاً وجاز أن ينزل على البشر لنزل على البشر كلهم فما باله اختص بما من شأنه أن يرزقه الجميع ؟ فتكون الآية في معنى قولهم له كما في سورة الشعراء : « ما أنت إلا بشر مثلنا » الشعراء : ١٥٤ .

وقوله : « بل هو كذّاب أشر » أي شديد البطر متكبر يريد أن يتعظّم علينا بهذا الطريق .

قوله تعالى : « سيعلمون غداً من الكذاب الأشر » حكاية قوله سبحانه لصالح عليه السلام كالآيتين بعدها .

والمراد بالغد العاقبة من قولهم : إن مع اليوم غداً ، يشير سبحانه به إلى ما سينزل عليهم من العذاب فيعلمون عند ذلك علم عيان من هو الكذاب الأشر صالح أو هم ؟

قوله تعالى : « إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر» في مقام التعليل لما أخبر من أنهم سينزل عليهم العذاب والمفاد أنهم سينزل عليهم العذاب لأنا فاعلون كذا وكذا ، والفتنة الامتحان والابتلاء ، والمعنى : إنا مرسلون – على طريق الإعجاز – الناقة التي يسألونها امتحاناً لهم فانتظرهم واصبر على أذاهم .

قوله تعالى : « ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر » ضمير الجمع الأول للقوم والثاني للقوم والناقة على سبيل التغليب ، والقسمة بمعنى المقسوم ، والشرب النصيب من شرب الماء ، والمعنى : وخبرهم بعد إرسال الناقة أن الماء مقسوم بين القوم وبين الناقة كل نصيب من الشرب يحضر عنده صاحبه فيحضر القوم عند شربهم والناقة عند شربها قال تعالى : « قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم » الشعراء : ١٥٥ .

قوله تعالى : « فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر» المراد بصاحبهم عاقر الناقة ،والتعاطي التناول والمعنى : فنادى القوم عاقر الناقة لعقرها فتناول عقرها فعقرها وقتلها .

قوله تعالى : « فكيف كان عذابي ونذر إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر » المحتظر صاحب الحظيرة وهي كالحائط يعمل ليجعل فيه الماشية ، وهشيم المحتظر الشجر اليابس ونحوه يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « ولقد يسّرنا » الخ تقدم تفسيره .

قوله تعالى : « كذبت قوم لوط بالنذر » تقدم تفسيره في نظيره .

قوله تعالى : « إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر » الحاصب الريح التي تأتي بالحجارة والحصباء ، والمراد بها الريح التي أرسلت فرمتهم بسجيل منضود .

وقال في مجمع البيان : سحر إذا كان نكرة يراد به سحر من الأسحار يقال : رأيت زيداً سحراً من الأسحار فإذا أردت سحر يومك قلت : أتيته بسحر – بالفتح – وأتيته سحر – من غير تنوين – انتهى ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر » « نعمة » مفعول له من « نجيناهم » أي نجيناهم ليكون نعمة من عندنا نخصهم بها لأنهم كانوا شاكرين لنا وجزاء الشكر لنا النجاة .

قوله تعالى : « ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر » ضمير الفاعل في « أنذرهم » للوط عليه السلام ، والبطشة الأخذة الشديدة بالعذاب ، والتماري الإصرار على الجدال وإلقاء الشك ، والنذر الإنذار ، والمعنى : أقسم لقد خوفهم لوط أخذنا الشديد فجادلوا في إنذاره وتخويفه .

قوله تعالى : «ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر» مراودته عن ضيفه طلبهم منه أن يسلم اليهم أضيافه وهم الملائكة ، وطمس أعينهم محوها ، وقوله: « فذوقوا عذابي ونذر » التفات إلى خطابهم تشديداً وتقريعاً ، والنذر مصدر أُريد به ما يتعلق به الإنذار وهو العذاب ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « ولقد صبّحهم بكرة عذاب مستقر » قال في مجمع البيان : وقوله : « بكرة » ظرف زمان فإذا كان معرفة بأن تريد بكرة يومك تقول: أتيته بكرة وغدوة لم تصرفهما فبكرة هنا – وقد نوّن – نكرة ، والمراد باستقرار العذاب حلوله بهم وعدم تخلفه عنهم .

قوله تعالى : « فكيف كان عذابي – إلى قوله – من مدكر » تقدم تفسيره .

قوله تعالى : « ولقد جاء آل فرعون النذر كذبوا بآياتنا فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر » المراد بالنذر الإنذار ، وقوله : « كذبوا بآياتنا » مفصول من غير عطف لكونه جواباً لسؤال مقدر كأنه لما قيل : « ولقد جاء آل فرعون النذر » قيل : فما فعلوا ؟ فاجيب بقوله : « كذبوا بآياتنا » ، وفرّع عليه قوله : « فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر » .

(بحث روائي)

في روح المعاني في قوله تعالى : « ولقد يسّرنا القرآن للذكر » أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس : لولا أن الله يسّره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله تعالى .

قال : وأخرج الديلمي مرفوعاً عن أنس مثله . ثم قال : ولعل خبر أنس إن صح ليس تفسيراً للآية .

أقول : وليس من البعيد أن يكون المراد المعنى الثاني الذي قدمناه في تفسير الآية .

وفي تفسير القمي في قوله : « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر » قال : صب بلا قطر « وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء » قال : ماء السماء وماء الأرض « على أمر قد قدر وحملناه » يعني نوحاً « على ذات ألواح ودسر » قال : الألواح السفينة والدسر المسامير .

وفيه في قوله تعالى : «فنادوا صاحبهم» قال: قدار الذي عقر الناقة، وقوله: «كهشيم» قال : الحشيش والنبات .

وفي الكافي بإسناده عن أبي يزيد عن أبي عبدالله عليه‌السلام في حديث يذكر فيه قصة قوم لوط قال : فكابروه يعني لوطاً حتى دخلوا البيت فصاح به جبرئيل فقال : يا لوط دعهم فلما دخلوا أهوى جبرئيل بإصبعه نحوهم فذهبت أعينهم وهو قول الله عز وجل: «فطمسنا على أعينهم» .

* * *

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَـٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ــ ٤٣ . أَمْ

يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ــ ٤٤. سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ــ ٤٥. بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ــ ٤٦ . إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ــ ٤٧ . يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ــ ٤٨ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ــ ٤٩ . وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ــ ٥٠ . وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ــ ٥١ . وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ــ ٥٢ . وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ــ ٥٣ . إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ــ ٥٤. فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ــ ٥٥ .

(بيان)

الآيات في معنى أخذ النتيجة مما أعيد ذكره من الأنباء التي فيها مزدجر وهي نبأ الساعة المذكور أولاً ثم أنباء الامم الهالكة المذكورة ثانياً فهي تنعطف أولاً على أنباء الامم الهالكة فتخاطب قوم النبي ﷺ أن كفاركم ليسوا خيراً من اولئك الامم الطاغية الجبارة وقد أهلكهم الله على أذلّ وجه وأهونه ولا لكم براءة مكتوبة من عذاب الله، ولا أن جمعكم ينفعكم في الذبّ عن العقاب . ثم تنعطف إلى ما مرّ من نبإ الساعة بأنها موعدهم الصعب إن أجرموا و كذّبوا والساعة أدهى وأمرّ ، ثم تشير إلى موطن المتقين يومئذ وعند ذلك تختتم السورة .

قوله تعالى : «أكفاركم خير من اولئكم أم لكم براءة في الزبر» الظاهر أنه خطاب لقوم النبي ﷺ من مسلم وكافر على ما تشعر به الإضافة في « كفاركم » والخيرية هي الخيرية في زينة الدنيا وزخارف حياتها كالمال والبنين أو من جهة الأخلاق العامة في مجتمعهم كالسخاء

والشجاعة والشفقة على الضعفاء ، والإشارة باولئكم إلى الأقوام المذكورة أنباؤهم : قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون ، والاستفهام للإنكار .

والمعنى : ليس الذين كفروا منكم خيراً من اولئكم الامم المهلكين المعذبين حتى يشملهم العذاب دونكم .

ويمكن أن يكون خطاب « أكفاركم » لخصوص الكفار بعناية أنهم قوم النبي ﷺ وفيهم كفار وهم هم .

وقوله : « أم لكم براءة في الزبر » ظاهره أيضاً عموم الخطاب ، والزبر جمع زبور وهو الكتاب ، وقد ذكروا أن المراد بالزبر الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء ، والمعنى : بل ألكم براءة في الكتب السماوية التي نزلت من عند الله أنكم في أمن من العذاب والمؤاخذة وإن كفرتم وأجرمتم واقترفتم ما شئتم من الذنوب .

قوله تعالى : « أم يقولون نحن جميع منتصر » الجميع المجموع والمراد به وحدة مجتمعهم من حيث الإرادة والعمل ، والانتصار الانتقام أو التناصر كما في خطابات يوم القيامة : « ما لكم لا تناصرون » الصافات : ٢٥ ، والمعنى : بل أيقولون أي الكفار نحن قوم مجتمعون متحدون ننتقم ممن أرادنا بسوء أو ينصر بعضنا بعضاً فلا ننهزم .

قوله تعالى : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » اللام في « الجمع » للعهد الذكري وفي « الدبر » للجنس ، وتولي الدبر الإدبار ، والمعنى : سيهزم الجمع الذي يتبجّحون به ويولون الأدبار ويفرّون .

وفي الآية إخبار عن مغلوبية وانهزام لجمعهم ، ودلالة على أن هذه المغلوبية انهزام منهم في حرب سيقدمون عليها ، وقد وقع ذلك في غزاة بدر ، وهذا من ملاحم القرآن الكريم .

قوله تعالى : « بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمرّ » ، « أدهى » اسم تفضيل من الدهاء وهو عظم البليّة المنكرة التي ليس إلى التخلص منها سبيل ، و « أمرّ » اسم تفضيل من المرارة ضد الحلاوة ، وفي الآية إضراب عن إيعادهم بالانهزام والعذاب الدنيوي إلى إيعادهم بما سيجري عليهم في الساعة وقد أشير إلى نبإها في أول الأنباء الزاجرة ، والكلام يفيد الترقّي .

والمعنى : وليس الانهزام والعذاب الدنيوي تمام عقوبتهم بل الساعة التي أشرنا إلى نبإها هي موعدهم والساعة أدهى من كل داهية وأمرّ من كل مُرّ .

قوله تعالى : « إن المجرمين في ضلال وسعر » جمع سعير وهي النار المسعّرة وفي الآية تعليل لما قبلها من قوله: « والساعة أدهى وأمر »، والمعنى : إنما كانت الساعة أدهى وأمر لهم لأنهم مجرمون والمجرمون في ضلال عن موطن السعادة وهو الجنة ونيران مسعرة .

قوله تعالى : « يوم يسحبون في النـــار على وجوههم ذوقوا مسّ سقر » السحب جر الإنسان على وجهه ، و « يوم » ظرف لقوله : « في ضلال وسعر » ، و « سقر » من أسماء جهنم ومسّها هو إصابتها لهم بحرّها وعذابها .

والمعنى : كونهم في ضلال وسعر في يوم يجرّون في النار على وجوههم يقـــال لهم : ذوقوا ما تصيبكم جهنم بحرّها وعذابها .

قوله تعالى : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » « كل شيء » منصوب بفعل مقدر يدل عليه « خلقناه » والتقدير خلقنا كل شيء خلقناه ، و « بقدر » متعلق بقوله : « خلقناه » والباء للمصاحبة ، والمعنى : إنا خلقنا كل شيء مصاحباً لقدر .

وقدر الشيء هو المقدار الذي لا يتعداه والحد والهندسة التي لا يتجاوزه في شيء من جانبي الزيادة والنقيصة ، قال تعالى : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم» الحجر: ٢١ ، فلكل شيء حد محدود في خلقه لا يتعداه وصراط ممدود في وجوده يسلكه ولا يتخطاه .

والآية في مقام التعليل لما في الآيتين السابقتين من عذاب المجرمين يوم القيامة كأنه قيل: لماذا جوزي المجرمون بالضلال والسعر يوم القيـامة وأذيقوا مس سقر ؟ فاجيب بقوله : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » ومحصله أن لكل شيء قدراً ومن القـدر في الإنسان أن الله سبحانه خلقه نوعاً متكاثر الأفراد بالتناسل اجتماعياً في حياته الدنيا يتزود من حياته الدنيا الداثرة لحياته الآخرة الباقيـــة ، وقدر أن يرسل اليهم رسولاً يدعوهم إلى سعادة الدنيا والآخرة فمن استجاب الدعوة فاز بالسعادة ودخل الجنة وجاور ربه ، ومن ردّها وأجرم فهو في ضلال وسعر .

ومن الخطأ أن يقـــال : إن الجواب عن السؤال بهذا النحو من المصادرة الممنوعة في الاحتجاج فإن السؤال عن مجازاته تعالى إياهم بالنار لإجرامهم في معنى السؤال عن تقديره ذلك، فمعنى السؤال : لمَ قدّر الله للمجرمين المجازاة بالنار ؟ ومعنى الجواب: أن الله قدّر للمجرمين المجازاة بالنار ، أو معنى السؤال : لمَ يدخلهم الله النار ؟ ومعنى الجواب : أن

الله يدخلهم النار وذلك مصادرة بيّنة .

وذلك لأن بين فعلنا وبين فعله تعالى فرقاً فإنا نتبع في أفعالنا القوانين والاصول الكلية المأخوذة من الكون الخارجي والوجود العيني ، وهي الحاكمة علينا في إرادتنا وأفعالنا ، فإذا أكلنا لجوع أو شربنا لعطش فإنما نريد بذلك الشبع والري لما حصّلنا من الكون الخارجي أن الأكل يفيد الشبع والشرب يفيد الري وهو الجواب لو سئلنا عن الفعل .

وبالجملة أفعالنا تابعة للقواعد الكلية والضوابط العامة المنتزعة عن الوجود العيني المتفرعة عليه ، وأما فعله تعالى فهو نفس الوجود العيني ، والاصول العقلية الكلية مأخوذة منه متأخرة عنه محكومة له فلا تكون حاكمة فيه متقدمة عليه ، قال تعالى : « لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون » الأنبياء: ٢٣ ، وقال : « إن الله يفعل ما يشاء » الحج : ١٨ ، وقال: « الحق من ربك » آل عمران : ٦٠ .

فلا سؤال عن فعله تعالى بلم بمعنى السؤال عن السبب الخارجي إذ لا سبب دونه يعينه في فعله ، ولا بمعنى السؤال عن الأصل الكلي العقلي الذي يصحح فعله إذ الاصول العقلية منتزعة عن فعله متأخرة عنه .

نعم وقع في كلامه سبحانه تعليل الفعل بأحد ثلاثة أوجه :

أحدها : تعليل الفعل بما يترتب عليه من الغايات والفوائد العائدة إلى الخلق لا إليه ، لكنه تعليل للفعل لا لكونه فعلاً له سبحانه بل لكونه أمراً واقعاً في صف الأسباب والمسببات كما في قوله تعالى : « ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسّيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون » المائدة : ٨٢ ، وقال : «وضربت عليهم الذلّة والمسكنة – إلى أن قال – ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » البقرة : ٦١ .

الثاني : تعليل فعله تعالى بشيء من أسمائه وصفاته المناسبة له كتعليله تعالى مضامين كثير من الآيات في كلامه بمثل قوله: « إن الله غفور رحيم » « وهو العزيز الحكيم » « وهو اللطيف الخبير » إلى غير ذلك وهو شائع في القرآن الكريم ، وإذا أجدت التأمل في موارده وجدتها من تعليل الفعل بما له من صفة خاصة بصفة عامة لفعله تعالى فإن أسماءه تعالى الفعلية منتزعة عن فعله العام فتعليل فعل خاص بصفة من صفاته واسم من أسمائه تعليل الوجه الخاص في الفعل بالوجه العام فيه كقوله تعالى : « وكأيّن من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم » العنكبوت : ٦٠ ، يعلل قضاء حاجة الدواب

والإنسان إلى الرزق المسؤل بلسان حاجتها بأنه سميع عليم أي إنه خلق كل شيء والحال أن مسائلهم مسموعة له وأحوالهم معلومة عنده وهما صفتا فعله العام ، وقوله : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم » البقرة : ٣٧ ، يعلل توبته على آدم بأنه تواب رحيم أي صفة فعله هي التوبة والرحمة .

الثالث : تعليل فعله الخاص بفعله العام ومرجعه في الحقيقة إلى الوجه الثاني كقوله : « إن المجرمين في ضلال وسعر – إلى أن قال – إنا كل شيء خلقناه بقدر » فإن القدر وهو كون الشيء محدوداً لا يتخطى حده في مسير وجوده فعل عام له تعالى لا يخلو عنه شيء من الخلق فتعليل العذاب بالقدر من تعليل فعله الخاص بفعله العام وبيان أنه مصداق من مصاديق القدر إذ كان من المقدر في الإنسان أن لو أجرم بردّ دعوة النبوة عذّب ودخل النار يوم القيامة ، وكقوله : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً » مريم : ٧١ ، يعلل الورود بالقضاء وهو فعل له عام والورود خاص بالنسبة اليه .

فتبين أن ما في كلامه من تعليل فعل من أفعاله إنما هو من تعليل الفعل الخاص بصفته العامة والعلة علة للإثبات لا للثبوت ، وليس من المصادرة في شيء .

قوله تعالى : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » قال في المجمع : اللمح النظر بالعجلة وهو خطف البصر . انتهى .

والمراد بالأمر ما يقابل النهي لكنه الأمر التكويني بإرادة وجود الشيء ، قال تعالى: « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » يس : ٨٢ فهو كلمة كن ولعله لكونه كلمة اعتبر الخبر مؤنثاً فقيل : « إلا واحدة » .

والذي يفيده السياق أن المراد بكون الأمر واحدة أنه لا يحتاج في مضيّه وتحقق متعلقه إلى تعدد وتكرار بل أمر واحد بإلقاء كلمة كن يتحقق به المتعلق المراد كلمح بالبصر من غير تأنٍّ ومهل حتى يحتاج إلى الأمر ثانياً وثالثاً .

وتشبيه الأمر من حيث تحقق متعلقه بلمح بالبصر لا لإفادة أن زمان تأثيره قصير كزمان تحقق اللمح بالبصر بل لإفادة أنه لا يحتاج فيتأثيره إلى مضيّ زمان ولو كان قصيراً فإن التشبيه باللمح بالبصر في الكلام يكنى به عن ذلك ، فأمره تعالى وهو إيجاده وإرادة وجوده لا يحتاج في تحققه إلى زمان ولا مكان ولا حركة كيف لا ؟ ونفس الزمان والمكان والحركة إنما تحققت بأمره تعالى .

والآية وإن كانت بحسب مؤدّاها في نفسها تعطي حقيقة عامة في خلق الأشياء وأن وجودها من حيث إنه فعل الله سبحانه كلمح بالبصر وإن كان من حيث إنه وجود لشيء كذا تدريجياً حاصلاً شيئاً فشيئاً .

إلا أنها بحسب وقوعها في سياق إيعـــاد الكفار بعذاب يوم القيامة ناظرة إلى إتيان الساعة وأن أمراً واحداً منه تعالى يكفي في قيـام الساعة وتجديد الخلق بالبعث والنشور فتكون متممة لما أقيم من الحجة بقوله : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » .

فيكون مفاد الآية الاولى أن عذابهم بالنـــار على وفق الحكمة ولا محيص عنه بحسب الإرادة الإلهية لأنه من القدر ، ومفاد هذه الآية أن تحقق الساعة التي يعذبون فيهـا بمضي هذه الإرادة وتحقق متعلقها لا مؤنة فيه عليه سبحانه لأنه يكفي فيه أمر واحد منه تعالى كلمح بالبصر .

قوله تعالى : « ولقـد أهلكنا أشياعكم فهل من مدّكر » الأشياع جمع شيعة والمراد – كما قيل – الأشباه والأمثال في الكفر وتكذيب الأنبياء من الامم الماضية .

والمراد بالآية والآيتين بعـدها تأكيد الحجة السابقة التي أقيمت على شمول العذاب لهم لا محالة .

ومحصل المعنى : أن ليس ما أنذرناكم به من عذاب الدنيـا وعذاب الساعة مجرد خبر أخبرناكم به ولا قول ألقيناه اليكم فهـذه أشياعكم من الامم الماضية شرع فيهم بذلك فقد أهلكناهم وهو عذابهم في الدنيـا وسيلقون عذاب الآخرة فإن أعمالهم مكتوبة مضبوطة في كتب محفوظة عندنا سنحاسبهم بها ونجازيهم بما عملوا .

قوله تعالى : « وكل شيء فعـــلوه في الزبر وكل صغير وكبير مستطر » الزبر كتب الأعمال وتفسيره باللوح المحفوظ سخيف ، والمراد بالصغير والكبير صغير الأعمال وكبيرها على ما يفيده السياق .

قوله تعالى : « إن المتقين في جنات ونهر » أي في جنات عظيمة الشأن بالغة الوصف ونهر كذلك ، قيل : المراد بالنهر الجنس ، وقيل : النهر بمعنى السعة .

قوله تعالى : « في مقعد صدق عنــــد مليك مقتدر » المقعد المجلس ، والمليك صيغة مبالغة للملك على ما قيل ، وليس من إشباع كسر لام الملك ، والمقتدر القادر العظيم القدرة وهو الله سبحانه .

والمراد بالصدق صدق المتقين في إيمانهم وعملهم أضيف اليه المقعد للابسة ما ويمكن أن يراد به كون مقامهم ومالهم فيه صدقاً لا يشوبه كذب فلهم حضور لا غيبة معه ، وقرب لا بعد معه ، ونعمة لا نقمة معها ، وسرور لا غمّ معه ، وبقاء لا فناء معه .

ويمكن أن يراد به صدق هذا الخبر من حيث إنه تبشير ووعد جميل للمتقين ، وعلى هذا ففيه نوع مقابلة بين وصف عاقبة المتقين والمجرمين حيث أوعد المجرمون بالعذاب والضلال وقرر ذلك بأنه من القدر ولن يتخلف ، ووعد المتقون بالثواب والحضور عند ربهم المليك المقتدر وقرر ذلك بأنه صدق لا كذب فيه .

(بحث روائي)

في كمال الدين بإسناده إلى علي بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن الرقى أتدفع من القدر شيئاً ؟ فقال : هي من القدر .

وقال : إن القدرية مجوس هذه الامة وهم الذين أرادوا أن يصفوا الله بعدله فأخرجوه من سلطانه وفيهم نزلت هذه الآية : « يوم يُسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر » .

أقول : المراد بالقدرية النافون للقدر وهم المعتزلة القائلون بالتفويض ، وقوله : إنهم مجوس هذه الامة ذلك لقولهم : إن خالق الأفعال الاختيارية هو الإنسان والله خالق لما وراء ذلك فأثبتوا إلهين اثنين كما أثبتت المجوس إلهين اثنين : خالق الخير وخالق الشر .

وقوله : أرادوا أن يصفوا الله بعدله فأخرجوه من سلطانه ، وذلك أنهم قالوا بخلق الإنسان لأفعاله فراراً عن القول بالجبر المنافي للعدل فأخرجوا الله من سلطانه على أعمال عباده بقطع نسبتها عنه تعالى .

وقوله : وفيهم نزلت هذه الآية ، الخ ، المراد به جري الآيات فيهم دون كونهم سبباً للنزول وموردا له لما عرفت في تفسير الآيات من كونها عامة بحسب السياق ، وفي نزول الآيات فيهم روايات اخرى مروية عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام ، ومن طرق أهل السنة أيضاً روايات في هذا المعنى عن ابن عباس وابن عمر ومحمد بن كعب وغيرهم .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن لكل أمة مجوساً وإن مجوس هذه الامة الذين يقولون : لا قدر . الخبر .

أقول : ورواه في ثواب الأعمال بإسناده عن الصادق عن آبائه عن علي عليه‌السلام ولفظه : لكل أمة مجوس ومجوس هذه الامة الذين يقولون : لا قدر .

وفيه أخرج ابن مردويه بسند رواه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله : النهر الفضاء والسعة ليس بنهر جار .

وفيه أخرج أبو نعيم عن جابر قال : بينا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله يوماً في مسجد المدينة فذكر بعض أصحابه الجنـة فقال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله : يا أبا دجانة أما علمت أن من أحبّنا وابتلي بمحبتنا أسكنه الله تعالى معنا ؟ ثم تلا « في مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

وفي روح المعاني في قوله : «في مقعد صدق» الآية ، وقال جعفر الصادق رضي الله عنه : مدح المكان بالصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق .

(كلام في القـــدر)

القدر وهو هندسة الشيء وحدّ وجوده مما تكرر ذكره في كلامه تعالى فيما تكلم فيه في أمر الخلقة ، قال تعالى : « وإن من شيء إلا عنـــدنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ ، وظاهره أن القدر ملازم للإنزال من الخزائن الموجودة عنـده تعالى ، وأما نفس الخزائن وهي من إبداعه تعالى لا محالة فهي غير مقدرة بهذا القدر الذي يلازم الإنزال ، والإنزال إصداره إلى هذا العالم المشهود كما يفيده قوله : « وأنزلنا الحديد » الحديد : ٢٥ ، وقوله : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » الزمر : ٦ .

ويؤيد ذلك ما ورد من تفسير القدر بمثل العرض والطول وسائر الحدود والخصوصيات الطبيعية الجسمانية كما في المحاسن عن أبيه عن يونس عن أبي الحسن الرضا عليه‌السلام قال : لا يكون إلا ما شاء الله وأراد وقدّر وقضى . قلت : فما معنى شاء ؟ قال : ابتـدأ الفعل . قلت : فما معنى أراد ؟ قال : الثبوت عليه . قلت : فما معنى قدّر ؟ قال : تقدير الشيء من طوله وعرضه . قلت : فما معنى قضى ؟ قال : إذا قضى أمضاه فذلك الذي لا مردّ له .

وروى هـذا المعنى عن أبيه عن ابن أبي عمير عن محمد بن إسحاق عن الرضا عليه‌السلام في خبر مفصل وفيه : فقـال : أوتدري ما قدر ؟ قال : لا ، قال : هو الهندسة من الطول والعرض والبقاء . الخبر .

ومن هنــــا يظهر أن المراد بكل شيء في قوله : « وخلق كل شيء فقدّره تقديراً » الفرقان : ٣ ، وقوله : « إنا كل شيء خلقناه بقـدر » القمر : ٤٩ ، وقوله : « وكل شيء عنده بمقدار » الرعد : ٨ ، وقوله : « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » طه : ٥٠ ، الأشياء الواقعة في عالمنا المشهود ، من الطبيعيات الواقعة تحت الخلق والتركيب ، أو أن للتقدير مرتبتين : مرتبة تعم جميع مـا سوى الله وهي تحديد أصل الوجود بالإمكان والحاجة وهذا يعم جميع الموجودات ما خلا الله سبحانه ، قال تعالى : « وكان الله بكل شيء محيطاً » النساء : ١٢٦ .

ومرتبة تخص عالمنــــا المشهود وهي تحديد وجود الأشياء الموجودة فيه من حيث وجودها وآثار وجودها وخصوصيات كونها بما أنها متعلقة الوجود والآثار بامور خارجة من العلل والشرائط فيختلف وجودها وأحوالها باختلاف عللها وشرائطها فهي مقـــلوبة بقوالب من داخل وخارج تعين لهـا من العرض والطول والشكل والهيئة وسائر الأحوال والأفعال ما يناسبها .

فالتقدير يهدي هذا النوع من الموجودات إلى ما قدّر لها في مسير وجودها،قال تعالى: « الذي خلق فسوّى والذي قدّر فهدى » الأعلى : ٣ ، أي هدى ما خلقه إلى ما قدر له، ثم أتمّ ذلك بإمضاء القضاء ، وفي معناه قوله في الإنســان : « من نطفـــة خلقه فقدّره ثم السبيل يسّره » عبس : ٢٠ ، ويشير بقوله : « ثم السبيل يسّره » إلى أن التقدير لا ينافي اختيارية أفعاله الاختيارية .

وهذا النوع من القدر في نفسـه غير القضاء الذي هو الحكم البتي منه تعالى بوجوده «والله يحكم لا معقّب لحكمه » الرعد : ٤١ ، فربما قدر ولم يعقبه القضاء كالقـــدر الذي يقتضيه بعض العلل والشرائط الخارجة ثم يبطل لمانع أو باستخلاف سبب آخر، قال تعالى: «يمحو الله ما يشاء ويثبت » الرعد : ٣٩ ، وقال : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها» البقرة : ١٠٦ ، وربما قدر وتبعه القضاء كما إذا قدر من جميع الجهات باجتماع جميع علله وشرائطه وارتفاع موانعه .

وإلى ذلك يشير قوله ﷺ في خبر المحـاسن السابق : إذا قضى أمضاه فذلك الذي لا مردّ له ، وقريب منه ما في عدة من أخبار القضاء والقدر ما معناه أن القدر يمكن أن يتخلف وأما القضاء فلا يردّ .

وعن علي عليه السلام بطرق مختلفة كما في التوحيد بإسناده عن ابن نباتة أن أمير المؤمنين عليه السلام عدل من عند حائط مائل إلى حائط آخر فقيل له : يا أمير المؤمنين تفرّ من قضاء الله ؟ قال : أفرّ من قضاء الله إلى قدر الله عز وجل .

وأما النوع الأول من الموجودات الذي قدره حد وجوده من إمكانه وحاجته فحسب فالقدر والقضاء فيه واحد ولا يتخلف القدر فيه عن التحقق البتة .

والبحث العقلي يؤيد ما تقدم فإن الامور التي لها علل مركبة من فاعل ومادة وشرائط ومعدات وموانع فإن لكل منها تأثيراً في الشيء بما يسانخه فهو كالقالب الذي يقلب به الشيء فيأخذ لنفسه هيئة قالبه وخصوصيته وهذا هو قدره ثم العلة التامة إذا اجتمعت أجزاؤه أعطته ضرورة الوجود ، وهذه هي القضاء الذي لا مردّ له ، وقد تقدم في تفسير أول سورة الإسراء كلام في القضاء لا يخلو من نفع في هذا البحث ، فليرجع اليه .

* * *

(سورة الرحمن مكية أو مدنية ، وهي ثمان وسبعون آية)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . الرَّحْمٰنُ ــ ١ . عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ ــ ٢ .
خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ ــ ٣ . عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ــ ٤ . ألشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ــ ٥ .
وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ــ ٦ . وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ــ ٧ .
ألاَّ تَطْغَوْا فِي ٱلْمِيزَانِ ــ ٨ . وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا
ٱلْمِيزَانَ ــ ٩ . وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ــ ١٠ . فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ
ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ــ ١١ . وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ــ ١٢ . فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ــ ١٣ . خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَٱلْفَخَّارِ ــ ١٤ .
وَخَلَقَ ٱلْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ــ ١٥ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ ـــ ١٦ . رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ـــ ١٧ . فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ـــ ١٨ . مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ـــ ١٩ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ
لَّا يَبْغِيَانِ ـــ ٢٠ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ـــ ٢١ . يَخْرُجُ مِنْهُمَا
ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ـــ ٢٢ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ـــ ٢٣ . وَلَهُ
ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنْشَآتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَامِ ـــ ٢٤ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ـــ ٢٥ . كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ـــ ٢٦ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو
ٱلْجَلَالِ وَٱلْإِكْرَامِ ـــ ٢٧ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ـــ ٢٨ .
يَسْأَلُهُ مَنْ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ـــ ٢٩ .
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ـــ ٣٠ .

(بيان)

تتضمن السورة الإشارة إلى خلقه تعالى العالم بأجزائه من سماء وأرض وبرّ وبحر وإنس وجن ونظم أجزائه نظماً ينتفع به الثقلان الإنس والجن في حياتها وينقسم بذلك العالم إلى نشأتين : نشأة دنيا ستفنى بفناء أهلها ، ونشأة أخرى باقية تتميز فيها السعادة من الشقاء والنعمة من النقمة .

وبذلك يظهر أن دار الوجود من دنياها وآخرتها ذات نظام واحد مؤتلف الأجزاء مرتبط الأبعاض قويم الأركان يصلح بعضه ببعض ويتم شطر منه بشطر .

فما فيه من عين وأثر ، من نعمه تعالى وآلائه ، ولذا يستفهمهم مرة بعد مرة استفهاماً مشوباً بعتاب بقوله : « فبأي آلاء ربكما تكذبان » فقد كررت الآية في السورة إحدى وثلاثين مرة .

ولذلك افتتحت السورة بذكره تعالى بصفة رحمته العامة الشاملة المؤمن والكافر والدنيا والآخرة واختتمت بالثناء عليه بقوله : « تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام ».

والسورة يحتمل كونها مكية أو مدنية وإن كان سياقها بالسياق المكي أشبه وهي السورة الوحيدة في القرآن افتتحت بعد البسملة باسم من أسماء الله عز اسمه ، وفي المجمع عن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام عن النبي ﷺ قال : لكل شيء عروس وعروس القرآن سورة الرحمن جلّ ذكره ، ورواه في الدر المنثور عن البيهقي عن علي عليه السلام عن النبي ﷺ .

قوله تعالى : « الرحمن علم القرآن » الرحمان كما تقدم في تفسير سورة الفاتحة صيغة مبالغة تدل على كثرة الرحمة ببذل النعم ولذلك ناسب أن يعم ما يناله المؤمن والكافر من نعم الدنيا وما يناله المؤمن من نعم الآخرة ، ولعمومه ناسب أن يصدّر به الكلام لاشتمال الكلام في السورة على أنواع النعم الدنيوية والاخروية التي ينتظم بها عالم الثقلين الإنس والجن .

ذكروا أن الرحمان من الأسماء الخاصة به تعالى لا يسمى به غيره بخلاف مثل الرحيم والراحم .

وقوله : « علّم القرآن » شروع في عد النعم الإلهية ، ولما كان القرآن أعظم النعم قدراً وشأناً وأرفعها مكاناً – لأنه كلام الله الذي يخط صراطه المستقيم ويتضمن بيان نهج السعادة التي هي غاية ما يأمله آمل ونهاية ما يسأله سائل – قدم ذكر تعليمه على سائر النعم حتى على خلق الإنس والجن اللذين نزل القرآن لأجل تعليمها .

وحذف مفعول « علم » الأول وهو الإنسان أو الإنس والجن والتقدير علم الإنسان القرآن أو علم الإنس والجن القرآن ، وهذا الاحتمال الثاني وإن لم يتعرضوا له لكنه أقرب الاحتمالين لأن السورة تخاطب في تضاعيف آياتها الجن كالإنس ولولا شمول التعليم في قوله : « علم القرآن » لهم لم يتم ذلك .

وقيل : المفعول المحذوف محمد ﷺ أو جبرئيل والأنسب للسياق ما تقدم .

قوله تعالى : « خلق الإنسان علّمه البيان » ذكر خلق الإنسان وسيذكر خصوصية خلقه بقوله : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار » ، والإنسان من أعجب مخلوقات الله تعالى أو هو أعجبها يظهر ذلك بقياس وجوده إلى وجود غيره من المخلوقات والتأمل فيما

خط له من طريق الكمال في ظاهره وباطنه ودنياه وآخرته ، قال تعالى : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات» التين:٦.

وقوله : « علّمه البيان » البيان الكشف عن الشيء والمراد به الكلام الكاشف عما في الضمير ، وهو من أعجب النعم وتعليمه للإنسان من عظيم العناية الإلهية المتعلقة به فليس الكلام مجرد إيجاد صوت مّا باستخدام الرئة وقصبتها والحلقوم ولا ما يحصل من التنوع في الصوت الخارج من الحلقوم باعتماده على مخارج الحروف المختلفة في الفم .

بل يجعل الإنسان بإلهام باطني من الله سبحانه الواحد من هذه الأصوات المعتمدة على مخرج من مخارج الفم المسمى حرفاً أو المركب من عدة من الحروف علامة مشيرة إلى مفهوم من المفاهيم يمثل به ما يغيب عن حس السامع وإدراكه فيقدر به على إحضار أي وضع من أوضاع العالم المشهود وإن جل ما جل أو دق ما دق من موجود أو معدوم ماض أو مستقبل ، ثم على إحضار أي وضع من أوضاع المعاني غير المحسوسة التي ينالها الإنسان بفكره ولا سبيل للحس اليها يحضرها جميعاً لسامعه ويمثلها لحسّه كأنه يشخصها له بأعيانها.

ولا يتم للانسان اجتماعه المدني ولا تقدم في حياته هذا التقدم الباهر إلا بتنبهه لوضع الكلام وفتحه بذلك باب التفهيم والتفهم ، ولولا ذلك لكان هو والحيوان المعجم سواء في جمود الحياة وركودها .

ومن أقوى الدليل على أن اهتداء الإنسان إلى البيان بإلهام إلهي له أصل في التكوين اختلاف اللغات باختلاف الامم والطوائف في الخصائص الروحية والأخلاق النفسانية وبحسب اختلاف المناطق الطبيعية التي يعيشون فيها ، قال تعالى : « ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » الروم : ٢٢ .

وليس المراد بقوله : « علّمه البيان » أن الله سبحانه وضع اللغات ثم علمها الإنسان بالوحي إلى نبي من الأنبياء أو بالإلهام فإن الإنسان بوقوعه في ظرف الاجتماع مندفع بالطبع إلى اعتبار التفهيم والتفهم بالإشارات والأصوات وهو التكلم والنطق لا يتم له الاجتماع المدني دون ذلك .

على أن فعله تعالى هو التكوين والإيجاد والرابطة بين اللفظ ومعناه اللغوي وضعية اعتبارية لا حقيقية خارجية بل الله سبحانه خلق الإنسان وفطره فطرة تؤديه إلى الاجتماع المدني ثم إلى وضع اللغة بجعل اللفظ علامة للمعنى بحيث إذا ألقى اللفظ إلى سامعه فكأنما

يلقي اليه المعنى ثم إلى وضع الخط يحمل الأشكال المخصوصة علائم للألفاظ فالخط مكمل لغرض الكلام ، وهو يمثل الكلام كما أن الكلام يمثل المعنى .

وبالجملة البيان من أعظم النعم والآلاء الربانية التي تحفظ لنوع الإنسان موقفه الإنساني وتهديه إلى كل خير .

هذا ما هو الظاهر المتبادر من الآيتين، ولهم في معناهما أقوال: فقيل : الإنسان هو آدم عليه‌السلام والبيان الأسماء التي علمه الله إياها ، وقيل : الإنسان محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله والبيان القرآن أو تعليمه المؤمنين القرآن ، وقيل : البيان الخير والشر علمهما الإنسان ، وقيل : سبيل الهدى وسبيل الضلال إلى غير ذلك وهي أقوال بعيدة عن الفهم .

قوله تعالى : « الشمس والقمر بحسبان » الحسبان مصدر بمعنى الحساب ، والشمس مبتدأ والقمر معطوف عليه ، وبحسبان خبره ، والجملة خبر بعد خبر لقوله : « الرحمن » والتقدير الشمس والقمر يجريان بحساب منه على ما قدر لهما من نوع الجري .

قوله تعالى : « والنجم والشجر يسجدان » قالوا : المراد بالنجم ما ينجم من النبات ويطلع من الأرض ولا ساق له ، والشجر ما له ساق من النبات ، وهو معنى حسن يؤيده الجمع والقرن بين النجم والشجر وإن كان ربما أوهم سبق ذكر الشمس والقمر كون المراد بالنجم هو الكواكب .

وسجود النجم والشجر انقيادهما للأمر الإلهي بالنشوء والنمو على حسب ما قدر لهما كما قيل، وأدق منه أنهما يضربان في التراب باصولهما وأعراقهما لجذب ما يحتاجان اليه من المواد العنصرية التي يغتذيان بها وهذا السقوط على الأرض إظهاراً للحاجة إلى المبدأ الذي يقضي حاجتهما - وهو في الحقيقة الله الذي يربيهما كذلك - سجود منهما له تعالى .

والكلام في إعراب قوله: « والنجم والشجر يسجدان» وهو معطوف على الآية السابقة كالكلام في قوله : « الشمس والقمر بحسبان » والتقدير والنجم والشجر يسجدان له .

قال في الكشاف : فإن قلت : كيف اتصلت هاتان الجملتان بالرحمان يعني قوله : «الشمس والقمر - إلى قوله - يسجدان» ؟ قلت: استغني فيهما عن الوصل اللفظي بالوصل المعنوي لما علم أن الحسبان حسبانه والسجود له لا لغيره .

وقال في وجه إخلاء الآيات السابقة - خلق الإنسان علّمه البيان الشمس والقمر بحسبان - عن العاطف ما محصله أن هذه الجمل الاُول واردة على سنن التعديد ليكون كل

واحدة من الجمل مستقلة في تفريع الذين أنكروا الرحمان وآلاءه كما يبكّت منكر أيادي المنعم عليه من الناس بتعديدها عليه فيقال : زيد أغناك بعد فقر ، أعزّك بعد ذل ، كثّرك بعد قلة ، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد فما تنكر من إحسانه ؟

ثم رد الكلام إلى منهاجه بعد التبكيت في وصل ما يجب وصله للتناسب والتقارب بالعاطف فقيل : « والنجم والشجر يسجدان والسماء رفعها » الخ ، انتهى .

قوله تعالى : « والسماء رفعها ووضع الميزان » المراد بالسماء إن كان جهة العلو فرفعها خلقها مرفوعة لا رفعها بعد خلقها وإن كان ما في جهة العلو من الأجرام فرفعها تقدير محالها بحيث تكون مرفوعة بالنسبة إلى الأرض بالفتق بعد الرتق كما قال تعالى : « أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما » الأنبياء : ٣٠ ، والرفع على أي حال رفع حسي .

وإن كان المراد ما يشمل منازل الملائكة الكرام ومصادر الأمر الإلهي والوحي فالرفع معنوي أو ما يشمل الحسي والمعنوي .

وقوله : « ووضع الميزان » المراد بالميزان كل ما يوزن أي يقدر به الشيء أعم من أن يكون عقيدة أو قولاً أو فعلاً ومن مصاديقه الميزان الذي يوزن به الأثقال ، قال تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » الحديد : ٢٥ .

فظاهره مطلق ما يميز به الحق من الباطل والصدق من الكذب والعدل من الظلم والفضيلة من الرذيلة على ما هو شأن الرسول أن يأتي به من عند ربه .

وقيل : المراد بالميزان العدل أي وضع الله العدل بينكم لتسوّوا به بين الأشياء بإعطاء كل ذي حق حقه .

وقيل : المراد الميزان الذي يوزن به الأثقال والمعنى الأول أوسع وأشمل .

قوله تعالى : « ألاّ تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » الظاهر أن المراد بالميزان الميزان المعروف وهو ميزان الأثقال ، فقوله : « ألا تطغوا » الخ على تقدير أن يراد بالميزان في الآية السابقة أيضاً ميزان الأثقال ، وهو بيان وضع الميزان ، والمعنى أن معنى وضعنا الميزان بينكم هو أن اعدلوا في وزن الأثقال ولا تطغوا فيه .

وعلى تقدير أن يراد به مطلق التقدير الحق أو العدل هو استخراج حكم جزئي من حكم كلي ، والمعنى أن لازم ما وضعناه من التقدير الحق أو العدل بينكم هو أن تزنوا الأثقال بالقسط ولا تطغوا فيه .

وعلى أي حال الظاهر أن « أن » في قوله : « أن لا تطغوا » تفسيرية، و « لا تطغوا » نهي عن الطغيان في الميزان و « أقيموا الوزن بالقسط » أمر معطوف عليه، والقسط العدل و « لا تخسروا الميزان » نهي آخر مبين لقوله : « لا تطغوا » الخ ، ومؤكد له . والاخسار في الميزان التطفيف به بزيادة أو نقيصة بحيث يخسر البائع أو المشتري .

وأما جعل « أن » ناصبة و « لا تطغوا » نفياً ، والتقدير : لئلا تطغوا ، فيحتاج إلى تكلف توجيه في عطف الإنشاء على الإخبار في قوله : « وأقيموا الوزن » الخ .

قوله تعالى : « والأرض وضعها للأنام » الأنام الناس ، وقيل : الإنس والجن ، وقيل : كل ما يدبّ على الأرض ، وفي التعبير في الأرض بالوضع قبال التعبير في السماء بالرفع لطف ظاهر .

قوله تعالى : « فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام » المراد بالفاكهة الثمرة غير التمر ، والأكمام جمع كم بضم الكاف وكسرها وعاء التمر وهو الطلع ، وأما كم القميص فهو مضموم الكاف لا غير كما قيل .

قوله تعالى : « والحب ذو العصف والريحان » معطوف على قوله: « فاكهة » أي وفيها الحب والريحان ، والحب ما يقتات به كالحنطة والشعير والارز ، والعصف ما هو كالغلاف للحب وهو قشره ، وفسّر بورق الزرع مطلقاً وبورق الزرع اليابس ، والريحان النبات الطيب الرائحة .

قوله تعالى : « فبأي آلاء ربكما تكذبان » الآلاء جمع إلى بمعنى النعمة .

والخطاب في الآية لعامة الثقلين : الجن والإنس ويدل على ذلك توجيه الخطاب اليهما صريحاً فيما سيأتي من قوله : « سنفرغ لكم أيها الثقلان » وقوله: « يا معشر الجن والإنس » الخ ، وقوله : « يرسل عليكما شواظ » الخ ، فلا يصغى إلى قول من قال : إن الخطاب في الآية للذكر والانثى من بني آدم ، ولا إلى قول من قال : إنه من خطاب الواحد بخطاب الإثنين ويفيد تكرر الخطاب نحو يا شرطي اضربا عنقه أي اضرب اضرب عنقه .

وتوجيه الخطاب إلى عالمي الجن والإنس هو المصحح لعدّ ما سنذكره من شدائد يوم

القيامة وعقوبات المجرمين من أهل النار من آلائه ونعمه تعالى ، فإن سوق المسيئين وأهل الشقوة في نظام الكون إلى ما تقتضيه شقوتهم ومجازاتهم بتبعات أعمالهم من لوازم صلاح النظام العام الجاري في الكل الحاكم على الجميع فذلك نعمة بالقياس إلى الكل وإن كان نقمة بالنسبة إلى طائفة خاصة منهم وهم المجرمون وهذا نظير ما نجده في السنن والقوانين الجارية في المجتمعات فإن التشديد على أهل البغي والفساد مما يتوقف عليه حياة المجتمع وبقاؤه وليس يتنعم به أهل الصلاح خاصة كما أن إثابة أهل الصلاح بالثناء الجميل والأجر الحسن كذلك .

فما في النار من عذاب وعقاب لأهلها وما في الجنة من كرامة وثواب آلاء ونعم على معشر الجن والإنس كما أن الشمس والقمر والسماء المرفوعة والأرض الموضوعة والنجم والشجر وغيرها آلاء ونعم على أهل الدنيا .

ويظهر من الآية أن للجن تنعماً في الجملة بهذه النعم المعدودة في خلال الآيات كما للإنس وإلا لم يصح إشراكهم مع الإنس في التوبيخ .

قوله تعالى : «خلق الإنسان من صلصال كالفخار» الصلصال الطين اليابس الذي يتردد منه الصوت إذا وطىء ، والفخار الخزف .

والمراد بالإنسان نوعه والمراد بخلقه من صلصال كالفخار انتهاء خلقه اليه ، وقيل : المراد بالإنسان آدم عليه السلام .

قوله تعالى : « وخلق الجان من مارج من نار » المارج هو اللهب الخالص من النار ، وقيل : اللهب المختلط بسواد ، والكلام في الجان كالكلام في الإنسان فالمراد به نوع الجن ، وعدّهم مخلوقين من النار باعتبار انتهاء خلقتهم اليها ، وقيل : المراد بالجان أبو الجن .

قوله تعالى : « رب المشرقين ورب المغربين » المراد بالمشرقين مشرق الصيف ومشرق الشتاء ، وبذلك تحصل الفصول الأربعة وتنتظم الأرزاق ، وقيل : المراد بالمشرقين مشرق الشمس والقمر وبالمغربين مغرباهما .

قوله تعالى : « مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان » المرج الخلط والمرج الإرسال ، يقال : مرجه أي خلطه ومرجه أي أرسله والمعنى الأول أظهر ، والظاهر أن المراد بالبحرين العذب الفرات والملح الاجاج ، قال تعالى : « وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كلّ تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية

تلبسونها » فاطر : ١٢ .

وأمثل ما قيل في الآيتين أن المراد بالبحرين جنس البحر المالح الذي يغمر قريباً من ثلاثة أرباع الكرة الأرضية من البحار المحيطة وغير المحيطة ، والبحر العذب المدخر في مخازن الأرض التي تنفجر الأرض عنها فتجري العيون والأنهار الكبيرة فتصب في البحر المالح ، ولا يزالان يلتقيان ، وبينهما حاجز وهو نفس المخازن الأرضية والمجاري يحجز البحر المالح أن يبغي على البحر العذب فيغشيه ويبدله بحراً مالحاً وتبطل بذلك الحياة ، ويحجز البحر العذب أن يزيد في الانصباب على البحر المالح فيبدله ماء عذباً فتبطل بذلك مصلحة ملوحته من تطهير الهواء وغيره .

ولا يزال البحر المالح يمدُّ البحر العذب بالأمطار التي تأخذها منه السحب فتمطر على الأرض وتدخرها المخازن الأرضية والبحر العذب يمدُّ البحر المالح بالانصباب عليه .

فمعنى الآيتين - والله أعلم - خلط البحرين العذب الفرات والملح الاجاج حال كونهما مستمرين في تلاقيهما بينهما حاجز لا يطغيان بأن يغمر أحدهما الآخر فيذهب بصفته من العذوبة والملوحة فيختل نظام الحياة والبقاء .

قوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » أي من البحرين العذب والمالح جميعاً وذلك من فوائدهما التي ينتفع بها الإنسان ، وقد تقدم فيه الكلام في تفسير قوله تعالى : « وما يستوي البحران » الآية ، فاطر : ١٢ .

قوله تعالى : « وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام » الجواري جمع جارية وهي السفينة ، والمنشآت اسم مفعول من الإنشاء وهو إحداث الشيء وتربيته ، والأعلام جمع علم بفتحتين وهو الجبل .

وعدّ الجواري مملوكة له تعالى مع كونها من صنع الإنسان لأن الأسباب العاملة في إنشائها من خشب وحديد وسائر أجزائها التي تتركب منها والإنسان الذي يركّبها وشعوره وفكره وإرادته كل ذلك مخلوق له ومملوك فما ينتجه عملها من ملكه .

فهو تعالى المنعم بها للانسان ألهمه طريق صنعها والمنافع المترتبة عليها وسبيل الانتفاع بمنافعها الجمّة .

قوله تعالى : « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » ضمير « عليها » للأرض أي كل ذي شعور وعقل على الأرض سيفنى وفيه تسجيل الزوال والدثور على الثقلين.

وإنمـــا أتى باللفظ الدال على أولي العقل ـ كل من عليها ـ ولم يقل : كل ما عليها كذلك لأن الكلام مسرود في السورة لتعداد نعمه وآلائه تعـالى للثقلين في نشأتيهم الدنيا والآخرة .

وظهور قوله : « فانٍ » في الاستقبال كما يستفاد أيضاً من السياق يعطي أن قوله : « كل من عليها فان » يشير إلى انقطاع أمد النشأة الدنيا وارتفاع حكمها بفنـاء من عليها وهم الثقلان وطلوع النشأة الاخرى عليهم، وكلاهما أعني فناء من عليها وطلوع نشأة الجزاء عليهم من النعم والآلاء لأن الحياة الدنيا حياة مقدمية لغرض الآخرة والانتقال من المقدمة إلى الفرض والغاية نعمة .

وبذلك يندفع قول من قال : أي نعمة في الفناء حتى يحمل من النعم ويعد من الآلاء.

ومحصل الجواب أن حقيقة هذا الفناء الرجوع إلى الله بالانتقال من الدنيـا كما تفسره آيات كثيرة في كلامه تعالى وليس هو الفناء المطلق .

وقوله: « ويبقى وجه ربك » ، وجه الشيء ما يستقبل به غيره ويقصده به غيره، وهو فيه سبحانه صفاته الكريمة التي تتوسط بينه وبين خلقه فتنزل بها عليهم البركات من خلق وتدبير كالعلم والقدرة والسمع والبصر والرحمة والمغفرة والرزق وقد تقدم في تفسير سورة الأعراف كلام مبسوط في كون أسمائه وصفاته تعالى وسائط بينه وبين خلقه .

وقوله : « ذو الجلال والإكرام » في الجلال شيء من معنى الاعتلاء والترفع المعنوي على الغير فيناسب من الصفات ما فيه شائبة الدفع والمنع كالعلو والتعالي والعظمة والكبرياء والتكبر والإحاطة والعزة والغلبة .

ويبقى للإكرام من المعنى مـا فيه نعت البهاء والحسن الذي يجذب الغير ويُولّهه كالعلم والقدرة والحياة والرحمة والجود والجمال والحسن ونحوها وتسمى صفات الجمال كما تسمى القسم الأول صفات الجلال وتسمى الأسماء أيضاً على حسب ما فيها من صفات الجمـال أو الجلال بأسماء الجمال أو الجلال .

فذو الجلال والإكرام اسم من الأسماء الحسنى جامع بمفهومه بين أسماء الجمـال وأسماء الجلال جميعاً .

والمسمى به بالحقيقة هو الذات المقدسة كما في قوله في آخر السورة : « تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام» لكن أجري في هذه الآية ـ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ـ

على الوجه ، وهو إما لكونه وصفاً مقطوعاً عن الوصفية للمدح ، والتقدير هو ذو الجلال والإكرام ، وإما لأن المراد بالوجه كما تقدم هو صفته الكريمة واسمه المقدس وإجراء الاسم على الاسم مآله إلى إجراء الاسم على الذات .

ومعنى الآية على تقدير أن يراد بالوجه ما يستقبل به الشيء غيره وهو الاسم – ومن المعلوم أن بقاء الاسم [1] فرع بقاء المسمى – : ويبقى ربك عز اسمه بما له من الجلال والإكرام من غير أن يؤثر فناؤهم فيه أثراً أو يُغيّر منه شيئاً .

وعلى تقدير أن يراد بالوجه ما يقصده به غيره ومصداقه كل ما ينتسب اليه تعالى فيكون مقصوداً بنحو للتوجه اليه كأنبيائه وأوليائه ودينه وثوابه وقربه وسائر ما هو من هذا القبيل فالمعنى : ويبقى بعد فناء أهل الدنيا ما هو عنده تعالى وهو من صقعه وناحيته كأنواع الجزاء والثواب والقرب منه ، قال تعالى : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » النحل : ٩٦ .

وقد تقدم في تفسير قوله تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه » القصص : ٨٨ من الكلام بعض ما لا يخلو من نفع في المقام .

قوله تعالى : « يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن » سؤالهم سؤال حاجة فهم في حاجة من جميع جهاتهم اليه تعالى متعلقوا الوجودات به متمسكون بذيل غناه وجوده ، قال تعالى : « أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني » فاطر : ١٥ ، وقال في هذا المعنى من السؤال : « وآتاكم من كل ما سألتموه » إبراهيم : ٣٤ .

وقوله : «كل يوم هو في شأن » تنكير « شأن » للدلالة على التفرق والاختلاف فالمعنى : كل يوم هو تعالى في شأن غير ما في سابقه ولاحقه من الشأن فلا يتكرر فعل من أفعاله مرتين ولا يماثل شأن من شؤونه شأناً آخر من جميع الجهات وإنما يفعل على غير مثال سابق وهو الإبداع ، قال تعالى : « بديع السماوات والأرض » البقرة : ١١٧ .

ومعنى ظرفية اليوم إحاطته تعالى في مقام الفعل على الأشياء فهو سبحانه في كل زمان وليس في زمان وفي كل مكان وليس في مكان ومع كل شيء ولا يداني شيئاً .

---

(١) المراد بالاسم ما يحكى عنه الاسم اللفظي دون اللفظ الحاكي .

(بحث روائي)

في الكافي روى محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : لما قرأ رسول الله ﷺ الرحمان على الناس سكتوا فلم يقولوا شيئاً ، فقال رسول الله ﷺ : الجن كانوا أحسن جواباً منكم لما قرأت عليهم « فبأي آلاء ربكما تكذبان » قالوا : لا ولا بشيء من آلاء ربنا نكذّب .

أقول : وروى هذا المعنى في الدر المنثور عن عدة من أصحاب الجوامع – وصححه – عن ابن عمر عنه ﷺ .

وفي العيون بإسناده عن الرضا عليه السلام فيما سأل الشامي علياً عليه السلام ، وفيه : سأله عن اسم أبي الجن فقال : شومان وهو الذي خلق من مارج من نار .

وفي الاحتجاج عن علي عليه السلام في حديث وأما قوله : « رب المشرقين ورب المغربين » فإن مشرق الشتاء على حدة ومشرق الصيف على حدة . أما تعرف ذلك من قرب الشمس وبُعدها ؟

أقول : وروى هذا المعنى القمي في تفسيره مرسلاً مضمراً .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : « مرج البحرين يلتقيان » قال : علي وفاطمة «بينهما برزخ لا يبغيان» قال: النبي ﷺ « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان» قال : الحسن والحسين .

أقول : ورواه أيضاً عن ابن مردويه عن أنس بن مالك مثله ، ورواه في مجمع البيان عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وسفيان الثوري . وهو من البطن .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « كل من عليها فان » قال : من على وجه الأرض « ويبقى وجه ربك » قال : دين ربك ، وقال علي بن الحسين عليه السلام : نحن الوجه الذي يؤتى الله منه .

وفي مناقب ابن شهر آشوب قوله : « ويبقى وجه ربك » قال الصادق عليه السلام : نحن وجه الله .

أقول : وفي معنى هاتين الروايتين غيرهما ، وقد تقدم ما يوجه به تفسير الوجه بالدين وبالإمام .

وفي الكافي في خطبة لعلي عليه السلام : الحمد لله الذي لا يموت ولا ينقضي عجائبه لأنه كل يوم هو في شأن من إحداث بديع لم يكن .

وفي تفسير القمي في الآية قال : يحيي ويميت ويزيد وينقص .

وفي المجمع عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله : « كل يوم هو في شأن » قال : من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويفرّج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين .

أقول : ورواه عنه في الدر المنثور ، وروى ما في معناه عن ابن عمر عنه صلى الله عليه وآله وسلم ولفظه يغفر ذنباً ويفرّج كرباً .

* * *

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ ــ ٣١ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ــ ٣٢ . يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطانٍ ــ ٣٣ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ــ ٣٤ . يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَنُحاسٌ فَلا تَنتَصِرانِ ــ ٣٥ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ــ ٣٦ . فَإِذَا انشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ ــ ٣٧. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ــ ٣٨. فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جانٌّ ــ ٣٩ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ــ ٤٠ . يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَالْأَقْدامِ ــ ٤١ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ــ ٤٢ . هٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ــ ٤٣ . يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ــ ٤٤ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ــ ٤٥ . وَلِمَنْ خافَ

مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ـــ ٤٦ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ـــ ٤٧ .
ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ـــ ٤٨ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ـــ ٤٩ . فِيهِمَا
عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ـــ ٥٠. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ـــ ٥١ . فِيهِمَا
مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ـــ ٥٢. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ـــ ٥٣ .
مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ـــ ٥٤ .
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ـــ ٥٥ . فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ
يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ ـــ ٥٦. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ـــ ٥٧.
كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ـــ ٥٨. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ـــ ٥٩.
هَلْ جَزَاءُ ٱلْإِحْسَانِ إِلَّا ٱلْإِحْسَانُ ـــ ٦٠ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ـــ ٦١ . وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ـــ ٦٢. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ـــ ٦٣. مُدْهَامَّتَانِ ـــ ٦٤. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ـــ ٦٥.
فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ـــ ٦٦. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ـــ ٦٧.
فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ـــ ٦٨. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ـــ ٦٩.
فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ـــ ٧٠ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ـــ ٧١.
حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ـــ ٧٢. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ـــ ٧٣.
لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ ـــ ٧٤ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ـــ ٧٥. مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ـــ ٧٦ .

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ـــ ٧٧. تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ ـــ ٧٨.

(بيان)

هذا هو الفصل الثاني من آيات السورة يصف نشأة الثقلين الثانيــة وهي نشأة الرجوع إلى الله وجزاء الأعمال ويعدّ آلاء الله تعالى عليهم كما كانت الآيات السابقة فصلاً أولاً يصف النشأة الاولى ويعد آلاء الله فيها عليهم .

قوله تعالى : « سنفرغ لكم أيها الثقلان » يقال : فرغ فلان لأمر كذا إذا كان مشتغلاً قبلاً بامور ثم تركها وقصر الاشتغال بذاك الأمر اهتماماً به .

فمعنى « سنفرغ لكم » سنطوي بساط النشأة الاولى ونشتغل بكم ، وتبين الآيات التالية أن المراد بالاشتغال بهم بعثهم وحسابهم ومجازاتهم بأعمالهم خــيراً أو شراً فالفراغ لهم استعارة بالكناية عن تبدل النشأة .

ولا ينافي الفراغ لهم كونه تعالى لا يشغله شأن عن شأن فإن الفراغ المذكور ناظر إلى تبدلالنشأة وكونه لا يشغله شأن عن شأن ناظر إلى إطلاق القدرة وسعتها كما لا ينافي كونه تعالى كل يوم هو في شأن الناظر إلى اختلاف الشؤن كونه تعالى لا يشغله شأن عن شأن .

والثقـلان الجن والإنس ، وإرجاع ضمير الجمع في « لكم » و « إن استطعتم » وغيرهما اليهما لكونهما جمعاً ذا أفراد .

قوله تعالى : « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفــذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا » الخ ، الخطاب ــ على ما يفيده السياق ــ من خطابات يوم القيامة وهو خطاب تعجيزي .

والمراد بالاستطاعة القــدرة ، وبالنفوذ من الأقطار الفرار ، والأقطار جمع قطر وهو الناحية .

والمعنى : يا معشر الجن والإنس ــ وقــدّم الجن لأنهم على الحركات السريعة أقدر ــ إن قدرتم أن تفروا بالنفوذ من نواحي السماوات والأرض والخروج من ملك الله والتخلص من مؤاخذته ففروا وانفذوا .

وقوله : « لا تنفـذون إلا بسلطان » أي لا تقدرون على النفوذ إلا بنوع من السلطة على ذلك وليس لكم والسلطان القدرة الوجودية ، والسلطان البرهان أو مطلق الحجة ، والسلطان الملك .

وقيل: المراد بالنفوذ المنفي في الآية النفوذ العلمي في السماوات والأرض من أقطارهما، وقد عرفت أن السياق لا يلائمه .

قوله تعالى : « يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » الشواظ – على ما ذكره الراغب – اللهب الذي لا دخان فيه ، ويقرب منه ما في المجمع أنه اللهب الأخضر المنقطع من النار ، والنحاس الدخان وقال الراغب : هو اللهب بلا دخان والمعنى ظاهر .

وقوله : «فلا تنتصران» أي لا تتناصران بأن ينصر بعضكم بعضاً لرفع البلاء والتخلص عن العناء لسقوط تأثير الأسباب ولا عاصم اليوم من الله .

قوله تعالى : « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » أي كانت حمراء كالدهان وهو الأديم الأحمر .

قوله تعالى : « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان » الآية وما يتلوها من الآيات إلى آخر السورة تصف الحساب والجزاء تصف حال المجرمين والخائفين مقام ربهم ومـا ينتهي اليه .

ثم الآية تصف سرعة الحساب وقد قال تعالى : « والله سريع الحساب » النور : ٣٩ .

والمراد بيومئذ يوم القيامة ، والسؤال المنفي هو النحو المألوف من السؤال ، ولا ينافي نفي السؤال في هـذه الآية إثباته في قوله : « وقفوهم إنهم مسؤلون » الصافات : ٢٤ ، وقوله : « فوربك لنسألنهم أجمعين » الحجر : ٩٢ ، لأن اليوم ذو مواقف مختلفة يسأل في بعضها ، ويختم على الأفواه في بعضها وتكلم الأعضاء ، ويعرف بالسيماء في بعضها .

قوله تعالى : « يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام » في مقام الجواب عن سؤال مقدّر كأنه قيل : فإذا لم يسألوا عن ذنبهم فما يصنع بهم ؟ فاجيب بأنه يعرف المجرمون بسيماهم الخ ، ولذا فصلت الجملة ولم يعطف ، والمراد بسيماهم علامتهم البارزة في وجوههم .

وقوله : « فيؤخذ بالنواصي والأقدام » الكلام متفرع على المعرفة المذكورة، والنواصي

جمع ناصية وهي شعر مقدّم الرأس ، والأقدام جمع قدم ، وقوله : « بالنواصي » نائب فاعل يؤخذ .

والمعنى : – لا يسأل أحد عن ذنبه – يعرف المجرمون بعلامتهم الظاهرة في وجوههم فيؤخذ بالنواصي والأقدام من المجرمين فيلقون في النار .

قوله تعالى : « هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون – إلى قوله – آن » مقول قول مقدر أي يقال يومئذ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ، وقال الطبرسي : ويمكن أنه لما أخبر الله سبحانه أنهم يؤخذون بالنواصي والأقدام قال للنبي ﷺ : هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون من قومك فسيردونها فليهن عليك أمرهم . انتهى .

والحميم الماء الحار ، والآني الذي انتهت حرارته والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « ولمن خاف مقام ربه جنتان » شروع في وصف حال السعداء من الخائفين مقام ربهم ، والمقام مصدر ميمي بمعنى القيام مضاف إلى فاعله ، والمراد قيامه تعالى عليه بعمله وهو إحاطته تعالى وعلمه بما عمله وحفظه له وجزاؤه عليه قال تعالى : « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت » الرعد : ٣٣ .

ويمكن أن يكون المقام اسم مكان والإضافة لامية والمراد به مقامه وموقفه تعالى من عبده وهو أنه تعالى ربه الذي يدبر أمره ومن تدبير أمره أنه دعاه بلسان رسله إلى الإيمان والعمل الصالح وقضى أن يجازيه على ما عمل خيراً أو شراً هذا وهو محيط به وهو معه سميع بما يقول بصير بما يعمل لطيف خبير .

والخوف من الله تعالى ربما كان خوفاً من عقابه تعالى على الكفر به ومعصيته ، ولازمه أن يكون عبادة من يعبده خوفاً بهذا المعنى يراد بها التخلص من العقاب لا لوجه الله محضاً وهو عبادة العبيد يعبدون مواليهم خوفاً من السياسة كما أن عبادة من يعبده طمعاً في الثواب غايتها الفوز بما تشتهيه النفس دون وجهه الكريم وهي عبادة التجار كما في الروايات وقد تقدم شطر منها .

والخوف المذكور في الآية – ولمن خاف مقام ربه – ظاهره غير هذا الخوف فإن هذا خوف من العقاب وهو غير الخوف من قيامه تعالى على عبده بما عمل أو الخوف من مقامه تعالى من عبده فهو تأثر خاص ممن ليس له إلا الصغار والحقارة تجاه ساحة العظمة والكبرياء ، وظهور أثر المذلة والهوان والاندكاك قبال العزة والجبروت المطلقين .

وعبادته تعالى خوفاً منه بهذا المعنى من الخوف خضوع له تعـالى لأنه الله ذو الجلال والإكرام لا لخوف من عقابه ولا طمعاً في ثوابه بل فيه إخلاص العمل لوجهه الكريم ، وهذا المعنى من الخوف هو الذي وصف الله به المكرمين من ملائكته وهم معصومون آمنون من عقاب المخالفة وتبعة المعصية قال تعالى: « يخافون ربهم من فوقهم » النحل: ٥٠.

فتبين مما تقدم أن الذين أشار اليهم بقوله : « ولمن خاف » أهل الإخلاص الخاضعون لجلاله تعالى العابدون له لأنه الله عز اسمه لا خوفاً من عقابه ولا طمعاً في ثوابه ، ولا يبعد أن يكونوا هم الذين سموا سابقين في قوله : « وكنتم أزواجاً ثلاثة – إلى أن قـــال – والسابقون السابقون أولئك المقربون » الواقعة : ١١ .

وقوله : « جنتان » قيل : إحداهما منزله ومحل زيارة أحبابه له والاخرى منزل أزواجه وخدمه ، وقيل : بستانان بستان داخل قصره وبستان خارجه ، وقيل: منزلان ينتقل من أحدهما إلى الآخر ليكمل به التذاذه ، وقيل : جنـة لعقيدته وجنة لعمله ، وقيل : جنة لفعل الطاعات وجنة لترك المعاصي ، وقيل : جنة جسمانية وجنة روحانية وهذه الأقوال – كما ترى – لا دليل على شيء منها .

وقيل : جنة يثاب بها وجنة يتفضل بهـــا عليه ، ويمكن أن يستشعر ذلك من قوله تعالى : « لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد » ق : ٣٥ ، على ما مر في تفسيره .

قوله تعالى : « ذواتا أفنان » ذواتا تثنية ذات ، و « أفنان » إما جمع فنّ بمعنى النوع والمعنى : ذواتا أنواع من الثمار ونحوها ، وإما جمع فنن بمعنى الغصن الرطب اللين والمعنى: ذواتا أغصان لينة أشجارهما .

قوله تعالى : « فيهما عينان تجريان » وقد أبهمت العينان وفيه دلالة على فخامة أمرهما.

قوله تعالى : « فيهما من كل فاكهة زوجان » أي صنفان قيل : صنف معروف لهم شاهدوه في الدنيا وصنف غير معروف لم يروه في الدنيا ، وقيل : غير ذلك ، ولا دلالة في الكلام على شيء من ذلك .

قوله تعالى : « متكئين على فرش بطائنهـا من استبرق » الخ ، الفرش جمع فراش ، والبطائن جمع بطانة وهي داخل الشيء وجوفه مقابل الظهائر جمع ظهارة ، والاستبرق الحرير الغليظ قال في المجمع : ذكر البطانة ولم يذكر الظهارة لأن البطانة تدل على أن لها ظهارة والبطانة دون الظهارة فدلّ على أن الظهارة فوق الإستبرق ، انتهى .

وقوله : « وجنا الجنتين دان » الجنا الثمر المجتنى و « دان » اسم فـاعل من الدنوّ بمعنى القرب أي ما يجتنى من ثمار الجنتين قريب .

قوله تعالى : « فيهن قاصرات الطرف » إلى آخر الآية ضمير « فيهن » للفرش وجوّز أن يرجع إلى الجنان فإنها جنان لكل واحد من أولياء الله منها جنتان ، والطرف جفن العين ، والمراد بقصور الطرف اكتفاؤهن بأزواجهن فلا يردن غيرهم .

وقوله : « لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان » الطمث الافتضاض والنكاح بالتدمية ، والمعنى : لم يمسسهن بالنكاح إنس ولا جان قبل أزواجهن .

قوله تعالى : « كأنهن الياقوت والمرجان » أي في صفاء اللون والبهاء والتلألؤ .

قوله تعالى : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » استفهام إنكاري في مقام التعليل لما ذكر من إحسانه تعالى عليهم بالجنتين وما فيهما من أنواع النعم والآلاء فيفيد أنه تعالى يحسن اليهم هذا الإحسان جزاء لإحسانهم بالخوف من مقام ربهم .

وتفيد الآية أن مـا أوتوه من الجنة ونعيمها جزاء لأعمالهم وأما ما يستفاد من بعض الآيات أنهم يعطون فضلاً وراء جزاء أعمالهم فلا تعرض في هذه الآيات لذلك إلا أن يقال: الإحسان إنما يتم إذا كان يربو على ما أحسن به المحسن اليه فإطلاق الإحسان في قوله : «إلا الإحسان » يفيد الزيادة .

قوله تعالى : « ومن دونهما جنتان» ضمير التثنية للجنتين الموصوفتين في الآيات السابقة ومعنى : « من دونهما » أي أنزل درجة وأحط فضلاً وشرفاً منهما وإن كانتا شبيهتين بالجنتين السابقتين في نعمها وآلائها ، وقـد تقدم أن الجنتين السابقتين لأهل الإخلاص الخائفين مقام ربهم فهاتان الجنتان لمن دونهم من المؤمنين العابدين لله سبحانه خوفاً من النار أو طمعاً في الجنة وهم أصحاب اليمين .

وقيل : معنى « من دونهما » بالقرب منهما ، ويستفاد من السياق حينئذ أن هـاتين الجنتين أيضاً لأهل الجنتين المذكورتين قبلاً بل ادّعى بعضهم أن هـاتين الجنتين أفضل من السابقتين والصفات المذكورة فيهما أمدح .

وأنت بالتدبر فيما قدمناه في معنى لمن خاف مقام ربه وما يستفاد من كلامه تعالى أن أهل الجنة صنفان : المقربون أهل الإخلاص وأصحاب اليمين تعرف قوة الوجه السابق .

قوله تعالى : «مدهامتان» الادهيام من الدهمة اشتداد الخضرة بحيث تضرب إلى السواد وهو ابتهاج الشجرة .

قوله تعالى : « فيهما عينان نضاختان » أي فوّارتان تخرجان من منبعهما بالدفع .

قوله تعالى : « فيهما فاكهة ونخل ورمان » المراد بالفاكهة والرمان شجرتهما بقرينة النخل .

قوله تعالى : « فيهن خيرات حسان » ضمير « فيهن » للجنان باعتبار أنها جنتان من هاتين الجنتين ، وقيل : مرجع الضمير الجنات الأربع المذكورة في الآيات ، وقيل : الضمير للفاكهة والنخل والرمان .

وأكثر ما يستعمل الخير في المعاني كما أن أكثر استعمال الحسن في الصور ، وعلى هذا فمعنى خيرات حسان أنهن حسان في أخلاقهن حسان في وجوههن .

قوله تعالى : « حور مقصورات في الخيام » الخيام جمع خيمة وهي الفسطاط ، وكونهن مقصورات في الخيام أنهن مصونات غير مبتذلات لا نصيب لغير أزواجهن فيهن .

قوله تعالى : « لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان » تقدم معناه .

قوله تعالى : « متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان » في الصحاح : الرفرف ثياب خضر تتخذ منها المجالس . انتهى . وقيل : هي الوسائد ، وقيل : غير ذلك ، والخضر جمع أخضر صفة لرفرف ، والعبقري قيل : الزرابي ، وقيل : الطنافس ، وقيل : الثياب الموشاة ، وقيل : الديباج .

قوله تعالى : « تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام » ثناء جميل له تعالى بما امتلأت النشأتان الدنيا والآخرة بنعمه وآلائه وبركاته النازلة من عنده برحمته الواسعة ، وبذلك يظهر أن المراد باسمه المتبارك هو الرحمان المفتتحة به السورة ، والتبارك كثرة الخيرات والبركات الصادرة .

فقوله : « تبارك اسم ربك » تبارك الله المسمى بالرحمان بما أفاض هذه الآلاء .

وقوله : « ذي الجلال والإكرام » إشارة إلى تسمّيه بأسمائه الحسنى واتصافه بما يدل عليه من المعاني الوصفية ونعوت الجلال والجمال ، ولصفات الفاعل ظهور في أفعاله وأثر فيها يرتبط به الفعل بفاعله فهو تعالى خلق الخلق ونظم النظام لأنه بديع خالق مبدىء فأتقن الفعل لأنه عليم حكيم وجازى أهل الطاعة بالخير لأنه ودود شكور غفور رحيم

وأهل الفسق بالشر لأنه منتقم شديد العقاب .

فتوصيف الرب - الذي أثني على سعة رحمته - بذي الجلال والإكرام للإشارة إلى أن لأسمائه الحسنى وصفاته العليا دخلاً في نزول البركات والخيرات من عنده ، وأن نعمه وآلاءه عليها طابع أسمائه الحسنى وصفاته العليا تبارك وتعالى .

(بحث روائي)

في المجمع : وقد جاء في الخبر : يحاط على الخلق بالملائكة وبلسان من نار ثم ينادون : « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم - إلى قوله - يرسل عليكما شواظ من نار » .

أقول : ورووى هذا المعنى عن مسعدة بن صدقة عن كليب عن أبي عبد الله عليه‌السلام .

وفي الكافي بإسناده عن داود الرقي عن أبي عبد الله عليه‌السلام في قول الله عز وجل . « ولمن خاف مقام ربه جنتان » قال : من علم أن الله يراه ويسمع ما يقول ويعلم ما يعمله من خير أو شر فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال فذلك الذي خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن منيع والحكيم في نوادر الاصول والنسائي والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن أبي الدرداء أن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قرأ هذه الآية « ولمن خاف مقام ربه جنتان » فقلت : « أو إن زنى وإن سرق يا رسول الله ؟ فقال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم الثانية « ولمن خاف مقام ربه جنتان » فقلت : وإن زنى وإن سرق ؟ فقال : نعم وإن رغم أنف أبي الدرداء .

أقول : الرواية لا تخلو من شيء فإن الخوف من مقامه تعالى لا يجامع هذه الكبائر الموبقة ، وقد روي عن أبي الدرداء نفسه ما يدفع هذه الرواية ففي الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن المنذر عن يسار مولى لآل معاوية عن أبي الدرداء في قوله : « ولمن خاف مقام ربه جنتان » قال: قيل : يا أبا الدرداء وإن زنى وإن سرق ؟ قال : من خاف مقام ربه لم يزن ولم يسرق .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: « قاصرات الطرف » قال : الحور العين يقصر الطرف عنها من ضوء نورها .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ في قوله : « قاصرات الطرف » قال : لا ينظرن إلا إلى أزواجهن .

وفي المجمع في قوله تعالى : « كأنهن الياقوت والمرجان » في الحديث أن المرأة من أهل الجنة يرى مخ ساقها من وراء سبعين حلة من حرير .

أقول : وهذا المعنى وارد في عدة روايات .

وفي تفسير العياشي بإسناده عن علي بن سالم قال : سمعت أبا عبد الله عليه‌السلام يقول : آية في كتاب الله مسجلة . قلت : وما هي ؟ قال : قول الله عز وجل : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » جرى في الكافر والمؤمن والبر والفاجر ، ومن صنع اليه معروف فعليه أن يكافيء به ، وليس المكافأة أن يصنع كما صنع حتى يربي فإن صنعت كما صنع كان له الفضل بالابتداء .

وفي المجمع في قوله : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » جاءت الرواية من أنس بن مالك قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية فقال : هل تدرون ما يقول ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : فإن ربكم يقول : هل جزاء من أنعمنا عليه بالتوحيد إلا الجنة ؟

وفي تفسير القمي في الآية قال : ما جزاء من أنعمت عليه بالمعرفة إلا الجنة .

أقول : الرواية مروية عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام وقد أسندها في التوحيد إلى جعفر بن محمد عن آبائه عن علي عليه‌السلام عن النبي ﷺ - ولفظها - إن الله عز وجل قال : ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة وأسندها في العلل إلى الحسن ابن علي عليهما السلام عن النبي ﷺ - واللفظ - هل جزاء من قال : لا إله إلا الله إلا الجنة ؟

وروى الرواية بألفاظها المختلفة في الدر المنثور بطرق مختلفة عن النبي ﷺ وقوله : أنعمت عليه ، إشارة إلى أن إحسان العبد بالحقيقة إحسان من الله اليه .

وفي المجمع في قوله تعالى : « ومن دونهما جنتان » عن العلاء بن سيابة عن أبي عبد الله عليه‌السلام قلت له : إن الناس يتعجبون منا إذا قلنا : يخرج قوم من النار فيدخلون الجنة فيقولون لنا فيكونون مع أولياء الله في الجنة ؟ فقال يا علي إن الله يقول : « ومن دونهما جنتان » ما يكونون مع أولياء الله .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي موسى عن النبي ﷺ في قوله : « ولمن خاف مقـــام ربه جنتان » وقوله : « ومن دونهما جنتان » قال : جنتان من ذهب للمقربين وجنتان من ورق لأصحاب اليمين .

أقول : والروايتان تؤيدان ما قدمناه في تفسير الآيتين .

وفيه أخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي أيوب قـال : سألت النبي ﷺ عن قوله : « مدهامتان » قال : خضراوان .

وفي تفسير القمي بإسناده إلى يونس بن ظبيان عن أبي عبد الله عليه‌السلام في قوله تعالى : « نضاختان » قال : تفوران .

وفيه في قوله : « فيهن خيرات حسان » قال : جوار نابتات على شط الكوثر كلمـــا أخذت منها نبتت مكانها أخرى .

وفي المجمع في قوله : « خيرات حسان » أي نساء خيرات الأخلاق حسان الوجوه . روته أم سلمة عن النبي ﷺ .

وفي الفقيه قال الصادق عليه‌السلام : الخيرات الحسان من نساء أهل الدنيا وهنّ أجمل من الحور العين .

وفي روضة الكافي بإسناده عن الحلبي قال : سألت أبا عبد الله عليه‌السلام عن قول الله عز وجل : « فيهن خيرات حسان » قال : هن صوالح المؤمنات العارفات .

أقول : وفي انطباق الآية بالنظر إلى سياقها على مورد الروايتين إبهام .

* * *

(سورة الواقعة مكية ، وهي ست وتسعون آية)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَـــةُ ــ ١ . لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَـةٌ ــ ٢ . خَافِضَةٌ رَافِعَـةٌ ــ ٣ . إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ــ ٤ . وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ــ ٥ . فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ــ ٦ .

وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً ــ ٧. فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ ــ ٨.
وَأَصْحَابُ ٱلْمَشْئَمَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَشْئَمَةِ ــ ٩. وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ــ ١٠.

(بيان)

تصف السورة القيامة الكبرى التي فيها بعث الناس وحسابهم وجزاؤهم فتذكر أولاً شيئاً من أهوالها مما يقرب من الإنسان والأرض التي يسكنها فتذكر تقليبها للأوضاع والأحوال بالخفض والرفع وارتجاج الأرض وانبثاث الجبال وتقسم الناس إلى ثلاثة أزواج إجمالاً ثم تذكر ما ينتهي اليه حال كل من الأزواج السابقين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال .

ثم تحتج على أصحاب الشمال المنكرين لربوبيته وللبعث المكذبين بالقرآن الداعي إلى التوحيد والإيمان بالبعث . ثم تختم الكلام بذكر الاحتضار بنزول الموت وانقسام الناس إلى ثلاثة أزواج .

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « إذا وقعت الواقعة » وقوع الحادثة هو حدوثها ، والواقعة صفة توصف بها كل حادثة ، والمراد بها ههنا واقعة القيامة وقد أطلقت إطلاق الأعلام كأنها لا تحتاج إلى موصوف مقدر ولذا قيل: إنها من أسماء القيامة في القرآن كالحاقة والقارعة والغاشية.

والجملة « إذا وقعت الواقعة » مضمنة معنى الشرط ولم يذكر جزاء الشرط إعظاماً له وتفخيماً لأمره وهو على أي حال أمر مفهوم مما ستصفه السورة من حال الناس يوم القيامة ، والتقدير نحو من قولنا : فاز المؤمنون وخسر الكافرون .

قوله تعالى : « ليس لوقعتها كاذبة » قال في المجمع : الكاذبة مصدر كالعافية والعاقبة. انتهى . وعليه فالمعنى : ليس في وقعتها وتحققها كذب ، وقيل : كاذبة صفة محذوفة الموصوف والتقدير : ليس لوقعتها قضية كاذبة .

قوله تعالى : « خافضة رافعة » خبران مبتدأهما الضمير الراجع إلى الواقعة ، والخفض خلاف الرفع وكونها خافضة رافعة كناية عن تقليبها نظام الدنيا المشهود فتظهر السرائر

وهي محجوبة اليوم وتحجب وتستر آثار الأسباب وروابطها وهي ظاهرة اليوم وتذلّ الأعزّة من أهل الكفر والفسق وتعزّ المتقين .

قوله تعالى : « إذا رُجَّت الأرض رجّاً » الرجّ تحريك الشيء تحريكاً شديداً إشارة إلى زلزلة الساعة التي يعظمها الله سبحانه في قوله: « إن زلزلة الساعة شيء عظيم » الحج: ١ ، وقد عظمها في هذه الآية حيث عبّر عنها برجّ الأرض ثم أكد شدتها بتنكير قوله: «رجاً» أي رجاً لا يوصف شدته . والجملة بدل أو بيان لقوله : « إذا وقعت الواقعة » .

قوله تعالى : « وبُسَّت الجبال بَسّاً فكانت هباء منبثاً » عطف على «رجّت» والبسّ الفتّ وهو عود الجسم بدق ونحوه أجزاء صغاراً متلاشية كالدقيق ، وقيل : البس هو التسيير فهو في معنى قوله : « وسُيّرت الجبال » النبأ : ٢٠ .

وقوله : « فكانت هباء منبثاً » الهباء قيل : هو الغبار وقيل : هو الذرّة من الغبار الظاهر في شعاع الشمس الداخل من كوّة ، والانبثاث التفرق ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « وكنتم أزواجاً ثلاثة » الزوج بمعنى الصنف والخطاب لعامة البشر .

قوله تعالى : « فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة » متفرع على ما قبلها تفرع البيان على المبيّن ، فهذه الآية والآيتان بعدها بيان للأزواج الثلاثة .

والميمنة من اليمن مقابل الشؤم ، فأصحاب الميمنة أصحاب السعادة واليمن مقابل أصحاب المشأمة أصحاب الشقاء والشؤم ، وما قيل : إن المراد بالميمنة اليمين ، أي ناحية اليمين لأنهم يؤتون كتابهم بيمينهم وغيرهم يؤتونه بشمالهم يردّه مقابلة أصحاب الميمنة بأصحاب المشأمة ، ولو كان كما قيل لقيل أصحاب الشمال وهو ظاهر .

وما في قوله : « ما أصحاب الميمنة » استفهامية ومبتدأ خبره « أصحاب الميمنة » ، والمجموع خبر لقوله: « وأصحاب الميمنة » وفي الاستفهام إعظام لأمرهم وتفخيم لشأنهم .

قوله تعالى : « وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة » المشأمة مصدر كالشؤم مقابل اليمن ، والميمنة والمشأمة السعادة والشقاء .

قوله تعالى : « والسابقون السابقون » الذي يصلح أن يفسر به السابقون الاول قوله تعالى : « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله » فاطر : ٣٢ ، وقوله : « ولكل وجهة هو مولّيها فاستبقوا الخيرات » البقرة: ١٤٨ ، وقوله: « اولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون » المؤمنون : ٦١ .

فالمراد بالسابقين ـ الأول ـ في الآية السابقون بالخيرات من الأعمال ، وإذا سبقوا بالخيرات سبقوا إلى المغفرة والرحمة التي بإزائها كما قال تعالى : « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة » الحديد : ٢١ ، فالسابقون بالخيرات هم السابقون بالرحمة وهو قوله : « والسابقون السابقون » .

وقيل : المراد بالسابقون الثاني هو الأول على حد قوله :

أنا أبو النجم وشعري شعري .

وقوله : « والسابقون السابقون » مبتدأ وخبر ، وقيل : الأول مبتدأ والثاني تأكيد ، والخبر قوله : « اولئك المقرّبون » .

ولهم في تفسير السابقين أقوال أخر فقيل: هم المسارعون إلى كل ما دعا الله اليه ، وقيل: هم الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة من غير توان ، وقيل : هم الأنبياء عليهم السلام لأنهم مقدموا أهل الأديان ، وقيل : هم مؤمن آل فرعون وحبيب النجار المذكور في سورة يس وعلي عليه السلام السابق إلى الإيمان بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو أفضلهم ، وقيل : هم السابقون إلى الهجرة ، وقيل : هم السابقون إلى الصلوات الخمس ، وقيل : هم الذين صلوا إلى القبلتين ، وقيل : هم السابقون إلى الجهاد ، وقيل غير ذلك .

والقولان الأولان راجعان إلى ما تقدم من المعنى ، والثالث والرابع ينبغي أن يحملا على التمثيل ، والباقي كما ترى إلا أن يحمل على نحو من التمثيل .

(بحث روائي)

في الخصال عن الزهري قال : سمعت علي بن الحسين عليه السلام يقول : من لم يتعزّ بعزاء الله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات ، والله ما الدنيا والآخرة إلا ككفتي ميزان فأيهما رجح ذهب بالآخر ثم تلا قوله عز وجل : « إذا وقعت الواقعة » يعني القيامة « ليس لوقعتها كاذبة خافضة » خفضت والله بأعداء الله في النار « رافعة » رفعت والله أولياء الله إلى الجنة .

وفي تفسير القمي « إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة » قال : القيامة هي حق ، وقوله : « خافضة » قال : بأعداء الله « رافعة » لأولياء الله « إذا رجّت الأرض رجاً »

قال : يدق بعضها على بعض « وبسّت الجبال بساً » قال: قلعت الجبال قلعاً « فكانت هباء منبثاً » قال : الهباء الذي في الكوّة من شعاع الشمس .

وقوله : « وكنتم أزواجاً ثلاثة » قال : يوم القيامة « فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون » الذين سبقوا إلى الجنة.

أقول : قوله : الذين سبقوا إلى الجنة تفسير للسابقون الثاني .

وفي الدر المنثور أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن علي بن أبي طالب قال: الهباء المنبث رهج [1] الذرّات والهباء المنثور غبار الشمس الذي تراه في شعاع الكوّة .

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: « والسابقون السابقون » قال : نزلت في حزقيل مؤمن آل فرعون ، وحبيب النجار الذي ذكر في يس وعلي بن أبي طالب ، كل رجل منهم سابق أمته وعلي أفضلهم سبقاً .

وفي المجمع عن أبي جعفر عليه السلام قال : السابقون أربعة : ابن آدم المقتول ، وسابق أمة موسى وهو مؤمن آل فرعون ، وسابق أمة عيسى وهو حبيب والسابق في أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو علي بن أبي طالب عليه السلام .

أقول : وروى هذا المعنى في روضة الواعظين عن الصادق عليه السلام .

وفي أمالي الشيخ بإسناده إلى ابن عباس قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قول الله عز وجل: « والسابقون السابقون اولئك المقربون في جنات النعيم » فقال: قال لي جبرئيل: ذلك علي وشيعته ، هم السابقون إلى الجنة المقربون من الله بكرامته لهم .

وفي كمال الدين بإسناده إلى خيثمـــة الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث : ونحن السابقون السابقون ونحن الآخرون .

وفي العيون في باب ما جاء عن الرضا عليه السلام من الأخبار المجموعة بإسناده عن علي عليه السلام قال : « والسابقون السابقون اولئك المقربون » فيّ نزلت .

وفي المجمع في الآية : وقيل : إلى الصلوات الخمس . عن علي عليه السلام .

أقول : الوجه حمل جميع هذه الأخبار على التمثيل كما تقدم .

---

(١) الرهج بفتحتين وبفتح فسكون ما أثير من الغبار .

* * *

أولـٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ــ ١١ . فِي جَنَّـاتِ النَّعِيمِ ــ ١٢ . ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ــ ١٣ . وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ــ ١٤ . عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ــ ١٥ . مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ــ ١٦ . يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ــ ١٧ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ــ ١٨ . لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ــ ١٩ . وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ــ ٢٠ . وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ــ ٢١ . وَحُورٌ عِينٌ ــ ٢٢ . كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ــ ٢٣ . جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ــ ٢٤ . لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً ــ ٢٥ . إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً ــ ٢٦ . وَأَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ ــ ٢٧ . فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ــ ٢٨ . وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ــ ٢٩ . وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ــ ٣٠ . وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ــ ٣١ . وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ــ ٣٢ . لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ــ ٣٣ . وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ــ ٣٤ . إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ــ ٣٥ . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً ــ ٣٦ . عُرُباً أَتْرَاباً ــ ٣٧ . لِّأَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ ــ ٣٨ . ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ــ ٣٩ . وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ــ ٤٠ . وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ــ ٤١ . فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ــ ٤٢ . وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ــ ٤٣ . لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ــ ٤٤ . إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ــ ٤٥ . وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنْثِ ٱلْعَظِيمِ ــ ٤٦ . وَكَانُوا

يَقُولُونَ ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ـــ ٤٧ . أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ـــ ٤٨ . قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ـــ ٤٩ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ـــ ٥٠ . ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ـــ ٥١ . لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ـــ ٥٢ . فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ـــ ٥٣ . فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ـــ ٥٤ . فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ـــ ٥٥ . هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ـــ ٥٦ .

(بيان)

الآيات تفصل ما ينتهي اليه حال كل واحد من الأزواج الثلاثة يوم القيامة .

قوله تعالى : « اولئك المقربون في جنـــات النعيم » الإشارة باولئك إلى السابقين ، و« اولئك المقربون » مبتدأ وخبر ، والجملة استئنافية ، وقيل: خبر لقوله : « والسابقون» ، وقيل : مبتدأ خبره في جنات النعيم ، وأول الوجوه الثلاثة أوجه بالنظر إلى سياق تقسيم الناس إلى ثلاثة أزواج أولاً ثم تفصيل ما ينتهي اليه أمر كل منهم .

والقرب والبعد معنيان متضائفان تتصف بهما الأجسام بحسب النسبة المكانية ثم توسع فيهما فاعتبرا في غير المكان من الزمان ونحوه ، يقال : الغد قريب من اليوم والأربعة أقرب إلى الثلاثة من الخمسة ، والخضرة أقرب إلى السواد من البياض ثم توسع فيهما فاعتبرا في غير الأجسام والجسمانيات من الحقائق .

وقد اعتبر القرب وصفاً له تعالى بما له من الإحاطة بكل شيء ، قال تعـالى : « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب» البقرة : ١٨٦ ، وقال:« ونحن أقرب اليه منكم » الواقعة: ٨٥ ، وقال : « ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » ق : ١٦ . وهـذا المعنى أعني كونه تعالى أقرب إلى الشيء من نفسه أعجب ما يتصور من معنى القرب ، وقد أشرنا إلى تصويره في تفسير الآية .

واعتبر القرب أيضاً وصفاً للعباد في مرحلة العبودية ولما كان أمراً اكتسابياً يستعمل فيه لفظ التقرب فالعبد يتقرب بصالح العمل إلى الله سبحانه وهو وقوعه في معرض شمول الرحمة الإلهية بزوال أسباب الشقاء والحرمان، والله سبحانه يقرب العبد بمعنى إنزاله منزلة يختص بنيل ما لا يناله من دونه من إكرامه تعالى ومغفرته ورحمته ، قال تعالى : « كتاب مرقوم يشهده المقربون » المطففين : ٢١ ، وقال : « ومزاجه من تسنيم عيناً يشرب بها المقربون » المطففين : ٢٨ .

فالمقربون هم النمط الأعلى من أهل السعادة كما يشير اليه قوله : « والسابقون السابقون اولئك المقربون » ولا يتم ذلك إلا بكمال العبودية كما قال : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » النساء : ١٧٢ ، ولا تكمل العبودية إلا بأن يكون العبد تبعاً محضاً في إرادته وعمله لمولاه لا يريد ولا يعمل إلا ما يريده وهذا هو الدخول تحت ولاية الله فهؤلاء هم أولياء الله .

وقوله: « في جنات النعيم » أي كل واحد منهم في جنة النعيم فالكل في جنات النعيم، ويمكن أن يراد به أن كلاً منهم في جنات النعيم لكن يبعّده قوله في آخر السورة : «فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم » .

وقد تقدم غير مرة أن النعيم هي الولاية وأن جنة النعيم هي جنة الولاية وهو المناسب لما تقدم آنفاً أن المقربين هم أهل ولاية الله .

قوله تعالى : « ثلة من الأولين وقليل من الآخرين » الثلة – على ما قيل – الجماعة الكثيرة ، والمراد بالأولين الامم الماضون للأنبياء السابقين ، وبالآخرين هذه الامة على ما هو المعهود من كلامه تعالى في كل موضع ذكر فيه الأولين والآخرين معاً ومنها ما سيأتي من قوله : « ءإنا لمبعوثون أوآباؤنا الأولون قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم » فمعنى الآيتين: هم أي المقربون جماعة كثيرة من الامم الماضين وقليل من هذه الامة.

وبما تقدم يظهر أن قول بعضهم : إن المراد بالأولين والآخرين أوّلوا هذه الامة وآخروها غير سديد .

قوله تعالى : « على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين » الوضن النسج وقيل: نسج الدرع وإطلاقه على نسج السرر استعارة يراد بها إحكام نسجها .

وقوله : « متكئين عليها » حال من الضمير العائد إلى المقربين والضمير للسرر، وقوله:

« متقابلين » حال آخر منه أو من ضمير « متكئين » وتقابلهم كناية عن بلوغ انسهم وحسن عشرتهم وصفاء باطنهم فلا ينظرون في قفاء صاحبهم ولا يعيبونه ولا يغتابونه .

والمعنى : هم أي المقربون مستقرون على سرر منسوجة حال كونهم متكئين عليها حال كونهم متقابلين .

قوله تعالى : « يطوف عليهم ولدان مخلدون » الولدان جمع ولد وهو الغلام ، وطوافهم عليهم كناية عن خدمتهم لهم ، والمخلدون من الخلود بمعنى الدوام أي باقون أبداً على هيئتهم من حداثة السن ، وقيل من الخلد بفتحتين وهو القرط ، والمراد أنهم مقرطون بالخلد .

قوله تعالى : « بأكواب وأباريق وكأس من معين » الأكواب جمع كوب وهو الإناء الذي لا عروة له ولا خرطوم ، والأباريق جمع إبريق وهو الإناء الذي له خرطوم ، وقيل: عروة وخرطوم معاً ، والكأس معروف ، قيل : أفرد الكأس لأنها لا تسمى كأساً إلا إذا كانت ممتلئة ، والمراد بالمعين الخمر المعين وهو الظاهر للبصر الجاري .

قوله تعالى : « لا يصدّعون عنها ولا ينزفون » أي لا يأخذهم صداع لأجل خمار يحصل من الخمر كما في خمر الدنيا ولا يزول عقلهم بالسكر الحاصل منها .

قوله تعالى : « وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون » الفاكهة والطير معطوفان على قوله : « بأكواب » ، والمعنى : يطوف عليهم الولدان بفاكهة مما يختارون وبلحم طير مما يشتهون .

ولا يستشكل بما ورد في الروايات أن أهل الجنة إذا اشتهوا فاكهة تدلّت إليهم غصن شجرتها بما لها من ثمرة فيتناولونها ، وإذا اشتهوا لحم طير وقع مقلياً مشويّاً في أيديهم فيأكلون منها ما أرادوا ثم حيي وطار .

وذلك لأن لهم ما شاؤا ومن فنون التنعم تناول ما يريدونه من أيدي خدمهم وخاصة حال اجتماعهم واحتفالهم كما أن من فنونه تناولهم أنفسهم من غير توسيط خدمهم فيه .

قوله تعالى : « وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون » مبتدأ محذوف الخبر على ما يفيده السياق والتقدير ولهم حور عين أو وفيها حور عين والحور العين نساء الجنة وقد تقدم معنى الحور العين في تفسير سورة الدخان .

وقوله : « كأمثال اللؤلؤ المكنون » أي اللؤلؤ المصون المخزون في الصدف لم تمسه الأيدي فهو منته في صفائه .

قوله تعالى : « جزاء بما كانوا يعملون » قيد لجميع ما تقدم وهو مفعول له ، والمعنى : فعلنا بهم ما فعلنا ليكون جزاء لهم قبال ما كانوا يستمرون عليه من العمل الصالح .

قوله تعالى : « لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً » اللغو من القول ما لا فائدة فيه ولا أثر يترتب عليه ، والتأثيم النسبة إلى الإثم أي لا يخاطب أحدهم صاحبه بما لا فائدة فيه ولا ينسبه إلى الإثم إذ لا إثم هناك ، وفسّر بعضهم التأثيم بالكذب .

قوله تعالى : « إلا قيلاً سلاماً سلاماً » استثناء منقطع من اللغو والتأثيم ، والقيل مصدر كالقول ، و« سلاماً » بيان لقوله : « قيلاً » وتكراره يفيد تكرر الوقوع ، والمعنى : إلا قولاً هو السلام بعد السلام .

قيل : ويمكن أن يكون « سلاماً » مصدراً بمعنى الوصف وصفة لقيلاً ، والمعنى : إلا قولاً هو سالم .

قوله تعالى : « وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين » شروع في تفصيل ما انتهى اليه حال أصحاب الميمنة وفي تبديله من أصحاب اليمين يعلم أن أصحاب اليمين وأصحاب الميمنة واحد وهم الذين يؤتون كتابهم بيمينهم . والجملة استفهامية مسوقة لتفخيم أمرهم والتعجيب من حالهم وهي خبر لقوله : « وأصحاب اليمين » .

قوله تعالى : « في سدر مخضود » السدر شجرة النبق ، والمخضود ما قطع شوكه فلا شوك له .

قوله تعالى : « وطلح منضود » الطلح شجر الموز ، وقيل : ليس بالموز بل شجر له ظل بارد رطب ، وقيل : شجرة ام غيلان لها أنوار طيبة الرائحة ، ونضد الأشياء جعل بعضها على بعض ، والمعنى : وفي شجر موز منضود الثمر بعضه على بعض من أسفله إلى أعلاه .

قوله تعالى : « وظل ممدود وماء مسكوب » قيل : الممدود من الظل هو الدائم الذي لا تنسخه شمس فهو باق لا يزول ، والماء المسكوب هو المصبوب الجاري من غير انقطاع .

قوله تعالى : « وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة » أي لا مقطوعة في بعض الأزمان كانقطاع الفواكه في شتاء ونحوه في الدنيا ، ولا ممنوعة التناول لمانع من قبل أنفسهم كسآمة أو شبع أو من خارج كبعد المكان أو شوكة تمنع القطف أو غير ذلك .

قوله تعالى : « وفرش مرفوعة » الفرش جمع فراش وهو البساط ، والمرفوعة العالية ، وقيل : المراد بالفرش المرفوعة النساء المرتفعات قدراً في عقولهن وجمالهن وكمالهن والمرأة

تسمى فراشاً ، ويناسب هذا المعنى قوله بعد : « إنا أنشأناهن إنشاء » الخ .

قوله تعالى : « إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً عرباً أتراباً » أي إنا أوجدناهن وأحدثناهن وربّيناهن إحداثاً وتربيـــة خاصة ، وفيه تلويح إلى أنهن لا يختلف حالهن بالشباب والشيب وصباحة المنظر وخلافها ، وقوله : « فجعلناهن أبكاراً » أي خلقناهن عذارى كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً .

وقوله : « عرباً أتراباً » العرب جمع عروب وهي المتحننة إلى زوجها أو الغنجة أو العاشقة لزوجها ، والأتراب جمع ترب بالكسر فالسكون بمعنى المثل أي إنهن أمثال أو أمثال في السن لأزواجهن .

قوله تعالى : «لأصحاب اليمين ثلة من الأولين وثلة من الآخرين» يتضح معناه بما تقدم ، ويستفاد من الآيات أن أصحاب اليمين في الآخرين جمع كثير كالأولين لكن السابقين المقربين في الآخرين أقل جمعاً منهم في الأولين .

قوله تعالى : «وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال» مبتدأ وخبر ، والاستفهام للتعجيب والتهويل ، وقــد بدّل أصحاب المشأمة من أصحاب الشمال إشارة إلى أنهم الذين يؤتون كتابهم بشمالهم كما مرّ نظيره في أصحاب اليمين .

قوله تعالى : « في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم » السموم – على ما في الكشاف – حر نار ينفذ في المسام ، والحميم الماء الشديد الحرارة ، والتنوين فيهما لتعظيم الأمر ، واليحموم الدخان الأسود ، وقوله : « لا بارد ولا كريم » الظاهر أنهما صفتان للظل لا ليحموم ، وذلك أن الظل هو الذي يتوقع منه أن يتبرّد بالاستظلال به ويستراح فيه دون الدخان .

قوله تعالى : «إنهم كانوا قبل ذلك مترفين» تعليل لاستقرار أصحاب الشمال في العذاب ، والإشارة بذلك إلى ما ذكر من عذابهم يوم القيـــامة ، وإتراف النعمة الإنسان إبطارها وإطغاؤها له ، وذلك إشغالها نفسه بحيث يغفل عما وراءها فكون الإنسان مترفاً تعلقه بما عنده من نعم الدنيا وما يطلبه منها سواء كانت كثيرة أو قليلة .

فلا يرد ما استشكل من أن كثيراً من أصحاب الشمال ليسوا من المترفين بمعنى المتوسعين في التنعم وذلك أن الإنسان محفوف بنعم ربه وليست النعمة هي المال فحسب فاشتغاله بنعم ربه عن ربه ترفة منه ، والمعنى : أنا إنمـا نعذبهم بما ذكر لأنهم كانوا قبل ذلك في

الدنيا بطرين طاغين بالنعم .

قوله تعالى : « وكانوا يصرّون على الحنث العظيم » في المجمع: الحنث نقض العهد المؤكد بالحلف ، والإصرار أن يقيم عليه فلا يقلع عنه . انتهى . ولعل المستفاد من السياق أن إصرارهم على الحنث العظيم هو استكبارهم عن عبودية ربهم التي عاهدوا الله عليها بحسب فطرتهم وأُخذ منهم الميثاق عليها في عالم الذرّ فيطيعون غير ربهم وهو الشرك المطلق .

وقيل : الحنث الذنب العظيم فتوصيفه بالعظيم مبالغة والحنث العظيم الشرك بالله ، وقيل : الحنث العظيم جنس المعاصي الكبيرة ، وقيل : هو القسم على إنكار البعث المشار اليه بقوله تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت » النحل : ٣٨ ، ولفظ الآية مطلق .

قوله تعالى : « وكانوا يقولون أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون أوآباؤنا الأولون » قول منهم مبني على الاستبعاد ولذا أكدوا استبعاد بعث أنفسهم ببعث آبائهم لأن الاستبعاد في موردهم آكد ، والتقدير أوآباؤنا الأولون مبعوثون .

قوله تعالى : « قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم » أمر منه تعالى لنبيه ﷺ أن يجيب عن استبعادهم البعث بتقريره ثم إخبارهم عما يعيشون به يوم البعث من طعام وشراب وهما الزقّوم والحميم .

ومحصل القول أن الأولين والآخرين – من غير فرق بينهم لا كما فرّقوا فجعلوا بعث أنفسهم مستبعداً وبعث آبائهم الأولين أشد استبعاداً وآكد – لمجموعون محشورين إلى ميقات يوم معلوم .

والميقات ما وقّت به الشيء وهو وقته المعين ، والمراد بيوم معلوم يوم القيامة المعلوم عند الله فإضافة الميقات إلى يوم معلوم بيانية .

قوله تعالى : « ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون » من تمام كلام النبي ﷺ يخبرهم عما ينتهي اليه حالهم يوم القيامة ويعيشون به من طعام وشراب .

وفي خطابهم بالضالين المكذبين إشارة إلى ملاك شقائهم وخسرانهم يوم البعث وهو ضلالهم عن طريق الحق واستقرار ذلك في نفوسهم باستمرارهم على تكذيبهم وإصرارهم على الحنث ، ولو كانوا ضالين فحسب من غير تكذيب لكان من المرجو أن ينجوا ولا يهلكوا

و « من » في قوله : « من شجر » للابتداء ، وفي قوله : « من زقوم » بيانية ويحتمل أن يكون « من زقوم » بدلاً من « من شجر » ، وضمير « منها » للشجر أو الثمر وكل منهما يؤنث ويذكر ولذا جيء ههنا بضمير التأنيث وفي الآية التالية في قوله : « فشاربون عليه » بضمير التذكير ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم » كلمة « على » للاستعلاء وتفيد في المورد كون الشرب عقيب الأكل من غير ريث ، والهيم جمع هيماء الإبل التي أصابها الهيام بضم الهاء وهو داء شبه الاستسقاء يصيب الإبل فتشرب الماء حتى تموت أو تسقم سقماً شديداً ، وقيل : الهيم الرمال التي لا تروى بالماء .

والمعنى: فشاربون عقيب ما أكلتم من الزقوم من الماء الشديد الحرارة فشاربون كشرب الإبل الهيم أو كشرب الرمال الهيم وهذا آخر ما أمر النبي ﷺ أن يقوله لهم .

قوله تعالى : « هذا نزلهم يوم الدين » أي يوم الجزاء والنزل ما يقدّم للضيف النازل من طعام وشراب إكراماً له ، والمعنى : هذا الذي ذكر من طعامهم وشرابهم هو نزل الضالين المكذبين ففي تسمية ما أعدّ لهم بالنزل نوع تهكّم ، والآية من كلامه تعالى خطاباً للنبي ﷺ ، ولو كان من كلام النبي ﷺ خطاباً لهم لقيل : هذا نزلكم .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن مردويه وابن عساكر من طريق عروة بن رويم عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت إذا وقعت الواقعة ذكر فيها « ثلة من الأولين وقليل من الآخرين » قال عمر : يا رسول الله ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ، فقال رسول الله ﷺ : تعال واستمع ما قد أنزل الله : « ثلة من الأولين وثلة من الآخرين » .

ألا وإن من آدم إليّ ثلة وأمتي ثلة ولن نستكمل ثلتنا حتى نستعين بالسودان رعاة الإبل ممن يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . قال السيوطي: وأخرجه ابن أبي حاتم من وجه آخر عن عروة بن رويم مرسلاً .

وفيه أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : لما نزلت « ثلة من الأولين وقليل من الآخرين » حزن أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : إذن لا يكون من أمة محمد إلا قليل

فنزلت نصف النهار « ثلة من الأولين وثلة من الآخرين » تقابلون النـــاس فنسخت الآية « وقليل من الآخرين » .

أقول : قال في الكشاف في تفسير الآية : فإن قلت : فقد روي أنهـا لما نزلت شقّ ذلك على المسلمين فما زال رسول الله ﷺ يراجع ربه حتى نزلت « ثلة من الأولين وثلة من الآخرين » .

قلت : هذا لا يصح لأمرين: أحدهما : أن هذه الآية واردة في السابقين وروداً ظاهراً وكذلك الثانيـة في أصحاب اليمين ، ألا ترى كيف عطف أصحاب اليمين ووعدهم على السابقين ووعدهم ؟ الثاني : أن النسخ في الأخبار غير جائز . انتهى .

وأجيب عنه بأنه يمكن أن يحمل الحديث على أن الصحابة لما سمعوا الآية الاولى حسبوا أن الأمر في هذه الامة يذهب على هذا النهج فيكون أصحاب اليمين ثلة من الأولين وقليلاً منهم فيكون الفائزون بالجنـة في هذه الامة أقل منهم في الامم السالفة فنزلت « ثلة من الأولين وثلة من الآخرين» فزال حزنهم ،ومعنى نسخ الآية السابقة إزالة حسبانهم المذكور.

وأنت خبير بأنه حمل على ما لا دليل عليه من جهة اللفظ واللفظ يأباه وخاصة حمل نسخ الآية على إزالة الحسبان ، وحال الرواية الاولى وخاصة من جهـــة ذيلها كحال هذه الرواية .

وفي المجمع في قوله تعالى : « يطوف عليهم ولدان مخلدون » اختلف في هـذه الولدان فقيل : إنهم أولاد أهل الدنيا لم يكن لهم حسنات فيُثابوا عليها ولا سيئات فيُعاقبوا عليها فانزلوا هذه المنزلة .

قال : وقد روي عن النبي ﷺ أنه سُئل عن أطفال المشركين ؟ فقـال : هم خدم أهل الجنة .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن الحسن ، والرواية ضعيفة لا تعويل عليها .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة والبزار وابن مردويه والبيهقي في البعث عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخرّ بين يديك مشويّاً .

أقول : وفي هذا المعنى روايات كثيرة وفي بعضها أن المؤمن يأكل ما يشتهيه ثم يعود الباقي إلى ما كان عليه ويحيا فيطير إلى مكانه ويباهي بذلك .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً » قال : الفحش والكذب والغنا .

أقول : لعل المراد بالغنا ما يكون منه لهواً أو الغنا مصحّف الخنا .

وفيه في قوله تعالى : « وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين » قال : علي بن أبي طالب عليه السلام وأصحابه شيعته .

أقول : الرواية مبنية على ما ورد في ذيل قوله تعالى : « يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه » أسرى : ٧١ ، أن اليمين هو الإمام الحق ومعناها أن اليمين هو علي عليه السلام وأصحاب اليمين شيعته ، والرواية من الجري .

وفيه في قوله تعالى : « في سدر مخضود » شجر لا يكون له ورق ولا شوك فيه ، وقرأ أبو عبد الله عليه السلام : « وطلع منضود » قال : بعضه على بعض .

وفي الدر المنثور أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن أبي أمامة قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : إن الله ينفعنا بالأعراب ومسائلهم . أقبل أعرابي يوماً فقال : يا رسول الله لقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية ، وما كنت أرى أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما هي ؟ قال : السدر فإن لها شوكاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أليس يقول الله : « في سدر مخضود » يخضده الله من شوكه فيجعل مكان كل شوكة ثمرة إنها تنبت ثمراً تفتق الثمر منها عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام ما فيها لون يشبه الآخر .

وفي المجمع : وروت العامة عن علي عليه السلام أنه قرأ رجل عنده « وطلح منضود » فقال : ما شأن الطلح إنما هو « وطلع » كقوله : « ونخل طلعها هضيم » فقيل له : ألا تغيّره ؟ قال : إن القرآن لا يُهاج اليوم ولا يُحرّك ، رواه عنه ابنه الحسن عليه السلام وقيس ابن سعد .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق والفاريابي وهنّاد وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن علي بن أبي طالب في قوله : « وطلح منضود » قال : هو الموز .

وفي المجمع ورد في الخبر أن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة لا يقطعها اقرؤا إن شئتم « وظل ممدود » وروي أيضاً أن أوقات الجنة كغدوات الصيف لا يكون فيها حرّ ولا برد .

أقول : وروى الأول في الدر المنثور عن أبي سعيد وأنس وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي روضة الكافي بإسناده عن علي بن إبراهيم عن ابن محبوب عن محمد بن إسحاق المدني عن أبي جعفر عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث يصف فيه الجنة وأهلها : ويزور بعضهم بعضاً ويتنعمون في جناتهم في ظل ممـــدود في مثل ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس وأطيب من ذلك .

وفي تفسير القمي: وقوله: « إنا أنشأناهن إنشاء » قال: الحور العين في الجنة « فجعلناهن أبكاراً عرباً » قال : لا يتكلمون إلا بالعربية .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن جعفر بن محمـد عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله : « عرباً » قال : كلامهن عربي .

أقول : وفيه روايات أخر أن عرباً جمع عروب وهي الغنجة .

وفيه أخرج مسدد في مسنده وابن المنذر والطبراني وابن مردويه بسند حسن عن أبي بكرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعـالى : « ثلة من الأولين وثلة من الآخرين » قال : هما جميعاً من هذه الامة .

أقول : وهذا المعنى مروي في غير واحد من الروايات لكن ظاهر آيات السورة أن القسمة لكافة البشر لا لهذه الامة خاصة ، ولعل المراد من هـــذه الروايات بيان بعض المصاديق وإن كان بعيداً ، وكذا المراد مما ورد أن أصحاب اليمين أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ، وما ورد أن أصحاب الشمال أعداء آل محمد عليهم السلام .

وفي المحاسن بإسناده عن معـــاوية بن وهب عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن الشرب بنفس واحد فكرهه وقال : ذلك شرب الهيم . قلت : وما الهيم ؟ قال : الإبل .

وفيه بإسناده عن الحلبي عن أبي عبدالله عليه السلام أنه كان يكره أن يتشبّه بالهيم. قلت : وما الهيم ؟ قال : الرمل .

أقول : والمعنيان جميعاً واردان في روايات أُخر .

* * *

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ـــ ٥٧ . أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ـــ ٥٨ .

ءأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَالِقُونَ ــ ٥٩ . نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ
وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ــ ٦٠ . عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا
لَا تَعْلَمُونَ ــ ٦١ . وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ــ ٦٢ .
أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ــ ٦٣ . ءأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّارِعُونَ ــ ٦٤ .
لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ــ ٦٥ . إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ــ ٦٦ .
بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ــ ٦٧ . أَفَرَأَيْتُمُ ٱلْمَاءَ ٱلَّذِي تَشْرَبُونَ ــ ٦٨ .
ءأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنْزِلُونَ ــ ٦٩ . لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ
أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ــ ٧٠ . أَفَرَأَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ــ ٧١ .
ءأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنْشِئُونَ ــ ٧٢ . نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً
وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ــ ٧٣ . فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ــ ٧٤ . فَلَا
أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ ــ ٧٥ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ــ ٧٦ .
إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ــ ٧٧ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ــ ٧٨ . لَا يَمَسُّهُ إِلَّا
ٱلْمُطَهَّرُونَ ــ ٧٩ . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ــ ٨٠ . أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ
أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ــ ٨١ . وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ــ ٨٢ .
فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ــ ٨٣ . وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ ــ ٨٤ .
وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَٰكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ــ ٨٥ . فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ
غَيْرَ مَدِينِينَ ــ ٨٦ . تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ــ ٨٧ . فَأَمَّا إِنْ

كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ـ ٨٨ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ـ ٨٩ .
وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ـ ٩٠ . فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ
الْيَمِينِ ـ ٩١ . وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ـ ٩٢ . فَنُزُلٌ
مِنْ حَمِيمٍ ـ ٩٣. وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ـ ٩٤. إِنَّ هٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ـ ٩٥.
فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ـ ٩٦ .

(بيان)

لما فصّل سبحانه القول فيما ينتهي اليه حال كلٍ من الأزواج الثلاثة ففصّل حال أصحاب الشمال وأن الذي ساقهم إلى ذلك نقضهم عهد العبودية وتكذيبهم للبعث والجزاء وأمر نبيه ﷺ أن يردّ عليهم بتقرير البعث والجزاء وبيان ما يجزون به يوم البعث .

وبّخهم على تكذيبهم بالمعاد مع أن الذي يخبرهم به هو خالقهم الذي يدبر أمرهم ويقدّر لهم الموت ثم الإنشاء فهو يعلم ما يجري عليهم مدى وجودهم وما ينتهي اليه حالهم ومع أن الكتاب الذي ينبّئهم بالمعاد هو قرآن كريم مصون من أن يلعب به أيدي الشياطين وأولياؤهم المضلّين .

ثم يعيد الكلام إلى ما بدىء به من حال الأزواج الثلاثة ويذكر أن اختلاف أحوال الأقسام يأخذ من حين الموت وبذلك تختتم السورة .

قوله تعالى : « نحن خلقناكم فلولا تصدّقون » السياق سياق الكلام في البعث والجزاء وقد أنكروه وكذبوا به ، فقوله : « فلولا تصدقون » تحضيض على تصديق حديث المعاد وترك التكذيب به ، وقد علله بقوله : « نحن خلقناكم » كما يستفاد من التفريع الذي في قوله : « فلولا تصدقون » .

وإيجاب خلقه تعالى لهم وجوب تصديقه فيما يخبر به من المعاد من وجهين : أحدهما : أنه تعالى خلقهم أول مرة فهو قادر على إعادة خلقهم ثانياً كما قال : « قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » يس : ٧٩ .

وثانيها : أنه تعالى لما كان هو خالقهم وهو المدبر لأمرهم المقدر لهم خصوصيات خلقهم وأمرهم فهو أعلم بما يفعل بهم وسيجري عليهم فإذا أنبأهم بأنه سيبعثهم بعد موتهم ويجزيهم بما عملوا إن خيراً وإن شراً لم يكن بدّ من تصديقه فلا عذر لمن كذب بما أخبر به كتابه من البعث والجزاء ، قال تعالى : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » الملك: ١٤ ، وقال : « كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين » الأنبياء : ١٠٤ ، وقال : « وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلاً » النساء : ١٢٢ .

فمحصل الآية : نحن خلقناكم ونعلم ما فعلنا وما سنفعل بكم فنخبركم أنّا سنبعثكم ونجزيكم بما عملتم فهلاّ تصدقون بما نخبركم به فيما أنزلناه من الكتاب .

وفي الآية وما يتلوها من الآيات التفات من الغيبة إلى الخطاب لأن السياق سياق التوبيخ والمعاتبة وذلك بالخطاب أوقع وآكد .

قوله تعالى : « أفرأيتم ما تمنون » الإمناء قذف المني وصبّه والمراد قذفه وصبّه في الأرحام ، والمعنى : أفرأيتم المني الذي تصبونه في أرحام النساء .

قوله تعالى : « ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون » أي ءأنتم تخلقونه بشراً مثلكم أم نحن خالقوه بشراً .

قوله تعالى : « نحن قدّرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين » تدبير أمر الخلق بجميع شؤونه وخصوصياته من لوازم الخلق بمعنى إفاضة الوجود فوجود الإنسان المحدود بأول كينونته إلى آخر لحظة من حياته الدنيا بجميع خصوصياته التي تتحول عليه بتقدير من خالقه عز وجل . فموته أيضاً كحياته بتقدير منه ، وليس يعتريه الموت لنقص من قدرة خالقه أن يخلقه بحيث لا يعتريه الموت أو من جهة أسباب وعوامل تؤثر فيه بالموت فتبطل الحياة التي أفاضها عليه خالقه تعالى فإن لازم ذلك أن تكون قدرته تعالى محدودة ناقصة وأن يعجزه بعض الأسباب وتغلب إرادته إرادته وهو محال كيف ؟ والقدرة مطلقة والإرادة غير مغلوبة .

ويتبين بذلك أن المراد بقوله: « نحن قدرنا بينكم الموت » أن الموت حق مقدّر وليس أمراً يقتضيه ويستلزمه نحو وجود الحي بل هو تعالى قدر له وجوداً كذا ثم موتاً يعقبه .

وأن المراد بقوله : « وما نحن بمسبوقين » - والسبق هو الغلبة والمسبوق المغلوب - ولسنا مغلوبين في عروض الموت عن الأسباب المقارنة له بأن نفيض عليكم حياة نريد أن

يدوم ذلك عليكم فيسبقنا الأسباب وتغلبنا فتبطل بالموت الحياة التي كنا نريد دوامها .

قوله تعالى : « على أن نبدّل أمثالكم وننشئكم في لا تعلمون » « على » متعلقة بقوله : « قدّرنا » وجملة الجار والمجرور في موضع الحال أي نحن قدرنا بينكم الموت حال كونه على أساس تبديل الأمثال والإنشاء فيما لا تعلمون .

والأمثال جمع مثل بالكسر فالسكون ومثل الشيء مـا يتحد معه في نوعه كالفرد من الإنسان بالنسبة إلى فرد آخر ، والمراد بقوله : « أن نبدل أمثالكم » أن نبدل أمثالكم من البشر منكم أو نبدل أمثالكم مكانكم ، والمعنى على أي حال تبديل جمـــاعة من أخرى وجعل الأخلاف مكان الأسلاف .

وقوله : « وننشئكم فيما لا تعلمون » « ما » موصولة والمراد به الخلق والجملة معطوفة على « نبــدل » والتقدير وعلى أن ننشئكم ونوجدكم في خلق آخر لا تعلمونه وهو الوجود الاخروي غير الوجود الدنيوي الفاني .

ومحصل معنى الآيتين أن الموت بينكم إنمـا هو بتقدير منا لا لنقص في قدرتنا بأن لا يتيسر لنا إدامة حياتكم ولا لغلبة الأسباب المهلكة المبيدة وقهرها وتعجيزها لنا في حفظ حياتكم وإنما قدرناه بينكم على أساس تبــديل الأمثال وإذهاب قوم والإتيان بآخرين وإنشاء خلق لكم يناسب الحياة الآخرة وراء الخلق الدنيوي الداثر فالموت انتقال من دار إلى دار وتبدّل خلق إلى خلق آخر وليس بانعدام وفناء .

واحتمل بعضهم أن يكون الأمثــال في الآية جمع مثل بفتحتين وهو الوصف فتكون الجملتان « على أن نبدل » الخ ، و « ننشئكم » الخ ، تفيدان معنى واحداً ، والمعنى: على أن نغير أوصافكم وننشئكم في وصف لا تعرفونه أو لا تعلمونه كحشركم في صفة الكلب أو الخنزير أو غيرهما من الحيوان بعد ما كنتم في الدنيا على صفة الإنسان ، والمعنى السابق أجمع وأكثر فائدة .

قوله تعالى : « ولقد علمتم النشأة الاولى فلولا تذكّرون » المراد بالنشأة الاولى نشأة الدنيا ، والعلم بها بخصوصياتها يستلزم الإذعان بنشأة اخرى خالدة فيها الجزاء ، فإن من المعلوم من النظام الكوني أن لا لغو ولا باطل في الوجود فلهذه النشأة الفانية غاية باقية ، وأيضاً من ضروريات هذا النظام هداية كل شيء إلى سعادة نوعه وهداية الإنسان تحتـاج إلى بعث الرسل وتشريع الشرائع وتوجيه الأمر والنهي ،والجزاء على خير الأعمال وشرّها

وليس في الدنيا فهو في دار اخرى وهي النشأة الآخرة [١] .

على أنهم شاهدوا النشأة الاولى وعرفوها وعلموا أن الذي أوجدها عن كتم العدم هو الله سبحانه وإذ قدر عليها أولاً فهو على إيجاد مثلها ثانياً قادر ، قال تعالى : « قل يحييها الذي أنشأها أول مرة » يس : ٧٩ ، وهذا برهان على الإمكان يرتفع به استبعادهم للبعث.

وبالجملة يحصل لهم بالعلم بالنشأة الاولى علم بمبادىء البرهان على إمكان البعث فيرتفع به استبعاد البعث فلا استبعاد مع الإمكان .

وهذا – كما ترى – برهان على إمكان حشر الأجساد، محصله أن البدن المحشور مثل البدن الدنيوي وإذ جاز صنع البدن الدنيوي وإحياؤه فليجز صنع البدن الاخروي وإحياؤه لأنه مثله وحكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد .

فمن العجيب قول الزمخشري في الكشاف في الآية : وفي هذا دليل على صحة القياس حيث جهّلهم في ترك قياس النشأة الاخرى بالاولى . انتهى . وذلك لأن الذي في الآية قياس برهاني منطقي والذي يستدل بها عليه قياس فقهي مفيد للظن فأين أحدهما من الآخر ؟

وقال في روح المعاني في الآية: فهلاّ تتذكرون أن من قدر عليها يعني على النشأة الاولى فهو على النشأة الاخرى أقدر وأقدر فإنها أقل صنعاً لحصول المواد وتخصيص الأجزاء وسبق المثال ، وهذا على ما قالوا دليل على صحة القياس لكن قيل : لا يدل إلا على قياس الاولى لأنه الذي في الآية . انتهى .

وفيه ما في سابقه . على أن الذي في الآية ليس من قياس الاولى في شيء لأن الجامع بين النشأة الاولى والاخرى أنهما مثلان ومبدأ القياس أن حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد .

وأما قوله: إن النشأة الاخرى أقل صنعاً لحصول المواد وتخصيص الأجزاء، فهو ممنوع فإن المواد تحتاج إلى إفاضة الوجود بقاء كما تحتاج اليها في حدوثها وأول حصولها ، وكذا تخصص الأجزاء يحتاج اليها بقاء كما تحتاج اليها فالصنع ثانياً كالصنع أولاً .

وأما قوله : وسبق المثال ، فقد خلط بين المثل والمثال فالبدن الاخروي بالنظر إلى نفسه مثل البدن الدنيوي لا على مثاله ولو كان على مثاله كانت الآخرة دنيا لا آخرة .

---

(١) الآية ٢٧ و ٢٨ من سورة ص .

فان قلت : لو كان البدن الاخروي مثلاً للبدن الدنيوي ومثل الشيء غيره كان الإنسان المعاد في الآخرة غير الإنسان المبتدء في الدنيا لأنه مثله لا عينه .

قلت : قد تقدم في المباحث السابقة غير مرة أن شخصية الإنسان بروحه لا ببدنه ، والروح لا تنعدم بالموت وإنما يفسد البدن وتتلاشى أجزاؤه ثم إذا سوّي ثانياً مثل ما كان في الدنيا ثم تعلقت به الروح كان الإنسان عين الإنسان الذي في الدنيا كما كان زيد الشائب مثلاً عين زيد الشاب لبقاء الروح على شخصيتها مع تغير البدن لحظة بعد لحظة .

قوله تعالى : « أفرأيتم ما تحرثون ـ إلى قوله ـ محرومون » بعد ما ذكّرهم بكيفية خلق أنفسهم وتقدير الموت بينهم تمهيداً للبعث والجزاء وكل ذلك من لوازم ربوبيته عدّ لهم اموراً ثلاثة من أهم ما يعيشون به في الدنيا وهي الزرع الذي يقتاتون به والماء الذي يشربونه والنار التي يصطلون بها ويتوسلون بها إلى جمل من مآربهم ، وتثبت بذلك ربوبيته لهم فليست الربوبية إلا التدبير عن ملك .

فقال : « أفرأيتم ما تحرثون » الحرث العمل في الأرض وإلقاء البذر عليها « ءأنتم تزرعونه » أي تنبتونه وتنمونه حتى يبلغ الغاية ، وضمير « تزرعونه » للبذر أو الحرث المعلوم من المقام « أم نحن الزارعون » المنبتون المنمون حتى يكمل زرعاً « لو نشاء لجعلناه حطاماً » أي هشيماً متكسراً متفتتاً « فظلتم » أي فظللتم وصرتم « تفكّهون » أي تتعجبون ممـا أصيب به زرعكم وتتحدثون بما جرى قائلين « إنا لمغرمون » موقعون في الغرامة والخسارة ذهب مالنـا وضاع وقتنا وخاب سعينا « بل نحن محرومون » ممنوعون من الرزق والخير .

ولا منافاة بين نفي الزرع عنهم ونسبته اليه تعالى وبين توسّط عوامل وأسباب طبيعية في نبات الزرع ونموّه فإن الكلام عائد في تأثير هذه الأسباب وصنعها، وليس نحو تأثيرها باقتضاء من ذاتها منقطعة عنه تعالى بل بجعله ووضعه وموهبته ، وكذا الكلام في أسباب هذه الأسباب ، وينتهي الأمر إلى الله سبحانه وأن إلى ربك المنتهى .

قوله تعالى : « أفرأيتم الماء الذي تشربون ـ إلى قوله ـ فلولا تشكرون » المزن السحاب ، وقوله : « فلولا تشكرون » تحضيض على الشكر ، وشكره تعالى جميل ذكره تعالى على نعمه وهو إظهار عبوديته قولاً وعملاً . والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « أفرأيتم النار التي تورون ـ إلى قوله ـ ومتاعاً للمقوين » قال في المجمع:

الإيراء إظهار النار بالقدح ، يقال : أورى يوري ، قال : ويقال : قدح فأورى إذا أظهر فإذا لم يور يقال : قدح فأكبى ، وقال : والمقوي النازل بالقواء من الأرض ليس بها أحد ، وأقوت الدار خلت من أهلها . انتهى . والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « فسبح باسم ربك العظيم » خطاب للنبي ﷺ . لما ذكر سبحانه شواهد ربوبيته لهم وأنه الذي يخلقهم ويدبر أمرهم ومن تدبيره أنه سيبعثهم ويجزيهم بأعمالهم وهم مكذبون بذلك أعرض عن خطابهم والتفت إلى خطاب النبي ﷺ إشعاراً بأنهم لا يفقهون القول فأمر النبي ﷺ أن ينزهه تعالى عن إشراكهم به وإنكارهم البعث والجزاء .

فقوله : « فسبح باسم » الخ ، الفاء لتفريع التسبيح على ما تقدم من البيان ، والباء للاستعانة أو الملابسة ، والمعنى : فإذا كان كذلك فسبح مستعيناً بذكر اسم ربك ، أو المراد بالاسم الذكر لأن إطلاق اسم الشيء ذكر له كما قيل أو الباء للتعدية لأن تنزيه اسم الشيء تنزيه له ، والمعنى : نزّه اسم ربك من أن تذكر له شريكاً أو تنفي عنه البعث والجزاء ، والعظيم صفة الرب أو الاسم .

قوله تعالى : « فلا اقسم بمواقع النجوم » « لا اقسم » قسم وقيل : لا زائدة واقسم هو القسم ، وقيل : لا نافية واقسم هو القسم .

و « مواقع » جمع موقع وهو المحل ، والمعنى : اقسم بمحالّ النجوم من السماء ، وقيل : مواقع جمع موقع مصدر ميمي بمعنى السقوط يشير به إلى سقوط الكواكب يوم القيامة أو وقوع الشهب على الشياطين ، أو مساقط الكواكب في مغاربها ، وأول الوجوه هو السابق إلى الذهن .

قوله تعالى : « وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » تعظيم لهذا القسم وتأكيد على تأكيد .

قوله تعالى : « إنه لقرآن كريم - إلى قوله - من رب العالمين » لما كان إنكارهم حديث وحدانيته تعالى في ربوبيته وألوهيته وكذا إنكارهم للبعث والجزاء إنما أبدوه بإنكار القرآن النازل على النبي ﷺ الذي فيه نبأ التوحيد والبعث كان إنكارهم منشعباً إلى إنكار أصل التوحيد والبعث أصلاً ، وإلى إنكار ذلك بما أن القرآن ينبّئهم به ، فأورد تعالى أولاً بياناً لإثبات أصل الوحدانية والبعث بذكر شواهد من آياته تثبت ذلك وهو قوله : « نحن خلقناكم - إلى قوله - ومتاعاً للمقوين » ، وثانياً بياناً يؤكد فيه كون القرآن الكريم كلامه المحفوظ عنده النازل منه ووصفه بأحسن أوصافه .

فقوله : « إنه لقرآن كريم » جواب للقسم السابق ، الضمير للقرآن المعلوم من السياق السابق ويستفاد من توصيفه بالكريم من غير تقييد في مقام المدح أنه كريم على الله عزيز عنده وكريم محمود الصفات وكريم بذّال نفّاع للناس لما فيه من اصول المعارف التي فيها سعادة الدنيا والآخرة .

وقوله : « في كتاب مكنون » وصف ثان للقرآن أي محفوظ مصون عن التغيير والتبديل ، وهو اللوح المحفوظ كما قال تعالى : « بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ » البروج : ٢٢ .

وقوله : « لا يمسّه إلا المطهرون » صفة الكتاب المكنون ويمكن أن يكون وصفاً ثالثاً للقرآن ومآل الوجهين على تقدير كون لا نافية واحد .

والمعنى : لا يمسّ الكتاب المكنون الذي فيه القرآن إلا المطهرون أو لا يمس القرآن الذي في الكتاب إلا المطهرون .

والكلام على أي حال مسوق لتعظيم أمر القرآن وتجليله فمسّه هو العلم به وهو في الكتاب المكنون كما يشير اليه قوله : « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وأنه في أم الكتاب لدينا لعليٌّ حكيم » الزخرف : ٤ .

والمطهرون – اسم مفعول من التطهير – هم الذين طهّر الله تعالى نفوسهم من أرجاس المعاصي وقذارات الذنوب أو مما هو أعظم من ذلك وأدق وهو تطهير قلوبهم من التعلق بغيره تعالى ، وهذا المعنى من التطهير هو المناسب للمسّ الذي هو العلم دون الطهارة من الخبث أو الحدث كما هو ظاهر .

فالمطهرون هم الذين أكرمهم الله تعالى بتطهير نفوسهم كالملائكة الكرام والذين طهّرهم الله من البشر ، قال تعالى : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » الأحزاب : ٣٣ ، ولا وجه لتخصيص المطهرين بالملائكة كما عن جلّ المفسرين لكونه تقييداً من غير مقيّد .

وربما جعل « لا » في « لا يمسه » ناهية ، والمراد بالمس على هذا مس كتابة القرآن ، وبالطهارة الطهارة من الحدث أو الحدث والخبث جميعاً – وقرىء « المطهرون » بتشديد الطاء والهاء وكسر الهاء أي المتطهّرون – ومدلول الآية تحريم مسّ كتابة القرآن على غير طهارة .

ويمكن حمل الآية على هذا المعنى على تقدير كون « لا » نافية بأن تكون الجملة إخباراً أريد به الإنشاء وهو أبلغ من الإنشاء .

قال في الكشاف: وإن جعلتها يعني جملة « لا يمسه إلا المطهرون » صفة للقرآن فالمعنى: لا ينبغي أن يمسه إلا من هو على الطهارة من الناس يعني مسّ المكتوب منه ، انتهى وقد عرفت صحة أن يراد بالمس العلم والاطلاع على تقدير كونها صفة للقرآن كما يصح على تقدير كونها صفة لكتاب مكنون .

وقوله : «تنزيل من رب العالمين » وصف آخر للقرآن، والمصدر بمعنى اسم المفعول أي منزل من عند الله الحكيم تفتهمونه وتعقلونه بعد ما كان في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون.

والتعبير عنه تعالى برب العالمين للإشارة إلى أن ربوبيته تعالى منبسطة على جميع العالمين وهم من جملتهم فهو تعالى ربهم وإذا كان ربهم كان عليهم أن يؤمنوا بكتابه ويصفوا لكلامه ويصدقوه من غير تكذيب .

قوله تعالى : « أفبهذا الحديث أنتم مدهنون » الإشارة بهذا الحديث إلى القرآن ، والإدهان به التهاون به وأصله التليين بالدهن استعير للتهاون ، والاستفهام للتوبيخ يوبخهم تعالى على عدّهم أمر القرآن هيناً لا يعتنى به .

قوله تعالى : « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » قيل : المراد بالرزق حظهم من الخير ، والمعنى : وتجعلون حظكم من الخير الذي لكم أن تنالوه بالقرآن أنكم تكذبون به أي تضعونه موضعه ، وقيل : المراد بالرزق القرآن رزقهم الله إياه ، والمعنى: تأخذون التكذيب مكان هذا الرزق الذي رزقتموه ، وقيل : الكلام بحذف مضاف والتقدير : وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون أي وضعتم التكذيب موضع الشكر .

قوله تعالى : « فلولا إذا بلغت الحلقوم — إلى قوله صادقين » رجوع إلى أول الكلام بالتفريع على تكذيبهم بأنكم إن كنتم صادقين في نفيكم للبعث مصيبين في تكذيبهم لهذا القرآن الذي ينبؤكم بالبعث رددتم نفس المحتضر التي بلغت الحلقوم إذ لو لم يكن الموت بتقدير من الله كان من الامور الاتفاقية التي ربما أمكن الاحتيال لدفعها ، فإذ لم تقدروا على رجوعها وإعادة الحياة معها فاعلموا أن الموت حق مقدّر من الله لسوق النفوس إلى البعث والجزاء .

فقوله : « فلولا إذا بلغت الحلقوم » تفريع على تكذيبهم بالقرآن وبما أخبر به من

البعث والجزاء ، ولولا للتحضيض تعجيزاً وتبكيتاً لهم ، وضمير « بلغت » للنفس ، وبلوغ النفس الحلقوم كناية عن الإشراف التام للموت .

وقوله : « وأنتم حينئذ تنظرون » أي تنظرون إلى المحتضر أي هو بمنظر منكم .

وقوله : « ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون » أي والحال أنا أقرب اليه منكم لإحاطتنا به وجوداً ورسلنا القابضون لروحه أقرب اليه منكم ولكن لا تبصروننا ولا رسلنا .

قال تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » الزمر : ٢٦ ، وقال : « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم » السجدة : ١١ ، وقال : « حتى إذا جاء أحدهم الموت توفته رسلنا » الأنعام : ٦١ .

وقوله : « فلولا إن كنتم غير مدينين » تكرار « لولا » لتأكيد « لولا » السابقة ، و « مدينين » أي مجزيين من دان يدين بمعنى جزى يجزي ، والمعنى : إن كنتم غير مجزيين ثواباً وعقاباً بالبعث .

وقوله : « ترجعونها إن كنتم صادقين » أي إن كنتم صادقين في دعواكم أن لا بعث ولا جزاء ، وقوله : « ترجعونها » مدخول لولا التحضيضية بحسب التقدير وترتيب الآيات بحسب التقدير فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم مدينين .

قوله تعالى : « فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم » رجوع إلى بيان حال الأزواج الثلاثة المذكورة في أول السورة عند الموت وبعده وضمير « كان » للمتوفى المعلوم من السياق ، والمراد بالمقرّبين السابقون المقربون المذكورون سابقاً ، والروح الراحة ، والريحان الرزق ، وقيل : هو الريحان المشموم من ريحان الجنة يؤتى به اليه فيشمه ويتوفى.

والمعنى: فأما إن كان المتوفى من المقربين فله ـ أو فجزاؤه ـ راحة من كل همّ وغمّ وألم ورزق من رزق الجنة وجنة نعيم .

قوله تعالى : « وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين » يمكن أن يكون اللام للاختصاص الملكي ومعنى « سلام لك » أنك تختص بالسلام من أصحاب اليمين الذين هم قرناؤك ورفقاؤك فلا ترى منهم إلا خيراً وسلاماً .

وقيل : لك بمعنى عليك أي يسلم عليك أصحاب اليمين ، وقيل غير ذلك .

والالتفات من الغيبة إلى الخطاب للدلالة على أنه يخاطب بهذا الخطاب : سلام لك من

أصحاب اليمين .

قوله تعالى : « وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم » تصلية النار الإدخال فيها ، وقيل : مقاساة حرّها وعذابها .

والمعنى : وأما إن كان من أهل التكذيب والضلال فلهم نزل من ماء شديد الحرارة ، ومقاساة حر نار جحيم .

وقد وصفهم الله بالمكذبين الضالين فقدم التكذيب على الضلال لأن ما يلقونه من العذاب تبعة تكذيبهم وعنادهم للحق ولو كان ضلالاً بلا تكذيب وعناد كانوا مستضعفين غير نازلين هذه المنزلة ، وأما قوله سابقاً : « ثم إنكم أيها الضالون المكذبون » فإذ كان المقـام هناك مقـــام الردّ لقولهم : « ءإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً ءإنا لمبعوثون » الخ ، كان الأنسب توصيفهم أولاً بالضلال ثم بالتكذيب .

قوله تعالى : « إن هـــذا لهو حق اليقين » الحق هو العلم من حيث إن الخارج الواقع يطابقه ، واليقين هو العلم الذي لا لبس فيه ولا ريب فإضافة الحق إلى اليقين نحو من الإضافة البيانية جيء بها للتأكيد.

والمعنى : أن هذا الذي ذكرناه من حال أزواج الناس الثلاثة هو الحق الذي لا تردّد فيه والعلم الذي لا شك يعتريه .

قوله تعالى : « فسبح باسم ربك العظيم » تقدم تفسيره ، وهو تفريع على مـا تقدمه من صفة القرآن وبيان حال الأزواج الثلاثة بعد الموت وفي الحشر .

والمعنى : فإذا كان القرآن على هذه الصفات وصادقاً فيما ينبّىء به من حال الناس بعد الموت فنزّه ربك العظيم مستعيناً أو ملابساً باسمه وانف مـــا يراه ويدّعيه هؤلاء المكذبون الضالون .

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى : « ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون » وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : لا يقولنّ أحدكم : زرعت ، وليقل : حرثت .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن عدّة من أصحاب الجوامع عن أبي هريرة عنه صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي تفسير القمي : « «أأنتم أنزلتموه من المزن » قال : من السحاب « نحن جعلناها تذكرة » لنار يوم القيامة « ومتاعاً للمقوين » قال : المحتاجين .

وفي المجمع في قوله تعالى : « فسبح باسم ربك العظيم » : فقد صحّ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه لما نزلت هذه الآية قال : اجعلوها في ركوعكم .

أقول : ورواه في الفقيه مرسلاً ، ورواه في الدر المنثور عن الجهني عنه صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي الدر المنثور أخرج النسائي وابن جرير ومحمد بن نصر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس قال : أنزل القرآن في ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة ثم فرّق في السنين وفي لفظ ثم نزّل من السماء الدنيا إلى الأرض نجوماً ثم قرأ « فلا اقسم بمواقع النجوم » .

أقول : وظاهره تفسير مواقع النجوم بأوقات نزول نجوم القرآن .

وفي تفسير القمي وقوله: «فلا اقسم بمواقع النجوم» قال : معناه اقسم بمواقع النجوم .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه بسند رواه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم « إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون » قال :عند الله في صُحف مطهرة « لا يمسه إلا المطهرون» قال : المقرّبون .

أقول : وتفسير المطهرين بالمقربين يؤيد ما أوردناه في البيان المتقدم ، وقد أوردنا في ذيل قوله : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق » الآية الجاثية : ٢٩ ، حديثاً عن الصادق عليه السلام في الكتاب المكنون .

وفي المجمع في قوله تعالى : « لا يمسه إلا المطهرون » وقالوا : لا يجوز للجنب والحائض والمحدث مس المصحف عن محمد بن علي عليه السلام .

أقول : المراد بمس المصحف مس كتابته بدليل الروايات الاخر .

وفي الكافي بإسناده عن داود بن فرقد عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن التعويذ يعلق على الحائض قال : نعم لا بأس . وقال : تقرؤه وتكتبه ولا تصيبه يدها .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وابن أبي داود وابن المنذر عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه قال : في كتاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعمرو بن حزم : ولا تمس القرآن إلا عن طهور .

أقول : والروايات فيه كثيرة من طرق الشيعة وأهل السنة .

وفيه أخرج مسلم وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : مطر الناس على عهد

رسول الله صلى الله عليه وآله فقال النبي صلى الله عليه وآله : أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر قالوا : هذه رحمة وضعها الله وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا فنزلت هذه الآية « فلا أقسم بمواقع النجوم » حتى بلغ « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » .

أقول : وقد استفاضت الرواية من طرق أهل السنة أن الآيات نزلت في الأنواء وظاهرها أنها مدنية لكنها لا تلائم سياق آيات السورة كما عرفت .

وفي المجمع وقراءة علي عليه السلام وابن عباس ورويت عن النبي صلى الله عليه وآله :وتجعلون شكركم.

أقول : ورواه في الدر المنثور عن النبي صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام .

وفي تفسير القمي في قوله : « غير مدينين » قال : معناه فلو كنتم غير مجازين على أعمالكم«ترجعونها»يعني به الروح إذا بلغت الحلقوم تردّونها في البدن«إن كنتم صادقين».

وفيه بإسناده عن أبي بصير قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : « فأما إن كان من المقربين فروح وريحان » في قبره « وجنة نعيم » في الآخرة .

وفي الدر المنثور أخرج القاسم بن مندة في كتاب الأحوال والإيمان بالسؤال عن سلمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن أول ما يبشر به المؤمن عند الوفاة بروح وريحان وجنة نعيم وإن أول ما يبشر به المؤمن في قبره أن يقال : أبشر برضا الله تعالى والجنة قدمت خير مقدم قد غفر الله لمن شيعك إلى قبرك ، وصدق من شهد لك ، واستجاب لمن استغفر لك .

وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : فسلام لك من أصحاب اليمين » قال : تأتيه الملائكة بالسلام من قبل الله تسلم عليه وتخبره أنه من أصحاب اليمين.

أقول : وما أورده من المعنى مبني على كون الآية حكاية خطاب الملائكة ، والتقدير قالت الملائكة سلام لك حال كونك من أصحاب اليمين فهي سلام وبشارة .

* * *

(سورة الحديد مدنية ، وهي تسع وعشرون آية)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . سَبَّحَ لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ

وَهُوَ ٱلعَزِيزُ ٱلحَكِيمُ ــ ١ . لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ــ ٢ . هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ــ ٣ . هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ــ ٤ . لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ــ ٥ . يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ــ ٦ .

(بيان)

غرض السورة حثّ المؤمنين وترغيبهم في الإنفاق في سبيل الله كما يشعر به تأكيد الأمر به مرة بعد مرة في خلال آياتها «آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه» الآية ، «من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً» الآية ، «إن المصدّقين والمصدّقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً» ، وقد سمّت إنفاقهم ذلك إقراضاً منه لله عز اسمه فالله سبحانه خير مطلوب وهو لا يخلف الميعاد وقد وعدهم إن أقرضوه أن يضاعفه لهم وأن يؤتيهم أجراً كريماً كثيراً .

وقد أشار إلى أن هذا الإنفاق من التقوى والإيمان بالرسول وأنه يستتبع مغفرة الذنوب وإتيان كفلين من الرحمة ولزوم النور بل واللحوق بالصدّيقين والشهداء عند الله سبحانه .

وفي خلال آياتها معارف راجعة إلى المبدأ والمعاد ، ودعوة إلى التقوى وإخلاص الإيمان والزهد وموعظة .

والسورة مدنية بشهادة سياق آياتها وقد ادّعى بعضهم إجماع المفسرين على ذلك .

ولقد افتتحت السورة بتسبيحه وتنزيهه تعالى بعدّة من أسمائه الحسنى لما في غرض السورة وهو الحثّ على الإنفاق من شائبة توهم الحاجة والنقص في ناحيته ونظيرتها في ذلك جميع السور المفتتحة بالتسبيح وهي سور الحشر والصف والجمعة والتغابن المصدّرة بسبّح أو يسبّح .

قوله تعالى : « سبّح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » التسبيح التنزيه وهو نفي ما يستدعي نقصاً أو حاجة مما لا يليق بساحة كماله تعالى ، و « ما » موصولة والمراد بها ما يعمّ العقلاء مما في السماوات والأرض كالملائكة والثقلين وغير العقلاء كالجمادات والدليل عليه ما ذكر بعد من صفاته المتعلقة بالعقلاء كالإحياء والعلم بذات الصدور .

فالمعنى : نزّه الله سبحانه ما في السماوات والأرض من شيء وهو جميع العالم .

والمراد بتسبيحها حقيقة معنى التسبيح دون المعنى المجازي الذي هو دلالة وجود كل موجود في السماوات والأرض على أن له موجداً منزّهاً من كل نقص متصفاً بكل كمال ، ودون عموم المجاز وهو دلالة كل موجود على تنزهه تعالى إما بلسان القال كالعقلاء وإما بلسان الحال كغير العقلاء من الموجودات وذلك لقوله تعالى : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » أسرى : ٤٤ ، حيث استدرك أنهم لا يفقهون تسبيحهم ولو كان المراد بتسبيحهم دلالة وجودهم على وجوده وهي قيام الحجة على الناس بوجودهم أو كان المراد تسبيحهم وتحميدهم بلسان الحال وذلك مما يفقهه الناس لم يكن للاستدراك معنى.

فتسبيح ما في السماوات والأرض تسبيح ونطق بالتنزيه بحقيقة معنى الكلمة وإن كنا لا نفقهه ، قال تعالى : « قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء » حم السجدة : ٢١ .

وقوله : « وهو العزيز الحكيم » أي المنيع جانبه يغلب ولا يغلب ، المتقن فعله لا يعرض على فعله ما يفسده عليه ولا يتعلق به اعتراض معترض .

قوله تعالى : « له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير » الكلام موضوع على الحصر فهو المليك في السماوات والأرض يحكم ما يشاء لأنه الموجد لكل شيء فما في السماوات والأرض يقوم به وجوده وآثار وجوده فلا حكم إلا له فلا ملك ولا سلطنة إلا له .

وقوله : « يحيي ويميت » إشارة إلى اسميه المحيي والمميت ، وإطلاق « يحيي ويميت » يفيد شمولهما لكل إحياء وإماتة كإيجاده الملائكة أحياء من غير سبق موت ، وإحيائه

الجنين في بطن أمه وإحيائه الموتى في البعث وإيجاده الجماد ميتاً من غير سبق حياة وإماتته الإنسان في الدنيا وإماتته ثانياً في البرزخ على مـا يشير اليه قوله : « ربنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين » المؤمن : ١١ ، وفي « يحيي ويميت » دلالة على الاستمرار .

وقوله : « وهو على كل شيء قدير » فيه إشارة إلى صفة قدرته وأنها مطلقة غير مقيدة بشيء دون شيء ، وفي تذييل الآية بالقدرة على كل شيء مناسبة مع ما تقدمها من الإحياء والإماتة لما ربما يتوهمه المتوهم أن لا قدرة على إحياء الموتى ولا عين منهم ولا أثر .

قوله تعالى : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » لما كان تعالى قديراً على كل شيء مفروض كان محيطاً بقدرته على كل شيء من كل جهة فكل مـا فرض أولاً فهو قبله فهو الأول دون الشيء المفروض أولاً ، وكل ما فرض آخراً فهو بعده لإحاطة قدرته به من كل جهة فهو الآخر دون الشيء المفروض آخراً ، وكل شيء فرض ظاهراً فهو أظهر منه لإحاطة قدرته به من فوقه فهو الظاهر دون المفروض ظاهراً ، وكل شيء فرض أنه باطن فهو تعالى أبطن منه لإحاطته به من ورائه فهو الباطن دون المفروض باطناً فهو تعالى الأول والآخر والظاهر والباطن على الإطلاق وما في غيره تعالى من هذه الصفات فهي إضافية نسبية .

وليست أوليتــه تعالى ولا آخريته ولا ظهوره ولا بطونه زمانية ولا مكانية بمعنى مظروفيته لهما وإلا لم يتقدمهما ولا تنزه عنهما سبحانه بل هو محيط بالأشياء على أي نحو فرضت وكيفما تصوّرت .

فبان مما تقدم أن هذه الأسماء الأربعة الأول والآخر والظاهر والباطن من فروع اسمه المحيط وهو فرع إطلاق القدرة فقدرته محيطة بكل شيء ويمكن تفريع الأسماء الأربعة على إحاطة وجوده بكل شيء فإنه تعالى ثابت قبل ثبوت كل شيء وثابت بعـد فناء كل شيء وأقرب من كل شيء ظاهر وأبطن من الأوهام والعقول من كل شيء خفي باطن .

وكذا للأسماء الأربعة نوع تفرع على علمــه تعالى ويناسبه تذييل الآية بقوله : « وهو بكل شيء عليم » .

وفسر بعضهم الأسماء الأربعة بأنه الأول قبل كل شيء والآخر بعد هلاك كل شيء الظاهر بالأدلة الدالة عليه والباطن غير مدرك بالحواس .

وقيل : الأول قبل كل شيء بلا ابتداء ، والآخر بعد كل شيء بلا انتهاء ، والظاهر الغالب العالي على كل شيء فكل شيء دونه ، والباطن العالم بكل شيء فلا أحد أعلم منه.

وقيل: الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء والظاهر بلا اقتراب والباطن بلا احتجاب.

وهناك أقوال أخر في معناها غير جيدة أغمضنا عن إيرادها .

قوله تعالى : « هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام » تقدم تفسيره .

قوله تعالى : « ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها» تقدّم تفصيل القول في معنى العرش في سورة الأعراف آية:٥٤.

وتقدم أن الاستواء على العرش كناية عن الأخذ في تدبير الملك ولذا عقبه بالعلم بجزئيات الأحوال لأن العلم من لوازم التدبير .

وقوله : « يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » الولوج – كما قال الراغب – الدخول في مضيق ، والعروج ذهاب في صعود ، والمعنى: يعلم ما يدخل وينفذ في الأرض كماء المطر والبذور وغيرهما وما يخرج من الأرض كأنواع النبات والحيوان والماء وما ينزل من السماء كالأمطار والأشعة والملائكة وما يعرج فيها ويصعد كالأبخرة والملائكة وأعمال العباد .

قوله تعالى : « وهو معكم أينما كنتم » لإحاطته بكم فلا تغيبون عنه أينما كنتم وفي أي زمان عشتم وفي أي حال فرضتم فذكر عموم الأمكنة «أينما كنتم» لأن الأعرف في مفارقة شيء شيئاً وغيبته عنه أن يتوسل إلى ذلك بتغيير المكان وإلا فنسبته تعالى إلى الأمكنة والأزمنة والأحوال سواء .

وقيل : المعيّة مجاز مرسل عن الإحاطة العلمية .

قوله تعالى : « والله بما تعملون بصير » كالفرع المترتب على ما قبله من كونه معهم أينما كانوا وكونه بكل شيء عليماً فإن لازم حضوره عندهم من دون مفارقة ما واحتجاب وهو عليم أن يكون بصيراً بأعمالهم يبصر ظاهر عملهم ، وما في باطنهم من نيّة وقصد .

قوله تعالى : « له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الامور » كرر قوله : « له ملك » الخ ، لابتناء رجوع الأشياء اليه على عموم الملك فصرّح به ليفيد الابتناء ، قال تعالى : « يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » المؤمن : ١٦ .

وقوله : « وإلى الله ترجع الامور » الامور جمع محلّى باللام يفيد العموم كقوله : « ألا إلى الله تصير الامور » الشورى : ٥٣ ، فما من شيء إلا ويرجع إلى الله ، ولا رادّ اليه تعالى إلا هو لاختصاص الملك به فله الأمر وله الحكم .

وفي الآية وضع الظاهر موضع الضمير في « إلى الله » وكذا في الآية السابقة « والله بما تعملون بصير » ولعل الوجه في ذلك أن تقرع الجملتــــان قلوبهم كما يقرع المثل السائر لما سيجيء من ذكر يوم القيامة وجزيل أجر المنفقين في سبيل الله فيه .

قوله تعالى : « يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور » إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل اختــــلاف الليل والنهار في الطول والقصر باختلاف فصول السنة في كل من البقاع الشمالية والجنوبية بعكس الاخرى ، وقد تقدم في كلامه تعالى غير مرة .

والمراد بذات الصدور الأفكار المضمرة والنيّــــات المكنونة التي تصاحب الصدور وتلازمها لما أنها تنسب إلى القلوب والقلوب في الصدور ، والجملة أعني قوله : « وهو عليم بذات الصدور » بيان لإحاطة علمه بما في الصدور بعد بيان إحاطة بصره بظواهر أعمالهم بقوله : « والله بما تعملون بصير » .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج أحمـــد وأبو داود والترمذي وحسّنه والنسائي وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن عرباض بن سارية أن رسول‌الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد ، وقال : إن فيهن آية أفضل من ألف آية .

أقول : ورواه أيضاً عن ابن الضريس عن يحيى بن أبي كثير عنه صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي الكافي بإسناده عن عاصم بن حميد قال : سئل علي بن الحسين عليهما السلام عن التوحيد فقال : إن الله عز وجل علم أنه يكون في آخر الزمان أقوام متعمقون فأنزل الله تعــالى : « قل هو الله أحد » والآيات من سورة الحديد إلى قوله : « عليم بذات الصدور » فمن رام وراء ذلك فقد هلك .

وفي تفسير القمي: « سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » قال : هو

قوله : أوتيت جوامع الكلم، وقوله : « هو الأول » قال : أي قبل كل شيء، « والآخر » قال : يبقى بعد كل شيء ، « وهو عليم بذات الصدور » قال : بالضمائر .

وفي الكافي وروي أنه يعني علياً عليه‌السلام سئل أين كان ربنا قبل أن يخلق سماء وأرضاً ؟ قال : أين سؤال عن مكان وكان الله ولا مكان .

وفي التوحيد خطبة للحسن بن علي عليه‌السلام وفيها : الحمد لله الذي لم يكن فيه أول معلوم ، ولا آخر متناه ، ولا قبل مدرك ، ولا بعد محدود ، فلا تدرك العقول وأوهامها ولا الفكر وخطراتها ولا الألباب وأذهانها صفته فتقول : متى ولا بدىء مما ، ولا ظاهر على ما ، ولا باطن فيما .

أقول : وقوله أول معلوم الخ ، أوصاف توضيحية أي ليس له أول ولو كان له أول كان من الجائز أن يتعلق به علم ولا آخر ولو كان له آخر كان متناهياً ، ولا قبل ولو كان لكان جائز الإدراك ولا بعد وإلا لكان محدوداً .

وقوله : ولا بدىء مما أي لم يبتدأ من شيء حتى يكون له أول ولا ظاهر على ما أي يتفوق على شيء بالوقوع والاستقرار عليه كالجسم على الجسم « ولا باطن فيما » أي لم يتبطن في شيء بالدخول فيه والاستتار به .

وفي نهج البلاغة : وكل ظاهر غيره غير باطن ، وكل باطن غيره غير ظاهر .

أقول : معناه أن حيثية الظهور في غيره تعالى غير حيثية البطون وبالعكس ، وأما هو تعالى فلما كان أحديّ الذات لا تنقسم ولا تتجزى إلى جهة وجهة كان ظاهراً من حيث هو باطن وباطناً من حيث هو ظاهر فهو باطن خفي من كمال ظهوره وظاهر جليّ من كمال بطونه .

وفيه : الحمد لله الأول فلا شيء قبله ، والآخر فلا شيء بعده ، والظاهر فلا شيء فوقه ، والباطن فلا شيء دونه .

أقول : المراد بالقبلية والبعدية ليس هو القبلية والبعدية الزمانية بأن يفرض هناك امتداد زماني غير متناهي الطرفين وقد حلّ العالم قطعة منه خالياً عنه طرفاه ويكون وجوده تعالى وتقدّس منطبقاً على الزمان كله غير خال عنه شيء من جانبيه وإن ذهبا إلى غير النهاية فيتقدم وجوده تعالى على العالم زماناً ويتأخر عنه زماناً ولو كان كذلك لكان تعالى متغيراً في ذاته وأحواله بتغير الأزمنة المتجددة عليه ، وكان قبليته

وبعدينه بتبع الزمان وكان الزمان هو الأول والآخر بالأصالة .

وكذلك ليست ظاهريته وباطنيته بحسب المكان بنظير البيان بل هو تعالى سابق بنفس ذاته المتعالية على كل شيء مفروض وآخر بنفس ذاته عن كل أمر مفروض أنه آخر، وظاهر ، وباطن كذلك ، والزمان مخلوق له متأخر عنه .

وفي الدر المنثور أخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن عمر وأبي سعيد عن النبي ﷺ قال : لا يزال الناس يسألون عن كل شيء حتى يقولوا : هذا الله كان قبل كل شيء فماذا كان قبل الله فإن قالوا لكم ذلك فقولوا : هو الأول قبل كل شيء وهو الآخر فليس بعده شيء وهو الظاهر فوق كل شيء وهو الباطن دون كل شيء وهو بكل شيء عليم .

وفي التوحيد بإسناده إلى أبي بصير قال : سمعت أبا عبد الله عليه‌السلام يقول : لم يزل الله عز وجل ربنا والعلم ذاته ولا معلوم فلما أحدث الأشياء وقع العلم منه على المعلوم .

أقول : ليس المراد بهذا العلم الصور الذهنية فيكون تعالى كباني دار يتصور للدار صورة وهيئة قبل بنائها ثم يبنيها على ما تصور فتنطبق الصورة الذهنية على البناء الخارجي ثم تنهدم الدار والصورة الذهنية على حالها ، وهذا هو المسمى بالعلم الكلي وهو مستحيل عليه تعالى بل ذاته تعالى عين العلم بمعلومه ثم المعلوم إذا تحقق في الخارج كان ذات المعلوم عين علمه تعالى به ، ويسمى الأول العلم الذاتي والثاني العلم الفعلي .

وفيه خطبة لعلي عليه‌السلام وفيها : وعلمها لا بأداة لا يكون العلم إلا بها ، وليس بينه وبين معلومه علم غيره .

أقول : المراد به أن ذاته تعالى عين علمه ، وليست هناك صورة زائدة .

* * *

آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ــ ٧ . وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ــ ٨ . هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ

الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ــ ٩ . وَمَا لَكُمْ أَلاَّ
تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلهِ مِيرَاثُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لاَ يَسْتَوِي مِنْكُمْ
مَّنْ أَنفَقَ مِنْ قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ
أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَىٰ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ــ ١٠ . مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ
أَجْرٌ كَرِيمٌ ــ ١١ . يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ــ ١٢ . يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ
لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا
نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ
مِنْ قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ــ ١٣ . يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ
وَلٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ
جَاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُمْ بِٱللهِ ٱلْغَرُورُ ــ ١٤ . فَٱلْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ
مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ ــ ١٥ .

(بيان)

أمر مؤكد بالإنفاق في سبيل الله وخاصة الجهاد على ما يؤيده قوله : « لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل » الآية ، ويتأيد بذلك ما قيل : إن قوله : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا » الخ ، نزل في غزوة تبوك .

قوله تعالى : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » الخ ، المستفاد من سياق الآيات أن الخطاب في الآية للمؤمنين بالله ورسوله لا للكفار ولا للمؤمنين والكفار جميعاً كما قيل ، وأمر الذين تلبّسوا بالإيمان بالله ورسوله بالإيمان معناه الأمر بتحقيق الإيمان بترتيب آثاره عليه إذ لو كانت صفة من الصفات كالسخاء والعفة والشجاعة ثابتة في نفس الإنسان حقّ ثبوتها لم يتخلف عنها أثرها الخاص ومن آثار الإيمان بالله ورسوله الطاعة فيما أمر الله ورسوله به .

ومن هنا يظهر أولاً : أن أمر المؤمن بالإيمان في الحقيقة أمر للمتحقق بمرتبة من الإيمان أن يتلبس بمرتبة هي أعلى منها ، وهذا النوع من الأمر فيه إيماء إلى أن الذي عند المأمور من المأمور به لا يرضي الآمر كل الإرضاء .

وثانياً : أن قوله : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا » أمر بالإنفاق مع التلويح إلى أنه أثر صفة هم متلبسون بها فعليهم أن ينفقوا لما اتصفوا بها فيؤول إلى تعليل الإنفاق بإيمانهم .

وقوله : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » استخلاف الإنسان جعله خليفة ، والمراد به إما خلافتهم عن الله سبحانه يخلفونه في الأرض كما يشير اليه قوله : « إني جاعل في الأرض خليفة » البقرة : ٣٠ ، والتعبير عما بأيديهم من المال بهذا التعبير لبيان الواقع ولترغيبهم في الإنفاق فإنهم إذا أيقنوا أن المال لله وهم مستخلفون عليه وكلاء من ناحيته يتصرفون فيه كما أذن لهم سهل عليهم إنفاقه ولم تتحرّج نفوسهم من ذلك .

وإما خلافتهم عمن سبقهم من الأجيال كما يخلف كل جيل سابقه ، وفي التعبير به أيضاً ترغيب في الإنفاق فإنهم إذا تذكروا أن هذا المال كان لغيرهم فلم يدم عليهم علموا أنه كذلك لا يدوم لهم وسيتركونه لغيرهم وهان عليهم إنفاقه وسخت بذلك نفوسهم .

وقوله : « فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » وعد للأجر على الإنفاق تأكيداً للترغيب ، والمراد بالإيمان الإيمان بالله ورسوله .

قوله تعالى : « وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم » الخ ، المراد بالإيمان الإيمان بحيث يترتب عليه آثاره ومنها الإنفـاق في سبيل الله – وإن شئت فقل : المراد ترتيب آثار ما عندهم من الإيمان عليه – .

وقوله : « والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم » عبّر الرب بالرب وأضافه اليهم تلويحاً إلى علـة توجه الدعوة والأمر كأنه قيل : يدعوكم لتؤمنوا بالله لأنه ربكم يجب عليكم أن تؤمنوا به .

وقوله : « وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين » تأكيد للتوبيخ المفهوم من أول الآية ، وضمير « أخـذ » لله سبحانه أو للرسول وعلى أي حال المراد بالميثاق المأخوذ هو الذي تدل عليه شهادتهم على وحدانيـة الله ورسالة رسوله يوم آمنوا بـه ﷺ من أنهم على السمع والطاعة .

وقيل : المراد بالميثاق هو الميثاق المأخوذ منهم في الذرّ ، وعلى هذا فضمير « أخذ » لله سبحانه ، وفيه أنه بعيد عن سياق الاحتجاج عليهم فإنهم غافلون عنه ، على أن أخـذ الميثاق في الذرّ لا يختص بالمؤمنين بل يعمّ المنافقين والكفار .

قوله تعالى : «هو الذي ينزل على عبده آيات بيّنات ليخرجكم من الظلمات إلى النور» الخ ، المراد بالآيات البينات آيات القرآن الكريم المبينـة لهم ما عليهم من فرائض الدين ، وفاعل « ليخرجكم » الضمير العائد إلى الله أو إلى رسوله ﷺ ومرجع الثاني أيضاً هو الأول فالميثاق ميثاقه وقـد أخذه بواسطة رسوله أو بغير واسطته كما أن الإيمان به وبرسوله إيمـان به ولذلك قال في صدر الآية : « وما لكم لا تؤمنون بالله » فذكر نفسه ولم يذكر رسوله إشارة إلى أن الإيمان برسوله إيمان به .

وقوله : « وإن الله بكم لرؤف رحيم » في تذييل الآية برأفته تعالى ورحمته إشارة إلى أن الإيمان الذي يدعوهم اليه رسوله خير لهم وأصلح وهم الذين ينتفعون به دون الله ورسوله ، ففيه تأكيد ترغيبهم على الإيمان والإنفاق .

قوله تعالى : « وما لكم أن لا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض » الميراث والتراث المال الذي ينتقل من الميت إلى من بقي بعده من ورّاثه ، وإضافة الميراث إلى السماوات والأرض بيانية فالسماوات والأرض هي الميراث بما فيهما من الأشياء التي خلق منهما مما يتملكه ذووا الشعور من سكنتهما فالسماوات والأرض شاملة لما فيهما مما خلق منهما

ويتصرف فيها ذووا الشعور كالإنسان مثلاً بتخصيص ما يتصرفون فيه لأنفسهم وهو الملك الاعتباري الذي هداهم الله سبحانه إلى اعتباره فيما بينهم لينتظم بذلك جهات حياتهم الدنيا.

غير أنهم لا يبقون ولا يبقى لهم بل يذهبهم الموت المقدر بينهم فينتقل ما في أيديهم إلى من بعدهم وهكذا حتى يفنى الجميع ولا يبقى إلا هو سبحانه .

فالأرض مثلاً وما فيها وعليها من مال ميراث من جهة أن كل جيل من سكانها يرثها ممن قبله فكانت ميراثاً دائماً دائراً بينهم خلفاً عن سلف ، وميراث من جهة أنهم سيفنون جميعاً ولا يبقى لها إلا الله الذي استخلفهم عليها .

ولله سبحانه ميراث السماوات والأرض بكلا المعنيين، أما الأول : فلأنه الذي يملكهم المال وهو المالك لما ملكهم ، قال تعالى : « لله ما في السماوات والأرض » لقمان : ٢٦ ، وقال : « ولله ملك السماوات والأرض » النور : ٤٢ ، وقال : « وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » النور : ٣٣ .

وأما الثاني : فظاهر آيات القيامة كقوله تعالى : « كل من عليها فان » الرحمن : ٢٦ وغيره ، والذي يسبق إلى الذهن أن المراد بكونها ميراثاً هو المعنى الثاني .

وكيف كان ففي الآية توبيخ شديد لهم على عدم إنفاقهم في سبيل الله من المال الذي لا يرثه بالحقيقة إلا هو تعالى ولا يبقى لهم ولا لغيرهم ، والإظهار في موضع الإضمار في قوله : « ولله » لتشديد التوبيخ .

قوله تعالى : « لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا » الخ ، الاستواء بمعنى التساوي ، وقسيم قوله : « من أنفق من قبل الفتح وقاتل » محذوف إيجازاً لدلالة قوله : « أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا » عليه .

والمراد بالفتح — كما قيل — فتح مكة أو فتح الحديبية وعطف القتال على الإنفاق لا يخلو من إشعار بل دلالة على أن المراد بالإنفاق في سبيل الله المندوب اليه في الآيات هو الإنفاق في الجهاد .

وكأن الآية مسوقة لبيان أن الإنفاق في سبيل الله كلما عجل اليها كان أحب عند الله وأعظم درجة ومنزلة وإلا فظاهر أن هذه الآيات نزلت بعد الفتح والقتال الذي بادروا اليه قبل الفتح وبعض المقاتل التي بعده .

وقوله : « وكلا وعد الله الحسنى » أي وعد الله المثوبة الحسنى كل من أنفق وقاتل قبل الفتح أو أنفق وقاتل بعده وإن كانت الطائفة الاولى أعظم درجة من الثانية ، وفيه تطييب لقلوب المتأخرين إنفاقاً وقتالاً أن لهم نيلاً من رحمته وليسوا بمحرومين مطلقاً فلا موجب لأن ييأسوا منها وإن تأخروا .

وقوله : « والله بما تعملون خبير » تذييل متعلق بجميع ما تقدم ففيه تشديد للتوبيخ وتقرير وتثبيت لقوله : « لا يستوي منكم » الخ ، ولقوله : « وكلا وعد الله الحسنى » ويمكن أن يتعلق بالجملة الأخيرة لكن تعلقه بالجميع أعم وأشمل .

قوله تعالى : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم » قال الراغب : وسمي ما يدفع إلى الإنسان من المال بشرط رد بدله قرضاً . انتهى ، وقال في المجمع : وأصله القطع فهو قطعه عن مالكه بإذنه على ضمان رد مثله . قال : والمضاعفة الزيادة على المقدار مثله أو أمثاله . انتهى ، وقال الراغب : الأجر والأجرة ما يعود من ثواب العمل دنيوياً كان أو أخروياً قال : ولا يقال إلا في النفع دون الضر بخلاف الجزاء فإنه يقال في النفع والضر . انتهى ملخصاً .

وما يعطيه تعالى من الثواب على عمل العبد تفضل منه من غير استحقاق من العبد فإن العبد ومـا يأتيه من عمل ملك طلق له سبحانه ملكاً لا يقبل النقل والإنتقال غير أنه اعتبر اعتباراً تشريعياً العبد مالكاً وملكه عمله ، وهو المالك لما ملكه وهو تفضّل آخر ثم اختار ما أحبه من عمله فوعده ثواباً على عمله وسماه أجراً وجزاء وهو تفضل آخر ، ولا ينتفع به في الدنيا والآخرة إلا العبد قال تعالى : « للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم » آل عمران : ١٧٢ ، وقال : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون » حم السجدة : ٨ ، وقال بعد وصف الجنة ونعيمها : « إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً » الإنسان : ٢٢ ، وما وعده من الشكر وعدم المنّ عند إيتاء الثواب تمام التفضل .

وفي الآية حثّ بليغ على ما ندب اليه من الإنفاق في سبيل الله حيث استفهم عن الذي ينفق منهم في سبيل الله ومثل إنفاقه بأنه قرض يقرضه الله سبحانه وعليه أن يرده ثم قطع أنه لا يرد مثله اليه بل يضاعفه ولم يكتف بذلك بل أضاف اليه أجراً كريماً في الآخرة والأجر الكريم هو المرضي في نوعه والأجر الاخروي كذلك لأنه غاية ما يتصور

من النعمة عند غاية ما يتصور من الحاجة .

قوله تعالى : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » الخ ، اليوم ظرف لقوله : « له أجر كريم » والمراد به يوم القيامة ، والخطاب في « ترى » للنبي ﷺ أو لكل سامع يصح خطابه ، والظاهر أن الباء في « بأيمانهم » بمعنى في .

والمعنى : لمن أقرض الله قرضاً حسناً أجر كريم يوم ترى أنت يا رسول الله – أو كل من يصح منه الرؤية – المؤمنين بالله ورسوله والمؤمنات يسعى نورهم أمامهم وفي أيمانهم واليمين هو الجهة التي منها سعادتهم .

والآية مطلقة تشمل مؤمني جميع الامم ولا تختص بهذه الامة ، والتعبير عن إشراق النور بالسعي يشعر بأنهم ساعون إلى درجات الجنة التي أعدها الله سبحانه لهم وتستنير لهم جهات السعادة ومقامات القرب واحدة بعد واحدة حتى يتم لهم نورهم كما قال تعالى: « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً » الزمر : ٧٣ ، وقال : « يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً » مريم : ٨٥ ، وقال : « يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا » التحريم : ٨ .

وللمفسرين في تفسير مفردات الآية أقوال مختلفة أغمضنا عنها لعدم دليل من لفظ الآية عليها ، وسيوافيك ما في الروايات المأثورة في البحث الروائي الآتي إن شاء الله .

وقوله : « بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها » حكاية ما يقال للمؤمنين والمؤمنات يوم القيامة ، والقائل الملائكة بأمر من الله والتقدير يقال لهم : « بشراكم » الخ ، والمراد بالبشرى ما يبشر به وهو الجنة والباقي ظاهر .

وقوله : « ذلك هو الفوز العظيم » كلام الله سبحانه والإشارة إلى ما ذكر من سعي النور والبشرى أو من تمام قول الملائكة والإشارة إلى الجنات والخلود فيها .

قوله تعالى : « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم » إلى آخر الآية ، النظر إذا تعدّى بنفسه أفاد معنى الانتظار والإمهال ، وإذا عدّي بإلى نحو نظر اليه كان بمعنى إلقاء البصر نحو الشيء وإذا عدّي بفي كان بمعنى التأمل ، والاقتباس أخذ قبس من النار .

والسياق يفيد أنهم اليوم في ظلمة أحاطت بهم سرادقها وقد ألجئوا إلى المسير نحو دارهم التي يخلدون فيها غير أن المؤمنين والمؤمنات يسيرون بنورهم الذي يسعى بين

أيديهم وبأيمانهم فيبصرون الطريق ويهتدون إلى مقاماتهم ، وأما المنافقون والمنافقات فهم مغشيون بالظلمة لا يهتدون سبيلاً وهم مع المؤمنين كما كانوا في الدنيا معهم ومعدودين منهم فيسبق المؤمنون والمؤمنات إلى الجنة ويتأخر عنهم المنافقون والمنافقات في ظلمة تغشاهم فيسألون المؤمنين والمؤمنات أن ينتظروهم حتى يلحقوا بهم ويأخذوا قبساً من نورهم ليستضيئوا به في طريقهم .

وقوله : « قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً » القائل به إما الملائكة أو قوم من كمّل المؤمنين كأصحاب الأعراف .

وكيف كان فهو من الله وبإذنه ، والخطاب بقوله : « ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً » قيل : إنه خطاب مبني على التهكّم والاستهزاء كما كانوا يستهزؤون في الدنيا بالمؤمنين ، والأظهر على هذا أن يكون المراد بالوراء الدنيا ، ويحصل المعنى : ارجعوا إلى الدنيا التي تركتموها وراء ظهوركم وعملتم فيها ما عملتم على النفاق ، والتمسوا من تلك الأعمال نوراً فإنما النور نور الأعمال أو الإيمان ولا إيمان لكم ولا عمل .

ويمكن أن يحمل هذا وجهاً على حياله من غير معنى الاستهزاء بأن يكون قوله : « ارجعوا » أمراً بالرجوع إلى الدنيا واكتساب النور بالإيمان والعمل الصالح وليسوا براجعين ولا يستطيعون فيكون الأمر بالرجوع كالأمر بالسجود المذكور في قوله تعالى : « يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » القلم : ٤٣ .

وقيل : المراد ارجعوا إلى المكان الذي قسم فيه النور والتمسوا من هناك فيرجعون فلا يجدون شيئاً فينصرفون اليهم وقد ضُرب بينهم بسور ، وهذا خدعة منه تعالى يخدعهم بها كما كانوا في الدنيا يخادعونه كما قال : « إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم » النساء : ١٤٢ .

قوله تعالى : «فضُرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب» سور المدينة حائطها الحاجز بينها وبين الخارج منها ، والضمير في « فضُرب بينهم بسور » راجع إلى المؤمنين والمنافقين جميعاً أي ضرب بين المؤمنين وبين المنافقين بسور حاجز يحجز إحدى الطائفتين عن الاخرى .

قيل : السور هو الأعراف وهو غير بعيد وقد تقدمت إشارة اليه في تفسير قوله

تعالى : « وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال » الآية الأعراف : ٤٦ ، وقيل : السور غير الأعراف .

وقوله : « له باب » أي للسور باب وهذا يشبه حال المنافقين في الدنيا فقد كانوا فيها بين المؤمنين لهم اتصال بهم وارتباط وهم مع ذلك محجوبون عنهم بحجاب . على أنهم يرون أهل الجنة ويزيد بذلك حسرتهم وندامتهم .

وقوله : « باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب » « باطنه » مبتدأ وجملة « فيه الرحمة » مبتدأ وخبر وهي خبر « باطنه » وكذا « ظاهره » مبتدأ وجملة « من قبله العذاب » مبتدأ وخبر هي خبره ، وضميرا « فيه ومن قبله » للباطن والظاهر .

ويظهر من كون باطن السورة فيه رحمة وظاهره من قبله العذاب أن السور محيط بالمؤمنين وهم في داخله والمنافقون في الخارج منه .

وفي اشتمال داخله الذي يلي المؤمنين على الرحمة وظاهره الذي يلي المنافقين على العذاب مناسبة لحال الإيمان في الدنيا فإنه نعمة لأهل الإخلاص من المؤمنين يبتهجون بها ويلتذون وعذاب لأهل النفاق يتحرجون من التلبس به ويتألمون منه .

قوله تعالى : « ينادونهم ألم نكن معكم » إلى آخر الآية استئناف في معنى جواب السؤال كأنه قيل : فماذا يفعل المنافقون والمنافقات بعد ضرب السور ومشاهدة العذاب من ظاهره ؟ فقيل : ينادونهم الخ .

والمعنى : ينادي المنافقون والمنافقات المؤمنين والمؤمنات بقولهم : « ألم نكن معكم» يريدون به كونهم في الدنيا مع المؤمنين والمؤمنات في ظاهر الدين .

وقوله : « قالوا بلى » إلى آخر الآية جواب المؤمنين والمؤمنات لهم والمعنى : «قالوا» أي قال المؤمنون والمؤمنات جواباً لهم « بلى » كنتم في الدنيا معنا « ولكنكم فتنتم » أي محنتم وأهلكتم « أنفسكم وتربصتم » الدوائر بالدين وأهله « وارتبتم » وشككتم في دينكم « وغرتكم الأماني » ومنها أمنيتكم أن الدين سيطفأ نوره ويتركه أهله « حتى جاء أمر الله » وهو الموت « وغركم بالله الغرور » بفتح الغين وهو الشيطان .

والآية - كما ترى - تفيد أن المنافقين والمنافقات يستنصرون المؤمنين والمؤمنات على ما هم فيه من الظلمة متوسلين بأنهم كانوا معهم في الدنيا ثم تفيد أن المؤمنين والمؤمنات يجيبون بأنهم كانوا معهم لكن قلوبهم كانت لا توافق ظاهر حالهم بحيث يفتنون أنفسهم

ويتربصون ويرتابون وتغرهم الأماني ويغرهم بالله الغرور ، وهذه الصفات الخبيثة آفات القلوب فكانت القلوب غير سليمة ولا ينفع يوم القيامة إلا القلب السليم قال تعالى : « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » الشعراء : ٨٩ .

قوله تعالى : « فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا » تتمة كلام المؤمنين والمؤمنات يخاطبون به المنافقين والمنافقات ويضيفون اليهم الكفار وهم الملعنون لكفرهم أنهم رهناء أعمالهم كما قال تعالى : « كل نفس بما كسبت رهينة » المدثر : ٣٨ ، لا يؤخذ منهم فدية يخلصون بها أنفسهم والفدية أحد الأمرين للذين بهما التخلص من الرهانة والآخر ناصر ينصر فينجي وقد نفوه بقولهم : « مأواكم النار » الخ .

فقوله : « مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير » ينفي أيّ ناصر ينصرهم وينجيهم من النار غير النار على ما يفيده قوله : « هي مولاكم » من الحصر ، والمولى هو الناصر والجملة مسوقة للتهكم .

ويمكن أن يكون المولى بمعنى من يلي الأمر فإنهم كانوا يدعون لحوائجهم من المأكل والمشرب والملبس والمنكح والمسكن غير الله سبحانه وحقيقته النار فاليوم مولاهم النار وهي التي تعدّ لهم ذلك فمأكلهم من الزقوم ومشربهم من الحميم وملبسهم من ثياب قطعت من النار وقرناؤهم الشياطين ومأواهم النار على ما أخبر الله سبحانه به في آيات كثيرة من كلامه .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية حتى إذا كان بعسفان قال رسول الله ﷺ يوشك أن يأتي قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم قلنا : من هم يا رسول الله أقريش ؟ قال : لا ولكنهم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوباً . قلنا : أهم خير منا يا رسول الله ؟ قال : لو كان لأحدهم جبل من ذهب فأنفقه ما أدرك مد أحدكم ولا نصيفه ألا إن هذا فصل ما بيننا وبين الناس « لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل » الآية .

أقول : روي هذا المعنى بغير واحد من الطرق بألفاظ متقاربة وهي مشتملة على الآية ويشكل بأن ظاهر سياق الآيات أنها نزلت بعد الفتح والمراد به إما الحديبية أو فتح مكة فلا تنطبق على ما قبل الفتح .

وفيه أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال : لما نزلت هـــذه الآية « لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل » قال أبو الدحداح : والله لأنفقنّ اليوم نفقة أدرك بها من قبلي ولا يسبقني بها أحد بعدي فقال: اللهم كل شيء يملكه أبو الدحداح فإن نصفه لله حتى بلغ فرد نعله ثم قال : وهذا .

وفي تفسير القمي في قوله : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » قال : يقسم النور بين الناس يوم القيامة على قدر أيمانهم يقسّم للمنافق فيكون نوره بين إبهام رجله اليسرى فينظر نوره ثم يقول للمؤمنين : مكانكم حتى أقتبس من نوركم فيقول المؤمنون لهم : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ويضرب بينهم بسور له باب فينادون من وراء السور للمؤمنين : « ألم نكن معكم قالوا : بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم » قال : بالمعاصي « وتربصتم وارتبتم » قال : أي شككتم وتربصتم .

وقوله : « فاليوم لا يؤخذ منكم فدية » قال : والله ما عنى بذلك اليهود والنصارى وما عنى به إلا أهل القبلة ثم قال : « مأواكم النار هي مولاكم » قال : هي أولى بكم .

أقول : يعني بأهل القبلة المنافقين منهم .

وفي الكافي بإسناده عن أبان بن تغلب قال : سمعت أبا عبد الله عليه‌السلام يقول : تجنبوا المنى فإنها تذهب ببهجة ما خولتم وتستصغرون بها مواهب الله جل وعز عندكم وتعقبكم الحسرات فيما وهمتم به أنفسكم .

* * *

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ـــ ١٦ . إِعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ـــ ١٧

إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ
وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ــ ١٨ . وَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱللهِ وَرُسُلِهِ أُولٰئِكَ هُمُ
الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا
وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ ــ ١٩ . إِعْلَمُوا أَنَّمَا ٱلْحَيٰوةُ
الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَوْلَادِ
كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ
حُطَاماً وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا
ٱلْحَيٰوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ ــ ٢٠ . سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ
وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِٱللهِ
وَرُسُلِهِ ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ــ ٢١ .
مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّنْ
قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ــ ٢٢ . لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ
مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ــ ٢٣ .
ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ
ٱلْحَمِيدُ ــ ٢٤ .

(بيان)

جري على وفق مقصد الكلام السابق وهو الحثّ والترغيب في الإيمان بالله ورسوله

والإنفاق في سبيل الله وتتضمن عتاب المؤمنين على ما يظهر من علائم قسوة القلوب منهم، وتأكيد الحث على الإنفاق ببيان درجة المنفقين عند الله والأمر بالمسابقة إلى المغفرة والجنة وذم الدنيا وأهلها الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل .

وقد تغير السياق خلال الآيات إلى سياق عام يشمل المسلمين وأهل الكتاب بعد اختصاص السياق السابق بالمسلمين وسيجيء توضيحه .

قوله تعالى : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق » إلى آخر الآية ، يقال : أنى يأني انيّ وإناء أي جاء وقته ، وخشوع القلب تأثره قبال العظمة والكبرياء ، والمراد بذكر الله ما يذكر به الله ، وما نزل من الحق هو القرآن النازل من عنده تعالى و « من الحق » بيان لما نزل ، ومن شأن ذكر الله تعالى عند المؤمن أن يعقب خشوعاً كما أن من شأن الحق النازل من عنده تعالى أن يعقب خشوعاً ممن آمن بالله ورسله .

وقيل : المراد بذكر الله وما نزل من الحق جميعاً القرآن ، وعلى هذا فذكر القرآن بوصفيه لكون كل من الوصفين مستدعياً لخشوع المؤمن فالقرآن لكونه ذكر الله يستدعي الخشوع كما أنه لكونه حقاً نازلاً من عنده تعالى يستدعي الخشوع .

وفي الآية عتاب المؤمنين على ما عرض لقلوبهم من القسوة وعدم خشوعها لذكر الله والحق النازل من عنده تعالى وتشبيه لحالهم بحال أهل الكتاب الذين نزل عليهم الكتاب وطال عليهم الأمد فقست قلوبهم .

وقوله : « ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم » عطف على قوله : « تخشع » الخ ، والمعنى : ألم يأن لهم أن تخشع قلوبهم وأن لا يكونوا الخ ، والأمد الزمان ، قال الراغب : الفرق بين الزمان والأمد أن الأمد يقال باعتبار الغاية والزمان عام في المبدأ والغاية ولذلك قال بعضهم : إن المدى والأمد يتقاربان . انتهى .

وقد أشار سبحانه بهذا الكلام إلى صيرورة قلوبهم كقلوب أهل الكتاب القاسية والقلب القاسي حيث يفقد الخشوع والتأثر عن الحق ربما خرج عن زيّ العبودية فلم يتأثر عن المناهي واقترف الإثم والفسوق ، ولذا أردف قوله : « فقست قلوبهم » بقوله : « وكثير منهم فاسقون » .

قوله تعالى : « اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها » إلى آخر الآية في تعقيب عتاب

المؤمنين على قسوة قلوبهم بهذا التمثيل تقوية لرجائهم وترغيب لهم في الخشوع .

ويمكن أن يكون من تمام العتاب السابق ويكون تنبيهاً على أن الله لا يخلي هـذا الدين على ما هو عليه من الحال بل كلما قست قلوب وحرموا الخشوع لأمر الله جاء بقلوب حيّة خاشعة له يعبد بها كما يريد .

فتكون الآية في معنى قوله : « هـا أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنمـا يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » سورة محمد : ٣٨ .

ولذلك ذيّل الآية بقوله : « قد بيّنا لكم الآيات لعلكم تعقلون » .

قوله تعالى : « إن المصّدّقين والمصّدّقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم » تكرار لحديث المضاعفة والأجر الكريم للترغيب في الإنفـاق في سبيل الله وقد أضيف إلى الذين أقرضوا الله قرضاً حسناً المصدقون والمصدقات .

والمصدقون والمصدقات – بتشديد الصاد والدال – المتصدقون والمتصدقات ، وقوله: « وأقرضوا الله » عطف على مدخول اللام في « المصدقين » ، والمعنى : أن الذين تصدّقوا والذين أقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ما أعطوه ولهم أجر كريم .

قوله تعالى : « والذين آمنوا بالله ورسله اولئك هم الصدّيقون والشهداء عنـد ربهم » الخ ، لم يقل : « آمنوا بالله ورسوله » كما قـــال في أول السورة : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا » وقال في آخرها : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله » لأنه تعـالى لما ذكر أهل الكتاب في الآية السابقة بقوله : « ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل » عدل عن السياق السابق إلى سياق عام يشمل المسلمين وأهل الكتاب جميعاً كما قال بعد : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات » وأما الآيتان المذكورتان في أول السورة وآخرها فالخطاب فيها لمؤمني هذه الامة خاصة ولذا جيء فيها بالرسول مفرداً .

والمراد بالإيمان بالله ورسله محض الإيمان الذي لايفارق بطبعه الطاعة والاتباع كما مرّت الإشارة اليه في قوله: « آمنوا بالله ورسوله » الآية ، والمراد بقوله : « أولئك هم الصديقون والشهداء » إلحاقهم بالصديقين والشهداء بقرينة قوله : « عند ربهم » وقوله : « لهم أجرهم ونورهم » فهم ملحقون بالطائفتين يعامل معهم معاملة الصديقين والشهداء فيعطون مثل أجرهم ونورهم .

والظاهر أن المراد بالصدّيقين والشهداء هم المذكورون في قوله : « ومن يُطِع الله والرسول فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ اولئك رفيقاً » النساء : ٦٩ ، وقد تقدم في تفسير الآية أن المراد بالصديقين هم الذين سرى الصدق في قولهم وفعلهم فيفعلون ما يقولون ويقولون ما يفعلون ، والشهداء هم شهداء الأعمال يوم القيامة دون الشهداء بمعنى المقتولين في سبيل الله .

فهؤلاء الذين آمنوا بالله ورسله ملحقون بالصديقين والشهداء منزّلون منزلتهم عند الله أي بحكم منه لهم أجرهم ونورهم .

وقوله : « لهم أجرهم ونورهم » ضمير « لهم » للذين آمنوا ، وضمير « أجرهم ونورهم » للصدّيقين والشهداء أي للذين آمنوا أجر من نوع أجر الصديقين والشهداء ونور من نوع نورهم ، وهذا معنى قول من قال : إن المعنى : لهم أجر كأجرهم ونور كنورهم .

وربما قيل : إن الآية مسوقة لبيان أنهم صديقون وشهداء على الحقيقة من غير إلحاق وتنزيل فهم هم لهم أجرهم ونورهم ، ولعل السياق لا يساعد عليه .

وربما قيل : إن قوله:« والشهداء » ليس عطفاً على قوله : « الصديقون » بل استئناف و « الشهداء » مبتدأ خبره « عند الله » وخبره الآخر « لهم أجرهم » فقد قيل : والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون ، وقد تم الكلام ثم استؤنف وقيل : « والشهداء عند ربهم » كما قيل: « بل أحياء عند ربهم » آل عمران:١٦٩ ، والمراد بالشهداء المقتولون في سبيل الله ، ثم تم الكلام بقوله : « لهم أجرهم ونورهم » .

وقوله : « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم » أي لا يفارقونها وهم فيها دائمين .

وقد تعرض سبحانه في الآية لشأن الملحقين بالصديقين والشهداء وهم خيار الناس والناجون قطعاً، والكفار المكذبين لآياته وهم شرار الناس والهالكون قطعاً وبقي فريق بين الفريقين وهم المؤمنون المقترفون للمعاصي والذنوب على طبقاتهم في التمرد على الله ورسوله ، وهذا دأب القرآن في كثير من موارد التعرض لشأن الناس يوم القيامة .

وذلك ليكون بعثاً لقريحتي الخوف والرجاء في ذلك الفريق المتخلل بين الخيار والشرار فيميلوا إلى السعادة ويختاروا النجاة على الهلاك .

ولذلك أعقب الآية بذم الحياة الدنيا التي تعلق بها هؤلاء المتمنعون من الإنفاق في سبيل

الله ثم بدعوتهم إلى المسابقة إلى المغفرة والجنة ثم بالإشارة إلى أن ما يصيبهم من المصيبة في أموالهم وأنفسهم مكتوبة في كتاب سابق وقضاء متقدم فليس ينبغي لهم أن يخافوا الفقر في الإنفاق في سبيل الله ، فيبخلوا ويمسكوا أو يخافوا الموت في الجهـــاد في سبيل الله فيتخلفوا ويقعدوا .

قوله تعالى : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد » الخ ، اللعب عمل منظوم لغرض خيالي كلعب الأطفال ، واللهو ما يشغل الإنسان عما يهمه ، والزينة بناء نوع وربما يراد به ما يتزين به وهي ضم شيء مرغوب فيـه إلى شيء آخر ليرغب فيه بما اكتسب به من الجمال ، والتفاخر المباهاة بالأنساب والأحساب ، والتكاثر في الأموال والأولاد .

والحياة الدنيا عرض زائل وسراب باطل لا يخلو من هذه الخصال الخمس المذكورة : اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر وهي التي يتعلق بها هوى النفس الإنسانية ببعضها أو بجميعها وهي أمور وهمية وأعراض زائلة لا تبقى للانسان وليست ولا واحدة منها تجلب للانسان كمالاً نفسياً ولا خيراً حقيقياً .

وعن شيخنا البهائي رحمه الله أن الخصال الخمس المذكورة في الآية مترتبة بحسب سني عمر الإنسان ومراحل حياته فيتولع أولاً باللعب وهو طفل أو مراهق ثم إذا بلغ واشتدّ عظمه تعلق باللهو والملاهي ثم إذا بلغ أشده اشتغل بالزينة من الملابس الفاخرة والمراكب البهية والمنازل العـــالية وتوله للحسن والجمال ثم إذا اكتهل أخذ بالمفاخرة بالأحساب والأنساب ثم إذا شاب سعى في تكثير المال والولد .

وقوله : « كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً » مثل لزينة الحياة الدنيا التي يتعلق بها الانسان غروراً ثم لا يلبث دون أن يسلبها .

والغيث المطر والكفار جمع كافر بمعنى الحارث ، ويهيج من الهيجان وهو الحركة ، والحطام الهشيم المتكسر من يابس النبات .

والمعنى : أن مثل الحياة الدنيا في بهجتها المعجبة ثم الزوال كمثل مطر أعجب الحراث نباته الحاصل بسببه ثم يتحرك إلى غاية ما يمكنه من النمو فتراه مصفر اللون ثم يكون هشيماً متكسراً - متلاشياً تذروه الرياح - .

وقوله : « وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان » سبق المغفرة على

الرضوان لتطهير المحل ليحل به الرضوان ، وتوصيف المغفرة بكونه من الله دون العذاب لا يخلو من إيماء إلى أن المطلوب بالقصد الأول هو المغفرة وأما العذاب فليس بمطلوب في نفسه وإنما يتسبّب اليه الإنسان بخروجه عن زيّ العبودية كما قيل .

وقوله : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » أي متاعٌ التمتع منه هو الغرور به ، وهذا للتعلق المغرور بها .

والكلام أعني قوله : « وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان » إشارة إلى وجهي الحياة الآخرة ليأخذ السامع حذره فيختار المغفرة والرضوان على العذاب ، ثم في قوله : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » تنبيه وإيقاظ لئلا تغرّه الحياة الدنيا بخاصة غروره .

قوله تعالى : « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض » الخ المسابقة هي المغالبة في السبق للوصول إلى غرض بأن يريد كل من المسابقين جعل حركته أسرع من حركة صاحبه ففي معنى المسابقة ما يزيد على معنى المسارعة فإن المسارعة الجدّ في تسريع الحركة والمسابقة الجدّ في تسريعها بحيث تزيد في السرعة على حركة صاحبه .

وعلى هذا فقوله : « سابقوا إلى مغفرة » الخ ، يتضمن من التكليف ما هو أزيد مما يتضمنه قوله : « سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتقين » آل عمران : ١٣٣ .

ويظهر به عدم استقامة ما قيل : إن آية آل عمران في السابقين المقرّبين والآية التي نحن فيها في عامة المؤمنين حيث لم يذكر فيها إلا الإيمان بالله ورسله بخلاف آية آل عمران فإنها مذيلة بجملة الأعمال الصالحة ، ولذا أيضاً وصف الجنة الموعودة هناك بقوله: «عرضها السماوات والأرض » بخلاف ما ههنا حيث قيل : « عرضها كعرض السماء والأرض » فدلّ على أن جنة اولئك أوسع من جنة هؤلاء .

وجه عدم الاستقامة ما عرفت أن المكلف به في الآية المبحوث عنها معنى فوق ما كلّف به في آية آل عمران . على أن اللام في « السماء » للجنس فتنطبق على « السماوات » في تلك الآية .

وتقديم المغفرة على الجنة في الآية لأن الحياة في الجنة حياة طاهرة في عالم الطهارة فيتوقف التلبس بها على زوال قذارات الذنوب وأوساخها .

والمراد بالعرض السعة دون العرض المقابل للطول وهو معنى شائع ، والكلام كأنه مسوق للدلالة على انتهائها في السعة .

وقيل : المراد بالعرض ما يقابل الطول والاقتصار على ذكر العرض أبلغ من ذكر الطول معه فإن العرض أقصر الامتدادين وإذا كان كعرض السماء والأرض كان طولها أكثر من طولها .

ولا يخلو الوجه من تحكّم إذ لا دليل على مساواة طول السماء والأرض لعرضها ثم على زيادة طول الجنة على عرضها حتى يلزم زيادة طول الجنة على طولها والطول قد يساوي العرض كما في المربّع والدائرة وسطح الكرة وغيرها وقد يزيد عليه .

وقوله : « أعدّت للذين آمنوا بالله ورسله » قد عرفت في ذيل قوله : « آمنوا بالله ورسله» وقوله: « والذين آمنوا بالله ورسله» أن المراد بالإيمان بالله ورسله هو مرتبة عالية من الإيمان تلازم ترتب آثاره عليه من الأعمال الصالحة واجتناب الفسوق والإثم .

وبذلك يظهر أن قول بعضهم : إن في الآية بشارة لعامة المؤمنين حيث قال:« أعدّت للذين آمنوا بالله ورسله » ولم يقيّد الإيمان بشيء من العمل الصالح ونحوه غير سديد فإن خطاب الآية وإن كان بظاهر لفظه يعمّ الكافر والمؤمن الصالح والطالح لكن وجه الكلام إلى المؤمنين يدعوهم إلى الإيمان الذي يصاحب العمل الصالح ، ولو كان المراد بالإيمان بالله ورسله مجرد الإيمان ولو لم يصاحبه عمل صالح وكانت الجنة معدّة لهم والآية تدعو إلى السباق إلى المغفرة والجنة كان خطاب « سابقوا » متوجهاً إلى الكفار فإن المؤمنين قد سبقوا وسياق الآيات يأباه .

وقوله: « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » وقد شاء أن يؤتيه الذين آمنوا بالله ورسله، وقد تقدم بيان أن ما يؤتيه الله من الأجر لعباده المؤمنين فضل منه تعالى من غير أن يستحقوه عليه .

وقوله : « والله ذو الفضل العظيم » إشارة إلى عظمة فضله ، وأن ما يثيبهم به من المغفرة والجنة من عظيم فضله .

قوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها » الخ ، المصيبة الواقعة التي تصيب الشيء مأخوذة من إصابة السهم الغرض وهي بحسب المفهوم أعم من الخير والشر لكن غلب استعمالها في الشر فالمصيبة هي النائبة ،

والمصيبة التي تصيب في الأرض كالجدب وعاهة الثمار والزلزلة المخربة ونحوهـا ، والتي تصيب في الأنفس كالمرض والجرح والكسر والقتل والموت ، والبرء والبروء الخلق من العدم ، وضمير « نبرأها » للمصيبة ، وقيل : للأنفس ، وقيل : للأرض ، وقيل : للجميع من الأرض والأنفس والمصيبة ، ويؤيد الأول أن المقام مقام بيان ما في الدنيا من المصائب الموجبة لنقص الأموال والأنفس التي تدعوهم إلى الإمساك عن الانفـــاق والتخلف عن الجهاد .

والمراد بالكتاب اللوح المكتوب فيه ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة كما تدل عليه الآيات والروايات وإنما اقتصر على ذكر ما يصيب في الأرض وفي أنفسهم من المصائب لكون الكلام فيها .

قيل : إنما قيّد المصيبة بما في الأرض وفي الأنفس لأن مطلق المصائب غير مكتوبة في اللوح لأن اللوح متناه والحوادث غير متناهية ولا يكون المتناهي ظرفاً لغير المتناهي .

والكلام مبني على أن المراد باللوح لوح فلزي أو نحوه منصوب في ناحية من نواحي الجو مكتوب فيه الحوادث بلغة من لغاتنا بخط يشبه خطوطنا ، وقد مر كلام في معنى اللوح والقلم وسيجيء له تتمة .

وقيل : المراد بالكتاب علمه تعالى وهو خلاف الظاهر إلا أن يراد بـه أن الكتاب المكتوب فيه الحوادث من مراتب علمه الفعلي .

وختم الآية بقوله : « إن ذلك على الله يسير » للدلالة على أن تقدير الحوادث قبل وقوعها والقضاء عليها بقضاء لا يتغير لا صعوبة فيه عليه تعالى .

قوله تعالى : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » الخ ، تعليل راجع إلى الآية السابقة وهو تعليل للإخبار عن كتابة الحوادث قبل وقوعها لا لنفس الكتابة ، والأسى الحزن ، والمراد بما فات وما آتى النعمة الفائتة والنعمة المؤتاة .

والمعنى: أخبرناكم بكتابة الحوادث قبل حدوثها وتحققها لئلا تحزنوا بما فاتكم من النعم ولا تفرحوا بما أعطاكم الله منها لأن الانسان إذا أيقن أن الذي أصابه مقدر كائن لا محالة لم يكن ليخطئه وأن ما أوتيه من النعم وديعة عنده إلى أجل مسمى لم يعظم حزنه إذا فاته ولا فرحه إذا أوتيه .

قيل : إن اختلاف الاسناد في قوليه : « ما فاتكم » و « ما آتاكم » حيث أسند الفوت

إلى نفس الأشياء والايتاء إلى الله سبحانه لأن الفوات والعدم ذاتي للأشياء فلو خليت ونفسها لم تبق بخلاف حصولها وبقائها فإنه لا بد من استنادهما إلى الله تعالى .

وقوله : « والله لا يحب كل مختال فخور » المختال من أخذته الخيلاء وهي التكبر عن تخيل فضيلة تراءت له من نفسه – على ما ذكره الراغب – والفخور الكثير الفخر والمباهاة والاختيال والفخر ناشئان عن توهم الانسان أنه يملك ما أوتيه من النعم باستحقاق من نفسه ، وهو مخالف لما هو الحق من استناد ذلك إلى تقدير من الله لا لاستقلال من نفس الانسان فهما من الرذائل والله لا يحبها .

قوله تعالى : « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل » وصف لكل مختال فخور يفيد تعليل عدم حبه تعالى . والوجه في بخلهم الاحتفاظ للمال الذي يعتمد عليه اختيالهم وفخرهم والوجه في أمرهم الناس بالبخل أنهم يحبونه لأنفسهم فيحبونه لغيرهم ، ولأن شيوع السخاء والجود بين الناس وإقبالهم على الانفاق في سبيل الله يوجب أن يعرفوا بالبخل المذموم .

وقوله : « ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد » أي ومن يعرض عن الانفاق ولم يتعظ بعظة الله ولا اطمأن قلبه بما بينه من صفات الدنيا ونعت الجنة وتقدير الامور فإن الله هو الغني فلا حاجة له إلى إنفاقهم ، والمحمود في أفعاله .

والآيات الثلاث أعني قوله : « وما أصاب من مصيبة – إلى قوله – الغني الحميد » كما ترى حث على الإنفاق وردع عن البخل والإمساك بتزهيدهم عن الأسى بما فاتهم والفرح بما آتاهم لأن الامور مقدّرة مقضيّة مكتوبة في كتاب معينة قبل أن يبرأها الله سبحانه .

(بحث روائي)

في الدر المنثور في قوله تعالى : « ألم يأن » الآية ، أخرج ابن المبارك وعبد الرزاق وابن المنذر عن الأعمش قال: لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ المدينة فأصابوا من لين العيش ما أصابوا بعدما كان بهم من الجهد فكأنهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا فنزلت : « ألم يأن للذين آمنوا » .

أقول : هذه أعدل الروايات في نزول السورة وهناك رواية عن ابن مسعود قال : ما

كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » إلا أربع سنين ، وظاهره كون السورة مكية ، وفي معناه ما ورد أن عمر آمن بعد نزول هذه السورة وقد عرفت أن سياق آيات السورة تأبى إلا أن تكون مدنية ، ويمكن حمل رواية ابن مسعود على كون آية « ألم يأن » الخ ، أو هي والتي تتلوها مما نزل بمكة دون باقي آيات السورة .

وفي رواية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم استبطأ الله قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة من نزول القرآن فأنزل الله « ألم يأن » الآية ، ولازمه نزول السورة سنة أربع أو خمس من الهجرة ، وفي رواية اخرى عن ابن عباس قال : إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن فقال : « ألم يأن » الخ ، ولازمه نزول السورة أيام الهجرة ، والروايتان أيضاً لا تلائمان سياق آياتها .

وفيه أخرج ابن جرير عن البراء بن عازب قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : مؤمنوا أمتي شهداء ، ثم تلا النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « والذين آمنوا بالله ورسله اولئك هم الصدّيقون والشهداء عند ربهم » .

وفي تفسير العياشي بإسناده عن منهال القصاب قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : ادع الله أن يرزقني الشهادة فقال : إن المؤمن شهيد وقرأ هذه الآية .

أقول : وفي معناه روايات اخرى وظاهر بعضها كهذه الرواية تفسير الشهادة بالقتل في سبيل الله .

وفي تفسير القمي بإسناده عن حفص بن غياث قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام : جعلت فداك فما حدّ الزهد في الدنيا ؟ فقال : قد حدّه الله في كتابه فقال عز وجل : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » .

وفي نهج البلاغة قال عليه السلام : الزهد كله بين كلمتين من القرآن قال الله تعالى: « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه .

أقول : والأساس الذي يبتنيان عليه عدم تعلق القلب بالدنيا، وفي الحديث المعروف: حبّ الدنيا رأس كل خطيئة .

* * *

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ــ ٢٥ . وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ــ ٢٦ . ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ــ ٢٧ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ــ ٢٨ . لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ــ ٢٩ .

(بيان)

ثم إنه تعالى إثر ما أشار إلى قسوة قلوب المؤمنين وتثاقلهم وفتورهم في امتثال التكاليف الدينية وخاصة في الإنفاق في سبيل الله ، الذي به قوام أمر الجهاد وشبّههم بأهل الكتاب

حيث قست قلوبهم لما طال عليهم الأمد .

ذكر أن الغرض الإلهي من إرسال الرسل وإنزال الكتاب والميزان معهم أن يقوم الناس بالقسط ، وأن يعيشوا في مجتمع عادل ، وقد أنزل الحديد ليمتحن عباده في الدفاع عن مجتمعهم الصالح وبسط كلمة الحق في الأرض مضافاً إلى ما في الحديد من منافع ينتفعون بها.

ثم ذكر أنه أرسل نوحاً وإبراهيم عليهما السلام وجعل في ذريتهما النبوّة والكتاب وأتبعهم بالرسول بعد الرسول فاستمر الأمر في كل من الامم على إيمان بعضهم واهتدائه وكثير منهم فاسقون ، ثم ختم الكلام في السورة بدعوتهم إلى تكميل إيمانهم ليؤتوا كفلين من الرحمة .

قوله تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » الخ ، استئناف يتبين به معنى تشريع الدين بإرسال الرسل وإنزال الكتاب والميزان وأن الغرض من ذلك قيام الناس بالقسط وامتحانهم بذلك وبإنزال الحديد ليتميز من ينصر الله بالغيب ويتبين أن أمر الرسالة لم يزل مستمراً بين الناس ولم يزالوا يهتدي من كل أمة بعضهم وكثير منهم فاسقون .

فقوله: « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات » أي بالآيات البينات التي يتبين بها أنهم مرسلون من جانب الله سبحانه من المعجزات الباهرة والبشارات الواضحة والحجج القاطعة .

وقوله : « وأنزلنا معهم الكتاب » وهو الوحي الذي يصلح أن يكتب فيصير كتاباً ، المشتمل على معارف الدين من اعتقاد وعمل وهو خمسة : كتاب نوح وكتاب إبراهيم والتوراة والإنجيل والقرآن .

وقوله : « والميزان ليقوم الناس بالقسط » فسّروا الميزان بذي الكفتين الذي يوزن به الأثقال ، وأخذوا قوله : « ليقوم الناس بالقسط » غاية متعلقة بإنزال الميزان والمعنى : وأنزلنا الميزان ليقوم الناس بالعدل في معاملاتهم فلا يخسروا باختلال الأوزان والنسب بين الأشياء فقوام حياة الإنسان بالاجتماع ، وقوام الاجتماع بالمعاملات الدائرة بينهم والمبادلات في الأمتعة والسلع ، وقوام المعاملات في ذوات الأوزان بحفظ النسب بينها وهو شأن الميزان.

ولا يبعد – والله أعلم – أن يراد بالميزان الدين فإن الدين هو الذي يوزن به عقائد أشخاص الإنسان وأعمالهم ، وهو الذي به قوام حياة الناس السعيدة مجتمعين ومنفردين ، وهذا المعنى أكثر ملاءمة للسياق المتعرض لحال الناس من حيث خشوعهم وقسوة قلوبهم

وجدهم ومساهلتهم في أمر الدين . وقيل : المراد بالميزان هنا العدل وقيل : العقل .

وقوله : « وأنزلنا الحديد » الظاهر أنه كقوله تعالى : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » الزمر : ٦ ، وقد تقدم في تفسير الآية أن تسمية الخلق في الأرض إنزالاً إنما هو باعتبار أنه تعالى يسمي ظهور الأشياء في الكون بعد ما لم يكن إنزالاً لها من خزائنه التي عنده ومن الغيب إلى الشهادة قال تعالى : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ .

وقوله : « فيه بأس شديد ومنافع للناس » البأس هو الشدة في التأثير ويغلب استعماله في الشدة في الدفاع والقتال ، ولا تزال الحروب والمقاتلات وأنواع الدفاع ذات حاجة شديدة إلى الحديد وأقسام الأسلحة المعمولة منه منذ تنبه البشر له واستخرجه .

وأما ما فيه من المنافع للناس فلا يحتاج إلى البيان فله دخل في جميع شعب الحياة وما يرتبط بها من الصنائع .

وقوله : « وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » غاية معطوفة على محذوف والتقدير وأنزلنا الحديد لكذا وليعلم الله من ينصره الخ ، والمراد بنصره ورسله الجهاد في سبيله دفاعاً عن مجتمع الدين وبسطاً لكلمة الحق ، وكون النصر بالغيب كونه في حال غيبته منهم أو غيبتهم منه ، والمراد بعلمه بمن ينصره ورسله تميزهم ممن لا ينصر .

وختم الآية بقوله : « إن الله قوي عزيز » وكأن وجه الإشارة إلى أن أمره تعالى لهم بالجهاد إنما هو ليتميز الممتثل منهم من غيره لا لحاجة منه تعالى إلى ناصر ينصره إنه تعالى قوي لا سبيل للضعف اليه عزيز لا سبيل للذلة اليه .

قوله تعالى : « ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون » شروع في الإشارة إلى أن الإهتداء والفسق جاريان في الامم الماضية حتى اليوم فلم تصلح أمة من الامم بعامة أفرادها بل لم يزل كثير منهم فاسقين .

وضمير « فمنهم » و « منهم » للذرية والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل » في المجمع : التقفية جعل الشيء في إثر شيء على الاستمرار فيه ، ولهذا قيل لمقاطع الشعر قواف إذ كانت تتبع البيت على أثره مستمرة في غيره على منهاجه . انتهى .

وضمير « على آثارهم » لنوح وإبراهيم والسابقين من ذريتهما ، والدليل عليه أنه لا نبي

بعد نوح إلا من ذريته لأن النسل بعده له . على أن عيسى من ذرية إبراهيم قال تعالى في نوح : « وجعلنا ذريته هم الباقين » الصافات : ٧٧ ، وقال : « ومن ذريته داود وسليمان – إلى أن قال – وعيسى » الأنعام : ٨٥ ، فالمراد بقوله : « ثم قفينا على آثارهم برسلنا » الخ ، التقفية باللاحقين من ذريتهما على آثارهما والسابقين من ذريتهما .

وفي قوله : « على آثارهم » إشارة إلى أن الطريق المسلوك واحد يتبع فيه بعضهم أثر بعض .

وقوله : « وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الانجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة » الرأفة والرحمة – على ما قالوا – مترادفان ، ونقل عن بعضهم أن الرأفة يقال في درء الشر والرحمة في جلب الخير .

والظاهر أن المراد بجعل الرأفة والرحمة في قلوب الذين اتبعوه توفيقهم للرأفة والرحمة فيما بينهم فكانوا يعيشون على المعاضدة والمسالمة كما وصف الله سبحانه الذين مع النبي ﷺ بالرحمة إذ قال : « رحماء بينهم » الفتح : ٢٩ ، وقيل : المراد بجعل الرأفة والرحمة في قلوبهم الأمر بهما والترغيب فيهما ووعد الثواب عليهما .

وقوله : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » الرهبانية من الرهبة وهي الخشية ، ويطلق عرفاً على انقطاع الانسان من الناس لعبادة الله خشية منه ، والابتداع إتيان ما لم يسبق اليه في دين أو سنة أو صنعة ، وقوله : « ما كتبناها عليهم » في معنى الجواب عن سؤال مقدر كأنه قيل : ما معنى ابتداعهم لها ؟ فقيل : ما كتبناها عليهم .

والمعنى : أنهم ابتدعوا من عند أنفسهم رهبانية من غير أن نشرعه نحن لهم .

وقوله : « إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها » استثناء منقطع معناه ما فرضناها عليهم لكنهم وضعوها من عند أنفسهم ابتغاء لرضوان الله وطلباً لمرضاته فما حافظوا عليها حق محافظتها بتعديهم حدودها .

وفيه إشارة إلى أنها كانت مرضية عنده تعالى وإن لم يشرعها بل كانوا هم المبتدعين لها.

وقوله : « فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون » إشارة إلى أنهم كالسابقين من أمم الرسل منهم مؤمنون مأجورون على إيمانهم وكثير منهم فاسقون ، والغلبة للفسق .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته »

الخ ، أمر الذين آمنوا بالتقوى والإيمان بالرسول مع أن الذين استجابوا الدعوة فآمنوا بالله آمنوا برسوله أيضاً دليل على أن المراد بالإيمان بالرسول الاتباع التام والطاعة الكاملة لرسوله فيما يأمر به وينهى عنه سواء كان ما يأمر به أو ينهى عنه حكماً من الأحكام الشرعية أو صادراً عنه بماله من ولاية أمور الامة كما قال تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما » النساء : ٦٥ .

فهذا إيمان بعد إيمان ومرتبة فوق مرتبة الإيمان الذي ربما يتخلف عنه أثره فلا يترتب عليه لضعفه ، وبهذا يناسب قوله : « يؤتكم كفلين من رحمته » والكفل الحظ والنصيب فله ثواب على ثواب كما أنه إيمان على إيمان .

وقيل : المراد بإيتاء كفلين من الرحمة إيتاؤهم أجرين كمؤمني أهل الكتاب كأنه قيل: يؤتكم مـــا وعد من آمن من أهل الكتاب من الأجرين لأنكم مثلهم في الايمان بالرسل المتقدمين وبخاتمهم عليهم السلام لا تفرقون بين أحد من رسله .

وقوله : « ويجعل لكم نوراً تمشون به » قيل : يعني يوم القيامة وهو النور الذي أشير اليه بقوله : « يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » .

وفيه أنه تقييد من غير دليل بل لهم نورهم في الدنيا وهو المدلول عليه بقوله تعالى : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منهـا الأنعام : ١٢٢ ، ونورهم في الآخرة وهو المدلول عليه بقوله : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » الآية ١٢ من السورة وغيره .

ثم كمّل تعالى وعده بإيتائهم كفلين من رحمته وجعل نور يمشون به بالمغفرة فقال : « ويغفر لكم والله غفور رحيم » .

قوله تعالى : «لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شيء من فضل الله» ظاهر السياق أن في الآية التفاتاً من خطاب المؤمنين إلى خطاب النبي ﷺ ، والمراد بالعلم مطلق الاعتقاد كالزعم ، و « أن » مخففة من الثقيلة ، وضمير « يقدرون » للمؤمنين ، وفي الكلام تعليل لمضمون الآية السابقة .

والمعنى : إنما أمرناهم بالايمان بعد الايمان ووعدناهم كفلين من الرحمـة وجعل النور والمغفرة لئلا يعتقد أهل الكتاب أن المؤمنين لا يقدرون على شيء من فضل الله بخلاف المؤمنين من أهل الكتاب حيث يؤتون أجرهم مرتين أن آمنوا .

وقيل : إن « لا » في « لئلا يعلم » زائدة وضمير « يقدرون » لأهل الكتاب، والمعنى : إنما وعدنا المؤمنين بما وعدنا لأن يعلم أهل الكتاب القائلون : إن من آمن منا بكتابكم فله أجران ومن لم يؤمن فله أجر واحد لإيمانه بكتابنا، أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله إن لم يؤمنوا ، هذا ولا يخفى عليك ما فيه من التكلف .

وقوله : « وأن الفضل بيد الله والله ذو الفضل العظيم » معطوف على « أن لا يعلم » ، والمعنى : إنما وعدنا بما وعدنا لأن كذا كذا ولأن الفضل بيد الله والله ذو الفضل العظيم .

وفي الآية أقوال واحتمالات أخر لا جدوى في إيرادها والبحث عنها .

(بحث روائي)

عن جوامع الجامع روي أن جبرئيل نزل بالميزان فدفعه إلى نوح عليه‌السلام وقال : مُرْ قومك يزنوا به .

وفي الاحتجاج عن علي عليه‌السلام في حديث وقال : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد » فإنزاله ذلك خلقه إياه .

وفي المجمع عن ابن مسعود قال: كنت رديف رسول الله على الحمار فقال : يا ابن أم عبد هل تدري من أين أحدثت بنو إسرائيل الرهبانية ؟ فقلت : الله ورسوله أعلم . فقال : ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى عليه‌السلام يعملون بمعاصي الله فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبق منهم إلا القليل .

فقالوا : إن ظهرنا لهؤلاء أفنونا ولم يبق للدين أحد يدعو اليه فتعالوا نتفرق في الأرض إلى أن يبعث الله النبي الذي وعدنا به عيسى يعنون محمداً صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فتفرّقوا في غيران [1] الجبال وأحدثوا رهبانية فمنهم من تمسّك بدينه ، ومنهم من كفر . ثم تلا هذه الآية « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » إلى آخرها .

ثم قال : يا ابن أم عبد أتدري ما رهبانية أمتي ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : الهجرة والجهاد والصلاة والصوم والحج والعمرة .

وفي الكافي بإسناده عن أبي الجارود قال : قلت لأبي جعفر عليه‌السلام : لقد آتى الله

---

(١) جمع غار .

أهل الكتاب خيراً كثيراً . قال : وما ذاك ؟ قلت : قول الله عز وجل : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون — إلى قوله — اولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » قال: فقال : آتاكم الله كما آتاهم ثم تلا: « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به » يعني إماماً تأتمون به .

وفي المجمع عن سعيد بن جبير بعث رسول الله ﷺ جعفراً في سبعين راكباً إلى النجاشي يدعوه فقدم عليه ودعاه فاستجاب له وآمن به فلما كان عند انصرافه قال ناس ممن آمن به من أهل مملكته وهم أربعون رجلاً : ائذن لنا فنأتي هذا النبي فنسلم به .

فقدموا مع جعفر فلما رأوا ما بالمسلمين من الخصاصة استأذنوا رسول الله ﷺ وقالوا: يا نبي الله إن لنا أموالاً ونحن نرى ما بالمسلمين من الخصاصة فإن أذنت لنا انصرفنا فجئنا بأموالنا فواسينا المسلمين بها فأذن لهم فانصرفوا فأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين فأنزل الله فيهم : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون — إلى قوله — ومما رزقناهم ينفقون » فكانت النفقة التي واسوا بها المسلمين .

فلما سمع أهل الكتاب ممن لم يؤمن به قوله: « اولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » فخروا على المسلمين فقالوا : يا معشر المسلمين أما من آمن منا بكتابنا وكتابكم فله أجران، ومن آمن منا بكتابنا فله أجر كأجوركم فما فضلكم علينا ؟ فنزل قوله: « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله » الآية ، فجعل لهم أجرين وزادهم النور والمغفرة ثم قال : « لئلا يعلم أهل الكتاب » .

* * *

(سورة المجادلة مدنية ، وهي اثنتان وعشرون آية)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ — ١ . أَلَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا

اللائي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ـ ٢ . وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ـ ٣ . فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ـ ٤ . إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ـ ٥ . يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ـ ٦ .

(بيان)

تتعرض السورة لمعان متنوعة من حكم وأدب وصفة فشطر منها في حكم الظهار والنجوى وأدب الجلوس في المجالس وشطر منها يصف حال الذين يحادّون الله ورسوله ، والذين يوادّون أعداء الدين ويصف الذين يتحرّزون من موادّتهم من المؤمنين ويعدهم وعداً جميلاً في الدنيا والآخرة .

والسورة مدنية بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما » الخ ، قال في المجمع : الاشتكاء إظهار ما بالإنسان من مكروه ، والشكاية إظهار ما يصنعه به غيره من المكروه . قال : والتحاور التراجع وهي المحاورة يقال : حاوره محاورة أي راجعه الكلام وتحاورا . انتهى .

الآيات الأربع أو الست نزلت في الظهار وكان من أقسام الطلاق عند العرب الجاهلي كان الرجل يقول لامرأته : أنت مني كظهر أمي فتنفصل عنه وتحرم عليه مؤبدة وقد ظاهر بعض الأنصار من امرأته ثم ندم عليه فجاءت امرأته إلى رسول الله ﷺ تسائله فيه لعلها تجد طريقاً إلى رجوعه اليها وتجادله ﷺ في ذلك وتشتكي إلى الله فنزلت الآيات.

والمراد بالسمع في قوله : « قد سمع الله » استجابة الدعوة وقضاء الحاجة من باب الكناية وهو شائع ، والدليل عليه قوله : « تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله » الظاهر في أنها كانت تتوخى طريقاً إلى أن لا تنفصل عن زوجها ، وأما قوله : « والله يسمع تحاوركما » فالسمع فيه بمعناه المعروف .

والمعنى: قد استجاب الله للمرأة التي تجادلك في زوجها - وقد ظاهر منها - وتشتكي غمّها وما حلّ بها من سوء الحال إلى الله والله يسمع تراجعكما في الكلام إن الله سميع للأصوات بصير بالمبصرات .

قوله تعالى : «الذين يظاهرون من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم» الخ ، نفي لحكم الظهار المعروف عندهم وإلغاء لتأثيره بالطلاق والتحريم الأبدي بنفي أمومة الزوجة للزوج بالظهار فإن سنة الجاهلية كانت تلحق الزوجة بالام بسبب الظهار فتحرم على زوجها حرمة الام على ولدها حرمة مؤبدة .

فقوله : « ما هن أمهاتهم » أي بحسب اعتبار الشرع بأن يلحقن شرعاً بهن بسبب الظهار فيحرمن عليهم أبداً ثم أكده بقوله : « إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم » أي ليس أمهات أزواجهن إلا النساء اللاتي ولدنهم .

ثم أكد ذلك ثانياً بقوله : « وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً » بما فيه من سياق التأكيد أي وإن هؤلاء الأزواج المظاهرين ليقولون بالظهار منكراً من القول ينكره الشرع حيث لم يعتبره ولم يسنه ، وكذبا باعتبار أنه لا يوافق الشرع كما لا يطابق الخارج الواقع في الكون فأفادت الآية أن الظهار لا يفيد طلاقاً وهذا لا ينافي وجوب الكفارة عليه لو أراد المواقعة بعد الظهار فالزوجية على حالها وإن حرمت المواقعة قبل الكفارة .

وقوله : « وإن الله لعفوّ غفور » لا يخلو من دلالة على كونه ذنباً مغفوراً لكن ذكر الكفارة في الآية التالية مع تذييلها بقوله : « وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم » ربما دل على أن المغفرة مشروطة بالكفارة .

قوله تعالى : « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا » الخ ، الكلام في معنى الشرط ولذلك دخلت الفاء في الخبر لأنه في معنى الجزاء والمحصل : أن الذين ظاهروا منهن ثم أرادوا العود لما قالوا فعليهم تحرير رقبة .

وفي قوله : « من قبل أن يتماسا » دلالة على أن الحكم في الآية لمن ظاهر ثم أراد الرجوع إلى ما كان عليه قبل الظهار وهو قرينة على أن المراد بقوله : « يعودون لما قالوا » إرادة العود إلى نقض ما أبرموه بالظهار .

والمعنى : والذين يظاهرون من نسائهم ثم يريدون أن يعودوا إلى ما تكلموا به من كلمة الظهار فينقضوها بالمواقعة فعليهم تحرير رقبة من قبل أن يتماسا .

وقيل : المراد بعودهم لما قالوا ندمهم على الظهار، وفيه أن الندم عليه يصلح أن يكون محصل المعنى لا أن يكون معنى الكلمة « يعودون لما قالوا » .

وقيل : المراد بعودهم لما قالوا رجوعهم إلى ما تلفظوا به من كلمة الظهار بأن يتلفظوا بها ثانياً وفيه أن لازمه ترتب الكفارة دائماً على الظهار الثاني دون الأول والآية لا تفيد ذلك والسنة إنما اعتبرت تحقق الظهار دون تعدده .

ثم ذيل الآية بقوله : « ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير » إيذاناً بأن ما أمر به من الكفارة توصية منه بها عن خبرة بعملهم ذاك ، فالكفارة هي التي ترتفع بها ما لحقهم من تبعة العمل .

قوله تعالى : « فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا » إلى آخر الآية خصلة ثانية من الكفارة مترتبة على الخصلة الاولى لمن لا يتمكن منها وهي صيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، وقيد ثانياً بقوله : « من قبل أن يتماسا » لدفع توهم اختصاص القيد بالخصلة الاولى .

وقوله : « فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً » بيان للخصلة الثالثة فمن لم يطق صيام شهرين متتابعين فعليه إطعام ستين مسكيناً وتفصيل الكلام في ذلك كله في الفقه .

وقوله : « ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله » أي ما جعلناه من الحكم وافترضناه من الكفارة فأبقينا علقة الزوجية ووضعنا الكفارة لمن أراد أن يرجع إلى المواقعة جزاء بما أتى بسنة من سنن الجاهلية كل ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وترفضوا أباطيل السنن .

وقوله : « وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم » حد الشيء ما ينتهي اليه ولا

متعداه وأصله المنع ، والمراد أن ما افترضناه من الخصال أو ما نضعها من الأحكام حدود الله فلا تتعدوها بالمخالفة وللكافرين بما حكمنا به في الظهار أو بما شرعناه من الأحكام بالمخالفة والمحادة عذاب أليم .

والظاهر أن المراد بالكفر رد الحكم والأخذ بالظهار بما أنه سنة مؤثرة مقبولة ، ويؤيده قوله : « ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله » أي تذعنوا بأن حكم الله حق وأن رسوله صادق أمين في تبليغه ، وقد أكده بقوله : « وتلك حدود الله » الخ ، ويمكن أن يكون المراد بالكفر الكفر في مقام العمل وهو العصيان .

قوله تعالى : « إن الذين يحادّون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم » الخ ، المحادّة الممانعة والمخالفة ، والكبت الإذلال والإخزاء .

والآية والتي تتلوهـا وإن أمكن أن تكونا استئنافاً يبين أمر محادّة الله ورسوله من حيث تبعتها وأثرها لكن ظاهر السياق أن تكونا مسوقتين لتعليل ذيل الآية السابقة الذي معناه النهي عن محادّة الله ورسوله ، والمعنى : إنمـا أمرناكم بالإيمان بالله ورسوله ونهيناكم عن تعدّي حدود الله والكفر بها لأن الذين يحادّون الله ورسوله بالمخالفة أذلّوا وأخزوا كما أذلّ وأخزي الذين من قبلهم .

ثم أكده بقوله : « وقد بيّنـا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين » أي لا ريب في كونها منا وفي أن رسولنا صادق أمين في تبليغها ، وللكافرين بها الرادّين لهـا عذاب مهين مخز .

قوله تعالى : « يوم يبعثهم الله فينبئهم بمـا عملوا » ظرف لقوله : « وللكافرين عذاب أليم » أي لهم أليم العذاب في يوم يبعثهم الله وهو يوم الحساب والجزاء فيخبرهم بحقيقة جميع ما عملوا في الدنيا .

وقوله : « أحصاه الله ونسوه » الإحصاء الإحاطة بعدد الشيء من غير أن يفوت منه شيء ، قال الراغب : الإحصاء التحصيل بالعدد يقال : أحصيت كذا ، وذلك من لفظ الحصا ، واستعمال ذلك فيه من حيث إنهم كانوا يعتمدونه في العـدّ كاعتمادنا فيه على الأصابع . انتهى .

وقوله : « إن الله على كل شيء شهيد » تعليل لقوله : « أحصاه الله » وقـد مرّ تفسير شهادة الله على كل شيء في آخر سورة حم السجدة .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن ماجة وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن عائشة قالت: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليّ بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول : يا رسول الله أكل شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني اللهم إني أشكو اليك فما برحت حتى نزل جبرئيل بهذه الآيات « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها » وهو أوس ابن الصامت .

أقول : والروايات من طرق أهل السنة في هذا المعنى كثيرة جداً ، واختلفت في اسم المرأة واسم أبيها واسم زوجها واسم أبيه والأعرف أن اسمها خولة بنت ثعلبة واسم زوجها أوس بن الصامت الأنصاري وأورد القمي إجمال القصة في رواية ، وله رواية أخرى ستوافيك .

وفي المجمع في قوله تعالى : « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا » فأما ما ذهب اليه أئمة الهدى من آل محمد عليهم السلام فهو أن المراد بالعود إرادة الوطء ونقض القول الذي قاله فإن الوطء لا يجوز له إلا بعد الكفارة ، ولا يبطل حكم قوله الأول إلا بعد الكفّارة .

وفي تفسير القمي حدّثنا علي بن الحسين قال : حدثنا محمد بن أبي عبد الله عن الحسن بن محبوب عن أبي ولاّد عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام قال : إن امرأة من المسلمات أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله إن فلاناً زوجي وقد نثرت له بطني وأعنته على دنياه وآخرته لم ير مني مكروهاً أشكوه اليك. قال : فيم تشكونيه ؟ قالت : إنه قال : أنت عليّ حرام كظهر أمي وقد أخرجني من منزلي فانظر في أمري . فقال لها رسول الله ﷺ : ما أنزل الله تبارك وتعالى كتاباً أقضي فيه بينك وبين زوجك وأنا أكره أن أكون من المتكلفين ، فجعلت تبكي وتشتكي ما بها إلى الله عز وجل وإلى رسول الله ﷺ وانصرفت .

قال : فسمع الله تبارك وتعالى مجادلتها لرسول الله ﷺ في زوجها وما شكت اليه ، وأنزل الله في ذلك قرآناً « بسم الله الرحمن الرحيم ، قد سمع الله قول التي تجادلك في

زوجها – إلى قوله – وإن الله لعفوٌ غفور ».

قال : فبعث رسول الله ﷺ إلى المرأة فأتته فقال لها : جيئني بزوجك ، فأتته فقال له : أقلت لامرأتك هذه : أنت حرام عليّ كظهر امي ؟ فقال : قد قلت لها ذلك . فقال له رسول الله ﷺ : قد أنزل الله تبارك وتعالى فيك وفي امرأتك قرآناً وقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم قد سمع الله قول التي تجادلك – إلى قوله – إن الله لعفوٌ غفور » ، فضمّ اليك امرأتك فإنك قد قلت منكراً من القول وزوراً ، وقد عفى الله عنك وغفر لك ولا تعُدْ .

قال : فانصرف الرجل وهو نادم على ما قال لامرأته ، وكره الله عز وجل ذلك للمؤمنين بعد وأنزل الله : « الذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا » يعني لما قال الرجل لامرأته : أنت عليّ كظهر امي .

قال : فمن قالها بعد ما عفى الله وغفر للرجل الأول فإن عليه « تحرير رقبة من قبل أن يتماسّا » يعني مجامعتها « ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسّا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً » قال : فجعل الله عقوبة من ظاهر بعد النهي هذا . ثم قال: « ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله » قال: هذا حدّ الظهار . الحديث .

أقول : الآية بما لها من السياق وخاصة ما في آخرها من ذكر العفو والمغفرة أقرب انطباقاً على ما سبق من القصة في هذه الرواية ، ولا بأس بها من حيث السند أيضاً غير أنها لا تلائم ظاهر ما في الآية من قوله : « الذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا ».

* * *

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ — ٧ . أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا

عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ
وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ
فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ
الْمَصِيرُ – ٨ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ
الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ – ٩ . إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ
آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ – ١٠ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي
الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ
اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ – ١١ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ
يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ – ١٢ . ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ
فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَآتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا
اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ – ١٣ .

(بيان)

آيات في النجوى وبعض آداب المجالسة .

قوله تعالى : « ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض » الإستفهام إنكاري، والمراد بالرؤية العلم اليقيني على سبيل الاستعارة، والجملة تقدمة يعلل بها ما يتلوها من كونه تعالى مع أهل النجوى مشاركاً لهم في نجواهم .

قوله تعالى : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم » إلى آخر الآية النجوى مصدر بمعنى التناجي وهو المسارة ، وضمائر الإفراد لله سبحانه ، والمراد بقوله : « رابعهم » و « سادسهم » جاعل الثلاثة أربعة وجاعل الخمسة ستة بمشاركته لهم في العلم بما يتناجون فيه ومعيته لهم في الإطلاع على ما يسارون فيه كما يشهد به ما احتفّ بالكلام من قوله في أول الآية : « ألم تر أن الله يعلم » الخ ، وفي آخرها من قوله : « إن الله بكل شيء عليم » .

وقوله : « ولا أدنى من ذلك ولا أكثر » أي ولا أقل مما ذكر من العدد ولا أكثر مما ذكر ، وبهاتين الكلمتين يشمل الكلام عدد أهل النجوى أياً ما كان أما الأدنى من ذلك فالأدنى من الثلاثة الإثنان والأدنى من الخمسة الأربعة ، وأما الأكثر فالأكثر من خمسة الستة فما فوقها .

ومن لطف سياق الآية ترتب ما أشير اليه من مراتب العدد : الثلاثة والأربعة والخمسة والستة من غير تكرار فلم يقل : من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا أربعة إلا هو خامسهم وهكذا .

وقوله : « إلا هو معهم أينما كانوا » المراد به المعية من حيث العلم بما يتناجون به والمشاركة لهم فيه .

وبذلك يظهر أن المراد بكونه تعالى رابع الثلاثة المتناجين وسادس الخمسة المتناجين معيته لهم في العلم ومشاركته لهم في الاطلاع على ما يسارون لا مماثلته لهم في تتميم العدد فإن كلا منهم شخص واحد جسماني يكون بانضمامه إلى مثله عدد الإثنين وإلى مثليه الثلاثة والله سبحانه منزه عن الجسمية بريء من المادية .

وذلك أن مقتضى السياق أن المستثنى من قوله : « ما يكون من نجوى » الخ ، معنى

واحد وهو أن الله لا يخفى عليه نجوى فقوله : « إلا هو رابعهم » « إلا هو سادسهم » في معنى قوله : « إلا هو معهم » وهو المعية العلمية أي أنه يشاركهم في العلم ويقارنهم فيه أو المعية الوجودية بمعنى أنه كلما فرض قوم يتناجون فالله سبحانه هناك سميع عليم .

وفي قوله :« أينما كانوا » تعميم من حيث المكان إذ لما كانت معيته تعالى لهم من حيث العلم لا بالاقتران الجسماني لم يتفاوت الحال ولم يختلف باختلاف الأمكنة بالقرب والبعد فالله سبحانه لا يخلو منه مكان وليس في مكان .

وبما تقدم يظهر أيضاً أن ـ ما تفيده الآية من معيته تعالى لأصحاب النجوى وكونه رابع الثلاثة منهم وسادس الخمسة منهم لا ينافي ما تقدم تفصيلاً في ذيل قوله تعالى : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة » المائدة : ٧٣ ، من أن وحدته تعالى ليست وحدة عددية بل وحدة أحدية يستحيل معها فرض غير معه يكون ثانياً له فالمراد بكونه معهم ورابعاً للثلاثة منهم وسادساً للخمسة منهم أنه عالم بما يتناجون به وظاهر مكشوف له ما يخفونه من غيرهم لا أن له وجوداً محدوداً يقبل العد يمكن أن يفرض له ثان وثالث وهكذا .

وقوله : « ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة » أي يخبرهم بحقيقة ما عملوا من عمل ومنه نجواهم ومسارتهم .

وقوله : « إن الله بكل شيء عليم » تعليل لقوله : « ثم ينبئهم » الخ ، وتأكيد لما تقدم من علمه بما في السماوات وما في الأرض ، وكونه مع أصحاب النجوى .

والآية تصلح أن تكون توطئة وتمهيداً لمضمون الآيات التالية ولا يخلو ذيلها من لحن شديد يرتبط بما في الآيات التالية من الذم والتهديد .

قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه » إلى آخر الآية سياق الآيات يدل على أن قوماً من المنافقين والذين في قلوبهم مرض من المؤمنين كانوا قد أشاعوا بينهم النجوى محادة للنبي ﷺ والمؤمنين يتناجون بينهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وليؤذوا بذلك المؤمنين ويحزنون وكانوا يصرون على ذلك من غير أن ينتهوا بنهي فنزلت الآيات .

فقوله : « ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه » ذم وتوبيخ غيابي لهم ، وقد خاطب النبي ﷺ ولم يخاطبهم أنفسهم مبالغة في تحقير أمرهم وإبعاداً لهم

عن شرف المخاطبة .

والمعنى : ألم تنظر إلى الذين نهوا عن التناجي بينهم بما يغمُّ المؤمنين ويحزنهم ثم يعودون إلى التناجي الذي نهوا عنه عودة بعد عودة ، وفي التعبير بقوله : « يعودون » دلالة على الاستمرار ، وفي العدول عن ضمير النجوى إلى الموصول والصلة حيث قيل : « يعودون لما نهوا عنه » ولم يقل « يعودون اليها دلالة على سبب الذم والتوبيخ ومساءة العود لأنها أمر منهي عنه .

وقوله : « يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول » المقابلة بين الامور الثلاثة : الإثم والعدوان ومعصية الرسول تفيد أن المراد بالإثم هو العمل الذي له أثر سيىء لا يتعدى نفس عامله كشرب الخمر والميسر وترك الصلاة مما يتعلق من المعاصي بحقوق الله ، والعدوان هو العمل الذي فيه تجاوز إلى الغير مما يتضرر به الناس ويتأذون مما يتعلق من المعاصي بحقوق الناس ، والقسمان أعني الإثم والعدوان جميعاً من معصية الله ، ومعصية الرسول مخالفته في الامور التي هي جائزة في نفسها لا أمر ولا نهي من الله فيها لكن الرسول أمر بها أو نهى عنها لمصلحة الامة بماله ولاية أمورهم والنبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم كما نهاهم عن النجوى وإن لم يشتمل على معصية .

كان ما تقدم من قوله : « الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه » ذماً وتوبيخاً لهم على نفس نجواهم بما أنها منهي عنها مع الغض عن كونها بمعصية أو غيرها : وهذا الفصل أعني قوله : « ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول » ذم وتوبيخ لهم بما يشتمل عليه تناجيهم من المعصية بأنواعها وهؤلاء القوم هم المنافقون ومرضى القلوب كانوا يكثرون من النجوى بينهم ليغتمَّ بها المؤمنون ويحزنوا ويتأذوا .

وقيل : المنافقون واليهود كان يناجي بعضهم بعضاً ليحزنوا المؤمنين ويلقوا بينهم الوحشة والفزع ويوهنوا عزمهم لكن في شمول قوله : « الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه » لليهود خفاء .

وقوله : « وإذا جاؤك حيّوك بما لم يحيك به الله » فإن الله حيّاه بالتسليم وشرع له ذلك تحية من عند الله مباركة طيبة وهم كانوا يحيونه بغيره . قالوا : هؤلاء هم اليهود كانوا إذا أتوا النبي ﷺ قالوا : السام عليك — والسام هو الموت — وهم يوهمون أنهم يقولون : السلام عليك ، ولا يخلو من شيء فإن الضمير في « جاؤك » و « حيوك » للموصول

في قوله : « الذين نهوا عن النجوى » وقد عرفت أن في شموله لليهود خفاء .

وقوله : « ويقولون في أنفسهم لو لا يعذبنا الله بما نقول » معطوف على « حيوك » أو حال وظاهره أن ذلك منهم من حديث النفس مضمرين ذلك في قلوبهم ، وهو لمحضيض بداعي الطعن والتهكم فيكون من المنافقين إنكاراً لرسالة النبي ﷺ على طريق الكناية والمعنى : أنهم يحيونك بما لم يحيّك به الله وهم يحدثون أنفسهم بدلالة قولهم ذلك - ولولا يعذبهم الله به - على أنك لست برسول من الله ولو كنت رسوله لعذبهم بقولهم .

وقيل : المراد بقوله : « ويقولون في أنفسهم » يقولون فيما بينهم بتحديث بعض منهم لبعض ولا يخلو من بعد .

وقد ردّ الله عليهم احتجاجهم بقولهم : « لولا يعذبنا الله بما نقول » بقوله : « حسبهم جهنم يصلونها وبئس المصير » أي إنهم مخطئون في نفيهم العذاب فهم معذبون بما أعدّ لهم من العذاب وهو جهنم التي يدخلونها ويقاسون حرّها وكفى بها عذاباً لهم .

وكأن المنافقين ومن يلحق بهم لما لم ينتهوا بهذه المناهي والتشديدات نزل قوله تعالى : « لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينّك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ، ملعونين أين ما ثقفوا أخذوا وقتّلوا تقتيلاً » الآيات الأحزاب : ٦١ .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول» الخ ، لا يخلو سياق الآيات من دلالة على أن الآية نزلت في رفع الحظر وقد خوطب فيها المؤمنون فاجيز لهم النجوى واشترط عليهم أن لا يكون تناجياً بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وأن يكون تناجياً بالبر والتقوى والبر وهو التوسع في فعل الخير يقابل العدوان ، والتقوى مقابل الإثم ثم أكد الكلام بالأمر بمطلق التقوى بإنذارهم بالحشر بقوله : « واتقوا الله الذي اليه تحشرون » .

قوله تعالى : « إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارّهم شيئاً إلا بإذن الله » الخ ، المراد بالنجوى - على ما يفيده السياق - هو النجوى الدائرة في تلك الأيام بين المنافقين ومرضى القلوب وهي من الشيطان فإنه الذي يزيّنها في قلوبهم ليتوسل بها إلى حزنهم ويشوّش قلوبهم ليوهمهم أنها في نائبة حلّت بهم وبليّة أصابتهم .

ثم طيّب الله سبحانه قلوب المؤمنين بتذكيرهم أن الأمر إلى الله سبحانه وأن الشيطان

أو التناجي لا يضرُّهم شيئاً إلا بإذن الله فليتوكلوا عليه ولا يخافوا ضرَّه وقد نصَّ سبحانه في قوله: « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » الطلاق:٣ أنه يكفي من توكل عليه، واستنهضهم على التوكل بأنه من لوازم إيمان المؤمن فإن يكونوا مؤمنين فليتوكلوا عليه فهو يكفيهم . وهذا معنى قوله : « وليس بضارِّهم شيئاً إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسَّحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم » الخ ، التفسُّح الاتساع وكذا الفسح ، والمجالس جمع مجلس اسم مكان ، والاتساع في المجلس أن يتسع الجالس ليسع المكان غيره وفسح الله له أن يوسع له في الجنة .

والآية تتضمن أدباً من آداب المعاشرة ، ويستفاد من سياقها أنهم كانوا يحضرون مجلس النبي ﷺ فيجلسون ركاماً لا يدع لغيرهم من الواردين مكاناً يجلس فيه فادّبوا بقوله : « إذا قيل لكم تفسَّحوا » الخ ، والحكم عام وإن كان مورد النزول مجلس النبي ﷺ .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم توسَّعوا في المجالس ليسع المكان معكم غيركم فتوسَّعوا وسَّع الله لكم في الجنة .

وقوله : « وإذا قيل انشزوا فانشزوا » يتضمن أدباً آخر ، والنشوز – كما قيل – الارتفاع عن الشيء بالذهاب عنه ، والنشوز عن المجلس أن يقوم الإنسان عن مجلسه ليجلس فيه غيره إعظاماً له وتواضعاً لفضله .

والمعنى : وإذا قيل لكم قوموا ليجلس مكانكم من هو أفضل منكم في علم أو تقوى فقوموا .

وقوله: « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » لا ريب في أن لازم رفعه تعالى درجة عبد من عباده مزيد قربه منه تعالى ، وهذا قرينة عقلية على أن المراد بهؤلاء الذين أوتوا العلم العلماء من المؤمنين فتدلُّ الآية على انقسام المؤمنين إلى طائفتين : مؤمن ومؤمن عالم ، والمؤمن العالم أفضل وقد قال تعالى : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » الزمر : ٩ .

ويتبين بذلك أن ما ذكر من رفع الدرجات في الآية مخصوص بالذين أوتوا العلم ويبقى لسائر المؤمنين من الرفع الرفع درجة واحدة ويكون التقدير يرفع الله الذين آمنوا منكم درجة ويرفع الذين أوتوا العلم منكم درجات .

وفي الآية من تعظيم أمر العلماء ورفع قدرهم ما لا يخفى . وأكد الحكم بتذييل الآية

بقوله : « والله بما تعملون خبير » .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة » الخ ، أي إذا أردتم أن تناجوا الرسول فتصدقوا قبلها .

وقوله : « ذلك خير لكم وأطهر » تعليل للتشريع نظير قوله : « وأن تصوموا خير لكم » البقرة: ١٨٤ ، ولا شك أن المراد بكونها خيراً لهم وأطهر أنها خير لنفوسهم وأطهر لقلوبهم ولعل الوجه في ذلك أن الأغنياء منهم كانوا يكثرون من مناجاة النبي ﷺ يظهرون بذلك نوعاً من التقرب اليه والاختصاص به وكان الفقراء منهم يحزنون بذلك وينكسر قلوبهم فامروا أن يتصدقوا بين يدي نجواهم على فقرائهم بما فيها من ارتباط النفوس وإثارة الرحمة والشفقة والمودة وصلة القلوب بزوال الغيظ والحنق .

وفي قوله : « ذلك » التفات إلى خطاب النبي ﷺ بين خطابين للمؤمنين وفيه تجليل لطيف له ﷺ حيث إن حكم الصدقة مرتبط بنجواه ﷺ والالتفات اليه فيما يرجع اليه من الكلام مزيد عناية به .

وقوله : « فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم » أي فإن لم تجدوا شيئاً تتصدقون به فلا يجب عليكم تقديمها وقد رخص الله لكم في نجواه وعفى عنكم إنه غفور رحيم فقوله : « فإن الله غفور رحيم » من وضع السبب موضع المسبب .

وفيه دلالة على رفع الوجوب عن المعدمين كما أنه قرينة على إرادة الوجوب في قوله : « فقدموا » الخ ، ووجوبه على الموسرين .

قوله تعالى : « ءأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات » الخ ، الآية ناسخة لحكم الصدقة المذكور في الآية السابقة ، وفيه عتاب شديد لصحابة النبي ﷺ والمؤمنين حيث إنهم تركوا مناجاته ﷺ خوفاً من بذل المال بالصدقة فلم يناجه أحد منهم إلا عليّ عليه السلام فإنه ناجاه عشر نجوات كلما ناجاه قدم بين يدي نجواه صدقة ثم نزلت الآية ونسخت الحكم .

والإشفاق الخشية ، وقوله : « أن تقدموا » الخ ، مفعوله والمعنى : أخشيتم التصدق وبذل المال للنجوى ، واحتمل أن يكون المفعول محذوفاً والتقدير أخشيتم الفقر لأجل بذل المال .

قال بعضهم : جمع الصدقات لما أن الخوف لم يكن في الحقيقة من تقديم صدقة واحدة

لأنه ليس مظنة الفقر بل من استمرار الأمر وتقديم صدقات .

وقوله : « فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » الخ ، أي فإذ لم تفعلوا ما كلفتم به ورجع الله اليكم العفو والمغفرة فأثبتوا على امتثال سائر التكاليف من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

ففي قوله : « وتاب الله عليكم » دلالة على كون ذلك منهم ذنباً ومعصية غير أنه تعالى غفر لهم ذلك .

وفي كون قوله : « فأقيموا الصلاة » الخ ، متفرعاً على قوله : « فإذ لم تفعلوا » الخ ، دلالة على نسخ حكم الصدقة قبل النجوى .

وفي قوله : « وأطيعوا الله ورسوله » تعميم لحكم الطاعة لسائر التكاليف بإيجاب الطاعة المطلقة ، وفي قوله : « والله خبير بما تعملون » نوع تشديد يتأكد به حكم وجوب طاعة الله ورسوله .

(بحث روائي)

في المجمع وقرأ حمزة ورويس عن يعقوب « ينتجون » والباقون « يتناجون » ويشهد لقراءة حمزة قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في علي عليه السلام – لما قال له بعض أصحابه : أتناجيه دوننا – ؟ ما أنا انتجيته بل الله انتجاه .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد وعبد بن حميد والبزار وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان بسند جيد عن ابن عمر أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : سام عليك يريدون بذلك شتمه ثم يقولون في أنفسهم : « لولا يعذبنا الله بما نقول » فنزلت هذه الآية « وإذا جاؤك حيّوك بما لم يحيّك به الله » .

وفيه أخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في هذه الآية قال : كان المنافقون يقولون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : سام عليك فنزلت .

أقول : وهذه الرواية أقرب إلى التصديق من سابقتها لما تقدم في تفسير الآية ، وفي رواية القمي في تفسيره أنهم كانوا يحيّونه بقولهم : أنعم صباحاً وأنعم مساء ، وهو تحية أهل الجاهلية .

وفي المجمع في قوله تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » وقد ورد أيضاً في الحديث أنه ﷺ قال : فضل العالم على الشهيد درجة ، وفضل الشهيد على العابد درجة ، وفضل النبي على العالم درجة ، وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه ، وفضل العالم على سائر الناس كفضلي على أدناهم. رواه جابر بن عبدالله.

أقول : وذيل الرواية لا يخلو من شيء فإن ظاهر رجوع الضمير في « أدناهم » إلى الناس اعتبار مراتب في الناس فمنهم الأعلى ومنهم المتوسط ، وإذا كان فضل العالم على سائر الناس وفيهم الأعلى رتبة كفضل النبي على أدنى الناس كان العالم أفضل من النبي وهو كما ترى .

اللهم إلا أن يكون الأدنى بمعنى الأقرب والمراد بأدناهم أقربهم من النبي وهو العالم كما يلوح من قوله : وفضل النبي على العالم درجة ، فيكون المفاد أن فضل العالم على سائر الناس كفضلي على أقربهم مني وهو العالم .

وفي الدر المنثور أخرج سعيد بن منصور وابن راهويه وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه عن علي قال : إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها بعدي آية النجوى « يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدّموا بين يدي نجواكم صدقة » كان عندي دينار فبعته بعشرة دراهم فكنت كلما ناجيت النبي ﷺ قدّمت بين يدي نجواي درهماً ثم نسخت فلم يعمل بها أحد فنزلت « ءأشفقتم أن تقدّموا بين يدي نجواكم صدقات » الآية .

وفي تفسير القمي بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : سألته عن قول الله عز وجل : « إذا ناجيتم الرسول فقدّموا بين يدي نجواكم صدقة » قال : قدم علي بن أبي طالب عليه السلام بين يدي نجواه صدقة ثم نسخها بقوله : « ءأشفقتم أن تقدّموا بين يدي نجواكم صدقات » .

أقول : وفي هذا المعنى روايات أخر من طرق الفريقين .

* * *

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا

مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ــ ١٤ . أَعَــدَّ اللهُ لَهُمْ
عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ــ ١٥ . اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ
جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ــ ١٦ . لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ
أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً أُولٰئِكَ أَصْحَابُ النَّــارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ــ ١٧ . يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ
لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ ــ ١٨ . إِسْتَحْوَذَ
عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُولٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ
الشَّيْطَانِ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ ــ ١٩ . إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولٰئِكَ
فِي ٱلْأَذَلِّينَ ــ ٢٠ . كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ
عَزِيزٌ ــ ٢١ . لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَادُّونَ
مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ
عَشِيرَتَهُمْ أُولٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا
عَنْهُ أُولٰئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ــ ٢٢ .

(بيان)

تذكر الآيات قوماً من المنافقين يتولـّون اليهود ويوادّونهم وهم يحادُّون الله ورسوله وتذمّهم على ذلك وتهدّدهم بالعذاب والشقوة تهديداً شديداً ، وتقطع بالآخرة أن الإيمان

بالله واليوم الآخر يمنع عن موادّة من يحادّ الله ورسوله كائناً من كان ، وتمدح المؤمنين المتبرئين من أعداء الله وتعدهم إيماناً مستقراً وروحاً من الله وجنة ورضواناً .

قوله تعالى : « ألم ترَ إلى الذين تولّوا قوماً غضب الله عليهم » الخ ، القوم المغضوب عليهم هم اليهود ، قال تعالى : « من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبَدَ الطاغوت » المائدة : ٦٠ .

وقوله : « ما هم منكم ولا منهم » ضمير « هم » للمنافقين وضمير « منهم » لليهود ، والمعنى : أن هؤلاء المنافقين لتذبذبهم بين الكفر والإيمان ليسوا منكم ولا من اليهود ، قال تعالى : « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » النساء : ١٤٣ .

وهذه صفتهم بحسب ظاهر حالهم وأما بحسب الحقيقة فهم ملحقون بمن تولوهم ، قال تعالى : « ومن يتولّهم منكم فإنه منهم » المائدة : ٥١ ، فلا منافاة بين قوله : « ما هم منكم ولا منهم » ، وقوله : « فإنه منهم » .

واحتمل بعضهم أن ضمير « هم » للقوم وهم اليهود وضمير « منهم » للموصول وهم المنافقون ، والمعنى : تولوا اليهود الذين ليسوا منكم وأنتم مؤمنون ولا من هؤلاء المنافقين أنفسهم بل أجنبيون برآء من الطائفتين ، وفيه نوع من الذمّ ، وهو بعيد .

وقوله : « ويحلفون على الكذب وهم يعلمون » أي يحلفون لكم على الكذب أنهم منكم مؤمنون أمثالكم وهم يعلمون أنهم كاذبون في حلفهم .

قوله تعالى : « أعدّ الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون » الإعداد التهيئة ، وقوله : « إنهم ساء » الخ ، تعليل للإعداد ، وفي قوله : « كانوا يعملون » دلالة على أنهم كانوا مستمرين في عملهم مداومين عليه .

والمعنى : هيّأ الله لهم عذاباً شديداً لاستمرارهم على عملهم السيىء .

قوله تعالى : « اتخذوا أيمانهم جُنّة فصدّوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين » الأيمان جمع يمين وهو الحلف ، والجنة السترة التي يتقى بها الشر كالترس ، والمهين اسم فاعل من الإهانة بمعنى الإذلال والإخزاء .

والمعنى : اتخذوا أيمانهم سترة يدفعون بها عن نفوسهم التهمة والظنة كلما ظهر منهم أمر يريب المؤمنين فصرفوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله وهو الإسلام فلهم ـ لأجل ذلك ـ

عذاب مُذلّ مُخزٍ .

قوله تعالى : « لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» أي إن الذي دعاهم إلىما هم عليه متاع الحياة الدنيا الذي هو الأموال والأولاد لكنهم في حاجة إلى التخلص من عـذاب خالد لا يقضيها لهم إلا الله سبحانه فهم في فقر اليه لا يغنيهم عنه أموالهم ولا أولادهم شيئاً فليؤمنوا به وليعبدوه .

قوله تعالى : « يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء » الخ ، ظرف لما تقدم من قوله : « أعد الله لهم عذاباً شديداً » أو لقوله : « أولئك أصحاب النار » ، وقوله : « فيحلفون له كما يحلفون لكم » أي يحلفون لله يوم البعث كما يحلفون لكم في الدنيا .

وقد قدمنا في تفسير قوله تعالى : « ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنـا ما كنا مشركين » الأنعام : ٢٣ أن حلفهم علىالكذب يوم القيامة مع ظهور حقائق الامور يومئذ من ظهور ملكاتهم هناك لرسوخها في نفوسهم في الدنيا فقد اعتادوا فيها على إظهار الباطل على الحق بالأيمان الكاذبة وكما يعيشون يموتون وكما يموتون يبعثون .

ومن هذا القبيل سؤالهم الرد إلى الدنيا يومئذ ، والخروج من النار وخصامهم في النار وغير ذلك مما يقصه القرآن الكريم ، وهم يشاهدون مشاهدة عيان أن لا سبيل إلى شيء من ذلك واليوم يوم جزاء لا يوم عمل .

وأما قوله : « وهم يحسبون أنهم على شيء » أي مستقرون على شيء يصلح أن يستقر عليه ويتمكن فيه فيمكنهم الستر على الحق والمنع عن ظهور كذبهم بمثـل الإنكار والحلف الكاذب .

فيمكن أن يكون قيـداً لقوله : « كما يحلفون لكم » فيكون إشارة إلى وصفهم في الدنيا وأنهم يحسبون أن حلفهم لكم ينفعهم ويرضيكم ، ويكون قوله : « ألا إنهم هم الكاذبون » قضاءً منه تعالى في حقهم بأنهم كاذبون فلا يصغى إلى ما يهذون به ولا يعتنى بما يحلفون به .

ويمكن أن يكون قيداً لقوله: « فيحلفون له » فيكون من قبيل ظهور الملكات يومئذ كما تقدم في معنى حلفهم آنفاً، ويكون قوله : « ألا إنهم هم الكاذبون » حكماً منه تعالى بكذبهم يوم القيامة أو مطلقاً .

قوله تعالى : « استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » الاستحواذ الاستيلاء والغلبة ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « إن الذين يحادُّون الله ورسوله اولئك في الأذلّين » تعليل لكونهم هم الخاسرين أي إنما كانوا خاسرين لأنهم يحادُّون الله ورسوله بالمخالفة والمعاندة والمحادُّون لله ورسوله في جملة الأذلّين من خلق الله تعالى .

قيل : إنما كانوا في الأذلّين لأن ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزة الآخر وإذ كانت العزة لله جميعاً فلا يبقى لمن حادَّه إلا الذلة محضاً .

قوله تعالى : « كتب الله لأغلبنَّ أنا ورسلي إن الله قوي عزيز » الكتابة هي القضاء منه تعالى .

وظاهر إطلاق الغلبة شمولها للغلبة من حيث الحجة ومن حيث التأييد الغيبي ومن حيث طبيعة الإيمان بالله ورسوله :

أما من حيث الحجة فإن الإنسان مفطور على صلاحية إدراك الحق والخضوع له فلو بيّن له الحق من السبيل التي يألفها لم يلبث دون أن يعقله وإذا عقله اعترفت له فطرته وخضعت له طويّته وإن لم يخضع له عملاً اتباعاً لهوىً أو أي مانع يمنعه عن ذلك .

وأما الغلبة من حيث التأييد الغيبي والقضاء للحق على الباطل فيكفي فيها أنواع العذاب التي أنزلها الله تعالى على مكذبي الامم الماضين كقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وعلى آل فرعون وغيرهم ممن يشير تعالى اليهم بقوله : « ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذّبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبُعداً لقوم لا يؤمنون » المؤمنون : ٤٤ ، وعلى ذلك جرت السنة الإلهية وقد أجمل ذكرها في قوله : « ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون » يونس : ٤٧ .

وأما الغلبة من حيث طبيعة الإيمان بالله ورسوله فإن إيمان المؤمن يدعوه إلى الدفاع والذّبّ عن الحق والمقاومة تجاه الباطل مطلقاً وهو يرى أنه إن قَتَل فاز وإن قُتِل فاز فثباته على الدفاع غير مقيد بقيد ولا محدود بحدّ وهذا بخلاف من يدافع لا عن الحق بما هو حق بل عن شيء من المقاصد الدنيوية فإنه إنما يدافع لأجل نفسه فلو شاهد نفسه مشرفة على هلكة أو راكبة مخاطرة تولى منهزماً فهو إنما يدافع على شرط وإلى حد وهو سلامة النفس وعدم الإشراف على الهلكة ومن الضروري أن العزيمة المطلقة تغلب العزيمة المقيدة

بقيد المحدودة بجد ومن الشاهد عليه غزوات رسول الله ﷺ بما أدّت اليه من الفتح والظفر في عين أنها كانت سجالاً لكن لم تنته إلا إلى تقدّم المسلمين وغلبتهم .

ولم تقف الفتوحات الإسلامية ولا تفرّقت جموع المسلمين أيادي سبأ إلا بفساد نيّاتهم وتبديل سيرة التقوى والإخلاص لله وبسط الدين الحق من بسط السلطة وتوسعة المملكة «ذلك بأن الله لم يكُ مغيّراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »[1] وقد اشترط الله عليهم حين أكمل دينهم وأمّنهم من عدوهم أن يخشوه إذ قال : « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشوني » .

ويكفي في تسجيل هذه الغلبة قوله تعالى فيما يخاطب المؤمنين: « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » آل عمران : ١٣٩ .

قوله تعالى : « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » الخ ، نفي وجدان قوم على هذه الصفة كناية عن أن الإيمان الصادق بالله واليوم الآخر لا يجامع موادّة أهل المحادّة والمعاندة من الكفار ولو قارن أي سبب من أسباب المودة كالابوة والبنوة والاخوة وسائر أقسام القرابة فبين الإيمان وموادة أهل المحادة تضادّ لا يجتمعان لذلك .

وقد بان أن قوله : « ولو كانوا آباءهم » الخ ، إشارة إلى أسباب المودة مطلقاً وقد خصّت مودة النسب بالذكر لكونه أقوى أسباب المودة من حيث ثباته وعدم تغيره .

وقوله : « اولئك كتب في قلوبهم الإيمان » الإشارة إلى القوم بما ذكر لهم من الصفة ، والكتابة الإثبات بحيث لا يتغير ولا يزول والضمير لله وفيه نص على أنهم مؤمنون حقاً .

وقوله : « وأيّدهم بروح منه » التأييد التقوية ، وضمير الفاعل في « أيّدهم » لله تعالى وكذا ضمير « منه » و « من » ابتدائية ، والمعنى : وقوّاهم الله بروح من عنده تعالى ، وقيل : الضمير للإيمان ، والمعنى : وقوّاهم الله بروح من جنس الإيمان يحيي بها قلوبهم ، ولا بأس به .

وقيل : المراد بالروح جبرائيل ، وقيل : القرآن ، وقيل : المراد بها الحجة والبرهان، وهذه وجوه ضعيفة لا شاهد لها من جهة اللفظ .

---

(١) الأنفال : ٥٣ .

ثم الروح – على ما يتبادر من معناها – هي مبـــدأ الحياة التي تترشح منها القدرة والشعور فإبقاء قوله : « وأيّدهم بروح منه » على ظاهره يفيـد أن للمؤمنين وراء الروح البشرية التي يشترك فيها المؤمن والكافر روحاً اخرى تفيض عليهم حياة اخرى وتصاحبها قدرة وشعور جديدان ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى : « أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » الأنعام: ١٢٢ ، وقوله : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة » النحل : ٩٧ .

وما في الآية من طيب الحيـاة يلازم طيب أثرها وهو القدرة والشعور المتفرع عليهما الأعمال الصالحة ، وهمـا المعبر عنهما في آية الأنعام المذكورة آنفاً بالنور ونظيرها قوله : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به » الحديد : ٢٨ .

وهذه حياة خاصة كريمة لهـا آثار خاصة ملازمة لسعادة الإنسان الأبدية وراء الحياة المشتركة بين المؤمن والكافر التي لها آثار مشتركة فلها مبدأ خاص وهو روح الإيمان التي تذكرها الآية وراء الروح المشتركة بين المؤمن والكافر .

وعلى هذا فلا موجب لما ذكروا أن المراد بالروح نور القلب وهو نور العلم الذي يحصل به الطمأنينة وأن تسميته روحاً مجاز مرسل لأنه سبب للحياة الطيبة الأبدية أو من الاستعارة لأنه في ملازمته وجوه العلم الفائض على القلب – والعلم حيـاة القلب كما أن الجهل موته – يشبه الروح المفيض للحياة . انتهى .

وقوله : « ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها » وعد جميل ووصف لحياتهم الآخرة الطيبة .

وقوله : « رضي الله عنهم ورضوا عنه » استئناف يعلل قوله : « ويدخلهم جنات » الخ ، ورضا الله سبحانه عنهم رحمته لهم لإخلاصهم الإيمان له ورضاهم عنه وابتهاجهم بما رزقهم من الحياة الطيبة والجنة .

وقوله : « أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » تشريف لهؤلاء المخلصين في إيمانهم بأنهم حزبه تعـــالى كما أن أولئك المنافقين الموالين لأعداء الله حزب الشيطان وهؤلاء مفلحون كما أن أولئك خاسرون .

وفي قوله : « ألا إن حزب الله » وضع الظاهر موضع الضمير ليجري الكلام مجرى المثل السائر .

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى : « كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي» روي أن المسلمين قالوا لما رأوا ما يفتح الله عليهم من القرى : ليفتحنّ الله علينا الروم وفارس فقال المنافقون : أتظنون أن فارس والروم كبعض القرى التي غلبتم عليها ؟ فأنزل الله هذه الآية .

أقول : الظاهر أنه من قبيل تطبيق الآية على القصة ونظائره كثيرة ، ولذا ورد في قوله تعالى : « لا تجـد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر » أنه نزل في أبي عبيدة بن الجراح قتل أباه يوم بدر ، وفي بعضها أنـــه نزل في أبي بكر سبّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم فصكّه أبو بكر صكّة سقط على الأرض فنزلت الآية . وفي عبدالرحمان بن ثابت بن قيس بن الشماس استأذن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يزور خاله من المشركين فأذن له فلما قدم قرأ عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن حوله من المسلمين الآية .

وهذه روايات لا يلائمها ما في الآيات من الاتصال الظاهر .

وفي الدر المنثور أخرج الطيالسي وابن أبي شيبة عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله .

وفي الكافي بإسناده إلى أبان بن تغلب عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ما من مؤمن إلا ولقلبه أذنان في جوفه : أذن ينفث فيها الوسواس الخناس وأذن ينفث فيها الملك فيؤيد الله المؤمن بالملك فذلك قوله : « وأيّدهم بروح منه » .

أقول : ليس معناه تفسير الروح بالملك بل الملك يصاحب الروح ويعمل به ،قال تعالى: « ينزّل الملائكة بالروح من أمره » النحل : ٢ .

وفيه بإسناده إلى ابن بكير قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام: في قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إذا زنا الرجل فارقه روح الإيمان. قال:هو قوله:«وأيّدهم بروح منه» ذلك الذي يفارقه.

وفيه بإسناده إلى محمـد بن سنان عن أبي خديجة قال : دخلت على أبي الحسن عليه السلام فقال لي : إن الله تبارك وتعـــالى أيّد المؤمن بروح تحضره في كل وقت يحسن فيه ويتقي

وتغيب عنه في كل وقت يذنب فيه ويعتدي فهي معه تهتزّ سروراً عند إحسانه وتسيخ في الثرى عند إساءته ، فتعاهدوا عباد الله نعمه بإصلاحكم أنفسكم تزدادوا يقيناً وتربحوا نفيساً ثميناً ، رحم الله امرءً همّ بخير فعمله أو همّ بشرّ فارتدع عنه . ثم قال : نحن نؤيد الروح بالطاعة لله والعمل له .

أقول : قد تبين مما تقدم في ذيل الآية أن هذه الروح من مراتب الروح الإنساني ينالها المؤمن عندما يستكمل الإيمان فليست مفارقة له كما أن الروح النباتية والحيوانية والإنسانية المشتركة بين المؤمن والكافر من مراتب روحه غير مفارقة له غير أنها تبتدىء هيئة حسنة في النفس ربما زالت لعروض هيئة سيئة تضادّها ثم ترجع إذا زالت الموانع المضادة حتى إذا استقرت ورسخت وتصوّرت النفس بها ثبتت ولم تتغير .

وبذلك يظهر أن المراد بقوله عليه‌السلام : بروح تحضره ، وقوله : فهي معه ، حضور صورتها حضور الهيئة العارضة القابلة للزوال ، وبقوله : تسيخ في الثرى زوال الهيئة على طريق الاستعارة ، وكذا قوله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في الرواية السابقة : فارقه روح الإيمان .

* * *

(سورة الحشر مدنية ، وهي أربع وعشرون آية)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . سَبَّحَ لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ـ ١ . هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ـ ٢ . وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ

فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ — ٣ . ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا
اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ — ٤ . مَا قَطَعْتُمْ
مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ
ٱلْفَاسِقِينَ — ٥ . وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ
مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلٰكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ — ٦ . مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلّٰهِ
وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ السَّبِيلِ كَيْلَا يَكُونَ
دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ
فَٱنْتَهُوا وَٱتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ — ٧ . لِلْفُقَرَاءِ ٱلْمُهَاجِرِينَ
ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا
وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ — ٨ . وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُوا
الدَّارَ وَٱلْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي
صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ
وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ — ٩ . وَٱلَّذِينَ جَاءُوا
مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَانِ
وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ — ١٠ .

(بيان)

تشير السورة إلى قصة إجلاء بني النضير من اليهود لما نقضوا العهد بينهم وبين المسلمين، وإلى وعد المنافقين لهم بالنصر والملازمة ثم غدرهم وما يلحق بذلك من حكم فيئهم .

ومن غرر الآيات فيها الآيات السبع في آخرها يأمر الله سبحانه عباده فيها بالاستعداد للقائه من طريق المراقبة والمحاسبة ، ويذكر عظمة قوله وجلالة قدره بوصف عظمة قائله عزّ من قائل بما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا . والسورة مدنيـة بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « سبّح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم » افتتاح مطابق لما في مختتم السورة من قوله : « يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » .

وإنما افتتح بالتنزيه لما وقع في السورة من الإشارة إلى خيانة اليهود ونقضهم العهد ثم وعد المنافقين لهم بالنصر غـدراً كمثل الذين كانوا من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ، وبالنظر إلى ما أذاقهم الله من وبال كيدهم ، وكون ذلك على ما يقتضيه الحكمة والمصلحة ذيّل الآية بقوله : « وهو العزيز الحكيم » .

قوله تعالى : « هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر » تأييد لما ذكر في الآية السابقة من تنزّهه تعالى وعزّته وحكمته ، والمراد بإخراج الذين كفروا من أهل الكتاب إجلاء بني النضير حيّ من أحياء اليهود كانوا يسكنون خارج المدينة وكان بينهم وبين النبي ﷺ عهد أن لا يكونوا له ولا عليه ثم نقضوا العهد فأجلاهم النبي ﷺ وستأتي قصتهم في البحث الروائي التالي إن شاء الله .

والحشر إخراج الجماعة بإزعاج ، و « لأول الحشر » من إضافة الصفة إلى الموصوف ، واللام بمعنى في كقوله : « أقم الصلاة لدلوك الشمس » أسرى : ٧٨ .

والمعنى : الله الذي أخرج بني النضير من اليهود من ديارهم في أول إخراجهم من جزيرة العرب .

ثم أشار تعالى إلى أهمية إخراجهم بقوله : « ما ظننتم أن يخرجوا » لما كنتم تشاهدون فيهم من القوة والشدة والمنعة « وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله » فلن يغلبهم الله وهم متحصنون فيها وعدّ حصونهم بحسب ظنهم مانعة من الله لا من المسلمين لما أن إخراجهم

منها منسوب في الآية السابقة اليه تعالى وكذا إلقاء الرعب في قلوبهم في ذيل الآية ، وفي الكلام دلالة على أنه كانت لهم حصون متعددة .

ثم ذكر فساد ظنهم وخبطهم في مزعمتهم بقوله : « فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا » والمراد به نفوذ إرادته تعالى فيهم لا من طريق احتسبوه وهو طريق الحصون والأبواب بل من طريق باطنهم وهو طريق القلوب « وقذف في قلوبهم الرعب » والرعب الخوف الذي يملأ القلب « يخربون بيوتهم بأيديهم » لئلا تقع في أيدي المؤمنين بعد خروجهم وهذه من قوة سلطانه تعالى عليهم حيث أجرى ما أراده بأيدي أنفسهم « وأيدي المؤمنين » حيث أمرهم بذلك ووفقهم لامتثال أمره وإنفاذ إرادته « فاعتبروا » وخذوا بالعظة « يا أولي الأبصار » بما تشاهدون من صنع الله العزيز الحكيم بهم قبال مشاقتهم له ولرسوله .

وقيل : كانوا يخربون البيوت ليهربوا ويخربها المؤمنون ليصلوا .

وقيل : المراد بتخريب البيوت اختلال نظام حياتهم فقد خربوا بيوتهم بأيديهم حيث نقضوا الموادعة ، وبأيدي المؤمنين حيث بعثوهم على قتالهم .

وفيه أن ظاهر قوله : « يخربون بيوتهم » الخ أنه بيان لقوله : « فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا » الخ ، من حيث أثره فهو متأخر عن نقض الموادعة .

قوله تعالى : « ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار » الجلاء ترك الوطن وكتابة الجلاء عليهم قضاؤه في حقهم ، والمراد بعذابهم في الدنيا عذاب الاستئصال أو القتل والسبي .

والمعنى : ولولا أن قضى الله عليهم الخروج من ديارهم وترك وطنهم لعذبهم في الدنيا بعذاب الاستئصال أو القتل والسبي كما فعل ببني قريظة ولهم في الآخرة عذاب النار .

قوله تعالى : « ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقّ الله فإن الله شديد العقاب » المشاقة المخالفة بالعناد ، والإشارة بذلك إلى ما ذكر من إخراجهم واستحقاقهم العذاب لو لم يكتب عليهم الجلاء ، وفي تخصيص مشاقتهم بالله في قوله : « ومن يشاق الله » بعد تعميمه لله ورسوله في قوله : « شاقوا الله ورسوله » تلويح إلى أن مشاقة الرسول مشاقة الله والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين » ذكر الراغب أن اللينة النخلة الناعمة من دون اختصاص منه بنوع منها دون

نوع ، رووا أن النبي ﷺ أمر بقطع نخيلهم فلما قطع بعضها نادوه : يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض فما بال النخيل تقطع فنزلت الآية فاجيب عن قولهم بأن ما قطعوا من نخلة أو تركوها قائمة على أصولها فبإذن الله ولله في حكمه هذا غايات حقة وحكم بالغة منها إخزاء الفاسقين وهم بنو النضير .

فقوله : « وليخزي الفاسقين » اللام فيه للتعليل وهو معطوف على محذوف والتقدير : القطع والترك بإذن الله ليفعل كذا وكذا وليخزي الفاسقين فهو كقوله : « وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين » الأنعام : ٧٥ .

قوله تعالى : « وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء » الخ ، الإفادة الإرجاع من الفيء بمعنى الرجوع ، وضمير « منهم » لبني النضير والمراد من أموالهم .

وإيجاف الدابة تسييرها بإزعاج وإسراع والخيل الفرس ، والركاب الإبل و « من خيل ولا ركاب » مفعول « فما أوجفتم » و « من » زائدة للاستغراق .

والمعنى : والذي أرجعه الله إلى رسوله من أموال بني النضير – خصه به وملكه وحده إياه – فلم تسيروا عليه فرساً ولا إبلاً بالركوب حتى يكون لكم فيه حق بل مشيتم إلى حصونهم مشاة لقربها من المدينة ، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير وقد سلط النبي ﷺ على بني النضير فله فيئهم يفعل فيه ما يشاء .

قوله تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » الخ ، ظاهره أنه بيان لموارد مصرف الفيء المذكور في الآية السابقة مع تعميم الفيء لفيء أهل القرى أعم من بني النضير وغيرهم .

وقوله : « فلله وللرسول » أي منه ما يختص بالله والمراد به صرفه وإنفاقه في سبيل الله على ما يراه الرسول ومنه ما يأخذه الرسول لنفسه ولا يصغى إلى قول من قال : إن ذكره تعالى مع أصحاب السهام لمجرد التبرك .

وقوله : « ولذي القربى » الخ ، المراد بذي القربى قرابة النبي ﷺ ، ولا معنى لحمله على قرابة عامة المؤمنين وهو ظاهر ، والمراد باليتامى الفقراء منهم كما يشعر به السياق وإنما أفرد وقدم على « المساكين » مع شموله له اعتناء بأمر اليتامى .

وقد ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن المراد بذي القربى أهل البيت واليتامى

والمساكين وابن السبيل منهم.

وقوله: «كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم» أي إنما حكمنا في الفيء بما حكمنا كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم والدولة ما يتداول بين الناس ويدور يداً بيد.

وقوله: «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» أي ما أعطاكم الرسول من الفيء فخذوه كما أعطى منه المهاجرين ونفراً من الأنصار، وما نهاكم عنه ومنعكم فانتهوا ولا تطلبوا، وفيه إشعار بأنهم سألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يقسّم الفيء بينهم جميعاً فأرجعه إلى نبيه وجعل موارد مصرفه ما ذكره في الآية وجعل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أن ينفقه فيها على ما يرى.

والآية مع الغضّ عن السياق عامة تشمل كل ما آتاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم من حكم فأمر به أو نهى عنه.

وقوله: «واتقوا الله إن الله شديد العقاب» تحذير لهم عن مخالفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم تأكيداً لقوله: «وما آتاكم الرسول» الخ.

قوله تعالى: «للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً» الخ، قيل: إن قوله: «للفقراء» بدل من قوله: «ذي القربى» وما بعده وذكر «الله» لمجرد التبرك فيكون الفيء مختصاً بالرسول والفقراء من المهاجرين، وقد وردت الرواية أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قسّم فيء بني النضير بين المهاجرين ولم يعط منه الأنصار شيئاً إلا رجلين من فقرائهم أو ثلاثة.

وقيل: إنه بدل من اليتامى والمساكين وابن السبيل فيكون ذوو السهام هم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذا القربى غنيهم وفقيرهم والفقراء من المهاجرين يتاماهم ومساكينهم وأبناء السبيل منهم، ولعل هذا مراد من قال: إن قوله: «للفقراء المهاجرين» بيان المساكين في الآية السابقة.

والأنسب لما تقدم نقله عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن يكون قوله: «للفقراء المهاجرين» الخ، بيان مصداق لصرف سبيل الله الذي أشير اليه بقوله: «فلله» لا بأن يكون الفقراء المهاجرون أحد السهام في الفيء بل بأن يكون صرفه فيهم وإعطاؤهم إياه صرفاً له في سبيل الله.

ومحصل المعنى على هذا: أن الله سبحانه أفاء الفيء وأرجعه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فله أن يتصرف فيه كيف يشاء ثم دلّه على موارد صرفه وهي سبيل الله والرسول وذو القربى

ويتاماهم ومساكينهم وابن السبيل منهم ثم أشار إلى مصداق الصرف في السبيل أو بعض مصاديقه وهم الفقراء المهاجرون الخ ، ينفق منه الرسول لهم على ما يرى .

وعلى هـذا ينبغي أن يحمل ما ورد أن النبي ﷺ قسّم فيء بني النضير بين المهاجرين ولم يعط الأنصار شيئاً إلا ثلاثة من فقرائهم : أبا دجانة سماك بن خرشة وسهل بن حنيف والحارث بن الصمة فقد صرف فيهم بما أنه صرف في سبيل الله لا بما أنهم سهماء في الفيء .

وكيف كان فقوله : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم » المراد بهم من هاجر من المسلمين من مكة إلى المدينة قبل الفتح وهم الذين أخرجهم كفار مكة بالاضطرار إلى الخروج فتركوا ديارهم وأموالهم وهاجروا إلى مدينة الرسول .

وقوله : « يبتغون فضلاً من الله ورضواناً » الفضل الرزق أي يطلبون من الله رزقاً في الدنيا ورضواناً في الآخرة .

وقوله : « وينصرون الله ورسوله » أي ينصرونه ورسوله بأموالهم وأنفسهم ، وقوله : « اولئك هم الصادقون » تصديق لصدقهم في أمرهم وهم على هذه الصفات .

قوله تعالى : « والذين تبوّؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبّون من هاجر اليهم » الخ ، قيل : إنه استئناف مسوق لمدح الأنصار لتطيب بذلك قلوبهم إذ لم يشركوا في الفيء ، « والذين تبوّؤا » — والمراد بهم الأنصار — مبتدأ خبره « يحبون » الخ ، والمراد بتبوّي الدار وهو تعميرها بنساء مجتمع ديني يأوي اليه المؤمنون على طريق الكناية ، والإيمان معطوف على « الدار » وتبوّي الإيمان وتعميره رفع نواقصه من حيث العمل بحيث يستطاع العمل بها يدعو اليه من الطاعات والقربات من غير حجر ومنع كما كان بمكة .

واحتمل أن يعطف « الإيمان » على تبوّؤا وقد حذف الفعل العامل فيه ، والتقدير : وآثروا الإيمان .

وقيل : إن قوله : « والذين تبوّؤا » الخ ، معطوف على قوله : « المهاجرين » وعلى هذا يشارك الأنصار المهاجرين في الفيء ، والإشكال عليه بأن المروي أن النبي ﷺ قسمه بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منه شيئاً إلا ثلاثة من فقرائهم مدفوع بأن الرواية من شواهد العطف دون الاستئناف إذ لو لم يجز إعطاؤه للأنصار لم يجز لا — للثلاثة ولا للواحد فإعطاء بعضهم منه دليل على مشاركتهم لهم غير أن الأمر لما كان راجعاً إلى النبي ﷺ كان له أن يصرفه كيف يشاء فرجح أن يقسمه بينهم على تلك الوتيرة .

والأنسب لما تقدم من كون « للفقراء » الخ ، بياناً لمصاديق سهم السبيل هو عطف « والذين تبوّؤا » الخ ، وكذا قوله الآتي : « والذين جاؤا من بعدهم » على قوله : « المهاجرين » الخ ، دون الاستئناف .

بل ما ورد من إعطائه ﷺ للثلاثة يؤيد هذا الوجه بعينه إذ لو كان السهم فيه الفقراء المهاجرين فحسب لم يعط الأنصار ولا لثلاثة منهم ، ولو كان للفقراء من الأنصار كالمهاجرين فيه سهم – وظاهر الآية أن جمعاً منهم كانوا فقراء بهم خصاصة والتاريخ يؤيده – لأعطى غير الثلاثة من فقراء الأنصار كما أعطى فقراء المهاجرين واستوعبهم .

فقوله : « والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم » ضمير « من قبلهم » للمهاجرين والمراد من قبل مجيئهم وهجرتهم إلى المدينة .

وقوله : « يحبون من هاجر اليهم » أي يحبون من هاجر اليهم لأجل هجرتهم من دار الكفر إلى دار الإيمان ومجتمع المسلمين .

وقوله : « ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا » ضميرا « يجدون » و « صدورهم » للأنصار ، وضمير « أوتوا » للمهاجرين ، والمراد بالحاجة ما يحتاج اليه و « من » تبعيضية وقيل : بيانية والمعنى : لا يخطر ببالهم شيء مما أعطيه المهاجرون فلا يضيق نفوسهم من تقسيم الفيء بين المهاجرين دونهم ولا يحسدون .

وقيل : المراد بالحاجة ما يؤدي اليه الحاجة وهو الغيظ .

وقوله : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » إيثار الشيء اختياره وتقديمه على غيره ، والخصاصة الفقر والحاجة ، قال الراغب : خصاص البيت فرجه وعبر عن الفقر الذي لم يسد بالخصاصة كما عبر عنه بالخلة انتهى .

والمعنى : ويقدمون المهاجرين على أنفسهم ولو كان بهم فقر وحاجة ، وهذه الخصيصة أغزر وأبلغ في مدحهم من الخصيصة السابقة فالكلام في معنى الإضراب كأنه قيل: إنهم لا يطمحون النظر فيما بأيدي المهاجرين بل يقدمونهم على أنفسهم فيما بأيديهم أنفسهم في عين الفقر والحاجة .

وقوله : « ومن يوق شُحّ نفسه فاولئك هم المفلحون » قال الراغب : الشح بخل مع حرص فيما كان عادة انتهى . و « يوق » فعل مضارع مجهول من الوقاية بمعنى الحفظ ، والمعنى : ومن يحفظ – أي يحفظه الله – من ضيق نفسه من بذل ما بيده من المال أو من

وقوع مال في يد غيره فاولئك هم المفلحون .

قوله تعالى : « والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان » استئناف أو عطف نظير ما تقدم في قوله : « والذين تبوؤا الدار والإيمان يحبون » وعلى الاستئناف فالموصول مبتدأ خبره قوله : « يقولون ربنا » الخ .

والمراد بمجيئهم بعد المهاجرين والأنصار إيمانهم بعد انقطاع الهجرة بالفتح وقيل : المراد أنهم خلفوهم .

وقولهم : « ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان » دعاء لأنفسهم والسابقين من المؤمنين بالمغفرة ، وفي تعبيرهم عنهم بإخواننا إشارة إلى أنهم يعدونهم من أنفسهم كما قال الله تعالى : « بعضكم من بعض » النساء : ٢٥ ، فهم يحبونهم كما يحبون أنفسهم ويحبون لهم ما يحبون لأنفسهم .

ولذلك عقبوه بقولهم : « ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤف رحيم » فسألوا أن لا يجعل الله في قلوبهم غلاً للذين آمنوا والغل العداوة .

وفي قوله : « للذين آمنوا » تعميم لعامة المؤمنين منهم وممن سبقهم وتلويح إلى أنه لا بغية لهم إلا الإيمان .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم » الآية ، قال : سبب ذلك أنه كان بالمدينة ثلاثة أبطن من اليهود : بني النضير وقريظة وقينقاع ، وكان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عهد ومدة فنقضوا عهدهم .

وكان سبب ذلك بني النضير في نقض عهدهم أنه أتاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستسلفهم دية رجلين قتلهما رجل من أصحابه غيلة ، يعني يستقرض ، وكان بينهم كعب بن الأشرف فلما دخل على كعب قال : مرحباً يا أبا القاسم وأهلاً وقام كأنه يصنع له الطعام وحدّث نفسه أن يقتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويتبع أصحابه ، فنزل جبرئيل فأخبره بذلك .

فرجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة وقال لمحمد بن مسلمة الأنصاري : إذهب إلى بني النضير فأخبرهم أن الله عز وجل قد أخبرني بما هممتم به من الغدر فإما أن تخرجوا من

بلدنا وإما أن تأذنوا بحرب ، فقالوا : نخرج من بلادك .

فبعث اليهم عبد الله بن أبيّ : لا تخرجوا وتقيموا وتنابذوا محمداً الحرب فإني أنصركم أنا وقومي وحلفائي فإن خرجتم خرجت معكم وإن قاتلتم قاتلت معكم ، فأقاموا وأصلحوا بينهم حصونهم وتهيّؤوا للقتال وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أنّا لا نخرج فاصنع ما أنت صانع.

فقام رسول الله ﷺ وكبّر وكبّر أصحابه وقال لأمير المؤمنين : تقدّم على بني النضير فأخذ أمير المؤمنين الراية وتقدّم ، وجاء رسول الله ﷺ وأحاط بحصنهم وغدر بهم عبد الله بن أبيّ .

وكان رسول الله ﷺ إذا ظهر بمقدم بيوتهم حصّنوا ما يليهم وخرّبوا ما يليه ، وكان الرجل منهم ممن كان له بيت حسن خرّبه ، وقد كان رسول الله ﷺ أمر بقطع نخلهم فجزعوا من ذلك وقالوا : يا محمد إن الله يأمرك بالفساد ؟ إن كان لك هذا فخذه وإن كان لنا فلا تقطعه .

فلما كان بعد ذلك قالوا : يا محمد نخرج من بلادك فأعطنا مالنا ، فقال : لا ولكن تخرجون ولكم ما حملت الإبل ، فلم يقبلوا ذلك فبقوا أياماً ثم قالوا : نخرج ولنا ما حملت الإبل ، فقال : لا ولكن تخرجون ولا يحمل أحد منكم شيئاً ، فمن وجدنا معه شيئاً من ذلك قتلناه .

فخرجوا على ذلك ووقع منهم قوم إلى فدك ووادي القرى وخرج قوم منهم إلى الشام.

فأنزل الله فيهم « هو الذي أخرج الذين كفروا – إلى قوله – فإن الله شديد العقاب » وأنزل الله عليه فيما عابوه من قطع النخل «ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على اصولها فبإذن الله – إلى قوله – ربنا إنك رؤف رحيم » .

وأنزل الله عليه في عبد الله بن أبيّ وأصحابه « ألم ترَ إلى الذين نافقوا – إلى قوله – ثم لا ينصرون » .

وفي المجمع عن ابن عباس : كان النبي ﷺ حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ فأعطوه ما أراد منهم فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم وأن يخرجهم من أرضهم وأوطانهم وأن يسيّرهم إلى أذرعات بالشام وجعل لكل ثلاثة منهم بعيراً وسقاء .

فخرجوا إلى أذرعات بالشام وأريحا إلا أهل بيتين منهم آل أبي الحقيق وآل حيي بن أخطب فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة منهم بالحيرة .

وفيه عن محمد بن مسلمة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعثه إلى بني النضير وأمره أن يؤجلهم في الجلاء ثلاث ليال .

وفيه عن محمد بن إسحاق : كان إجلاء بني النضير مرجع النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أحد ، وكان فتح قريظة مرجعه من الأحزاب، وكان الزهري يذهب إلى أن إجلاء بني النضير كان قبل أحد على رأس ستة أشهر من وقعة بدر .

وفيه عن ابن عباس : نزل قوله تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى » الآية في أموال كفار أهل القرى وهم قريظة وبنو النضير وهما بالمدينة ، وفدك وهي من المدينة على ثلاثة أميال ، وخيبر وقرى عرينة وينبع جعلها الله لرسوله يحكم فيها ما أراد وأخبر أنها كلها له فقال أناس : فهلا قسمها فنزلت الآية .

وفيه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بني النضير الأنصار : إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم في هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة فقال الأنصار : بل نقسم لهم من ديارنا وأموالنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها فنزلت : « ويؤثرون على أنفسهم » الآية .

أقول : وروي في إيثارهم ونزول الآية فيه قصص أخرى ، والظاهر أن ذلك من قبيل تطبيق الآية على القصة ،وقد روى المعاني السابقة في الدر المنثور بطرق كثيرة مختلفة.

وفي التوحيد عن علي عليه السلام وقد سئل عما اشتبه على السائل من الآيات قال في قوله تعالى : « فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا » يعني أرسل عليهم عذاباً .

وفي التهذيب بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « ما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه » الآية قال الفيء ما كان من أموال لم يكن فيها هراقة دم أو قتل والأنفال مثل ذلك وهو بمنزلته .

وفي المجمع روى المنهال بن عمر عن علي بن الحسين عليه السلام قلت: قوله : « ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » قال : هم قربانا ومساكيننا وأبناء سبيلنا .

أقول ، وروى هذا المعنى في التهذيب عن سليم بن قيس عن أمير المؤمنين عليه السلام ، وقال في المجمع بعد نقل الرواية السابقة : وقال جميع الفقهاء : هم يتامى الناس عامة وكذلك المساكين وأبناء السبيل وقد روي ذلك أيضاً عنهم عليهم السلام .

وفي الكافي بإسناده عن زرارة أنه سمع أبا جعفر وأبا عبد الله عليهما السلام يقولان : إن الله عز وجل فوض إلى نبيه ﷺ أمر خلقه لينظر كيف طاعتهم ثم تلى[1] هذه الآية « ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

أقول : والروايات عنهم عليهم السلام في هذا المعنى كثيرة والمراد بتفويضه أمر خلقه كما يظهر من الروايات إمضاؤه تعالى ما شرعه النبي ﷺ لهم وافتراض طاعته في ذلك ، وولايته أمر الناس وأما التفويض بمعنى سلبه تعالى ذلك عن نفسه وتقليده ﷺ لذلك فمستحيل .

وفيه بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث : الإيمان بعضه من بعض وهو دار وكذلك الإسلام دار والكفر دار .

وفي المحاسن بإسناده عن أبي عبيدة عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال : يا زياد ويحك وهل الدين إلا الحب . ألا ترى إلى قول الله : « إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » أو لا ترون إلى قول الله لمحمد ﷺ : « حبب اليكم الإيمان وزينه في قلوبكم » وقال : « يحبون من هاجر اليهم » وقال : الدين هو الحب والحب هو الدين .

وفي المجمع وفي الحديث : لا يجتمع الشح والإيمان في قلب رجل مسلم ، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف رجل مسلم .

وفي الفقيه روى الفضل بن أبي قرة السمندي قال : قال لي أبو عبد الله عليه السلام : أتدري من الشحيح ؟ قلت : هو البخيل . قال : الشح أشد من البخل إن البخيل يبخل بما في يده والشحيح يشح بما في أيدي الناس وعلى ما في يده حتى لا يرى في أيدي الناس شيئاً إلا تمنى أن يكون له بالحل والحرام ، ولا يقنع بما رزقه الله عز وجل .

* * *

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً

(١) تليا ، ظ .

وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ — ١١ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ — ١٢ . لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ — ١٣ . لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ — ١٤ . كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ — ١٥ . كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ — ١٦ . فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ — ١٧ .

(بيان)

إشارة إلى حال المنافقين ووعدهم لبني النضير بالنصر إن قوتلوا والخروج معهم إن أخرجوا وتكذيبهم فيما وعدوا .

قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب » الخ ، الإخوان كالإخوة جمع أخ والأُخوة الاشتراك في الانتساب إلى أب ويتوسع فيه فيستعمل في المشتركين في اعتقاد أو صداقة ونحو ذلك ، ويكثر استعمال الإخوة في المشتركين في النسبة إلى أب واستعمال الإخوان في المشتركين في اعتقاد ونحوه على ما قيل .

والاستفهام في الآية للتعجيب ، والمراد بالذين نافقوا عبد الله بن أُبيّ وأصحابه ، والمراد بإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب بنو النضير على ما يؤيده السياق فإن مفاد الآيات

أنهم كانوا قوماً من أهل الكتاب دار أمرهم بين الخروج والقتال بعد قوم آخر كذلك وليس إلا بني النضير بعد بني قينقاع .

وقوله: «ولئن أخرجتم لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم» مقول قول المنافقين ، واللام في « لئن أخرجتم » للقسم أي نقسم لئن أخرجكم المسلمون من دياركم لنخرجنّ من ديارنا معكم ملازمين لكم ولا نطيع فيكم أي في شأنكم أحداً يشير علينا بمفارقتكم أبداً ، وإن قاتلكم المسلمون لننصرنكم عليهم .

وقوله : « والله يشهد إنهم لكاذبون » تكذيب لوعـــد المنافقين ، وتصريح بأنهم لا يفون بوعدهم .

قوله تعالى : « لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم » تكذيب تفصيلي لوعدهم بعد تكذيبه الإجمالي بقوله : « والله يشهد إنهم لكاذبون » وقد كرر فيه لام القسم ، والمعنى : أقسم لئن أخرج بنو النضير لا يخرج معهم المنـافقون ، وأقسم لئن قوتلوا لا ينصرونهم .

قوله تعالى : « ولئن نصروهم ليولّنّ الأدبار ثم لا ينصرون » إشارة إلى أن نصرهم على تقـدير وقوعه منهم – ولن يقع أبداً – لا يدوم ولا ينفعهم بل يولون الأدبار فراراً ثم لا ينصرون بل يهلكون من غير أن ينصرهم أحد .

قوله تعالى : « لأنتم أشدُّ رهبة في صدورهم من الله » الخ ، ضمـــائر الجمع للمنافقين ، والرهبة الخشية ، والآية في مقام التعليل لقوله: « ولئن نصروهم ليولّنّ الأدبار » أي ذلك لأنهم يرهبونـكم أشد من رهبتهم لله فلا يقاومونـكم لو قاتلتم ولا يثبتون لكم .

وعلل ذلك بقوله : « ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » والإشارة بذلك إلى كون رهبتهم للمؤمنين أشد من رهبتهم لله أي رهبتهم لكم كذلك لأنهم قوم لا يفهمون حق الفهم ولو فقهوا حقيقة الأمر بان لهم أن الأمر إلى الله تعالى وليس لغيره من الأمر شيء سواء في ذلك المسلمون وغيرهم ، ولا يقوى غيره تعالى على عمل خير أو شر أو نافع أو ضار إلا بحول منه تعالى وقوة فلا ينبغي أن يرهب إلا هو عز وجل .

قوله تعالى : « لا يقاتلونـكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر » بيان لأثر رهبتهم وجبنهم جميعاً والمعنى : لا يقاتلكم بنو النضير والمنافقون جميعاً بأن يبرزوا بل في قرى حصينة محكمة أو من وراء جدر من غير بروز .

وقوله : « بأسهم بينهم شديد » أي هم فيما بينهم شديدوا البطش غير أنهم إذا برزوا لحربكم وشاهدوكم يجبنون بما ألقى الله في قلوبهم من الرعب .

وقوله : « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى » أي تظن أنهم مجتمعون في ألفة واتحاد والحال أن قلوبهم متفرقة غير متحدة وذلك أقوى عامل في الخزي والخذلان . ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ولو عقلوا لاتحدوا ووحدوا الكلمة .

قوله تعالى : « كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم » الوبال العاقبة السيئة وقوله : « قريباً » قائم مقـــام الظروف منصوب على الظرفية أي في زمان قريب .

وقوله : « كمثل » الخ ، خبر مبتدأ محذوف والتقدير « مثلهم كمثل » الخ ، والمعنى : مثلهم أي مثل بني النضير من اليهود في نقضهم العهد ووعد المنافقين لهم بالنصر كذباً ثم الجلاء مثل الذين من قبلهم في زمان قريب وهم بنو قينقاع رهط آخر من يهود المدينة نقضوا العهد بعد غزوة بدر فأجلاهم رسول الله ﷺ إلى أذرعات وقد كان وعدهم المنافقون أن يكلموا النبي ﷺ فيهم ويمنعوه من إجلائهم فغدروا بهم فذاق بنو قينقاع وبال أمرهم ولهم في الآخرة عذاب أليم وقيل : المراد بالذين من قبلهم كفار مكة يوم بدر وما تقدم أنسب للسياق .

والمثل على أي حال مثل لبني النضير لا للمنافقين على ما يعطيه السياق .

قوله تعالى : « كمثل الشيطان إذ قال للإنسان أكفر فلما كفر قال إني بريء منك » الخ ، ظاهر السياق أنـــه مثل للمنافقين في غرورهم بني النضير بوعد النصر ثم خذلانهم عند الحـــاجة .

وظاهر السياق يفيد أن المراد بالشيطان والإنسان الجنس والإشارة إلى غرور الشيطان للإنسان بدعوته إلى الكفر بتزيين أمتعة الحياة له وتسويل الإعراض عن الحق بمواعيده الكاذبة والأماني السرابية حتى إذا طلعت له طلائع الآخرة وعاين أن ما اغتر به من أماني الحياة الدنيا لم يكن إلا سراباً يغره وخيالاً يلعب به تبرأ منه الشيطان ولم يف بما وعده وقال : إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين .

وبالجملة مثل المنافقين في دعوتهم بني النضير إلى مخالفة النبي ﷺ ووعدهم النصر ثم الغدر بهم وخلف الوعد كمثل هذا الشيطان في دعوة الإنسان إلى الكفر بمواعيده الكاذبة

ثم تبريه منه بعد الكفر عند الحاجة .

وقيل : المراد بالتمثيل الإشارة إلى قصة برصيصا العابد الذي زين له الشيطان الفجور ففجر بامرأة ثم كفر وسيأتي القصة في البحث الروائي التالي إن شاء الله .

وقيل : المثل السابق المذكور في قوله : « كمثل الذين من قبلهم قريباً » مثل كفار مكة يوم بدر – كما تقدم – والمراد بالإنسان في هذا المثل أبو جهل وبقول الشيطان له أكفر ما قصه الله تعالى بقوله في القصة : « وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب » الأنفال : ٤٨ .

وعلى هذا الوجه فقول الشيطان : « إني أخاف الله رب العالمين » قول جدي لأنه كان يخاف تعذيب الملائكة النازلين لنصرة المؤمنين ببدر وأما على الوجهين الأولين فهو نوع من الاستهزاء والإخزاء .

قوله تعالى : « فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين » الظاهر أن ضمائر التثنية للشيطان والإنسان المذكورين في المثل ففي الآية بيان عاقبة الشيطان في غروره الإنسان وإضلاله والإنسان في اغتراره به وضلاله ، وإشارة إلى أن ذلك عاقبة المنافقين في وعدهم لبني النضير وغدرهم بهم وعاقبة بني النضير في اغترارهم بوعدهم الكاذب وإصرارهم على المشاقة والمخالفة ، ومعنى الآية ظاهر .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن إسحاق وابن المنذر وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس أن رهطاً من بني عوف بن الحارث منهم عبد الله بن أبي بن سلول ووديعة بن مالك وسويد وداعس بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لا نسلمكم وإن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن خرجتم خرجنا معكم فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا وقذف الله الرعب في قلوبهم .

فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ففعل فكان الرجل منهم يهدم بيته فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به

فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام .

أقول : والرواية تخالف ما في عدة من الروايات أن النبي ﷺ هو الذي عرض لهم أن يخرجوا بما تحمله الإبل من الأموال فلم يقبلوا ثم رضوا بذلك بعد أيام فلم يقبل النبي ﷺ إلا أن يخرجوا بأنفسهم وأهليهم من غير أن يحملوا شيئاً فخرجوا كذلك وجعل النبي ﷺ لكل ثلاثة منهم بعيراً وسقاء .

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس « ألم تر إلى الذين نافقوا » قال : عبد الله بن أبي ابن سلول ورفاعة بن تابوت وعبد الله بن نبتل وأوس بن قيظى. « وإخوانهم » بنو النضير.

أقول : المراد به عد بعضهم فلا ينافي ما في الرواية السابقة .

وفيه أخرج ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن عبيد بن رفاعة الدارمي يبلغ به النبي ﷺ قال : كان راهب في بني إسرائيل فأخذ الشيطان جارية فخنقها فألقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب فاتي بها الراهب فأبى أن يقبلها فلم يزالوا به حتى قبلها فكانت عنده .

فأتاه الشيطان فوسوس له وزين له فلم يزل به حتى وقع عليها فلما حملت وسوس له الشيطان فقال : الآن تفتضح يأتيك أهلها فاقتلها فإن أتوك فقل : ماتت فقتلها ودفنها فأتى الشيطان أهلها فوسوس اليهم وألقى في قلوبهم أنه أحبلها ثم قتلها فأتاه أهلها فسألوه فقال : ماتت فأخذوه .

فأتاه الشيطان فقال : أنا الذي ألقيت في قلوب أهلها ، وأنا الذي أوقعتك في هذا فاطعني تنج واسجد لي سجدتين فسجد له سجدتين فهو الذي قال الله : « كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر » الآية .

أقول : والقصة مشهورة رويت مختصرة ومفصلة في روايات كثيرة .

* * *

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ـ ١٨ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ

نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ــ ١٩ . لاَ يَسْتَوِي
أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ــ ٢٠ .
لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ
اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ــ ٢١ . هُوَ اللهُ
الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ــ ٢٢ .
هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ
الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ــ ٢٣ . هُوَ اللهُ
الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ــ ٢٤ .

(بيان)

الذي تتضمنه الآيات الكريمة كالنتيجة المأخوذة مما تقدم من آيات السورة فقد أشير فيها إلى مشاقة بني النضير من اليهود ونقضهم العهد وذاك الذي أوقعهم في خسران دنياهم وأخراهم ، وتحريض المنافقين لهم على مشاقة الله ورسوله وهو الذي أهلكهم ، وحقيقة السبب في ذلك أنهم لم يراقبوا الله في أعمالهم ونسوه فأنساهم أنفسهم فلم يختاروا ما فيه خير أنفسهم وصلاح عاجلهم وآجلهم فتاهوا وهلكوا .

فعلى من آمن بالله ورسوله واليوم الآخر أن يذكر ربه ولا ينساه وينظر فيما يقدمه من العمل ليوم الرجوع إلى ربه فإن ما عمله محفوظ عليه يحاسبه به الله يومئذ فيجازيه عليه جزاء لازماً لا يفارقه .

وهذا هو الذي يرومه قوله : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد » الآيات فتندب المؤمنين إلى أن يذكروا الله سبحانه ولا ينسوه وينظروا في أعمالهم

التي على صلاحها وطلاحها يدور رحى حياتهم الآخرة فيراقبوا أعمالهم أن تكون صالحة خالصة لوجهه الكريم مراقبة مستمرة ثم يحاسبوا أنفسهم فيشكروا الله على ما عملوا من حسنة ويوبّخوها ويزجروها على ما اقترفت من سيئة ويستغفروا .

وذكر الله تعالى بما يليق بساحة عظمته وكبريائه من أسمائه الحسنى وصفاته العليا التي بيّنها القرآن الكريم فيتعليمه هو السبيل الوحيد الذي ينتهي بسالكه إلى كمال العبودية ولا كمال للإنسان فوقه .

وذلك أن الإنسان عبد محض ومملوك طلق لله سبحانه فهو مملوك من كل جهة مفروضة لا استقلال له من جهة كما أنه تعالى مالكه من كل جهة مفروضة له الاستقلال من كل جهة ، وكمال الشيء محوضته في نفسه وآثاره فكمال الإنسان في أن يرى نفسه مملوكاً لله من غير استقلال وأن يتصف من الصفات بصفات العبودية كالخضوع والخشوع والذلة والاستكانة والفقر بالنسبة إلى ساحة العظمة والعزة والغنى وأن تجري أعماله وأفعاله على ما يريده الله لا ما يهواه نفسه من غير غفلة في شيء من هذه المراحل : الذات والصفات والأفعال .

ولا يتمّ له النظر إلى ذاته وصفاته وأفعاله بنظرة التبعية المحضة والمملوكية الطلقة إلا مع التوجه الباطني إلى ربه الذي هو على كل شيء شهيد وبكل شيء محيط وهو القائم على كل نفس بما كسبت من غير أن يغفل عنه أو ينساه .

وعندئذ يطمئن قلبه كما قال تعالى : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » الرعد : ٢٨ ، ويعرف الله سبحانه بصفات كماله التي تتضمنها أسماؤه الحسنى ، ويظهر منه قبال ذلك صفات عبوديته وجهات نقصه من خضوع وخشوع وذلة وفقر وحاجة .

ويتعقب ذلك أعماله الصالحة بدوام الحضور واستمرار الذكر ، قال تعالى : « واذكر ربك فينفسك تضرُّعاً وخيفة ودون الجهر منالقول بالغدوّ والآصال ولا تكن منالغافلين إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون » الأعراف : ٢٠٦ وقال : « فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون » حم السجدة : ٣٨ .

وإلى ما ذكرنا من معرفته تعالى بصفات كماله ومعرفة النفس بما يقابلها من صفات النقص والحاجة يشير بمقتضى السياق قوله : « لو أنزلنا هذا القرآن » إلى آخر الآيات .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد » إلى آخر

الآية» أمر للمؤمنين بتقوى الله وبأمر آخر وهو النظر في الأعمال التي قدموها ليوم الحساب أهي صالحة فليرج بها ثواب الله أو طالحة فليخشَ عقاب الله عليها ويتداركها بالتوبة والإنابة وهو محاسبة النفس .

أما التقوى وقد فسّر في الحديث بالورع عن محارم الله فحيث تتعلق بالواجبات والمحرمات جميعاً كانت هي الاجتناب عن ترك الواجبات وفعل المحرمات .

وأما النظر فيما قدمت النفس لغد فهو أمر آخر وراء التقوى نسبته إلى التقوى كنسبة النظر الإصلاحي ثانياً من عامل في عمله أو صانع فيما صنعه لتكميله ورفع نواقصه التي غفل عنها أو أخطأ فيها حين العمل والصنع .

فعلى المؤمنين جميعاً أن يتقوا الله فيما وجّه اليهم من التكاليف فيطيعوه ولا يعصوه ثم ينظروا فيما قدموه من الأعمال التي يعيشون بها في غد بعد ما حوسبوا بها أصالح فيرجى ثوابه أم طالح فيخاف عقابه فيتوبوا إلى الله ويستغفروه .

وهذا تكليف عام يشمل كل مؤمن لحاجة الجميع إلى إصلاح العمل وعدم كفاية نظر بعضهم عن نظر الآخرين غير أن القائم به من أهل الإيمان في نهاية القلة بحيث يكاد يلحق بالعدم وإلى ذلك يلوح لفظ الآية « ولتنظر نفس » .

فقوله : « ولتنظر نفس ما قدّمت لغد » خطاب عام لجميع المؤمنين لكن لما كان المشتغل بهذا النظر من بين أهل الإيمان بل من بين أهل التقوى منهم في غاية القلة بل يكاد يلحق بالعدم لاشتغالهم بأعراض الدنيا واستغراق أوقاتهم في تدبير المعيشة وإصلاح امور الحياة ألقى الخطاب في صورة الغيبة وعلّقه بنفس مّا منكّرة فقال : « ولتنظر نفس » وفي هذا النوع من الخطاب مع كون التكليف عاماً بحسب الطبع عتاب وتقريع للمؤمنين مع التلويح إلى قلة من يصلح لامتثاله منهم .

وقوله : « ما قدّمت لغد » استفهام من ماهية العمل الذي قدّمت لغد وبيان للنظر ، ويمكن أن تكون « ما » موصولة وهي وصلتها متعلقاً بالنظر .

والمراد بغد يوم القيامة وهو يوم حساب الأعمال وإنما عبّر عنه بغد للإشارة إلى قربه منهم كقرب الغد من أمسه ، قال تعالى : « إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً » المعارج : ٧ .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله بطاعته في جميع ما يأمركم به وينهاكم عنه ، ولتنظر نفس منكم فيما عملته من عمل ولترَ ما الذي قدمته من عملها ليوم الحساب أهو

عمل صالح أو طالح وهل عملها الصالح صالح مقبول أو مردود .

وقوله : « واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » أمر بالتقوى ثانياً و « إن الله خبير » الخ ، تعليل له وتعليل هذه التقوى بكونه تعالى خبيراً بالأعمال يعطي أن المراد بهذه التقوى المأمور بها ثانياً هي التقوى في مقام المحاسبة والنظر فيها من حيث إصلاحها وإخلاصها لله سبحانه وحفظها عما يفسدها ، وأما قوله في صدر الآية : « اتقوا الله » فالمراد به التقوى في أصل إتيان الأعمال بقصرها في الطاعات وتجنّب المعاصي .

ومن هنا تبيّن أن المراد بالتقوى في الموضعين مختلف فالاولى هي التقوى في أصل إتيان الأعمال ، والثانية هي التقوى في الأعمال المأتيّة من حيث إصلاحها وإخلاصها .

وظهر أيضاً أن قول بعضهم : إن الاولى للتوبة عما مضى من الذنوب والثانية لاتقاء المعاصي في المستقبل غير سديد ومثله ما قيل : إن الاولى في أداء الواجبات والثانية في ترك المحرمات ، ومثله ما قيل : إن الأمر الثاني لتأكيد الأمر الأول فحسب .

قوله تعالى : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » الخ ، النسيان زوال صورة المعلوم عن النفس بعد حصولها فيها مع زوال مبدئه ويتوسع فيه مطلق على مطلق الإعراض عن الشيء بعدم ترتيب الأثر عليه قال تعالى : « وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين » الجاثية : ٣٤ .

والآية بحسب لب معناها كالتأكيد لمضمون الآية السابقة كأنه قيل : قدموا ليوم الحساب والجزاء عملاً صالحاً تحيى به أنفسكم ولا تنسوه . ثم لما كان سبب نسيان النفس نسيان الله تعالى إذ بنسيانه تعالى تنسى أسماؤه الحسنى وصفاته العليا التي ترتبط بها صفات الإنسان الذاتية من الذلة والفقر والحاجة فيتوهم الإنسان نفسه مستقلة في الوجود ويخيل اليه أن له لنفسه حياة وقدرة وعلماً وسائر ما يتراءى له من الكمال ، ونظراؤه في الاستقلال سائر الأسباب الكونية الظاهرية تؤثر فيه وتتأثر عنه .

وعند ذلك يعتمد على نفسه وكان عليه أن يعتمد على ربه ويرجو ويخاف الأسباب الظاهرية وكان عليه أن يرجو ويخاف ربه ، يطمئن إلى غير ربه وكان عليه أن يطمئن إلى ربه .

وبالجملة ينسى ربه والرجوع اليه ويعرض عنه بالإقبال إلى غيره ، ويتفرع عليه أن ينسى نفسه فإن الذي يخيل اليه من نفسه أنه موجود مستقل الوجود يملك ما ظهر فيه

من كمالات الوجود واليه تدبير أمره مستمداً مما حوله من الأسباب الكونية وليس هذا هو الإنسان بل الإنسان موجود متعلق الوجود جهل كله عجز كله ذلة كله فقر كله وهكذا ، وما له من الكمال كالوجود والعلم والقدرة والعزة والغنى وهكذا فلربه وإلى ربه انتهاؤه ونظراؤه في ذلك سائر الأسباب الكونية .

والحاصل لما كان سبب نسيان النفس نسيان الله تعالى حول النهي عن نسيان النفس في الآية إلى النهي عن نسيانه تعالى لأن انقطاع المسبب بانقطاع سببه أبلغ وآكد ، ولم يقنع بمجرد النهي الكلي عن نسيانه بأن يقال : ولا تنسوا الله فينسيكم أنفسكم بل جرى بمثل إعطاء الحكم بالمثال ليكون أبلغ في التأثير وأقرب إلى القبول فنهاهم أن يكونوا كالذين نسوا الله مشيراً به إلى من تقدم ذكرهم من يهود بني النضير وبني قينقاع ومن حاله حالهم في مشاقة الله ورسوله .

فقال : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله » ثم فرع عليه قوله : « فأنساهم أنفسهم » تفريع المسبب على سببه ثم عقبه بقوله : « أولئك هم الفاسقون » فدل على أنهم فاسقون حقاً خارجون عن زي العبودية .

والآية وإن كانت تنهى عن نسيانه تعالى المتفرع عليه نسيان النفس لكنها بورودها في سياق الآية السابقة تأمر بذكر الله ومراقبته .

فقد بان من جميع ما تقدم في الآيتين أن الآية الاولى تأمر بمحاسبة النفس والثانية تأمر بالذكر والمراقبة .

قوله تعالى : « لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون » قال الراغب : الفوز الظفر بالخير مع حصول السلامة ، انتهى . والسياق يشهد بأن المراد بأصحاب النار هم الناسون لله وبأصحاب الجنة هم الذاكرون لله المراقبون .

والآية حجة تامة على وجوب اللحوق بالذاكرين لله المراقبين له دون الناسين ، تقريرها أن هناك قبيلين لا ثالث لهما وهما الذاكرون لله والناسون له لا بد للإنسان أن يلحق بأحدهما وليسا بمساويين حتى يتساوى اللحوقان ولا يبالي الانسان بأيهما لحق ؟ بل هناك راجح ومرجوح يجب اختيار الراجح على المرجوح والرجحان لقبيل الذاكرين لأنهم الفائزون لا غير فالترجيح لجانبهم فمن الواجب لكل نفس أن يختار اللحوق بقبيل الذاكرين .

قوله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » الخ ، في المجمع : التصدع التفرق بعد التلاؤم ومثله التفطر انتهى .

والكلام مسوق سوق المثل مبني على التخييل والدليل عليه قوله في ذيل الآية: « وتلك الأمثال نضربها للناس » الخ .

والمراد تعظيم أمر القرآن بما يشتمل عليه من حقائق المعارف وأصول الشرائع والعبر والمواعظ والوعد والوعيد وهو كلام الله العظيم ، والمعنى : لو كان الجبل مما يجوز أن ينزل عليه القرآن فأنزلناه عليه لرأيته – مع ما فيه من الغلظة والقسوة وكبر الجسم وقوة المقاومة قبال النوازل – متأثراً متفرقاً من خشية الله فإذا كان هذا حال الجبل بما هو عليه فالإنسان أحق بأن يخشع لله إذا تلاه أو تُلي عليه ، وما أعجب حال أهل المشاقة والعناد لا تلين قلوبهم له ولا يخشعون ولا يخشون .

والالتفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة في قوله: « من خشية الله » للدلالة على علة الحكم فإنما يخشع ويتصدع الجبل بنزول القرآن لأنه كلام الله عز اسمه .

وقوله: « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » من وضع الحكم الكلي موضع الجزئي للدلالة على أن الحكم ليس ببدع في مورده بل جارٍ سارٍ في موارد اخرى كثيرة .

فقوله : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل » الخ ، مثل ضربه الله للناس في أمر القرآن لتقريب عظمته وجلالة قدره بما أنه كلام لله تعالى وبما يشتمل عليه من المعارف رجاء أن يتفكر فيه الناس فيتلقوا القرآن بما يليق به من التلقي ويتحققوا بما فيه من الحق الصريح ويهتدوا إلى ما يهدي اليه من طريق العبودية التي لا طريق إلى كمالهم وسعادتهم وراءها ، ومن ذلك ما ذكر في الآيات السابقة من المراقبة والمحاسبة .

قوله تعالى : « هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم » هذه الآية والآيتان بعدها وإن كانت مسوقة لتعداد قبيل من أسمائه تعالى الحسنى والإشارة إلى تسميته تعالى بكل اسم أحسن وتنزهه بشهادة ما في السماوات والأرض لكنها بانضمامها إلى ما مرّ من الأمر بالذكر تفيد أن على الذاكرين أن يذكروه بأسمائه الحسنى فيعرفوا أنفسهم بما يقابلها من أسماء النقص ، فافهم ذلك .

وبانضمامها إلى الآية السابقة وما فيها من قوله : « من خشية الله » تفيد تعليل خشوع الجبل وتصدُّعه من خشية الله كأنه قيل: وكيف لا وهو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب

والشهادة ، إلى آخر الآيات .

وقوله : « هو الله الذي لا إله إلا هو » يفيد الموصول والصلة معنى اسم من أسمائه وهو وحدانيته تعالى في ألوهيته ومعبوديته ، وقد تقدم بعض ما يتعلق بالتهليل في تفسير قوله تعالى : « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو » البقرة : ١٦٣ .

وقوله : « عالم الغيب والشهادة » الشهادة هي المشهود الحاضر عند المدرك والغيب خلافها وهما معنيان إضافيان فمن الجائز أن يكون شيء شهادة بالنسبة إلى شيء وغيباً بالنسبة إلى آخر ويدور الأمر مدار نوع من الإحاطة بالشيء حساً أو خيالاً أو عقلاً أو وجوداً وهو الشهادة وعدمها وهو الغيب ،وكل ما فرض من غيب أو شهادة فهو من حيث هو محاط له تعالى معلوم فهو تعالى عالم الغيب والشهادة وغيره لا علم له بالغيب لمحدودية وجوده وعدم إحاطته إلا ما علّمه تعالى كما قال : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » الجن : ٢٧ ، وأما هو تعالى فغيب على الإطلاق لا سبيل إلى الإحاطة به لشيء أصلاً كما قال : « ولا يحيطون به علماً » .

وقوله: « هو الرحمن الرحيم » قد تقدم الكلام في معنى الاسمين في تفسير سورة الفاتحة .

قوله تعالى : « هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر » الخ ، الملك هو المالك لتدبير أمر الناس والحكم فيهم ، والقدّوس مبالغة في القدس وهو النزاهة والطهارة ، والسلام من يلاقيك بالسلامة والعافية من غير شرّ وضرّ ، والمؤمن الذي يعطي الأمن ، والمهيمن الفائق المسيطر على الشيء .

والعزيز الغالب الذي لا يغلبه شيء أو من عنده ما عند غيره من غير عكس ، والجبار مبالغة من جبر الكسر أو الذي تنفذ إرادته ويجبر على ما يشاء ، والمتكبر الذي تلبّس بالكبرياء وظهر بها .

وقوله : « سبحان الله عما يشركون » ثناء عليه تعالى كما في قوله : « وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه » البقرة : ١١٦ .

قوله تعالى : « هو الله الخالق البارىء المصوّر » إلى آخر الآية ، الخالق هو الموجد للأشياء عن تقدير ، والبارىء المنشىء للأشياء ممتازاً بعضها من بعض ، والمصور المعطي لها صوراً يمتاز بها بعضها من بعض ، والأسماء الثلاثة تتضمن معنى الإيجاد باعتبارات مختلفة وبينها ترتب فالتصوير فرع البرء والبرء فرع الخلق وهو ظاهر .

وإنما صدّر الآيتين السابقتين بقوله : « الذي لا إله هو » فوصف به « الله » وعقبه بالأسماء بخلاف هذه الآية إذ قال : « هو الله الخالق » الخ .

لأن الأسماء الكريمة المذكورة في الآيتين السابقتين وهي أحد عشر اسماً من لوازم الربوبية ومالكية التدبير التي تتفرع عليها الالوهية والمعبودية بالحق وهي على نحو الأصالة والاستقلال لله سبحانه وحده لا شريك له في ذلك فاتصافه تعالى وحده بها يستوجب اختصاص الالوهية واستحقاق المعبودية به تعالى .

فالأسماء الكريمة بمنزلة التعليل لاختصاص الالوهية به تعالى كأنه قيل لا إله إلا هو لأنه عالم الغيب والشهادة هو الرحمان الرحيم ، ولذا أيضاً ذيل هذه الأسماء بقوله ثناء عليه : « سبحان الله عما يشركون » رداً على القول بالشركاء كما يقوله المشركون .

وأما قوله : « هو الله الخالق البارىء المصور » فالمذكور فيه من الأسماء يفيد معنى الخلق والإيجاد واختصاص ذلك به تعالى لا يستوجب اختصاص الالوهية به كما يدل عليه أن الوثنيين قائلون باختصاص الخلق والإيجاد به تعالى وهم مع ذلك يدعون من دونه أرباباً وآلهة ويثبتون له شركاء .

وأما وقوع اسم الجلالة في صدر الآيات الثلاث جميعاً فهو علم للذات المستجمع لجميع صفات الكمال يرتبط به ويجري عليه جميع الأسماء وفي التكرار مزيد تأكيد وتثبيت للمطلوب .

وقوله : « له الأسماء الحسنى » إشارة إلى بقية الأسماء الحسنى عن آخرها لكون الأسماء جمعاً محلي باللام وهو يفيد العموم .

وقوله : « يسبح له ما في السماوات والأرض » أي جميع ما في العالم من المخلوقات حتى نفس السماوات والأرض وقد تقدم توضيح معنى الجملة مراراً .

ثم ختم الآيات بقوله : « وهو العزيز الحكيم » أي الغالب غير المغلوب الذي فعله متقن لا مجازفة فيه فلا يعجزه فيما شرعه ودعا اليه معصية العاصين ولا مشاقة المعاندين ولا يضيع عنده طاعة المطيعين وأجر المحسنين .

والعناية إلى ختم الكلام بالاسمين والإشارة بذلك إلى كون القرآن النازل من عنده كلام عزيز حكيم هو الذي دعا إلى تكرار اسمه العزيز وذكره مع الحكيم مع تقدم ذكره بين الأسماء .

وقد وصف القرآن أيضاً بالعزة والحكمة كما قال : « وإنه لكتاب عزيز » حم السجدة: ٤١ ، وقال : « والقرآن الحكيم » يس : ٢ .

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى : « عالم الغيب والشهادة » عن أبي جعفر عليه السلام قال : الغيب ما لم يكن والشهادة ما قد كان .

أقول : وهو تفسير ببعض المصاديق ، وقد أوردنا أحاديث عنهم عليهم السلام في معنى اسم الجلالة والاسمين الرحمان الرحيم في ذيل تفسير البسملة من سورة الفاتحة .

وفي التوحيد بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في حديث : لم يزل حياً بلا حياة وملكاً قادراً قبل أن ينشىء شيئاً وملكاً جباراً بعد إنشائه للكون .

أقول : قوله : لم يزل حياً بلا حياة أي بلا حياة زائدة على الذات ، وقوله : لم يزل ملكاً قادراً قبل أن ينشيء شيئاً إرجاع للملك وهو من صفات الفعل إلى القدرة وهي من صفات الذات ليستقيم تحققه قبل الإيجاد .

وفي الكافي بإسناده عن هشام الجواليقي قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: « سبحان الله » ما يعني به ؟ قال : تنزيه .

وفي نهج البلاغة : والخالق لا بمعنى حركة ونصب .

أقول : وقد أوردنا عدة من الروايات في الأسماء الحسنى وإحصائها في البحث عن الأسماء الحسنى في الجزء الثامن من الكتاب .

وفي النبوي المشهور : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا قبل أن توزنوا وتجهزوا للعرض الأكبر .

وفي الكافي بإسناده إلى أبي الحسن الماضي عليه السلام قال : ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم فإن عمل حسناً ازداد لله شكراً وإن عمل سيئاً استغفر الله وتاب إليه .

أقول : وفيما يقرب من هذا المعنى روايات أخر ، وقد أوردنا روايات عنهم عليهم السلام في معنى ذكر الله في ذيل تفسير قوله تعالى : « فاذكروني أذكركم » الآية البقرة : ١٥٢ ، وقوله : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً » الأحزاب ٢١ ، فليراجعها من شاء .

(سورة الممتحنة مدنية ، وهي ثلاث عشرة آية)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا
عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ
مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا
أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ
السَّبِيلِ – ١ . إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ
أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ – ٢ . لَنْ تَنْفَعَكُمْ
أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ – ٣ . قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ
إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا
بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ
وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ
اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ – ٤ .
رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ – ٥ . لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا

اللهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ــ ٦ .
عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ
وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ــ ٧ . لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي
الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ
يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ــ ٨ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ
وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ
يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ــ ٩ .

(بيان)

تذكر السورة موالاة المؤمنين لأعداء الله من الكفار ومودّتهم وتشدّد النهي عن ذلك تفتتح به وتختتم وفيها شيء من أحكام النساء المهاجرات وبيعة المؤمنات ، وكونها مدنية ظاهر .

قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودّة» الخ ، سياق الآيات يدلّ على أن بعض المؤمنين من المهاجرين كانوا يسرّون المودّة إلى المشركين بمكة ليحموا بذلك من بقي من أرحامهم وأولادهم بمكة بعد خروجهم أنفسهم منها بالمهاجرة إلى المدينة فنزلت الآيات ونهاهم الله عن ذلك ، ويتأيد بهذا ما ورد أن الآيات نزلت في حاطب بن أبي بلتعة أسرّ كتاباً إلى المشركين بمكة يخبرهم فيه بعزم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الخروج اليها لفتحها ، فعل ذلك ليكون يداً له عليهم يقي بها من كان بمكة من أرحامه وأولاده فأخبر الله بذلك نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ونزلت ، وستوافيك قصته في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى .

فقوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء » العدو معروف ويطلق على الواحد والكثير والمراد في الآية هو الكثير بقرينة قوله : « أولياء » و« اليهم » وغير

ذلك ، وهم المشركون بمكة ، وكونهم عدوه من جهة اتخاذهم له شركاء يعبدونهم ولا يعبدون الله ويردّون دعوته ويكذبون رسوله ، وكونهم أعـداء للمؤمنين لإيمانهم بالله وتفديتهم أموالهم وأنفسهم في سبيله فمن يعادي الله يعاديهم .

وذكر عداوتهم للمؤمنين مع كفاية ذكر عداوتهم لله في سوق النهي لتأكيد التحذير والمنع كأنه قيل : من كان عدواً لله فهو عدو لكم فلا تتخذوه ولياً .

وقوله : « تلقون اليهم بالمودّة » بالمودّة مفعول « تلقون » والبـاء زائدة كما في قوله : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » البقرة : ١٩٥ ، والمراد بإلقـاء المودّة إظهارها أو إيصالها ، والجملة صفة أو حال من فاعل « لا تتخذوا » .

وقوله : « وقـد كفروا بما جاءكم من الحق » هو الدين الحق الذي يصفه كتاب الله ويدعو اليه النبي ﷺ ، والجملة حالية .

وقوله : « يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم » الجملة حالية والمراد بإخراج الرسول وإخراجهم اضطرارهم الرسول والمؤمنين إلى الخروج من مكة والمهـاجرة إلى المدينة ، و « أن تؤمنوا بالله ربكم » بتقدير اللام متعلق بيخرجون ، والمعنى : يجبرون الرسول وإياكم على المهاجرة من مكة لإيمانكم بالله ربكم .

وتوصيف الله بقوله : « ربكم » للاشارة إلى أنهم يؤاخذونهم على أمر حق مفروض ليس بجرم فإن إيمان الإنسان بربه مفروض عليه وليس من الجرم في شيء .

وقوله : « إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغـاء مرضاتي » متعلق بقوله : « لا تتخذوا » وجزاء الشرط محذوف يدل عليه المتعلق ، و « جهـاداً » مصدر مفعول له ، و « ابتغاء » بمعنى الطلب و « المرضاة » مصدر كالرضى ، والمعنى : لا تتخـذوا عدوي وعدوكم أولياء إن كنتم هاجرتم للمجاهدة في سبيلي ولطلب رضاي .

وتقييد النهي عن ولائهم واشتراطه بخروجهم للجهاد وابتغائهم مرضاته من باب اشتراط الحكم بأمر محقق الوقوع تأكيداً له وإيذاناً بالملازمة بين الشرط والحكم كقول الوالد لولده: إن كنت ولدي فلا تفعل كذا .

وقوله : « تسرّون اليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم » أسررت اليه حديثاً أي أفضيت اليه في خفية فمعنى « تسرون اليه بالمودة » تطلعونهم على مـا تسرون من مودتهم – على ما قاله الراغب – والإعلان خلاف الإخفاء ، و « أنا أعلم » الخ ، حال من

فاعل « تسرون » و « أعلم » اسم تفضيل ، واحتمل بعضهم أن يكون فعل المتكلم وحده من المضارع متعدياً بالباء لأن العلم ربما يتعدى بها .

وجملة : « تسرون اليهم » الخ ، استئناف بيانية كأنه قيل بعد استماع النهي السابق : ماذا فعلنا فاجيب : تطلعونهم سراً على مودتكم لهم وأنا أعلم بما أخفيتم وما أظهرتم أي أنا أعلم بقولكم وفعلكم علماً يستوي بالنسبة اليه إخفاؤكم وإظهاركم .

ومنه يعلم أن قوله : « بما أخفيتم وما أعلنتم » معاً يفيدان معنى واحداً وهو استواء الإخفاء والإعلان عنده تعالى لإحاطته بما ظهر وما بطن فلا يرد أن ذكر «ما أخفيتم» يغني عن ذكر « ما أعلنتم » لأن العالم بما خفي عالم بما ظهر بطريق أولى .

وقوله : « ومن يفعل ذلك منكم فقد ضلّ سواء السبيل » الإشارة بذلك إلى أسرار المودة اليهم وهو الموالاة ، و « سواء السبيل » من إضافة الصفة إلى الموصوف أي السبيل السوي والطريق المستقيم وهو مفعول« ضل » أو منصوب بنزع الخافض والتقدير فقد ضل عن سواء السبيل ، والسبيل سبيل الله تعالى .

قوله تعالى : « إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء » الخ ، قال الراغب : الثقف – بالفتح فالسكون – الحذق في إدراك الشيء وفعله . قال : ويقـــال : ثقفت كذا إذا أدركته ببصرك لحذق في النظر ثم يتجوز به فيستعمل في الإدراك وإن لم يكن معه ثقافة . انتهى. وفسره غيره بالظفر ولعله بمعونة مناسبة المقام ، والمعنيان متقاربان .

والآية مسوقة لبيان أنه لا ينفعهم الإسرار بالمودة للمشركين في جلب محبتهم ورفع عداوتهم شيئاً وأن المشركين على الرغم من إلقاء المودة اليهم إن يدركوهم ويظفروا بهم يكونوا لهم أعداء من دون أن يتغير ما في قلوبهم من العداوة .

وقوله :« ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون » بمنزلة عطف التفسير لقوله : « يكونوا لكم أعداء » وبسط الأيدي بالسوء كناية عن القتل والسبي وسائر أنحاء التعذيب وبسط الألسن بالسوء كناية عن السب والشتم .

والظاهر أن قوله : « وودوا لو تكفرون » عطف على الجزاء والماضي بمعنى المستقبل كما يقتضيه الشرط والجزاء ، والمعنى: أنهم يبسطون اليكم الأيدي والألسن بالسوء ويودون بذلك لو تكفرون كما كانوا يفتنون المؤمنين بمكة ويعذبونهم يودون بذلك أن يرتدوا عن دينهم . والله أعلم .

قوله تعالى : « لن ينفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة » دفع لما ربما يمكن أن يتوهم عذراً لإلقاء المودة اليهم أن في ذلك صيانة لأرحامهم وأولادهم الذين تركوهم بمكة بين المشركين من أذاهم .

والجواب أن أمامكم يوماً تجازون فيه على معصيتكم وطالح عملكم ومنه موالاة الكفار ولا ينفعكم اليوم أرحامكم ولا أولادكم الذين قدمتم صيانتهم من أذى الكفار على صيانة أنفسكم من عذاب الله بترك موالاة الكفار .

وقوله : « يفصل بينكم » أي يفصل الله يوم القيامة بينكم بتقطع الأسباب الدنيوية كما قال تعالى : « فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ » المؤمنون : ١٠١ ، وذلك أن القرابة وهي انتهاء إنسانين أو أكثر إلى رحم واحدة إنما تؤثر آثارها من الرحمة والمودة والالفة والمعاونة والمعاضدة والعصبية والخدمة وغير ذلك من الآثار في ظرف الحياة الاجتماعية التي تسوق الإنسان اليه حاجته اليها بالطبع بحسب الآراء والعقائد الاعتبارية التي أوجدها فيه فهمه الاجتماعي ، ولا خبر عن هذه الآراء في الخارج عن ظرف الحياة الاجتماعية .

وإذا برزت الحقائق وارتفع الحجاب وانكشف الغطاء يوم القيامة ضلت عن الإنسان هذه الآراء والمزاعم وانقطعت روابط الاستقلال بين الأسباب ومسبباتها كما قال تعالى : « لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون » الأنعام : ٩٤ ، وقال : « ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب » البقرة : ١٦٦ .

فيومئذ تنقطع رابطة الأنساب ولا ينتفع ذو قرابة من قرابته شيئاً فلا ينبغي للإنسان أن يخون الله ورسوله بموالاة أعداء الدين لأجل أرحامه وأولاده فليسوا يغنونه عن الله يومئذ .

وقيل : المراد أنه يفرق الله بينكم يوم القيامة بما فيه من الهول الموجب لفرار كل منكم من الآخر حسبما نطق به قوله تعالى: «يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرء منهم يومئذ شأن يغنيه » عبس : ٣٧ ، والوجه السابق أنسب للمقام .

وقيل : المراد أنه يميز بعضكم يومئذ من بعض فيدخل أهل الإيمان والطاعة الجنة ، وأهل الكفر والمعصية النار ولا يرى القريب المؤمن في الجنة قريبه الكافر في النار .

وفيه أنه وإن كان لا بأس به في نفسه لكنه غير مناسب للمقام إذ لا دلالة في المقام على

كفر أرحامهم وأولادهم .

وقيل : المراد بالفصل فصل القضاء والمعنى : أن الله يقضي بينكم يوم القيامة .

وفيه ما في سابقه من عدم المناسبة للمورد فإن فصل القضاء إنما يناسب الاختلاف كما في قوله تعالى : « إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » السجدة : ٢٠ ، ولا ارتباط في الآية بذلك .

وقوله : « والله بما تعملون بصير » متمم لقوله : « لن تنفعكم » كالمؤكد له والمعنى : لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة في رفع تبعة هذه الخيانة وأمثالها والله بما تعملون بصير لا يخفى عليه ما هي هذه الخيانة فيؤاخذكم عليها لا محالة .

قوله تعالى : « قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه » إلى آخر الآيتين ، والخطاب للمؤمنين ، والاسوة الاتباع والإقتداء ، وفي قوله : « والذين معه بظاهره دلالة على أنه كان معه من آمن به غير زوجته ولوط .

وقوله : « إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله » أي إنا بريؤن منكم ومن أصنامكم بيان لما فيه الاسطورة والإقتداء .

وقوله : « كفرنا بكم وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده » بيان لمعنى البراءة بأثرها وهو الكفر بهم وعداوتهم مـا داموا مشركين حتى يوحدوا الله سبحانه .

والمراد بالكفر بهم الكفر بشركهم بدليل قولـه : « حتى تؤمنوا بالله وحده » ، والكفر بشركهم مخالفتهم فيه عملاً كما أن العداوة بينونة ومخالفة قلباً .

فقد فسروا براءتهم منهم بامور ثلاثة : مخالفتهم لشركهم عملاً ، والعداوة والبغضاء بينهم قلباً ، واستمرار ذلك ما داموا على شركهم إلا أن يؤمنوا بالله وحده .

وقوله : « إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء » ، استثناء مما تدل عليه الجمل المتقدمة أن إبراهيم والذين معه تبرؤا من قومهم المشركين قولاً مطلقاً . وقطعوا أي رابطة تربطهم بالقوم وتصل بينهم إلا مـــا قال إبراهيم لأبيه : « لأستغفرن لك » الخ .

ولم يكن قوله : « لأستغفرن لك » تولياً منه بل وعداً وعده إياه رجاء أن يتوب عن الشرك ويؤمن بالله وحده كما يدل عليه قوله تعالى : « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا

عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه » التوبة : ١١٤ ، حيث يفيد أنه عليه السلام إنما وعده لأنه لم يتبين له بعد أنه عدو لله راسخ في عداوته ثابت في شركه فكان يرجو أن يرجع عن شركه ويطمع في أن يتوب ويؤمن فلما تبين له رسوخ عداوته ويئس من إيمانه تبرأ منه .

على أن قوله تعالى في قصة محاجته أباه في سورة مريم : « قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا وأعتزلكم وما تدعون من دون الله » مريم : ٤٨ ، يتضمن وعده أباه بالإستغفار وإخباره بالاعتزال ولو كان وعده الاستغفار توليا منه لأبيه لكان من الحري أن يقول : وأعتزل القوم ، لا أن يقول : وأعتزلكم فيدخل أباه فيمن يعتزلهم وليس الاعتزال إلا التبري .

فالاستثناء استثناء متصل من أنهم لم يكلموا قومهم إلا بالتبري والمحصل من المعنى : أنهم إنما ألقوا اليهم القول بالتبري إلا قول إبراهيم لأبيه : لأستغفرن لك فلم يكن تبريا ولا توليا بل وعدا وعده أباه رجاء أن يؤمن بالله .

وههنا شيء وهو أن مؤدّى آية التوبة «فلما تبيّن له أنه عدو لله تبرّء منه» أن تبرّيه الجازم إنما كان بعد الوعد وبعد تبين عداوته لله ، وقوله تعالى في الآية التي نحن فيها : « إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم » إخبار عن تبريهم الجازم القاطع فيكون ما وقع في الاستثناء من قول إبراهيم لأبيه وعداً واقعاً قبل تبريه الجازم ومن غير جنس المستثنى منه فيكون الاستثناء منقطعاً لا متصلاً .

وعلى تقدير كون الاستثناء منقطعاً يجوز أن يكون الاستثناء من قوله : « قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه » بما أنه مقيد بقوله : « إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم » ، والمعنى : قد كان لكم اقتداء حسن بتبري إبراهيم والذين معه من قومهم إلا أن إبراهيم قال لأبيه كذا وكذا وعداً .

وأما على تقدير كون الاستثناء متصلاً فالوجه ما تقدم ، وأما كون المستثنى منه هو قوله : « قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم » ، والمعنى : لكم في إبراهيم أسوة في جميع خصاله إلا في قوله لأبيه : « لأستغفرنّ لك » فلا أسوة فيه .

ففيه أن قوله : « لكم أسوة حسنة في إبراهيم » الخ ، غير مسوق لإيجاب التأسّي بإبراهيم عليه السلام في جميع خصاله حتى يكون الوعد بالاستغفار أو نفس الاستغفار – وذلك

من خصاله – مستثنى منها بل إنما سيق لإيجاب التأسي به في تبريه من قومه المشركين ، والوعد بالاستغفار رجاء للتوبة والإيمان ليس من التبري وإن كان ليس توليا أيضاً .

وقوله : « ولا أملك لك من الله شيئاً » تتمة قول إبراهيم عليه‌السلام ، وهو بيان لحقيقة الأمر من أن سؤاله المغفرة وطلبها من الله ليس من نوع الطلب الذي يملك فيه الطالب من المطلوب منه ما يطلبه ، وإنما هو سؤال يدعو اليه فقر العبودية وذلتها قبال غنى الربوبية وعزتها فلله تعالى أن يقبل بوجهه الكريم فيستجيب ويرحم ، وله أن يعرض ويمسك الرحمة فإنه لا يملك أحد منه تعالى شيئاً وهو المالك لكل شيء ، قال تعالى : « قل فمن يملك من الله شيئاً » المائدة : ١٧ .

وبالجملة قوله : « لا أملك » الخ ، نوع اعتراف بالعجز استدراكاً لما يستشعر من قوله : « لأستغفرن لك » من شائبة إثبات القدرة لنفسه نظير قول شعيب عليه‌السلام : « وما توفيقي إلا بالله » استدراكاً لما يشعر به قوله لقومه : « إن اريد إلا الإصلاح ما استطعت » هود : ٨٨ ، من إثبات القوة والاستطاعة لنفسه بالأصالة والاستقلال .

وقوله : « ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير » الخ ، من تمام القول المنقول عن إبراهيم والذين معه المندوب إلى التأسي بهم فيه ، وهو دعاء منهم لربهم وابتهال اليه إثر ما تبرؤا من قومهم ذاك التبري العنيف ليحفظهم من تبعاته ويغفر لهم فلا يخيبهم في إيمانهم .

وقد افتتحوا دعاءهم بمقدمة يذكرون فيها حالهم فيما هم فيه من التبري من أعداء الله فقالوا : « ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا » يعنون به أنّا كنا في موقف من الحياة تتمكن فيه أنفسنا وندبر فيه امورنا أما أنفسنا فأنبنا ورجعنا بها اليك وهو الإنابة ، وأما امورنا التي كان علينا تدبيرها فتركناها لك وجعلنا مشيّتك مكان مشيّتنا فأنت وكيلنا فيها تدبرها بما تشاء وكيف تشاء وهو التوكل .

ثم قالوا : « وإليك المصير » يعنون به أن مصير كل شيء من فعل أو فاعل فعل اليك فقد جرينا في توكلنا عليك وإنابتنا اليك مجرى ما عليه حقيقة الأمر من مصير كل شيء اليك حيث هاجرنا بأنفسنا اليك وتركنا تدبير امورنا لك .

وقوله : « ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا » متن دعائهم يسألونه تعالى أن يعيذهم من تبعة تبريهم من الكفار ويغفر لهم .

والفتنة ما يمتحن به ، والمراد بجعلهم فتنة للذين كفروا تسليط الكفار عليهم ليمتحنهم فيخرجوا ما في وسعهم من الفساد فيؤذوهم بأنواع الأذى أن آمنوا بالله ورفضوا آلهتهم وتبرؤا منهم ومما يعبدون .

وقد كرّروا نداءه تعالى – ربنا – في دعائهم مرة بعد مرة لإثارة الرحمة الإلهية.

وقوله : « إنك أنت العزيز الحكيم » أي غالب غير مغلوب متقن لأفعاله لا يعجز أن يستجيب دعاءهم فيحفظهم من كيد أعدائه ويعلم بأي طريق يحفظ .

وللمفسرين في تفسير الآيتين أنظار مختلفة اخرى أغمضنا عن إيرادها رعاية للاختصار من أرادها فليراجع المطوّلات .

قوله تعالى : « لقد كان لكم فيهم اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » الخ، تكرار حديث الاسوة لتأكيد الإيجاب ولبيان أن هذه الاسوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وأيضاً أنهم كما يتأسى بهم في تبرّيهم من الكفار كذلك يتأسى بهم في دعائهم وابتهالهم .

والظاهر أن المراد برجائه تعالى رجاء ثوابه بالإيمان به وبرجاء اليوم الآخر رجاء ما وعد الله وأعدّ للمؤمنين من الثواب ، وهو كناية عن الإيمان .

وقوله : « ومن يتولّ فإن الله هو الغني الحميد » استغناء منه تعالى عن امتثالهم لأمره بتبرّيهم من الكفار وأنهم هم المنتفعون بذلك والله سبحانه غني في ذاته عنهم وعن طاعتهم حميد فيما يأمرهم وينهاهم إذ ليس في ذلك إلا صلاح حالهم وسعادة حياتهم .

قوله تعالى : « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم » ضمير « منهم » للكفار الذين أمروا بمعاداتهم وهم كفار مكة ، والمراد بجعل المودة بين المؤمنين وبينهم جعلها بتوفيقهم للاسلام كما وقع ذلك لما فتح الله لهم مكة ، وليس المراد به نسخ حكم المعاداة والتبري .

والمعنى : مرجو من الله أن يجعل بينكم معشر المؤمنين وبين الذين عاديتم من الكفار وهم كفار مكة مودة بتوفيقهم للاسلام فتنقلب المعاداة مودة والله قدير والله غفور لذنوب عباده رحيم بهم إذا تابوا وأسلموا فعلى المؤمنين أن يرجوا من الله أن يبدّل معاداتهم مودة بقدرته ومغفرته ورحمته .

قوله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن

تبرّوهم وتقسطوا اليهم » الخ ، في هـــذه الآية والتي تتلوها توضيح للنهي الوارد في أول السورة ، والمراد بالذين لم يقاتلوا المؤمنين في الدين ولم يخرجوهم غـــير أهل مكة ممن لم يقاتلوهم ولم يخرجوهم من ديارهم من المشركين من أهل المعاهدة ، والبر والإحسان ، والإقساط المعاملة بالعدل ، و « أن تبرّوهم » بدل من « الذين » الخ ، وقوله : « إن الله يحب المقسطين » تعليل لقوله : « لا ينهاكم الله » الخ .

والمعنى : لا ينهاكم الله بقوله : « لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء » عن أن تحسنوا وتعاملوا بالعدل الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم لأن ذلك منكم إقساط والله يحب المقسطين .

قيل : إن الآية منسوخة بقوله : « اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » التوبة : ٥ ، وفيه أن الآية التي نحن فيها لا تشمل بإطلاقها إلا أهل الذمة وأهل المعاهدة وأمـــا أهل الحرب فلا ، وآية التوبة إنمـا تشمل أهل الحرب من المشركين دون أهل المعاهدة فكيف تنسخ ما لا يزاحمها في الدلالة .

قوله تعالى : « إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم » الخ ، المراد بالذين قاتلوكم الخ ، مشركوا مكة ، والمظاهرة على الإخراج المعاونة والمعاضدة عليه ، وقوله : « أن تولوهم » بدل من « الذين قاتلوكم » الخ.

وقوله : « ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون » قصر إفراد أي المتولون لمشركي مكة ومن ظاهرهم على المسلمين هم الظالمون المتمردون عن النهي دون مطلق المتولين للكفار أو تأكيد للنهي عن توليهم .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى: « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء » الآية : نزلت في حاطب بن أبي بلتعة ، ولفظ الآية عام ومعناها خاص وكان سبب ذلك أن حاطب بن أبي بلتعة قد أسلم وهاجر إلى المدينة وكان عياله بمكة ، وكانت قريش تخاف أن يغزوهم رسول الله ﷺ فصاروا إلى عيال حاطب وسألوهم أن يكتبوا إلى حاطب ويسألوه عن خبر محمد هل يريد أن يغزو مكة ؟

فكتبوا إلى حاطب يسألونه عن ذلك فكتب اليهم حاطب أن رسول الله ﷺ يريد ذلك ، ودفع الكتاب إلى امرأة تسمى صفية فوضعته في قرونها ومرّت فنزل جبرئيل على رسول الله ﷺ وأخبره بذلك .

فبعث رسول الله ﷺ أمير المؤمنين والزبير بن العوام في طلبها فلحقوها فقال لها أمير المؤمنين عليه السلام : أين الكتاب ؟ فقالت : ما معي شيء ففتشاها فلم يجدا معها شيئاً فقال الزبير : ما نرى معها شيئاً فقال أمير المؤمنين عليه السلام : والله ما كذبنا رسول الله ﷺ ، ولا كذب رسول الله ﷺ على جبرئيل ، ولا كذب جبرئيل على الله جل ثناؤه والله لتظهرن الكتاب أو لأردن رأسك إلى رسول الله ﷺ فقالت : تنحيا عني حتى أخرجه فأخرجت الكتاب من قرونها فأخذه أمير المؤمنين وجاء به إلى رسول الله ﷺ .

وقال رسول الله ﷺ : يا حاطب ما هذا ؟ فقال حاطب : والله يا رسول الله ما نافقت ولا غيرت ولا بدلت ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله حقاً ولكن أهلي وعيـــالي كتبوا إلى بحسن صنيع قريش اليهم فأحببت أن أجازي قريشاً بحسن معاشرتهم ، فأنزل الله على رسول الله ﷺ : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء – إلى قوله – والله بما تعملون بصير » .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والحميدي وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وأبو عوانة وابن حبان وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وأبو نعيم معاً في الدلائل عن علي قال : بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة [1] خاخ فإن بها ظعينة [2] معها كتاب فخذوه منها وأتوني به .

فخرجنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة فقلنا : أخرجي الكتاب . قالت : ما معي كتاب قلنا : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب فأخرجته من عقاصها .

فأتينا به النبي ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بتلعة إلى أناس من المشركين بمكة ، يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ فقال النبي ﷺ : ما هذا يا حاطب ؟ قال : لا تعجل عليّ يا رسول الله إني كنت امرءً ملصقاً من قريش ولم أكن من أنفسهـــا وكان من معك من

---

(١) موضع في طريق مكة .

(٢) الظعينة : المسافرة .

المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أصطنع اليهم يداً يحمون بها قرابتي وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني فقال النبي ﷺ : صدق .

فقال عمر : دعني يا رسول الله فأضرب عنقه فقال : إنه شهد بدراً وما يدريك لعلّ الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، ونزلت فيه « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة » .

أقول : وهذا المعنى مروي في عدة من الروايات عن نفر من الصحابة كأنس وجابر وعمر وابن عباس وجمع من التابعين كحسن وغيره .

والرواية من حيث متنها لا تخلو من بحث :

أما أولاً : فلأن ظاهرها بل صريحها أن حاطب بن أبي بلتعة كان يستحق بصنعه ما صنع القتل أو جزاء دون ذلك ، وإنما صرف عنه ذلك كونه بدرياً فالبدري لا يؤاخذ بما أتى به من معصية كما يصرح به قوله ﷺ لعمر في هذه الرواية : « إنه شهد بدراً » وفي رواية الحسن : إنهم أهل بدر فاجتنب أهل بدر إنهم أهل بدر فاجتنب أهل بدر إنهم أهل بدر فاجتنب أهل بدر .

ويعارضه ما في قصة الإفك أن النبي ﷺ بعد ما نزلت براءة عائشة حد مسطح بن أثاثة وكان من الآفكين ، وكان مسطح بن أثاثة هذا من السابقين الأولين من المهاجرين وممن شهد بدراً كما في صحيحي البخاري ومسلم وحده النبي ﷺ كما نطقت به الروايات الكثيرة الواردة في تفسير آيات الإفك .

وأما ثانياً : فلأن ما يشتمل عليه من خطابه تعالى لأهل بدر « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » الدال على كون كل ما أتوا به من ذنب مغفوراً لهم لا يتم بالبداهة إلا بارتفاع عامة التكاليف الدينية عنهم من واجب أو حرام أو مستحب أو مكروه ، ولا معنى لتعلق التكليف المولوي بأمر مع إلغاء تبعة مخالفته وتسوية الفعل والترك بالنسبة إلى المكلف كما يدل عليه قوله : « اعملوا ما شئتم » على بداهة ظهوره في الإباحة العامة .

ولازم ذلك :

أولاً : شمول المغفرة من المعاصي لما يحكم بداهة العقل على عدم شمول العفو له لولا التوبة كعبادة الأصنام والرد على الله ورسوله وتكذيب النبي والافتراء على الله ورسوله والاستهزاء

بالدين وأحكامه الثابتة بالضرورة، فإن الآيات المتعرضة لها الناهية عنها تأبى شمول المغفرة لها من غير توبة ، ومثلهـــا قتل النفس المحترمة ظلماً والفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل ، واستباحة الدماء والأعراض والأموال .

ومن المعلوم أن المحذور إمكان تعلق المغفرة بأمثال هـذه المعاصي والذنوب لا فعلية تعلقها بها فلا يدفع بأن الله سبحانه يحفظ هذا المكلف المغفور له من اقتراف أمثال هذه المعاصي والذنوب وإن كان غفر له لو اقترف .

وثانياً : أن يخصص قوله : « اعملوا مـا شئتم » عمومات جميع الأحكام الشرعية من عبادات ومعاملات من حيث المتعلق فلا يعم شيء منها البدريين ولا يتعلق بهم ، ولو كان كذلك لكان معروفاً عند الصحابة مسلماً لهم أن هؤلاء العصابة محررون من كل تكليف ديني مطلقون من قيد وظائف العبودية وكان البدريون أنفسهم أحق برعاية معنى التحرير فيما بينهم أنفسهم على ما له من الأهمية ، ولا شاهد يشهد بذلك في المروي من أخبارهم والمحفوظ من آثارهم بل المستفاد من سيرهم وخاصة في خلال الفتن الواقعة بعد رحلة النبي ﷺ خلاف ذلك بما لا يسع لأحد إنكاره .

على أن تحرير قوم ذوي عدد من الناس وإطلاقهم من قيد التكليف لهم أن يفعلوا ما يشاؤون وأن لا يبالوا بمخالفة الله ورسوله وإن عظمت ما عظمت يناقض مصلحة الدعوة الدينية وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبث المعارف الإلهية التي جاء بهـــا الرسول بالرواية عنه إذ لا يبقى للناس بهم وثوق فيما يقولون ويروون من حكم الله ورسوله أن لا ضير عليهم ولو أتوا بكل كذب وافتراء أو اقترفوا كل منكر وفحشاء والناس يعلمون منهم ذلك .

ويجري ذلك في النبي ﷺ وهو سيد أهل بدر وقد أرسله [1] الله شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً فكيف تطمئن القلوب إلى دعوة من يجوز تلبسه بكل كذب وافتراء ومنكر وفحشاء؟وأنى تسلم النفوس له الاتصاف بتلك الصفات الكريمة التي مدحه الله بها ؟ بل كيف يجوز في حكمته تعالى أن يقلد الشهادة والدعوة من لا يؤمن في حال أو مقال ، ويعده سراجاً منيراً وهو تعالى قد أباح له أن يحيي الباطل كما

---

(١) الآية ٤٥ – ٤٦ من سورة الأحزاب .

ينير الحق وأذن له في أن يضل الناس وقد بعثه ليهديهم والآيات المتعرضة لعصمة الأنبياء وحفظ الوحي تأبى ذلك كله .

على أن ذلك يفسد استقامة الخطاب في كثير من الآيات التي فيهـــا عتاب الصحابة والمؤمنين على بعض تخلفاتهم كالآيات النازلة في وقعة أحد والأحزاب وحنين وغيرها المعاتبة لهم على انهزامهم وفرارهم من الزحف وقد أوعد الله عليه النار .

ومن أوضح الآيات في ذلك آيات الإفك وفي أهل الإفك مسطح بن أثاثة البدري وفيها قوله تعالى : « لكل امرء منهم ما اكتسب من الإثم » ولم يستثن أحداً منهم ، وقوله : « وهو عند الله عظيم » ، وقوله : « يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين » .

ومن أوضح الآيات في عدم ملاءمة معناها للرواية نفس هذه الآيات التي تذكر الرواية سبب نزولها : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة » الآيات وفيها مثل قوله تعالى : « ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل » وقوله : «ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون » .

فمن المعلوم أن الآيات إنما وجهت الخطاب والعتاب إلى عامة الذين آمنوا وتنسب إلقاء المودة وإسرار مودة الكفار إلى المؤمنين بمـا أن بعضهم وهو حاطب بن أبي بلتعة اتخذ الكفار أولياء وخان الإسلام والمسلمين فنسبت الآيات فعل البعض إلى الكل ووجهت العتاب والتهديد إلى الجميع .

فلو كان حاطب وهو بدري محرر مرفوع عنه القلم مخاطباً بمثل قوله : اعمل مـا شئت فقد غفرت لك لا إثم عليه فيما يفعل ولا ضلال في حقه ولا يتصف بظلم ولا يتعلق به عتاب ولا تهديد فأي وجه لنسبة فعل البعض بمـا له من الصفات غير المرضية إلى الكل ولا صفة غير مرضية لفعل هذا البعض على الفرض .

فيؤل الأمر إلى فرض أن يأتي البعض بفعل مأذون له فيه لا عتاب عليه ولا لوم يعتريه ويعاتب الكل ويهددوا عليه وبعبارة اخرى أن يؤذن لفاعل في معصية ثم يعـاتب عليها غيره ولا صنع له فيها ويحل كلامه تعالى عن مثل ذلك .

وفيه أخرج البخاري وابن المنذر والنحاس والبيهقي في شعب الإيمان عن أسماء بنت أبي بكر قالت : أتتني أمي راغبة وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله ﷺ فسألت النبي ﷺ أأصلها ؟ فأنزل الله « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقـاتلوكم في الدين »

فقال : نعم صلي .

وفيه أخرج أبو داود في تاريخه وابن المنذر عن قتادة «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين» نسختها «اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» .

أقول : قد عرفت الكلام فيه .

وفي الكافي بإسناده عن سعيد الأعرج عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال : من أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله وتعطي في الله وتمنع في الله جل وعز .

وفي تفسير القمي بإسناده إلى إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال : كل من لم يحب على الدين ولم يبغض على الدين فلا دين له .

* * *

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ـ ١٠ . وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ـ ١١ . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ

وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ــ ١٢ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ــ ١٣ .

(بيان)

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن » الآية ، سياق الآية يعطي أنها نزلت بعد صلح الحديبية ، وكان في العهد المكتوب بين النبي ﷺ وبين أهل مكة أنه إن لحق من أهل مكة رجل بالمسلمين ردُّوه اليهم وإن لحق من المسلمين رجل بأهل مكة لم يردُّوه اليهم ثم إن بعض نساء المشركين أسلمت وهاجرت إلى المدينة فجاء زوجها يستردّها فسأل النبي ﷺ أن يردّها اليه فأجابه النبي ﷺ أن الذي شرطوه في العهد ردّ الرجال دون النساء ولم يردّها اليهم وأعطاه ما أنفق عليها من المهر وهو الذي تدل عليه الآية مع ما يناسب ذلك من أحكامهن .

فقوله : « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات » سمّاهن مؤمنات قبل امتحانهن والعلم بإيمانهن لتظاهرهن بذلك .

وقوله : « فامتحنوهن » أي اختبروا إيمانهن بما يظهر به ذلك من شهادة وحلف يفيد العلم والوثوق ، وفي قوله : « الله أعلم بإيمانهن » إشارة إلى أنه يجزي في ذلك العلم العادي والوثوق دون اليقين بحقيقة الإيمان الذي هو تعالى أعلم به علماً لا يتخلف عنه معلومه .

وقوله : « فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار » ذكرهم بوصف الإيمان للاشارة إلى أنه السبب للحكم وانقطاع علقة الزوجية بين المؤمنة والكافر .

وقوله : « لا هنّ حلّ لهم ولا هم يحلّون لهن » بمجموع الجملتين كناية عن انقطاع علقة الزوجية ، وليس من توجيه الحرمة اليهن واليهم في شيء .

وقوله : « وآتوهم ما أنفقوا » أي أعطوا الزوج الكافر ما أنفق عليها من المهر .

وقوله : « ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن » رفع المانع من نكاح المؤمنات المهاجرات إذا أوتين أجورهن والأجر المهر .

وقوله : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » العصم جمع عصمة وهي النكاح الدائم يعصم المرأة ويحصنها ، وإمساك العصمة إبقاء الرجل – بعد ما أسلم – زوجته الكافرة على زوجيتها فعليه بعدما أسلم أن يخلي عن سبيل زوجته الكافرة سواء كانت مشركة أو كتابية.

وقد تقدم في تفسير قوله : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ » البقرة : ٢٢١ ، وقوله : « والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » المائدة : ٥ ، أن لا نسخ بين الآيتين وبين الآية التي نحن فيها .

وقوله : « واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا » ضمير الجمع في « واسألوا » للمؤمنين وفي « ليسألوا » للكفار أي إن لحقت امرأة منكم بالكفار فاسألوهم ما أنفقتم لها من مهر ولهم أن يسألوا مهر من لحقت بكم من نسائهم .

ثم تمم الآية بالإشارة إلى أن ما تضمنته الآية حكم الله الذي شرع لهم فقال : « ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم » .

قوله تعالى : «وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا » الخ، قال الراغب: الفوت بُعد الشيء عن الإنسان بحيث يتعذر إدراكه ، قال تعالى : « وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار » . انتهى . وفسّر المعاقبة والعقاب بمعنى الوصول والانتهاء إلى عقبى الشيء ، والمراد عاقبتم من الكفار أي أصبتم منهم غنيمة وهي عقبى الغزو ، وقيل : عاقب بمعنى عقّب، وقيل : عاقب مأخوذ من العقبة بمعنى النوبة .

والأقرب أن يكون المراد بالشيء المهر و « من » في « من أزواجكم » لابتداء الغاية و « إلى الكفار » متعلق بقوله: « فاتكم » والمراد بالذين ذهبت أزواجهم، بعض المؤمنين وإليهم يعود ضمير « أنفقوا » .

والمعنى: وإن ذهب وانفلت منكم إلى الكفار مهر من أزواجكم بلحوقهن بهم وعدم ردّهم ما أنفقتم من المهر اليكم فأصبتم منهم بالغزو غنيمة فأعطوا المؤمنين الذين ذهبت أزواجهم اليهم مما أصبتم من الغنيمة مثل ما أنفقوا من المهر .

وفسّرت الآية بوجوه اخرى بعيدة عن الفهم أغمضنا عنها .

وقوله: « واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون » أمر بالتقوى، وتوصيفه تعالى بالموصول والصلة لتعليل الحكم فإن من مقتضى الإيمان بالله تقواه .

قوله تعالى : « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك » الخ ، تتضمن الآية حكم بيعة النساء المؤمنات للنبي ﷺ ، وقد شرطت عليهن في «على أن لا تشركن» الخ، أموراً منها ما هو مشترك بين الصنفين : الرجال والنساء كالتحرّز من الشرك ومن معصية الرسول في معروف ومنا ما هو أمس بهن من حيث أن تدبير المنزل بحسب الطبع اليهن وهن السبيل إلى حفظ عفة البيت والحصول على الأنسال وطهارة مواليدهم ، وهي التجنب من السرقة والزنا وقتل الأولاد وإلحـــاق غير أولاد أزواجهن بهم ، وإن كانت هذه الامور بوجه من المشتركات .

فقوله : « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك » شرط جوابه قوله : « فبايعهن واستغفر لهن الله » .

وقوله : « على أن لا يشركن بالله شيئاً » أي من الأصنام والأوثان والأرباب ، وهذا شرط لا غنى عنه لإنسان في حال .

وقوله : « ولا يسرقن » أي لا من أزواجهن ولا من غيرهم وخاصة من أزواجهن كما يفيده السياق ، وقوله : « ولا يزنين » أي باتخاذ الأخدان وغير ذلك وقوله: « ولا يقتلن أولادهن » بالوءد وغيره وإسقاط الأجنة .

وقوله : « ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن » وذلك بأن يحملن من الزنا ثم يضعنه وينسبنه إلى أزواجهن فإلحاقهن الولد كذلك بأزواجهن ونسبتـه اليهم كذباً بهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن لأن الولد إذا وضعته أمه سقط بين يديها ورجليها ، ولا يغني عن هـذا الشرط شرط الاجتناب عن الزنا لأنهما متغايران وكل مستقل بالنهي والتحريم .

وقوله : « ولا يعصينك في معروف » نسب المعصية إلى النبي ﷺ دون الله مع أنها تنتهي اليـه تعالى لأن المراد أن لا يتخلفن بالمعصية عن السنة التي يستنها النبي ﷺ وينفذها في المجتمع الإسلامي فيكون ما سنه هو المعروف عند المسلمين وفي المجتمع الإسلامي.

ومن هنا يظهر أن المعصية في المعروف أعم من ترك المعروف كترك الصلاة والزكاة وفعل المنكر كتبرجهن تبرج الجاهلية الاولى .

وفي قوله : « إن الله غفور رحيم » بيان لمقتضى المغفرة وتقوية للرجاء .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم » الخ ، المراد بهم اليهود المغضوب عليهم وقد تكرر في كلامه تعالى فيهم « وباءوا بغضب من الله » البقرة : ٦١ ، ويشهد بذلك ذيل الآية فإن الظاهر أن المراد بالقوم غير الكفار .

وقوله : « يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور » المراد بالآخرة ثوابها ، والمراد بالكفار الكافرون بالله المنكرون للبعث ، وقيل : المراد مشركوا مكة واللام للعهد ، و « من » في « من أصحاب القبور » لابتداء الغاية .

والجملة بيان لشقائهم الخالد وهلاكهم المؤبد ليحذر المؤمنون من موالاتهم وموادتهم والاختلاط بهم والمعنى : قد يئس اليهود من ثواب الآخرة كما يئس منكرو البعث من الموتى المدفونين في القبور .

وقيل : المراد بالكفار الذين يدفنون الموتى ويوارونهم في الأرض – من الكفر بمعنى الستر – .

وقيل : المراد بهم كفار الموتى و « من » بيانية والمعنى : يئسوا من ثواب الآخرة كما يئس الكفار المدفونون في القبور منه لقوله : « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله » البقرة : ١٦١ .

(بحث روائي)

في المجمع عن ابن عباس صالح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالحديبية مشركي مكة على أن من أتاه من أهل مكة رده عليهم ، ومن أتى أهل مكة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو لهم ولم يردوه عليه وكتبوا بذلك كتاباً وختموا عليه .

فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية مسلمة بعد الفراغ من الكتاب والنبي صلى الله عليه وآله وسلم بالحديبية فأقبل زوجها مسافر من بني مخزوم – وقال مقاتل : هو صيفي بن الراهب – في طلبها وكان كافراً فقال : يا محمد اردد علي امرأتي فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا

من أتاك منا وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد فنزلت الآية « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام فامتحنوهن » .

قال ابن عباس : امتحانهن أن يستحلفن مـا خرجت من بغض زوج ، ولا رغبة عن أرض إلى أرض ، ولا التماس دنيا ، وما خرجت إلا حباً لله ولرسوله فاستحلفها رسول الله ﷺ ما خرجت بغضاً لزوجها، ولا عشقاً لرجل منا ، وما خرجت إلا رغبة في الإسلام فحلفت بالله الذي لا إله إلا هو على ذلك فأعطى رسول الله ﷺ زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردها عليه فتزوجها عمر بن الخطاب .

فكان رسول الله ﷺ يرد من جاءه من الرجال ويحبس من جاءه من النساء إذا امتحن ويعطي أزواجهن مهورهن .

قال : قال الزهري : ولما نزلت هذه الآية وفيها قوله : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر» طلق عمر بن الخطاب امرأتين كانتا له بمكة مشركتين : قرنية [١] بنت أبي أمية بن المغيرة فتزوجها بعده معاوية بن أبي سفيان وهما على شركهما بمكة ، والاخرى أم كلثوم بنت عمرو ابن جرول الخزاعية أم عبد الله بن عمر فتزوجها أبو جهم بن حذاقـة بن غانم رجل من قومها وهما على شركهما .

وكانت عند طلحة بن عبيد الله أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ففرق بينهما الإسلام حين نهى القرآن عن التمسك بعصم الكوافر ، وكان طلحة قد هاجر وهي بمكة عند قومها كافرة ثم تزوجها في الإسلام بعد طلحة خالد بن سعيد بن العاص بن أمية وكانت ممن فرت إلى رسول الله ﷺ من نساء الكفار فحبسها وزوجها خالداً .

وأمية بنت بشر كانت عند الثابت بن الدحداحة ففرت منه – وهو يومئذ كافر – إلى رسول الله ﷺ فزوجها رسول الله ﷺ سهل بن حنيف فولدت عبد الله بن سهل.

قال : قال الشعبي: وكانت زينب بنت رسول الله ﷺ امرأة أبي العاص بن الربيع فأسلمت ولحقت بالنبي ﷺ في المدينة وأقام أبو العاص مشركاً بمكة ثم أتى المدينـة فآمنته زينب ثم أسلم فردها عليه رسول الله ﷺ .

قال : وقال الجبائي : لم يدخل في شرط صلح الحديبية إلا رد الرجال دون النساء ولم

---

(١) قريبة خ .

يجز للنساء ذكر ، وإن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط جاءت مسلمة مهاجرة من مكة فجاء أخواها إلى المدينة فسألا رسول الله ﷺ ردها عليهما فقال رسول الله ﷺ : إن الشرط بيننا في الرجال لا في النساء فلم يردها عليهما .

أقول : وهذه المعاني مروية في روايات اخرى من طرق أهل السنة أورد كثيراً منها السيوطي في الدر المنثور ، وروى امتحان المهاجرات كما تقدم ثم عدم ردهن على الكفار وإعطائهم المهر القمي في تفسيره .

وفيه وقال الزهري : فكان جميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين راجعات عن الإسلام ست نسوة : أم الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن شدّاد الفهري ، وفاطمة بنت أبي أمية بن المغيرة أخت أم سلمة كانت تحت عمر بن الخطاب فلما أراد عمر أن يهاجر أبت وارتدّت، وبروع بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان، وعبدة بنت عبد العزى بن فضلة وزوجها عمرو بن عبدود ، وهند بنت أبي جهل بن هشام كانت تحت هشام بن العاص بن وائل ، وكلثوم بنت جرول كانت تحت عمر فأعطاهم رسول الله ﷺ مهور نسائهم من الغنيمة .

وفي الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال:لا ينبغي نكاح أهل الكتاب قلت : جعلت فداك وأين تحريمه ؟ قال : قوله : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » .

أقول : والرواية مبنية على عموم الإمساك بالعصم للنكاح الدائم إحداثاً وإبقاء .

وفيه بإسناده أيضاً إلى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام عن قول الله تعالى : « والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » فقال : هذه منسوخة بقوله : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » .

أقول : ولعل المراد بنسخ آية الإمساك بالعصم لآية حلية محصنات أهل الكتاب إختصاص آية الممتحنة بالنكاح الدائم وتخصص آية المائدة بالنسبة إلى النكاح الدائم بها ، واختصاص ما تدل عليه من الحلية بالنكاح المنقطع ، وليس المراد به النسخ المصطلح كيف ؟ وآية الممتحنة سابقة نزولاً على آية المائدة ولا وجه لنسخ السابق للاحق . على أن آية المائدة مسوقة سوق الإمتنان ، وما هذا شأنه يأبى النسخ .

وفي المجمع في قوله تعالى : « والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب » وروى أبو الجارود عن أبي جعفر عليه السلام أنه منسوخ بقوله : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ » وبقوله :

« ولا تمسكوا بعصم الكوافر » .

أقول : ويضعّف الرواية - مضافاً إلى ضعف راويها - أن قوله : « ولا تنكحوا المشركات » الخ ، إنما يشمل المشركات من الوثنيين ، وقوله : « والمحصنات » الخ ، يفيد حلّية نكاح أهل الكتاب فلا تدافع بين الآيتين حتى تنسخ إحداهما الاخرى ، وقد تقدم آنفاً الكلام في نسخ آية الممتحنة لقوله : « والمحصنات » الخ ، وقد تقدم في تفسير قوله: « والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » المائدة : ٥ ، ما ينفع في هذا المقام .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه‌السلام « وإن فاتكم شيء من أزواجكم » فلحقن بالكفار من أهل عهدكم فاسألوهم صداقها ، وإن لحقن بكم من نسائهم شيء فأعطوهم صداقها ذلكم حكم الله يحكم بينكم .

أقول : ظاهره تفسير « شيء » بالمرأة .

وفي الكافي بإسناده عن أبان عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال : لما فتح رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم مكة بايع الرجال ثم جاءت النساء يبايعنه فأنزل الله عز وجل : « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك » إلى آخر الآية .

قالت هند : أما الولد فقد ربّيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً ، وقالت أم حكيم بنت الحارث بن هشام وكانت عند عكرمة بن أبي جهل : يا رسول الله ما ذاك المعروف الذي أمرنا الله أن لا نعصيك فيه ؟ قال : لا تلطمن خدّاً ، ولا تخمشن وجهاً ، ولا تنتفن شعراً ، ولا تشققن جيباً ، ولا تسوّدن ثوباً ، ولا تدعين بويل ، فبايعهن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم على هذا .

فقالت : يا رسول الله كيف نبايعك ؟ قال : إنني لا اصافح النساء فدعا بقدح من ماء فأدخل يده ثم أخرجها فقال : أدخلن أيديكن في هذا الماء .

أقول : والروايات مستفيضة في هذه المعاني من طرق الشيعة وأهل السنة .

وفي تفسير القمي بإسناده عن عبد الله بن سنان قال : سألت أبا عبد الله عليه‌السلام عن قول الله : « ولا يعصينك في معروف » قال : هو ما فرض الله عليهن من الصلاة والزكاة وما أمرهن به من خير .

أقول : والرواية تشهد بأن ما ورد في الروايات من تفسير المعروف بمثل قوله : لا تلطمن خداً الخ ، وفي بعضها أن لا تتبرّجن تبرّج الجاهلية الاولى من قبيل الإشارة إلى بعض المصاديق .

* * *

(سورة الصف مدنية ، وهي أربع عشرة آية)

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ . سَبَّحَ لِلّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ – ١ . يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ – ٢ . كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ – ٣ . إِنَّ اللهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ – ٤ . وَإِذْ قَالَ مُوسٰى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لاَ يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ – ٥ . وَإِذْ قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ قَالُوا هٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ – ٦ . وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرٰى عَلَى اللهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعٰى إِلَى ٱلْإِسْلاَمِ وَاللهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ الظَّالِمِينَ – ٧ . يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ – ٨ . هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدٰى وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ – ٩ .

(بيان)

السورة ترغّب المؤمنين وتحرّضهم على أن يجاهدوا في سبيل الله ويقاتلوا أعداء دينه، وتنبّئهم أن هـذا الدين نور ساطع لله سبحانه يريد الكفار من أهل الكتاب أن يطفئوه بأفواههم والله متمّه ولو كره الكافرون، ومظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

وأن هـذا النبي الذي آمنوا به رسول من الله أرسله بالهدى ودين الحق، وبشّر به عيسى بن مريم عليهما السلام بني إسرائيل.

فعلى المؤمنين أن يشدّوا العزم على طاعته وامتثال ما يأمرهم به من الجهاد ونصرة الله في دينه حتى يسعدهم الله في آخرتهم وينصرهم ويفتح لهم في دنياهم ويؤيدهم على أعدائهم.

وعليهم أن لا يقولوا ما لا يفعلون ولا ينكصوا فيما يعدون فإن ذلك يستوجب مقتاً من الله تعالى وإيذاء الرسول وفيه خطر أن يزيغ الله قلوبهم كما فعل بقوم موسى عليه السلام لما آذوه وهم يعلمون أنه رسول الله اليهم والله لا يهدي القوم الظالمين.

والسورة مدنية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: «سبّح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم» تقدم تفسيره، وافتتاح الكلام بالتسبيح لما فيها من توبيخ المؤمنين بقولهم ما لا يفعلون وإنذارهم بمقت الله وإزاغته قلوب الفاسقين.

قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون» «لم» مخفف لما، و«ما» استفهامية، واللام للتعليل، والكلام مسوق للتوبيخ ففيه توبيخ المؤمنين على قولهم ما لا يفعلون ولا يصغى إلى قول بعض المفسرين: أن المراد بالذين آمنوا هم المنافقون والتوبيخ لهم دون المؤمنين لجلالة قدرهم.

وذلك لوفور الآيات المتضمنة لتوبيخهم ومعاتبتهم وخاصة في الآيات النازلة في الغزوات وما يلحق بها كأحُد والأحزاب وحنين وصلح الحديبية وتبوك والإنفاق في سبيل الله وغير ذلك، والصالحون من هؤلاء المؤمنين إنما صلحوا نفساً وجلّوا قدراً بالتربية الإلهية التي تتضمنها أمثال هذه التوبيخات والعتابات المتوجهة اليهم تدريجاً ولم يتصفوا بذلك من عند أنفسهم.

ومورد التوبيخ وإن كان بحسب ظاهر لفظ الآية مطلق تخلف الفعل عن القول وخلف

الوعد ونقض العهد وهو كذلك لكونه من آثار مخالفة الظاهر للباطن وهو النفاق لكن سياق الآيات وفيها قوله: « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً » وما سيأتي من قوله: « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة » الخ » وغير ذلك يفيد أن متعلق التوبيخ كان هو تخلف بعضهم عما وعده من الثبات في القتال وعدم الانهزام والفرار أو تثاقلهم أو تخلفهم عن الخروج أو عدم الإنفاق في تجهز أنفسهم أو تجهيز غيرهم .

قوله تعالى : « كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » المقت البغض الشديد ، والآية في مقام التعليل لمضمون الآية السابقة فهو تعالى يبغض من الإنسان أن يقول ما لا يفعله لأنه من النفاق ، وأن يقول الإنسان ما لا يفعله غير أن لا يفعل ما يقوله فالأول من النفاق والثاني من ضعف الإرادة ووهن العزم وهو رذيلة منافية لسعادة النفس الإنسانية فإن الله بنى سعادة النفس الإنسانية على فعل الخير واكتساب الحسنة من طريق الاختيار ومفتاحه العزم والإرادة ، ولا تأثير إلا للراسخ من العزم والإرادة، وتخلف الفعل عن القول معلول وهن العزم وضعف الإرادة ولا يرجى للانسان مع ذلك خير ولا سعادة .

قوله تعالى : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص» الصف جعل الأشياء على خط مستو كالناس والأشجار . كذا قاله الراغب ، وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل ولذا لم يجمع ، وهو حال من ضمير الفاعل في « يقاتلون » ، والمعنى : يقاتلون في سبيله حال كونهم صافين .

والبنيان هو البناء ، والمرصوص من الرصاص، والمراد به ما أحكم من البناء بالرصاص فيقاوم ما يصادمه من أسباب الانهدام .

والآية تعلل خصوص المورد ــ وهو أن يعدوا الثبات في القتال ثم ينهزموا ــ بالالتزام كما أن الآية السابقة تعلل التوبيخ على مطلق أن يقولوا ما لا يفعلون ، وذلك أن الله سبحانه إذا أحب الذين يقاتلون فيلزمون مكانهم ولا يزولون كان لازمه أن يبغض الذين يعدون أن يثبتوا ثم ينهزمون إذا حضروا معركة القتال .

قوله تعالى : « وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله اليكم » الخ ، في الآية إشارة إلى إيذاء بني إسرائيل رسولهم موسى عليه السلام ولجاجهم حتى آل إلى إزاغة الله قلوبهم. وفي ذلك نهي التزامي للمؤمنين عن أن يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيؤل أمرهم إلى ما آل اليه أمر قوم موسى من إزاغة القلوب وقد قال تعالى : « إن الذين

يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعدّ لهم عذاباً مهيناً» الأحزاب : ٥٧ .

والآية بما فيها من النهي الالتزامي في معنى قوله: «يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً» الأحزاب : ٧٠ .

وسياق الآيتين وذكر تبرئة موسى عليه‌السلام يدل على أن المراد بإيذائه بما برّأه الله منه ليس معصيتهم لأوامره وخروجهم عن طاعته إذ لا معنى حينئذ لتبرئته بل هو أنهم وقعوا فيه عليه‌السلام وقالوا فيه ما فيه عار وشين فتأذى فبرّأه الله مما قالوا ونسبوا اليه ، وقوله في الآية التالية : «اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً» يؤيد هذا الذي ذكرناه .

ويؤيد ذلك إشارته تعالى إلى بعض مصاديق إيذاء النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بقول أو فعل في قوله: «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي – إلى أن قال – وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب – إلى أن قال – وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً» الأحزاب : ٥٣ .

فتحصّل أن في قوله : «وإذ قال موسى لقومه» الخ ، تلويحاً إلى النهي عن إيذاء النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بقول أو فعل على علم بذلك كما أن في ذيل الآية تخويفاً وإنذاراً أنه فسق ربما أدّى إلى إزاغته تعالى قلب من تلبّس به .

وقوله : «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين» الزيغ الميل عن الاستقامة ولازمه الانحراف عن الحق إلى الباطل .

وإزاغته تعالى إمساك رحمته وقطع هدايته عنهم كما يفيده التعليل بقوله : «إن الله لا يهدي القوم الفاسقين» حيث علل الإزاغة بعدم الهداية ، وهي إزاغة على سبيل المجازاة وتثبيت للزيغ الذي تلبسوا به أولاً بسبب فسقهم المستدعي للمجازاة كما قال تعالى: «يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين» البقرة : ٢٦ ، وليس بإزاغة بدئية وإضلال ابتدائي لا يليق بساحة قدسه تعالى .

ومن هنا يظهر فساد ما قيل : إنه لا يجوز أن يكون المراد بقوله: «أزاغ الله قلوبهم» الإزاغة عن الإيمان لأن الله تعالى لا يجوز أن يزيغ أحداً عن الإيمان ، وأيضاً كون المراد

به الإزاغة عن الإيمان يخرج الكلام عن الفائدة لأنهم إذا زاغوا عن الإيمان فقد صاروا كفاراً فلا معنى لقوله : أزاغهم الله عن الإيمان .

وجه الفساد أن قوله : « لا يجوز له تعالى أن يزيغ أحداً عن الإيمان » ممنوع بإطلاقه فإن الملاك فيه لزوم الظلم وإنما يلزم فيما كان من الإزاغة والإضلال ابتدائياً وأما ما كان على سبيل المجازاة وحقيقته إمساك الرحمة وقطع الهداية لتسبيب العبد لذلك بفسقه وإعراضه عن الرحمة والهداية فلا دليل على منعه لا عقلاً ولا نقلاً .

وأما قوله : « إن الكلام يخرج بذلك عن الفائدة » فيدفعه أن الذي ينسب من الزيغ إلى العبد ويحصل معه الكفر تحقق ما له بالفسق والذي ينسب اليه تعالى تثبيت الزيغ في قلب العبد والطبع عليه به فزيغ العبد عن الإيمان بسبب فسقه وحصول الكفر بذلك لا يغني عن تثبيت الله الزيغ والكفر في قلبه على سبيل المجازاة .

قوله تعالى : « وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » تقدم في صدر الكلام أن هذه الآية والتي قبلها والآيات الثلاث بعدها مسوقة لتسجيل أن النبي ﷺ رسول معلوم الرسالة عند المؤمنين أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون من أهل الكتاب ، وما جاء به من الدين نور ساطع من عند الله يريد المشركون ليطفؤه بأفواههم والله متم نوره ولو كره المشركون .

فعلى المؤمنين أن لا يؤذوه ﷺ وهم يعلمون أنه رسول الله اليهم ، وأن ينصروه ويجاهدوا في سبيل ربهم لإحياء دينه ونشر كلمته .

ومن ذلك يعلم أن قوله : « وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل » الخ ، كالتوطئة لما سيذكر من كون النبي ﷺ رسولاً مبشراً به من قبل أرسله الله بالهدى ودين الحق ودينه نوره تعالى يهتدي به الناس .

والذي حكاه تعالى عن عيسى بن مريم عليهما السلام أعني قوله : « يا بني إسرائيل إني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » ملخص دعوته وقد آذن بأصل دعوته بقوله : « إني رسول الله اليكم » فأشار إلى أنه لا شأن له إلا أنه حامل رسالة من الله اليهم ، ثم بين متن ما أرسل اليهم لأجل تبليغه في رسالته بقوله : « مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول » الخ .

فقوله : « مصدقاً لما بين يدي من التوراة » بيان أن دعوته لا تغاير دين التوراة ولا تناقض شريعتها بل تصدقها ولم تنسخ من أحكامها إلا يسيراً والنسخ بيان انتهاء أمد الحكم وليس بإبطال ، ولذا جمع عليه السلام بين تصديق التوراة ونسخ بعض أحكامها فيما حكاه الله تعالى من قوله : « ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم » آل عمران : ٥٠ ، ولم يبين لهم إلا بعض ما يختلفون فيه كما في قوله المحكي : « قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون » الزخرف : ٦٣ .

وقوله : « ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » إشارة إلى الشطر الثاني من رسالته عليه السلام وقد أشار إلى الشطر الأول بقوله : « مصدقاً لما بين يدي من التوراة » .

ومن المعلوم أن البشرى هي الخبر الذي يسر المبشر ويفرحه ولا يكون إلا بشيء من الخير يوافيه ويعود اليه ، والخير المترقب من بعثة النبي ودعوته هو انفتاح باب من الرحمة الإلهية على الناس فيه سعادة دنياهم وعقباهم من عقيدة حقة أو عمل صالح أو كليهما ، والبشرى بالنبي بعد النبي وبالدعوة الجديدة بعد حلول دعوة سابقة واستقرارها والدعوة الإلهية واحدة لا تبطل بمرور الدهور وتقضي الأزمنة واختلاف الأيام والليالي – إنما تتصور إذا كانت الدعوة الجديدة أرقى فيما تشتمل عليه من العقائد الحقة والشرائع المعدلة لأعمال المجتمع وأشمل لسعادة الإنسان في دنياه وعقباه .

وبهذا البيان يظهر أن معنى قوله عليه السلام : « ومبشراً برسول يأتي من بعدي » الخ ، يفيد كون ما أتى به النبي أحمد صلى الله عليه وآله وسلم أرقى وأكمل مما تضمنته التوراة وبعث به عيسى عليه السلام وهو عليه السلام متوسط رابط بين الدعوتين .

ويعود معنى كلامه : « إني رسول الله اليكم مصدقاً » الخ ، إلى أني رسول من الله اليكم أدعو إلى شريعة التوراة ومنهاجها – ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم – وهي شريعة سيكملها الله ببعث نبي يأتي من بعدي اسمه أحمد .

وهو كذلك فإمعان التأمل في المعارف الإلهية التي يدعو اليها الاسلام يعطي أنها أدق مما في غيره من الشرائع السماوية السابقة وخاصة ما يندب اليه من التوحيد الذي هو أصل الاصول الذي يبتني عليه كل حكم ويعود اليه كل من المعارف الحقيقية وقد تقدم شطر من الكلام فيه في المباحث السابقة من الكتاب .

وكذا الشرائع والقوانين العملية التي لم تدع شيئاً مما دق وجل من أعمال الإنسان

الفردية والإجتماعية إلا عدّلته وحدّت حدوده وقررته على أساس التوحيد ووجهته إلى غرض السعادة .

وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : « الذين يتبعون النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم » الأعراف : ١٥٧ ، وآيات أخرى يصف القرآن .

والآية أعني قوله : « ومبشراً برسول يأتي من بعدي » وإن كانت مصرحة بالبشارة لكنها لا تدل على كونها مذكورة في كتابه عليه‌السلام غير أن آية الأعراف المنقولة آنفاً : « يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل » وكذا قوله في صفة النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : «ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل » الآية الفتح : ٢٩ ، يدلان على ذلك .

وقوله : « اسمه أحمد » دلالة السياق على تعبير عيسى عليه‌السلام عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بأحمد وعلى كونه اسماً له يعرف به عند الناس كما كان يسمى بمحمد ظاهرة لا سترة عليها .

ويدل عليه قول حسان :

صلى الإله ومن يحفّ بعرشه والطيّبون على المبارك أحمد

ومن أشعار أبي طالب قوله :

وقالوا لأحمـــد أنت امرء خلوف اللسان ضعيف السبب
ألا إن أحمد قـــد جاءهم بحق ولم يأتهم بالكذب

وقوله مخاطباً للعباس وحمزة وجعفر وعلي يوصيهم بنصر النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم :

كونوا فدى لكم أمي وما ولدت في نصر أحمـد دون الناس أتراسا

ومن شعره فيه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وقد سماه باسمه الآخر محمد :

ألم تعلموا أنا وجدنا محمـــداً نبياً كموسى خط في أول الكتب

ويستفاد من البيت أنهم عثروا على وجود البشارة به صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في الكتب السماوية التي كانت عند أهل الكتاب يومئذ ذاك .

ويؤيده أيضاً إيمان جماعة من أهل الكتاب من اليهود والنصارى وفيهم قوم من علمائهم كعبد الله بن سلام وغيره وقد كانوا يسمعون هذه الآيات القرآنية التي تذكر البشارة

به ﷺ وذكره في التوراة والإنجيل فتلقوه بالقبول ولم يكذبوه ولا أظهروا فيه شيئاً من الشك والترديد .

وأما خلو الأناجيل الدائرة اليوم عن بشارة عيسى بما فيها من الصراحة فالقرآن ــ وهو آية معجزة باقية ــ في غنى عن تصديقها ، وقد تقدم البحث عن سندها واعتبارها في الجزء الثالث من الكتاب .

وقوله : « فلما جاءهم بالبينات قالوا : هذا سحر مبين » ضمير « جاء » لأحمد ﷺ ، وضمير « هم » لبني إسرائيل أو لهم ولغيرهم ، والمراد بالبينات البشارة ومعجزة القرآن وسائر آيات النبوة .

والمعنى : فلما جاء أحمد المبشر به بني إسرائيل أو أتاهم وغيرهم بالآيات البينة التي منها بشارة عيسى عليه‌السلام قالوا هذا سحر مبين ، وقرىء هذا ساحر مبين .

وقيل : ضمير « جاء » لعيسى عليه‌السلام ، والسياق لا يلائمه .

قوله تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام » الخ ، الاستفهام للإنكار وهو ردّ لقولهم : « هذا سحر مبين » فإن معناه أن النبي ﷺ ليس برسول وأن ما بلّغه من دين الله ليس منه تعالى .

والمراد بالإسلام الدين الذي يدعو اليه رسول الله بما أنه تسليم لله فيما يريده ويأمر به من اعتقاد وعمل ، ولا ريب أن مقتضى ربوبيته وألوهيته تعالى تسليم عباده له تسليماً مطلقاً فلا ريب أن الدين الذي هو الإسلام لله دينه الحق الذي يجب أن يدان به فدعوى أنه باطل ليس من الله افتراء على الله .

ومن هنا يظهر أن قوله : « وهو يدعى إلى الإسلام » يتضمن الحجة على كون قولهم : « هذا سحر مبين » افتراء على الله .

والافتراء ظلم لا يرتاب العقل في كونه ظلماً وينهى عنه الشرع ويعظم الظلم بعظمة من وقع عليه فإذا كان هو الله سبحانه كان أعظم الظلم فلا أظلم ممن افترى على الله الكذب .

والمعنى : ولا أظلم ممن افترى على الله الكذب ــ بنفي نسبة دين الله اليه ــ والحال أنه يدعى إلى دين الإسلام الذي لا يتضمن إلا التسليم لله فيما أراد ولا ريب أنه من الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين .

قوله تعالى : « يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم » الخ ، إطفاء النور إبطاله وإذهاب شروقه ، وإطفاء النور بالأفواه إنما هو بالنفخ بها .

وقد وقعت الآية في سورة التوبة وفيها : « يريدون أن يطفؤا نور الله بأفواههم » قال الراغب : قال تعالى : « يريدون أن يطفؤا نور الله » « يريدون ليطفؤا نور الله » والفرق بين الموضعين أن في قوله : « يريدون أن يطفؤا » يقصدون إطفاء نور الله ، وفي قوله : « ليطفؤا » يقصدون أمراً يتوصلون به إلى إطفاء نور الله . انتهى . ومحصله أن متعلق الإرادة في قوله : « يريدون أن يطفؤا نور الله » نفس الإطفاء ، وفي قوله : « يريدون ليطفؤا نور الله » السبب الموصل إلى الإطفاء وهو النفخ بالأفواه والإطفاء غرض وغاية .

والآية وما يتلوها كالشارح لمعنى ما تقدم في الآية السابقة من ظلمهم برمي الدعوة بالسحر وعدم هدايته تعالى لهم بما أنهم ظالمون ، والمحصل أنهم يريدون إطفاء نور الله بنفخة أفواههم لكن الله لا يهديهم إلى مقصدهم بل يتمّ نوره ويظهر دينه على الدين كله .

فقوله : « يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم » أي بالنفخ بالأفواه كما يطفأ الشمعة بالنفخة كناية عن أنهم زعموا أن نور الله وهو دينه نور ضعيف كنور الشمعة يطفأ بأدنى نفخة فرموه بالسحر وانقطاع نسبته إلى الله .

وقد أخطؤا في مزعمتهم فهو نور الله الذي لا يطفأ وقد شاء أن يتمّه ولو كره الكافرون والله بالغ أمره ، وهو قوله : « والله متمّ نوره ولو كره الكافرون » .

قوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » الإضافة في « دين الحق » بيانية كما قيل ، والظاهر أنها في الأصل إضافة لاميّة بعناية لطيفة هي أن لكل من الحق والباطل ديناً يقتضيه ويختص به ، وقد ارتضى الله تعالى الدين الذي للحق – وهو الحق تعالى – فأرسل رسوله .

وإظهار شيء على غيره نصرته وتغليبه عليه ، والمراد بالدين كله كل سبيل مسلوك غير سبيل الله الذي هو الإسلام والآية في مقام تعليل قوله في الآية السابقة : « والله متمّ نوره » ، والمعنى : والله متمّ نوره لأنه هو الذي أرسل رسوله بنوره الذي هو الهدى ودين الحق ليجعله غالباً على جميع الأديان ولو كره المشركون من أهل الأوثان .

ويستفاد من الآيتين أن دين الحق نور الله في الأرض كما يستفاد ذلك من قوله : « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » الآية النور : ٣٥ ، وقد تقدم في تفسير الآية .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » قال : يصطفّون كالبنيان الذي لا يزول .

وفي المجمع في قوله تعالى : « وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله اليكم » روي في قصة قارون أنه دسّ اليه امرأة وزعم أنه زنى بها ، ورموه بقتل هارون .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » الآية قال : وسأل بعض اليهود لعنهم الله رسول الله ﷺ : لمَ سُمّيت أحمد ومحمداً وبشيراً ونذيراً ؟ فقال : أما محمد فإني في الأرض محمود ، وأما أحمد فإني في السماء أحمد مني في الأرض ، وأما البشير فابشر من أطاع الله بالجنة ، وأما النذير فانذر من عصى الله بالنار .

وفي الدر المنثور في الآية أخرج ابن مردويه عن العرباض بن سارية سمعت رسول الله ﷺ يقول : إني عبد الله في أمّ الكتاب وخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته وسوف انبئكم تأويل ذلك ، أنا دعوة إبراهيم ، وبشارة عيسى قومه ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام .

وفي العيون بإسناده إلى صفوان بن يحيى صاحب السابري قال: سألني أبو قرّة صاحب الجاثليق أن اوصله إلى الرضا عليه السلام فاستأذنته في ذلك ، قال : أدخله عليّ فلما دخل عليه قبّل بساطه وقال : هكذا علينا في ديننا أن نفعل بأشراف أهل زماننا .

ثم قال : أصلحك الله ما تقول في فرقة ادّعت دعوى فشهدت لهم فرقة اخرى معدّلون ؟ قال : الدعوى لهم ، قال : فادّعت فرقة اخرى دعوى فلم يجدوا شهوداً من غيرهم ؟ قال : لا شيء لهم .

قال : فإنا نحن ادّعينا أن عيسى روح الله وكلمته فوافقنا على ذلك المسلمون ، وادّعى المسلمون أن محمداً نبي فلم نتابعهم عليه ، وما أجمعنا عليه خير مما افترقنا فيه .

فقال أبو الحسن عليه السلام : ما اسمك ؟ قال : يوحنا ، قال : يا يوحنا إنا آمنّا بعيسى روح الله وكلمته الذي كان يؤمن بمحمد ويبشر به ويقرّ على نفسه أنه عبد مربوب. فإن كان عيسى الذي هو عندك روح الله وكلمته ليس هو الذي آمن بمحمد وبشّر به ولا هو

الذي أقرّ لله بالعبودية فنحن منه براء فأين اجتمعنا ؟ فقام وقال لصفوان بن يحيى : قم فما كان أغنانا عن هذا المجلس .

أقول : كأنه يريد بقوله: قم فما كان أغنانا عن هذا المجلس، أن دخوله عليه السلام لم يفده فائدة حيث لم ينجح ما أتى به من الحجة .

وفي كمال الدين بإسناده إلى يعقوب بن شعيب عن أبي عبد الله عليه السلام قال : كان بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما خمس مائة عام منها مائتان وخمسون عاماً ليس فيها نبي ولا عالم ظاهر ، قلت : فما كانوا ؟ قال : كانوا متمسكين بدين عيسى عليه السلام ، قلت : فما كانوا ؟ قال : كانوا مؤمنين . ثم قال : ولا يكون إلا وفيها عالم .

أقول : المراد بالعالم الإمام الذي هو الحجة ، وهناك روايات واردة في قوله تعالى : « يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم » ، وقوله : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق » تذكر أن النور والهدى ودين الحق ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وهي من الجري والتطبيق أو من البطن وليست بمفسّرة، وعدُّ الفصل بين المسيح وبين محمد صلى الله عليه وآله خمس مائة عام يخالف ما عليه مشهور التاريخ لكن المحققين ذكروا أن في التاريخ الميلادي اختلالاً وقد مرّت إشارة ما إلى ذلك في الجزء الثالث من الكتاب .

* * *

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ — ١٠ . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ — ١١ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ — ١٢ . وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ

اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ — ١٣ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ — ١٤.

(بيان)

دعوة للمؤمنين إلى الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله ووعد جميل بالمغفرة والجنة في الآخرة وبالنصر والفتح في الدنيا ، ودعوة لهم إلى أن يثبتوا على نصرهم لله ووعد جميل بالتأييد .

والمعنيان هما الغرض الأقصى في السورة والآيات السابقة كالتوطئة والتمهيد بالنسبة إليهما.

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم » الاستفهام للعرض وهو في معنى الأمر .

والتجارة – على ما ذكره الراغب – التصرف في رأس المال طلباً للربح ، ولا يوجد في كلام العرب تاء بعده جيم إلا هذه اللفظة .

فقد أخذ الإيمان والجهاد في الآية تجارة رأس مالها النفس وربحها النجاة من عذاب أليم ، والآية في معنى قوله : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون – إلى أن قال – فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به » التوبة : ١١١ .

وقد فخم تعالى أمر هذه التجارة حيث قال : « على تجارة » أي تجارة جليلة القدر عظيمة الشأن ، وجعل الربح الحاصل منها النجاة من عذاب أليم لا يقدر قدره .

ومصداق هذه النجاة الموعودة المغفرة والجنة ، ولذا بدل ثانياً النجاة من العذاب من قوله : « يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات » الخ ، وأما النصر والفتح الموعودان فهما خارجان عن النجاة الموعودة ، ولذا فصلهما عن المغفرة والجنة فقال : « وأخرى تحبونها

نصر من الله وفتح قريب » فلا تغفل .

قوله تعالى : « تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم » الخ ، استئناف بياني يفسر التجارة المعروضة عليهم كأنه قيل : ما هذه التجارة ؟ فقيل : « تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون » الخ، وقد أخذ الإيمان بالرسول مع الإيمان بالله للدلالة على وجوب طاعته فيما أمر به وإلا فالإيمان لا يعد إيماناً بالله إلا مع الإيمان برسالة الرسول قال تعالى : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله – إلى أن قال – أولئك هم الكافرون حقاً » النساء : ١٥١ .

وقوله : « ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » أي ما ذكر من الإيمان والجهاد خير لكم إن كنتم من أهل العلم وأما الجهلة فلا يعتد بأعمالهم .

وقيل : المراد تعلمون خيرية ذلك إن كنتم من أهل العلم والفقه .

قوله تعالى : « يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار » الخ ، جواب للشرط المقدّر المفهوم من الآية السابقة أي إن تؤمنوا بالله ورسوله وتجاهدوا في سبيله يغفر لكم ، الخ .

وقد أطلقت الذنوب المتعلقة بها المغفرة فالمغفور جميع الذنوب والاعتبار يساعده إذ هذه المغفرة مقدمة الدخول في جنة الخلد ولا معنى لدخولها مع بقاء بعض الذنوب على حاله ، ولعله للإشارة إلى هذه النكتة عقبها بقوله : « ومساكن طيبة في جنات عدن » أي جنات ثبات واستقرار فكونها محل ثبات وموضع قرار يلوح أن المغفرة تتعلق بجميع الذنوب .

مضافاً إلى ما فيه من مقابلة النفس المبذولة وهي متاع قليل معجّل بجنات عدن التي هي خالدة فتطيب بذلك نفس المؤمن وتقوي إرادته لبذل النفس وتضحيتها واختيار البقاء على الفناء .

ثم زاد في تأكيد ذلك بقوله : « ذلك الفوز العظيم » .

قوله تعالى : « وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب » الخ ، عطف على قوله : « يغفر لكم » الخ ، و « اخرى » وصف قائم مقام الموصوف وهو خبر لمبتدأ محذوف ، وقوله : « نصر من الله وفتح قريب » بيان لاخرى، والتقدير ولكم نعمة أو خصلة اخرى تحبونها وهي نصر من الله وفتح قريب عاجل .

وقوله : « وبشر المؤمنين » معطوف على الأمر المفهوم من سابق الكلام كأنه قيل : قل يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم « الخ » ، وبشر المؤمنين .

وتحاذي هذه البشرى مـا في قوله : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة – إلى أن قال – فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به » التوبة : ١١١ ، وبه يظهر أن الذي أمر أن يبشروا به مجموع مـا يؤتيهم الله من الأجر في الآخرة والدنيا لا خصوص النصر والفتح .

هذا كله ما يعطيه السياق في معنى الآية وإعراب أجزائها ، وقد ذكر فيها أمور اخرى لا يساعد عليها السياق تلك المساعدة أغمضنا عن ذكرها ، واحتمل أن يكون قوله : « وبشر » الخ استئنافاً .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله » الخ ، أي اتسموا بهذه السمة ودوموا واثبتوا عليها فالآية في معنى الترقي بالنسبة إلى قوله السابق : « هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم » ، ومآل المعنى : اتجروا بأنفسكم وأموالكم فانصروا الله بالإيمان والجهاد في سبيله ودوموا واثبتوا على نصره .

والمراد بنصرتهم لله أن ينصروا نبيه في سلوك السبيل الذي يسلكه إلى الله على بصيرة كما قال : « قل هذه سبيلي ادعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني » يوسف : ١٠٨ .

والدليل على هذا المعنى تنظيره تعالى قوله : « كونوا أنصار الله » بقوله بعده : « كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله » فكون الحواريين أنصار الله معناه كونهم أنصاراً لعيسى بن مريم عليهما السلام في سلوكه سبيل الله وتوجهه إلى الله وهو التوحيد وإخلاص العبادة لله سبحانه فمحاذاة قولهم : « نحن أنصار الله » لقوله : « من أنصاري إلى الله » ومطابقته له تقتضي اتحاد معنى الكلمتين بحسب المراد فكون هؤلاء المخـاطبين بقوله : « يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله » أنصاراً لله معناه كونهم أنصاراً للنبي ﷺ في نشر الدعوة وإعلاء كلمة الحق بالجهاد ، وهو الإيمان بالنبي ﷺ وطاعته فيما يأمر وينهى عن قول جازم وعمل صادق – كما هو مؤدى سياق آيات السورة .

وقوله : « فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفـة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » إشارة إلى مـا جرى عليه وانتهى اليه أمر استنصار عيسى

وتلبية الحواريين حيث تفرق الناس إلى طائفة مؤمنة واخرى كافرة فأيد الله المؤمنين على عدوهم وهم الكفار فأصبحوا ظاهرين بعد ما كانوا مستخفين مضطهدين .

وفيه تلويح الى أن أمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجري فيهم ما جرى في أمة عيسى عليه السلام تؤمن منهم طائفة وتكفر طائفة فإن أجاب المؤمنون استنصاره – وقد قام هو تعالى مقامه في الاستنصار إعظاماً لأمره وإعزازاً له – أيدهم الله على عدوهم فيصبحون ظاهرين كما ظهر أنصار عيسى والمؤمنون به .

وقد أشار تعالى إلى هذه القصة في آخر قصص عيسى عليه السلام من سورة آل عمران حيث قال : « فلمـــا أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله » آل عمران : ٥٢ ، إلى تمـــام ست آيات ، وبالتدبر فيها يتضح معنى الآية المبحوث عنها .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعـــالى : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم » فقالوا : لو نعلم ما هي لنبذلن فيه الأموال والأنفس والأولاد ، فقـــال الله : « تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم – إلى قوله – ذلك الفوز العظيم .

أقول : وهذا المعنى مروي من طرق أهل السنة أيضاً .

وفيه في قوله تعـــالى : « وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب » يعني في الدنيـــا بفتح القائم عليه السلام ، وأيضاً قال : فتح مكة .

وفي الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث : ولم يخل أرضه من عالم بمـــا يحتاج الخليقة اليه ومتعلم على سبيل نجاة اولئك هم الأقلون عدداً ، وقـــد بيّن الله ذلك من أمم الأنبياء ، وجعلهم مثلاً لمن تأخر مثل قوله في حواريي عيسى حيث قال لسائر بني إسرائيل: « من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنـــا بالله واشهد بأنا مسلمون » يعني مسلمون لأهل الفضل فضلهم ولا يستكبرون عن أمر ربهم فما أجابه منهم إلا الحواريون .

أقول : الرواية وإن وردت في تفسير آية آل عمران لكنها مفيدة فيما نحن فيه .

وفي الدر المنثور أخرج ابن إسحاق وابن سعد عن عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو ابن حزم قال : قال رسول الله ﷺ للنفر الذين لاقوه بالعقبة : أخرجوا إليَّ اثني عشر رجلاً منكم يكونوا كفلاء على قومهم كما كفلت الحواريون لعيسى بن مريم .

* * *

(سورة الجمعة مدنية ، وهي إحدى عشرة آية)

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ . يُسَبِّحُ لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ــ ١ . هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ــ ٢ . وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ــ ٣ . ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ــ ٤ . مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي ٱلْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ــ ٥ . قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلّٰهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ــ ٦ . وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّالِمِينَ ــ ٧ . قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ــ ٨ .

(بيان)

غرض السورة هو الحث البالغ على الاهتمام بأمر صلاة الجمعة والقيام بواجب أمرها فهي من شعائر الله المعظمة التي في تعظيمها والاهتمام بأمرها صلاح أخراهم ودنياهم ، وقد سلك تعالى إلى بيان أمره بافتتاح الكلام بتسبيحه والثناء عليه بما منّ على قوم أمّيين برسول منهم أميّ يتلو عليهم آياته ويزكّيهم بصالحات الأعمال والزاكيات من الأخلاق ويعلمهم الكتاب والحكمة فيحملهم كتاب الله ومعارف دينه أحسن التحميل هم ومن يلحق بهم أو يخلفهم من بعدهم من المؤمنين فليحملوا ذلك أحسن الحمل ، وليحذروا أن يكونوا كاليهود حمّلوا التوراة ثم لم يحملوا معارفها وأحكامها فكانوا مثل الحمار يحمل أسفاراً .

ثم تخلص إلى الأمر بترك البيع والسعي إلى ذكر الله إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة ، وقرّعهم على ترك النبي ﷺ قائماً يخطب والانفضاض والانسلال إلى التجارة واللهو ، وذلك آية عدم تحملهم ما حملوا من معارف كتاب الله وأحكامه ، والسورة مدنية .

قوله تعالى : « يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم » التسبيح تنزيه الشيء ونسبته إلى الطهارة والنزاهة من العيوب والنقائص ، والتعبير بالمضارع للدلالة على الاستمرار ، والملك هو الاختصاص بالحكم في نظام المجتمع ، والقدوس مبالغة في القدس وهو النزاهة والطهارة ، والعزيز هو الذي لا يغلبه غالب ، والحكيم هو المتقن فعله فلا يفعل عن جهل أو جزاف .

وفي الآية توطئة وتمهيد برهاني لما يتضمنه قوله : « هو الذي بعث » الخ ، من بعثة الرسول لتكميل الناس وإسعادهم وهدايتهم بعد إذ كانوا في ضلال مبين .

وذلك أنه تعالى يسبحه وينزهه الموجودات السماوية والأرضية بما عندهم من النقص الذي هو متممه والحاجة التي هو قاضيها فما من نقيصة أو حاجة إلا وهو المرجو في تمامها وقضائها فهو المسبّح المنزّه عن كل نقص وحاجة فله أن يحكم في نظام التكوين بين خلقه بما شاء ، وفي نظام التشريع في عباده بما أراد ، كيف لا ؟ وهو ملك له أن يحكم في أهل مملكته وعليهم أن يطيعوه .

وإذا حكم وشرّع بينهم ديناً لم يكن ذلك منه لحاجة إلى تعبيدهم ونقص فيه يتممه بعبادتهم لأنه قدّوس منزّه عن كل نقص وحاجة .

ثم إذا حكم وشرّع وبلغه إياهم عن غنىّ منه ودعاهم اليه بوساطة رسله فلم يستجيبوا دعوتـه وتمردوا عن طاعته لم يكن ذلك تعجيزاً منهم له تعالى لأنه العزيز لا يغلبه فيما يريده غالب .

ثم إن الذي حكم به وشرعه من الدين بما أنه الملك القدوس العزيز ليس يذهب لغى لا أثر له لأنه حكيم على الإطلاق لا يفعل ما يفعل إلا لمصلحة ولا يريد منهم ما يريد إلا لنفع يعود اليهم وخير ينالونه فيستقيم به حالهم في دنياهم وأخراهم .

وبالجملة فتشريعه الدين وإنزاله الكتاب ببعث رسول يبلغهم ذلك بتلاوة آياته ، ويزكيهم ويعلمهم من منه تعالى وفضل كما قال : « هو الذي بعث » الخ .

قوله تعالى : « هو الذي بعث في الاميين رسولاً منهم » الخ ، الاميون جمع أمي وهو الذي لا يقرأ ولا يكتب ، والمراد بهم – كما قيل – العرب لقلة من كان منهم يقرأ ويكتب وقد كان الرسول ﷺ منهم أي من جنسهم وهو غير كونه مرسلاً اليهم فقد كان منهم وكان مرسلاً إلى الناس كافة .

واحتمل أن يكون المراد بالاميين غير أهل الكتاب كما قال اليهود – على ما حكى الله عنهم – : « ليس علينا في الاميين سبيل » آل عمران : ٧٥ .

وفيه أنه لا يناسب قوله في ذيل الآية : « يتلو عليهم آياته » الخ ، فإنه ﷺ لم يخص غير العرب وغير أهل الكتاب بشيء من الدعوة لم يلقه اليهم .

واحتمل أن يكون المراد بالاميين أهل مكة لكونهم يسمونها أم القرى .

وفيه أنه لا يناسب كون السورة مدنية لإيهامه كون ضمير « يزكيهم ويعلمهم » راجعاً إلى المهاجرين ومن أسلم من أهل مكة بعد الفتح وأخلافهم وهو بعيد من مذاق القرآن .

ولا منافاة بين كونه ﷺ من الاميين مبعوثاً فيهم وبين كونه مبعوثاً اليهم وإلى غيرهم وهو ظاهر ، وتلاوته عليهم آياته وتزكيته وتعليمه لهم الكتاب والحكمة لنزوله بلغتهم وهو أول مراحل دعوته ولذا لما استقرت الدعوة بعض الإستقرار أخذ ﷺ يدعو اليهود والنصارى والمجوس وكاتب العظماء والملوك .

وكذا دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام على ما حكى الله تعالى : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك – إلى أن قال – ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » البقرة : ١٢٩ ، تشمل جميع آل

إسماعيل من عرب مضر أعم من أهل مكة وغيرهم ، ولا ينافي كونه صلى الله عليه وآله وسلم مبعوثاً اليهم وإلى غيرهم .

وقوله : « يتلو عليهم آياته » أي آيات كتابه مع كونه أمياً . صفة للرسول .

وقوله : « ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » التزكية تفعيل من الزكاة بمعنى النمو الصالح الذي يلازم الخير والبركة فتزكيته لهم تنميته لهم نماء صالحاً بتعويدهم الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة فيكملون بذلك في إنسانيتهم فيستقيم حالهم في دنياهم وآخرتهم يعيشون سعداء ويموتون سعداء .

وتعليم الكتاب بيان ألفاظ آياته وتفسير ما أشكل من ذلك ، ويقابله تعليم الحكمة وهي المعارف الحقيقية التي يتضمنها القرآن ، والتعبير عن القرآن تارة بالآيات وتارة بالكتاب للدلالة على أنه بكل من هذه العناوين نعمة يمتن بها – كما قيل – .

وقد قدم التزكية ههنا على تعليم الكتاب والحكمة بخلاف ما في دعوة إبراهيم عليه السلام لأن هذه الآية تصف تربيته صلى الله عليه وآله وسلم لمؤمني أمته ، والتزكية مقدمة في مقام التربية على تعليم العلوم الحقة والمعارف الحقيقية وأما ما في دعوة إبراهيم عليه السلام فإنها دعاء وسؤال أن يتحقق في ذريته هذه الزكاة والعلم بالكتاب والحكمة ، والعلوم والمعارف أقدم مرتبة وأرفع درجة في مرحلة التحقق والاتصاف من الزكاة الراجعة إلى الأعمال والأخلاق .

وقوله : « وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » « إن » مخففة من الثقيلة والمراد أنهم كانوا من قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في ضلال مبين ، والآية تحميد بعد تسبيح ومسوقة للامتنان كما سيأتي .

قوله تعالى : « وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم » عطف على الاميين وضمير « منهم » راجع اليهم و « من » للتبعيض والمعنى : بعث في الاميين وفي آخرين منهم لم يلحقوا بهم بعد وهو العزيز الذي لا يغلب في إرادته الحكيم الذي لا يلغو ولا يجازف في فعله .

قوله تعالى : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » الإشارة بذلك إلى بعث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم – وقد فخم أمره بالإشارة البعيدة – فهو صلى الله عليه وآله وسلم المخصوص بالفضل ، والمعنى: ذلك البعث وكونه يتلو آيات الله ويزكي الناس ويعلمهم الكتاب والحكمة من فضل الله وعطائه يعطيه من تعلقت به مشيته وقد شاء أن يعطيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم والله ذو

الفضل العظيم كذا قال المفسرون .

ومن الممكن أن تكون الإشارة بذلك إلى البعث بما له من النسبة إلى أطرافه من المرسل والمرسل اليهم ، والمعنى : ذلك البعث من فضل الله يؤتيه من يشاء وقد شاء أن يخص بهذا الفضل محمداً ﷺ فاختاره رسولاً ، وأمته فاختارهم لذلك فجعله منهم وأرسله اليهم .

والآية والآيتان قبلها أعني قوله : « هو الذي بعث – إلى قوله – العظيم » مسوقة سوق الامتنان .

قوله تعالى : « مثل الذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً » الخ ، قال الراغب : السفر – بالفتح فالسكون – كشف الغطاء ويختص ذلك بالأعيان نحو سفر العمامة عن الرأس والخمار عن الوجه – إلى أن قال – والسفر – بالكسر فالسكون – الكتاب الذي يسفر عن الحقائق قال تعالى : « كمثل الحمار يحمل أسفاراً » انتهى .

والمراد بتحميل التوراة تعليمها ، والمراد بحملها العمل بها على ما يؤيده السياق ويشهد به ما في ذيل الآية من قوله : « بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله » ، والمراد بالذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها اليهود الذين أنزل الله التوراة على رسولهم موسى عليه السلام فعلمهم ما فيها من المعارف والشرائع فتركوها ولم يعملوا بها فحمّلوها ولم يحملوها فضرب الله لهم مثل الحمار يحمل أسفاراً وهو لا يعرف ما فيها من المعارف والحقائق فلا يبقى له من حملها إلا التعب بتحمل ثقلها .

ووجه اتصال الآية بما قبلها أنه تعالى لما افتتح الكلام بما من به على المسلمين من بعث نبي أمي من بين الامیین یتلو علیهم آیات کتابه ویزکیهم ویعلمهم الکتاب والحکمة فیخرجهم من ظلمات الضلال إلى نور الهدى ومن حضيض الجهل إلى أوج العلم والحكمة وسيشير تعالى في آخر السورة إشارة عتاب وتوبيخ إلى ما صنعوه من الانفضاض والإنسلال إلى اللهو والتجارة والنبي ﷺ قائم يخطبهم يوم الجمعة وهو من الاستهانة بما هو من أعظم المناسك الدينية ويكشف أنهم لم يقدروها حق قدرها ولا نزّلوها منزلتها .

فاعترض الله سبحانه بهذا المثل وذكرهم بحال اليهود حيث حملوا التوراة ثم لم يحملوها فكانوا كالحمار يحمل أسفاراً ولا ينتفع بما فيها من المعرفة والحكمة ، فعليهم أن يهتموا بأمر الدين ويراقبوا الله في حركاتهم وسكناتهم ويعظموا رسوله ﷺ ويوقروه ولا يستهينوا

بما جاء به ، وليحذروا أن يحل بهم من سخطه تعالى مـا حل باليهود حيث لم يعملوا بما علموا فعدّهم الله جهلة ظالمين وشبههم بالحمار يحمل أسفاراً .

وفي روح المعاني : وجه ارتباط الآية بما قبلها تضمنها الإشارة إلى أن ذلك الرسول المبعوث قد بعثه الله تعالى بما نعته به في التوراة وعلى ألسنة أنبياء بني إسرائيل كأنه قيل: هو الذي بعث المبشر به في التوراة المنعوت فيها بالنبي الامي المبعوث إلى أمة أميين ، مثل من جاءه نعته فيها وعلمه ثم لم يؤمن به مثل الحمار . انتهى .

وأنت خبير بأنه تحكم لا دليل عليه من جهة السياق .

قوله تعالى : « قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » احتجاج على اليهود يظهر به كذبهم في دعواهم أنهم أولياء الله وأحباؤه ، وقد حكى الله تعالى ما يدل على ذلك عنهم بقوله :« وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه » المائدة : ١٨ ، وقوله : « قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس » البقرة : ٩٤ ، وقوله : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً » البقرة : ١١١ .

ومحصل المعنى : قل لليهود مخـاطباً لهم يا أيها الذين تهودوا إن كنتم اعتقدتم أنكم أولياء لله من دون الناس إن كنتم صادقين في دعواكم فتمنوا الموت لأن الولي يحب لقاء وليه ومن أيقن أنه ولي لله وجبت له الجنة ولا حاجب بينه وبينها إلا الموت أحب الموت وتمنى أن يحلّ به فيدخل دار الكرامة ويتخلص من هذه الحياة الدنيّة التي ما فيها إلا الهم والغم والمحنة والمصيبة .

قيل: وفي قوله:«أولياء لله» من غير إضافة إشارة إلى أنه دعوى منهم من غير حقيقة .

قوله تعالى : « ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين» أخبر تعالى نبيه ﷺ أنهم لا يتمنونه أبداً بعد ما أمره أن يعرض عليهم تمني الموت .

وقـد علل عدم تمنيهم الموت بما قدمت أيديهم وهو كناية عن الظلم والفسوق ، فمعنى الآية : ولا يتمنون الموت أبداً بسبب مـا قدمته أيديهم من الظلم فكانوا ظالمين والله عليم بالظالمين يعلم أنهم لا يحبون لقاءه لأنهم أعداؤه لا ولاية بينه وبينهم ولا محبة .

والآيتان في معنى قوله تعالى : « قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون النـاس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم

بالظالمين » البقرة : ٩٥ .

قوله تعالى : « قل إن الموت الذي تفرّون منه فإنه ملاقيكم ثم تردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » الفاء في قوله : «فإنه ملاقيكم » في معنى جواب الشرط ، وفيه وعيد لهم بأن الموت الذي يكرهونه كراهة أن يؤاخذوا بوبال أعمالهم فإنه سيلاقيهم لا محالة ثم يردّون إلى ربهم الذي خرجوا من زيّ عبوديته بظلمهم وعادوه بأعمالهم وهو عالم بحقيقة أعمالهم ظاهرها وباطنها فإنه عالم الغيب والشهادة فينبئهم بحقيقة أعمالهم وتبعاتها السيئة وهي أنواع العذاب .

ففي الآية إيذانهم أولاً : أن فرارهم من الموت خطأ منهم فإنه سيدركهم ويلاقيهم ، وثانياً : أن كراهتهم لقاء الله خطأ آخر فإنهم مردودون اليه محاسبون على أعمالهم السيئة ، وثالثاً : أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أعمالهم ظاهرها وباطنها ولا يحيق به مكرهم فإنه عالم الغيب والشهادة .

ففي الآية إشارة أولاً : إلى أن الموت حق مقضي كما قال : « كل نفس ذائقة الموت » الأنبياء : ٣٥ ، وقال : « نحن قدّرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين » الواقعة : ٦٠ .

وثانياً : أن الرجوع إلى الله لحساب الأعمال حق لا ريب فيه .

وثالثاً : أنهم سيوقفون على حقيقة أعمالهم فيوفونها .

ورابعاً: أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وللإشارة إلى ذلك بدّل اسم الجلالة من قوله : « عالم الغيب والشهادة » .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « هو الذي بعث في الاميين رسولاً منهم » عن أبيه عن ابن أبي عمير عن معاوية بن عمار عن أبي عبدالله عليه‌السلام في الآية قال : كانوا يكتبون ولكن لم يكن معهم كتاب من عند الله ولا بعث اليهم رسول فنسبهم الله إلى الاميين .

وفيه في قوله تعالى : « وآخرين منهم لما يلحقوا بهم » قال : دخلوا الإسلام بعدهم .

وفي المجمع وروي أن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله قرأ هذه الآية فقيل له : من هؤلاء ؟ فوضع يده على كتف سلمان وقال : لو كان الإيمان بالثريّا لنالته رجال من هؤلاء .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن عـــدة من جوامع الحديث منها صحيح البخاري

ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وفيه فوضع يده على رأس سلمان الفارسي وقال : والذي نفسي بيده لو كان العلم بالثريا لناله رجال من هؤلاء .

وروي أيضاً عن سعيد بن منصور وابن مردويه عن قيس بن سعد بن عبادة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : لو أن الإيمان بالثريا لناله رجال من أهل فارس .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: « مثل الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار » قال : الحمار يحمل الكتب ولا يعلم ما فيها ولا يعمل به كذلك بنو إسرائيل قد حملوا مثل الحمار لا يعلمون ما فيه ولا يعملون .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة والطبراني عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كالحمار يحمل أسفاراً والذي يقول له : أنصت ليس له جمعة .

أقول : وفيه تأييد لما قدمناه في وجه اتصال الآية بما قبلها .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: « قل يا أيها الذين هادوا » الآية، قال : إن في التوراة مكتوب : أولياء الله يتمنون الموت .

وفي الكافي بإسناده عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال : جاء رجل إلى أبي ذر فقال : يا أبا ذر ما لنا نكره الموت ؟ فقال : لأنكم عمّرتم الدنيا وخرّبتم الآخرة فتكرهون أن تنقلوا من عمران إلى خراب .

(كلام في معنى تعليم الحكمة)

لا محيص للانسان في حياته المحدودة التي يعمرها في هذه النشأة من سنّة يستنّ بها فيما يريد ويكره ، ويجري عليها في حركاته وسكناته وبالجملة جميع مساعيه في الحياة .

وتتبع هذه السنة في نوعها ما عند الإنسان من الرأي في حقيقة الكون العام وحقيقة نفسه وما بينهما من الربط ، ويدل على ذلك ما نجد من اختلاف السنن والطرائق في الامم باختلاف آرائهم في حقيقة نشأة الوجود والإنسان الذي هو جزء منها .

فمن لا يرى لما وراء المادة وجوداً ، ويقصر الوجود في المادي ، وينهي الوجود إلى الاتفاق ، ويرى الإنسان مركباً مادياً محدود الحياة بين التولد والموت لا يرى لنفسه من

السعادة إلا سعادة المادة ولا غـاية له في أعماله إلا المزايا المادية من مال وولد وجاه وغير ذلك،ولا بغية له إلا التمتع بأمتعة الدنيا والظفر بلذائذها المادية أو ما يرجع اليها وتنتهي جميعاً إلى الموت الذي هو عنده انحلال للتركيب وبطلان .

ومن يرى كينونة العالم عن سبب فوقه منزه عن المادة ، وأن وراء الدار داراً وبعـد الدنيا آخرة نجده يخالف في سننه وطريقته الطائفة المتقدم ذكرها فيتوخى في أعماله وراء سعادة الدنيا سعادة الاخرى ويختلف صور أعمالهم وغاياتهم وآراؤهم مع الطائفة الاولى .

ويختلف سنن هؤلاء باختلافهم أنفسهم فيما بينهم كاختلاف سنن الوثنيين من البرهميين والبوذيين وغيرهم والملّيين من المجوسية والكليمية والمسيحية والمسلمين فلكل وجهـــة هو مولّيها .

وبالجملة الملّي يراعي في مساعيه جانب ما يراه لنفسه من الحياة الخالدة المؤبدة ويذعن من الآراء بما يناسب ذلك كادّعائه أنه يجب على الإنسان أن يمهد لعالم البقـاء وأن يتوجه إلى ربه ، وأن لا يفرط في الاشتغال بعرض الحياة الدنيا الفانية وغير الملّي الخاضع للمادة يلوي إلى خلاف ذلك ، هذا كله مما لا ريب فيه .

غير أن الإنسان لما كان بحسب طبعه المادي رهيناً للمادة متردداً بين الأسباب الظاهرية فاعلاً بها منفعلاً عنها لا يزال يدفعه سبب إلى سبب لا فراغ له من ذلك ، يرى - بحسب ما يخيل اليه - أن الأصالة لحياته الدنيوية المنقطعة ، وأنها وما تنتهي اليه من المقـــاصد والمزايا هي الغـــاية الأخيرة والغرض الأقصى من وجوده الذي يجب عليه أن يسعى لتحصيل سعادته .

فالحياة الدنيا هي الحياة وما عنـد أهلها من القنية والنعمة والمنية والقوة والعزة هي هي بحقيقة معنى الكلمة ، وما يعدّونه فقراً ونقمة وحرماناً وضعفاً وذلة ورزية ومصيبة وخسراناً هي هي وبالجملة كلما تهواه النفس من خير معجل أو نفع مقطوع فهو عندهم خير مطلق ونفع مطلق ، وكل ما لا تهواه فهو شر أو ضر .

فمن كان منهم من غير أهل الملة جرى على هـذه الآراء ولا خبر عنده عما وراء ذلك ، ومن كان منهم من أهل الملة جرى عليها عملاً وهو معترف بخلافها قولاً فلا يزال في تدافع بين قوله وفعله قال تعالى : « كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا » البقرة : ٢٠ .

والذي تندب اليه الدعوة الإسلامية من الإعتقاد والعمل هو ما يطابق مقتضى الفطرة

الإنسانية التي فطر عليها الإنسان وتثبت عليه خلقته كما قال : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم » الروم : ٣٠ .

ومن المعلوم أن الفطرة لا تهتدي علماً ولا تميل عملاً إلا إلى ما فيه كمالها الواقعي وسعادتها الحقيقية فما تهتدي اليه من الإعتقادات الأصلية في المبدأ والمعاد وما يتفرع عليها من الآراء والعقائد الفرعية علوم وآراء حقة لا تتعدى سعادة الإنسان وكذا ما تميل اليه من الأعمال .

ولذا سمى الله تعالى هذا الدين المبني على الفطرة بدين الحق في مواضع من كلامه كقوله : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق » الصف : ٩ . وقال في القرآن المتضمن لدعوته : « يهدي إلى الحق » الأحقاف : ٣٠ .

وليس الحق إلا الرأي والاعتقاد الذي يطابقه الواقع ويلازمه الرشد من غير غيّ ، وهذا هو الحكمة – الرأي الذي أحكم في صدقه فلا يتخلله كذب ، وفي نفعه فلا يعقبه ضرر – وقد أشار تعالى إلى اشتمال الدعوة على الحكمة بقوله : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة » النساء : ١١٣ ، ووصف كلامه المنزل بها فقال : « والقرآن الحكيم » يس: ٢ ، وعدّ رسوله ﷺ معلماً للحكمة في مواضع من كلامه كقوله : « ويعلمهم الكتاب والحكمة » الجمعة : ٢ .

فالتعليم القرآني الذي تصداه الرسول ﷺ المبين لما نزل من عند الله من تعليم الحكمة وشأنه بيان ما هو الحق في أصول الإعتقادات الباطلة الخرافية التي دبت في أفهام الناس من تصور عالم الوجود وحقيقة الإنسان الذي هو جزء منه – كما تقدمت الإشارة اليه – وما هو الحق في الإعتقادات الفرعية المترتبة على تلك الاصول مما كان مبدأ للأعمال الإنسانية وعناوين لغاياتها ومقاصدها .

فالناس – مثلاً – يرون أن الأصالة لحياتهم المادية حتى قال قائلهم : « ما هي إلا حياتنا الدنيا » الجاثية : ٢٤ ، والقرآن ينبههم بقوله : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان » العنكبوت : ٦٤ ، ويرون أن العلل والأسباب هي المولدة للحوادث الحاكمة فيها من حياة وموت وصحة ومرض وغنى وفقر ونعمة ونقمة ورزق وحرمان « بل مكر الليل والنهار » سبأ : ٣٣ ، والقرآن يذكرهم بقوله : « ألا له الخلق والأمر » الأعراف : ٥٤ ، وقوله : « إن الحكم إلا لله » يوسف : ٦٧ ،

وغير ذلك من آيات الحكمة ، ويرون أن لهم الاستقلال في المشية يفعلون ما يشاؤن والقرآن يخطئهم بقوله : « وما تشاؤن إلا أن يشاء الله » الإنسان : ٣٠ ، ويرون أن لهم أن يطيعوا ويعصوا ويهدوا ويهتدوا والقرآن ينبئهم بقوله : « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » القصص : ٥٦ .

ويرون أن لهم قوة والقرآن ينكر ذلك بقوله : « أن القوة لله جميعاً » البقرة : ١٦٥. ويرون أن لهم عزة بمال وبنين وأنصار والقرآن يحكم بخلافه بقوله : « أيبتغون عندهم العزة إن العزة لله جميعاً » النساء : ١٣٩ . وقوله : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » المنافقون : ٨ .

ويرون أن القتل في سبيل الله موت وانعدام والقرآن يعدّه حياة إذ يقول : « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » البقرة : ١٥٤ ، الى غير ذلك من التعاليم القرآنية التي أمر النبي ﷺ أن يدعو بها الناس قال : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة » النحل : ١٢٥ .

وهي علوم وآراء جمة صورت الحياة الدنيا خلافها في نفوس الناس وزينه فنبه تعالى لها في كتابه وأمر بتعليمها رسوله وندب المؤمنين أن يتواصوا بها كما قال : « إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق » العصر: ٣ ، وقال : « يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب » البقرة : ٢٦٩ .

فالقرآن بالحقيقة يقلب الانسان في قالب من حيث العلم والعمل حديث ويصوغه صوغاً جديداً فيحيى حياة لا يتعقبها موت أبداً ، واليه الاشارة بقوله تعالى : « استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » الأنفال : ٢٤ ، وقوله : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » الأنعام : ١٢٢ .

وقد بينا وجه الحكمة في كل من آياتها عند التعرض لتفسيرها على قدر مجال البحث في الكتاب .

ومما تقدم يتبين فساد قول من قال : إن تفسير القرآن تلاوته ، وإن التعمق في مداليل آيات القرآن من التأويل الممنوع فما أبعده من قول .

* * *

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلٰوةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا
إِلىٰ ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ــ ٩ .
فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلٰوةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ
وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ــ ١٠ . وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ
لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ
التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ــ ١١ .

(بيان)

تأكيد إيجاب صلاة الجمعة وتحريم البيع عند حضورها وفيها عتاب لمن انفض إلى اللهو والتجارة عند ذلك واستهجان لفعلهم .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع » الخ ، المراد بالنداء للصلاة من يوم الجمعة الأذان كما في قوله : « وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً » المائدة : ٥٨ .

والجمعة بضمتين أو بالضم فالسكون أحد أيام الاسبوع وكان يسمى أولاً يوم العروبة ثم غلب عليه اسم الجمعة ، والمراد بالصلاة من يوم الجمعة صلاة الجمعة المشرّعة يومها ، والسعي هو المشي بالإسراع ، والمراد بذكر الله الصلاة كما في قوله : « ولذكر الله أكبر » العنكبوت : ٤٥ ، على ما قيل وقيل : المراد به الخطبة قبل الصلاة وقوله : « وذروا البيع » أمر بتركه ، والمراد به على ما يفيده السياق النهي عن الاشتغال بكل عمل يشغل عن صلاة الجمعة سواء كان بيعاً أو غيره وإنما علق النهي بالبيع لكونه من أظهر مصاديق ما يشغل عن الصلاة .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا إذا أذن لصلاة الجمعة يومها فجدّوا في المشي إلى الصلاة واتركوا البيع وكل ما يشغلكم عنها .

وقوله : « ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » حثّ وتحريض لهم لما أمر به من الصلاة وترك البيع .

قوله تعالى : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » الخ ، المراد بقضاء الصلاة إقامة صلاة الجمعة ، والانتشار في الأرض التفرق فيها ، وابتغاء فضل الله طلب الرزق نظراً إلى مقابلته ترك البيع في الآية السابقة لكن تقدم أن المراد ترك كل ما يشغل عن صلاة الجمعة ، وعلى هذا فابتغاء فضل الله طلب مطلق عطيته في التفرق لطلب رزقه بالبيع والشرى ، وطلب ثوابه بعيادة مريض والسعي في حاجة مسلم وزيارة أخ في الله ، وحضور مجلس علم ونحو ذلك .

وقوله : « فانتشروا في الأرض » أمر واقع بعد الحظر فيفيد الجواز والإباحة دون الوجوب وكذا قوله : « وابتغوا ، واذكروا » .

وقوله : « واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » المراد بالذكر أعم من الذكر اللفظي فيشمل ذكره تعالى قلباً بالتوجه اليه باطناً ، والفلاح النجاة من كل شقاء ، وهو في المورد بالنظر الى ما تقدم من حديث التزكية والتعليم وما في الآية التالية من التوبيخ والعتاب الشديد،الزكاة والعلم وذلك أن كثرة الذكر يفيد رسوخ المعنى المذكور في النفس وانتقاشه في الذهن فتنقطع به منابت الغفلة ويورث التقوى الديني الذي هو مظنة الفلاح قال تعالى: « واتقوا الله لعلكم تفلحون » آل عمران : ٢٠٠ .

قوله تعالى : « وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها وتركوك قائماً » الخ، الانفضاض – على ما ذكره الراغب – استعارة عن الانفضاض بمعنى انكسار الشيء وتفرق بعضه من بعض .

وقد اتفقت روايات الشيعة وأهل السنة على أنه ورد المدينة عير معها تجارة وذلك يوم الجمعة والنبي ﷺ قائم يخطب فضربوا بالطبل والدف لإعلام الناس فانفض أهل المسجد اليهم وتركوا النبي ﷺ قائماً يخطب فنزلت الآية. فالمراد باللهو استعمال المعازف وآلات الطرب ليجتمع الناس للتجارة ، وضمير « اليها » راجع إلى التجارة لأنها كانت المقصودة في نفسها واللهو مقصود لأجلها ، وقيل : الضمير لأحدهما كأنه قيل : انفضوا

اليه وانفضوا اليها وذلك أن كلا منها سبب لانفضاض الناس اليه وتجمعهم عليه ، ولذا ردد بينها وقال : « تجارة أو لهواً » ولم يقل : تجارة ولهواً والضمير يصلح للرجوع إلى كل منها لأن اللهو في الأصل مصدر يجوز فيه الوجهان التذكير والتأنيث .

ولذا أيضاً عد « ما عند الله » خيراً من كل منهما بحياله فقال : « من اللهو ومن التجارة » ولم يقل : من اللهو والتجارة .

وقوله : « قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين » أمر للنبي أن ينبههم على خطإهم فيما فعلوا – وما أفظعه – والمراد بما عند الله الثواب الذي يستعقبه سماع الخطبة والموعظة .

والمعنى قل لهم : ما عند الله من الثواب خير من اللهو ومن التجارة لأن ثوابه تعالى خير حقيقي دائم غير منقطع ، وما في اللهو والتجارة من الخير أمر خيالي زائل باطل وربما استتبع سخطه تعالى كما في اللهو .

وقيل : خير مستعمل في الآية مجرداً عن معنى التفضيل كما في قوله تعالى : « ءأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » يوسف : ٣٩ ، وهو شائع في الاستعمال .

وفي الآية أعني قوله : « وإذا رأوا » التفات من الخطاب إلى الغيبة ، والنكتة فيه تأكيد ما يفيده السياق من العتاب واستهجان الفعل بالإعراض عن تشريفهم بالخطاب وتركهم في مقام الغيبة لا يواجههم ربهم بوجهه الكريم .

ويلوح إلى هذا الإعراض قوله : « قل ما عند الله خير » حيث لم يشر إلى من يقول له ، ولم يقل : قل لهم كما ذكرهم بضميرهم أولاً من غير سبق مرجعه فقال : « وإذا رأوا » واكتفى بدلالة السياق .

وخير الرازقين من أسمائه تعالى الحسنى كالرزّاق وقد تقدم الكلام في معنى الرزق فيما تقدم .

(بحث روائي)

في الفقيه روي أنه كان بالمدينة إذا أذّن المؤذّن يوم الجمعة نادى مناد : حرم البيع لقول الله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع » .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن ميمون ابن مهران ولفظه كان بالمدينة إذا أذن المؤذن من يوم الجمعة ينادون في الأسواق : حرم البيع حرم البيع .

وتفسير القمي وقوله : « فاسعوا إلى ذكر الله » قال : الإسراع في المشي ، وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه‌السلام في الآية يقال : فاسعوا أي امضوا ، ويقال : اسعوا اعملوا لها وهو قص الشارب ونتف الإبط وتقليم الأظفار والغسل ولبس أنظف الثياب والتطيّب للجمعة فهو السعي يقول الله : « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ».

أقول : يريد أن السعي ليس هو الإسراع في المشي فحسب .

وفي المجمع وروى أنس عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله قال في قوله : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض » الآية ليس بطلب الدنيا ولكن عيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ في الله.

أقول : ورواه في الدر المنثور عن ابن جرير عن أنس عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله وعن ابن مردويه عن ابن عباس عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله .

وفيه وروي عن أبي عبدالله عليه‌السلام : أنه قال: الصلاة يوم الجمعة والانتشار يوم السبت.

أقول : وفي هذا المعنى روايات أخر .

وفيه وروى عمر بن يزيد عن أبي عبدالله عليه‌السلام قال: إني لأركب في الحاجة التي كفاها الله ما أركب فيها إلا التماس أن يراني الله اضحي في طلب الحلال أما تسمع قول الله عز اسمه : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » ؟

أرأيت لو أن رجلاً دخل بيتاً وطيّن عليه بابه ثم قال : رزقي ينزل عليّ أكان يكون هذا ؟ أما إنه أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم .

قال : قلت : من هؤلاء ؟ قال : رجل يكون عنده المرأة فيدعو عليها فلا يستجاب له لأن عصمتها في يده لو شاء أن يخلي سبيلها ، والرجل يكون له الحق على الرجل فلا يشهد عليه فيجحده حقه فيدعو عليه فلا يستجاب له لأنه ترك ما أمر به ، والرجل يكون عنده الشيء فيجلس في بيته ولا ينتشر ولا يطلب ولا يلتمس حتى يأكله ثم يدعو فلا يستجاب له .

وفيه قال جابر بن عبدالله : أقبل عير ونحن نصلي مع رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله فانفضّ الناس اليها فما بقي غير اثني عشر رجلاً أنا فيهم فنزلت الآية « وإذا رأوا تجارة أو لهواً » .

وعن عوالى اللئالي روى مقاتل بن سليمان قال: بينا رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ قدم دحية الكلبي من الشام بتجارة ، وكان اذا قدم لم يبق في المدينة عاتق [١] إلا أتته ، وكان يقدم ـ إذا قدم ـ بكل ما يحتاج اليه الناس من دقيق وبرّ وغيره ثم ضرب الطبل ليؤذن الناس بقدومه فيخرج الناس فيبتاعون منه .

فقدم ذات جمعـــة ، وكان قبل أن يسلم ، ورسول الله ﷺ يخطب على المنبر فخرج الناس فلم يبق في المسجد إلا اثنا عشر فقال النبي ﷺ : لولا هؤلاء لسوّمت عليهم الحجارة من السماء وأنزل الله الآية في سورة الجمعة .

أقول : والقصة مروية بطرق كثيرة من طرق الشيعة وأهل السنة واختلفت الأخبار في عدد من بقي منهم في المسجد بين سبعة إلى أربعين .

وفيه « انفضّوا » أي تفرّقوا ، وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قـال : انصرفوا اليها وتركوك قائماً تخطب على المنبر .

قال جابر بن سمرة : ما رأيت رسول الله ﷺ يخطب إلا وهو قائم فمن حدّثك أنه خطب وهو جالس فكذّبه .

أقول : وهو مروي أيضاً في روايات اخرى .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة عن طاوس قال : خطب رسول الله ﷺ قـائماً وأبو بكر وعمر وعثمان ، وإن أول من جلس على المنبر معاوية بن أبي سفيان .

* * *

(سورة المنافقون مدنية ، وهي إحدى عشرة آية)

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ . إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ـ ١ . إِتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ

---

(١) العاتق : الجارية أوائل ما أدركت .

سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ــ ٢ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ــ ٣ . وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ
وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ
عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ــ ٤ . وَإِذَا
قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ
يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ــ ٥ . سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ
تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ــ ٦ .
هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا
وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ــ ٧ .
يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ
وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ــ ٨ .

(بيان)

تصف السورة المنافقين وتسمهم بشدّة العداوة وتأمر النبي ﷺ أن يحذرهم وتعظ المؤمنين أن يتحرّزوا من خصائص النفاق فلا يقعوا في مهلكته ولا يجرّهم إلى النار ، والسورة مدنية .

قوله تعالى : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » المنافق اسم فاعل من النفاق وهو في عرف القرآن إظهار الإيمان وإبطان الكفر .

والكذب خلاف الصدق وهو عدم مطابقة الخبر للخارج فهو وصف الخبر كالصدق وربما اعتبرت مطابقة الخبر ولا مطابقته بالنسبة إلى اعتقاد المخبر فيكون مطابقته لاعتقاد المخبر صدقاً منه وعدم مطابقته له كذباً فيقال : فلان كاذب إذا لم يطابق خبره الخارج وفلان كاذب إذا أخبر بما يخالف اعتقاده ويسمى النوع الأول صدقاً و كذباً خبريين ، والثاني صدقاً و كذباً مخبريين .

فقوله : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله » حكاية لإظهارهم الإيمان بالشهادة على الرسالة فإن في الشهادة على الرسالة إيماناً بما جاء به الرسول ﷺ ويتضمّن الإيمان بوحدانيته تعالى وبالمعاد ، وهو الإيمان الكامل .

وقوله : « والله يعلم إنك لرسوله » تثبيت منه تعالى لرسالته ﷺ ، وإنما أورده مع أن وحي القرآن ومخاطبته ﷺ كان كافياً في تثبيت رسالته ، ليكون قرينة مصرحة بأنهم كاذبون من حيث عدم اعتقادهم بما يقولون وإن كان قولهم في نفسه صادقاً فهم كاذبون في قولهم كذباً مخبرياً لا خبرياً فقوله : « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » أريد به الكذب المخبري لا الخبري .

قوله تعالى : « اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله » الخ ، الأيمان جمع يمين بمعنى القسم ، والجنة الترس والمراد بها ما يتقى به من باب الإستعارة ، والصد يجيء بمعنى الإعراض وعليه فالمراد إعراضهم أنفسهم عن سبيل الله وهو الدين وبمعنى الصرف وعليه فالمراد صرفهم العامة من الناس عن الدين وهم في وقاية من أيمانهم الكاذبة .

والمعنى : اتخذوا أيمانهم الكاذبة التي يحلفون وقاية لأنفسهم فأعرضوا عن سبيل الله ودينه — أو فصرفوا العامة من الناس عن دين الله بما يستطيعونه من الصرف بتقليب الامور وإفساد العزائم .

وقوله : « إنهم ساء ما كانوا يعملون » تقبيح لأعمالهم التي استمروا عليها منذ نافقوا إلى حين نزول السورة .

قوله تعالى : « ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » الظاهر أن الإشارة بذلك الى سوء ما عملوا كما قيل ، وقيل : الإشارة الى جميع ما تقدم من كذبهم واستجنانهم بالأيمان الفاجرة وصدهم عن سبيل الله ومساءة أعمالهم .

والمراد بأيمانهم — على ما قيل — أيمانهم بألسنتهم ظاهراً بشهادة أن لا إله إلا الله وأن

محمداً رسوله ثم كفرهم بخلو باطنهم عن الإيمان كما قال تعالى فيهم : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤن » البقرة : ١٤ .

ولا يبعد أن يكون فيهم من آمن حقيقة ثم ارتدّ وكتم ارتداده فلحق بالمنافقين يتربّص بالنبي ﷺ وبالمؤمنين الدوائر كما يظهر من بعض آيات سورة التوبة كقوله : « فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه » التوبة : ٧٧ ، وقد عبّر تعالى عمن لم يدخل الإيمان في قلبه منهم بمثل قوله : « وكفروا بعد إسلامهم » التوبة : ٧٤ .

فالظاهر أن المراد بقوله : « آمنوا ثم كفروا » إظهارهم للشهادتين أعم من أن يكون عن ظهر القلب أو بظاهر من القول ثم كفرهم بإتيان أعمال تستصحب الكفر كالاستهزاء بالدين وردّ بعض الأحكام .

وقوله : « فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » تفريع عدم الفقه على طبع القلوب دليل على أن الطبع ختم على القلب يستتبع عدم قبوله لورود كلمة الحق فيه فهو آئس من الإيمان محروم من الحق .

والطبع على القلب جعله بحيث لا يقبل الحق ولا يتبعه فلا محالة يتبع الهوى كما قال تعالى : « طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم » سورة محمد : ١٦ ، فلا يفقه ولا يسمع ولا يعلم كما قال تعالى: « وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » التوبة: ٨٧ ، وقال : «ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » الأعراف : ١٠٠ ، وقال : « وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون » التوبة : ٩٣ ، والطبع على أي حال لا يكون منه تعالى إلا مجازاة لأنه إضلال والذي ينسب اليه تعالى من الإضلال إنما هو الإضلال على سبيل المجازاة دون الإضلال الابتدائي وقد مرّ مراراً .

قوله تعالى : « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم » الخ، الظاهر أن الخطاب في «رأيتهم» و « تسمع » خطاب عام يشمل كل من رآهم وسمع كلامهم لكونهم في أزياء حسنة وبلاغة من الكلام ، وليس خطاباً خاصاً بالنبي ﷺ ، والمراد أنهم على صباحة من المنظر وتناسب من الأعضاء إذا رآهم الرائي أعجبته أجسامهم ، وفصاحة وبلاغة من القول إذا سمع السامع كلامهم مال إلى الإصغاء إلى قولهم لحلاوة ظاهره وحسن نظمه .

وقوله : « كأنهم خشب مسنّدة » ذم لهم بحسب باطنهم والخشب بضمتين جمع خشبة ،

والتسنيد نصب الشيء معتمداً على شيء آخر كحائط ونحوه .

والجملة مسوقة لذمّهم وهي متممة لسابقتها ، والمراد أن لهم أجساماً حسنة معجبة وقولاً رائعاً ذا حلاوة لكنهم كالخشب المسندة أشباح بلا أرواح لا خير فيهـــا ولا فائدة تعتريها لكونهم لا يفقهون .

وقوله : « يحسبون كل صيحة عليهم » ذمّ آخر لهم أي إنهم لإبطانهم الكفر و كتمانهم ذلك من المؤمنين يعيشون على خوف ووجل ووحشة يخافون ظهور أمرهم واطّلاع الناس على باطنهم ويظنون أن كل صيحة سمعوها فهي كائنة عليهم وأنهم المقصودون بها .

وقوله: «هم العدو فاحذرهم» أي هم كاملون في العداوة بالغون فيها فإن أعدى أعدائك من يعاديك وأنت تحسبه صديقك .

وقوله: « قاتلهم الله أنى يؤفكون » دعاء عليهم بالقتل وهو أشد شدائد الدنيا و كأن استعمال المقاتلة دون القتل للدلالة على الشدة .

وقيل : المراد به الطرد والإبعاد من الرحمة ، وقيل : المراد به الإخبار دون الدعاء ، والمعنى: أن شمول اللعن والطرد لهم مقرر ثابت، وقيل: الكلمة مفيدة للتعجب كما يقال: قاتله الله ما أشعره ، والظاهر من السياق ما تقدم من الوجه .

وقوله : « أنى يؤفكون » مسوق للتعجب أي كيف يصرفون عن الحق ؟ وقيل: هو توبيخ وتقريع وليس باستفهام .

قوله تعالى : « وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رؤسهم » الخ، التلوية تفعيل من لوى يلوي ليّاً بمعنى مال .

والمعنى: وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله – وذلك عندما ظهر منهم بعض خياناتهم وفسوقهم – أمالوا رؤسهم إعراضاً واستكباراً ورأيتهم الرائي يعرضون عن القائل وهم مستكبرون عن إجابة قوله .

قوله تعالى : « سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم » الخ ، أي يتساوى الاستغفار وعدمه في حقهم وتساوي الشيء وعدمه كناية عن أنه لا يفيـــد الفائدة المطلوبة منه ، فالمعنى : لا يفيدهم استغفارك ولا ينفعهم .

وقوله : « لن يغفر الله لهم » دفع دخل كأن سائلاً يسأل : لماذا يتساوى الاستغفار لهم وعدمه ؟ فاجيب : لن يغفر الله لهم .

وقوله : « إن الله لا يهـــدي القوم الفاسقين » تعليل لقوله : « لن يغفر الله لهم » ، والمعنى : لن يغفر الله لهم لأن مغفرته لهم هـداية لهم إلى السعادة والجنة وهم فاسقون خارجون عن زي العبودية لإبطانهم الكفر والطبع على قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين.

قوله تعالى : « هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضّوا » الخ، الانفضاض التفرّق ، والمعنى : المنافقون هم الذين يقولون : لا تنفقوا أموالكم على المؤمنين الفقراء الذين لازموا رسول الله واجتمعوا عنـــده لنصرته وإنفاذ أمره وإجراء مقاصده حتى يتفرقوا عنه فلا يتحكم علينا .

وقوله : « ولله خزائن السماوات والأرض » جواب عن قولهم : لا تنفقوا الخ، أي إن الدين دين الله ولا حاجة له إلى إنفاقهم فله خزائن السماوات والأرض ينفق منها ويرزق من يشاء كيف يشاء فلو شاء لأغنى الفقراء من المؤمنين لكنه تعالى يختار مـــا هو الأصلح فيمتحنهم بالفقر ويتعبدهم بالصبر ليوجرهم أجراً كريماً ويهديهم صراطاً مستقيماً والمنافقون في جهل من ذلك .

وهذا معنى قوله : « ولكن المنافقين لا يفقهون » أي لا يفقهون وجه الحكمة في ذلك واحتمل أن يكون المعنى أن المنافقين لا يفقهون أن خزائن العالم بيد الله وهو الرازق لا رازق غيره فلو شاء لأغناهم لكنهم يحسبون أن الغنى والفقر بيد الأسباب فلو لم ينفقوا على اولئك الفقراء من المؤمنين لم يجدوا رازقاً يرزقهم ·

قوله تعالى : « يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » القائل هو عبد الله بن أُبيّ بن سلول، وكذا قائل الجملة السابقة : لا تنفقوا الخ ، وإنمـا عبر بصيغة الجمع تشريكاً لأصحابه الراضين بقوله معه .

ومراده بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله ﷺ ويريد بهذا القول تهديد النبي ﷺ بإخراجه من المدينة بعد المراجعة اليها وقد ردّ الله عليه وعلى من يشاركه في نفاقه بقوله : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » فقصر العزة في نفسه ورسوله والمؤمنين فلا يبقى لغيرهم إلا الذلة ونفى عن المنافقين العلم فلم يبق لهم إلا الذلة والجهالة .

(بحث روائي)

في المجمع نزلت الآيات في عبد الله بن أبي المنافق وأصحابه وذلك أن رسول الله ﷺ بلغه أن بني المصطلق يجتمعون لحربه وقائدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية زوج النبي ﷺ .

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ خرج اليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المريسيع من ناحية قديد الى الساحل فتزاحف الناس واقتتلوا فهزم الله بني المصطلق وقتل منهم من قتل ونفل رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم .

فبينا الناس على ذلك الماء إذ وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له جهجاه بن سعيد يقود له فرسه فازدحم جهجاه وسنان الجهني من بني عوف بن خزرج على الماء فاقتتلا فصرخ الجهني يا معشر الأنصار وصرخ الغفاري يا معشر المهاجرين فأعان الغفاري رجل من المهاجرين يقال له : جعال وكان فقيراً فقال عبد الله ابن أبيّ لجعال : إنك لهتاك فقال : وما يمنعني أن أفعل ذلك ؟ واشتد لسان جعال على عبد الله . فقال عبد الله : والذي يحلف به لأزرنك ويهمك غير هذا .

وغضب ابن أبيّ وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم حديث السن فقال ابن أبيّ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال القائل : سمّن كلبك يأكلك أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل يعني بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله ﷺ ثم أقبل على من حضره من قومه فقال: هذا ما جعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو أمسكتم عن جعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ولأوشكوا أن يتحولوا من بلادكم ويلحقوا بعشائرهم ومواليهم .

فقال زيد بن أرقم : أنت والله الذليل القليل المبغض في قومك ومحمد ﷺ في عز من الرحمن ومودة من المسلمين والله لا أحبك بعد كلامك هذا فقال عبد الله : اسكت فإنما كنت ألعب .

فمشى زيد بن أرقم الى رسول الله ﷺ وذلك بعد فراغه من الغزو فأخبره الخبر فأمر رسول الله ﷺ بالرحيل وأرسل الى عبد الله فأتاه فقال : ما هذا الذي بلغني عنك ؟ فقال عبد الله والذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك قط وإن زيداً

لكاذب ، وقال من حضر من الأنصار : يا رسول الله شيخنا وكبيرنا لا تصدق عليه كلام غلام من غلمان الأنصار عسى أن يكون هذا الغلام وهم في حديثه .

فعذره رسول الله ﷺ وفشت الملامة من الأنصار لزيد .

ولما استقل رسول الله ﷺ فسار لقيه أسيد بن الحضير فحيّاه بتحية النبوة ثم قال: يا رسول الله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح فيها ، فقال رسول الله ﷺ : أوما بلغك ما قال صاحبكم ؟ زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعزّ منها الأذلّ. فقال أسيد : فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت. هو والله الذليل وأنت العزيز. ثم قال: يا رسول الله أرفق به فوالله لقد جاء الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوّجوه وإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً .

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبيّ ما كان من أمر أبيه فأتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنه قد بلغني أنك تريد قتل أبي فإن كنت لا بد فاعلاً فمرني به فأنا أحمل اليك رأسه فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبرّ بوالديه مني وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبيّ أن يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار، فقال ﷺ: بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا.

قالوا : وسار رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ثم نزل بالناس فلم يكن إلا أن وجدوا مسّ الأرض وقعوا نياماً ، إنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي خرج من عبد الله بن أبيّ .

ثم راح بالناس حتى نزل على ماء بالحجاز فويق البقيع يقال له : بقعاء فهاجت ريح شديدة آذتهم وتخوّفوها وضلّت ناقة رسول الله ﷺ وذلك ليلاً فقال : مات اليوم منافق عظيم النفاق بالمدينة قيل : من هو ؟ قال : رفاعة . فقال رجل من المنافقين: كيف يزعم أنه يعلم الغيب ولا يعلم مكان ناقته ؟ ألا يخبره الذي يأتيه بالوحي ؟ فأتاه جبريل فأخبره بقول المنافق وبمكان الناقة ، وأخبر رسول الله ﷺ بذلك أصحابه وقال : ما أزعم أني أعلم الغيب وما أعلمه ولكن الله تعالى أخبرني بقول المنافق وبمكان ناقتي . هي في الشعب فإذا هي كما قال فجاؤا بها وآمن ذلك المنافق .

فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد في التابوت أحد بني قينقاع وكان من عظماء اليهود مات ذلك اليوم .

قال زيد بن أرقم : فلما وافى رسول الله ﷺ المدينة جلست في البيت لما بي من الهم والحياء فنزلت سورة المنافقون في تصديق زيد وتكذيب عبد الله بن أبيّ . ثم أخذ رسول الله ﷺ باذن زيد فرفعه عن الرحل ثم قال : يا غلام صدق فوك ، ووعت أذناك ، ووعى قلبك ، وقد أنزل الله فيما قلت قرآناً .

وكان عبد الله بن أبيّ بقرب المدينة فلما أراد أن يدخلها جاء ابنه عبد الله بن عبد الله ابن ابيّ حتى أناخ على مجامع طرق المدينة فقال : ما لك ويلك ؟ فقال : والله لا تدخلها إلا بإذن رسول الله ولتعلمن اليوم من الأعز ؟ ومن الأذل ؟ فشكا عبدالله ابنه إلى رسول الله ﷺ فأرسل اليه أن خل عنه يدخل فقال : أما إذا جاء أمر رسول الله ﷺ فنعم فدخل فلم يلبث إلا أياماً قلائل حتى اشتكى ومات .

فلما نزلت هذه الآيات وبان كذب عبد الله قيل له : نزل فيك آي شداد فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك فلوّى رأسه ثم قال : أمرتموني أن اؤمن فقد آمنت وأمرتموني أن اعطي زكاة مالي فقد أعطيت فما بقي إلا أن أسجد لمحمد فنزل : « وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رؤسهم – إلى قوله – لا يعلمون » .

أقول : ما أورده من القصة مأخوذ من روايات مختلفة مروية عن زيد بن أرقم وابن عباس وعكرمة ومحمد بن سيرين وابن إسحاق وغيرهم دخل حديث بعضهم في بعض .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « إذا جاءك المنافقون » الآية قال : قال : نزلت في غزوة المريسيع وهي غزوة بني المصطلق في سنة خمس من الهجرة ، وكان رسول الله ﷺ خرج اليها فلما رجع منها نزل على بئر وكان الماء قليلاً فيها .

وكان أنس بن سيار حليف الأنصار ، وكان جهجاه بن سعيد الغفاري أجيراً لعمر بن الخطاب فاجتمعوا على البئر فتعلق دلو سيّار بدلو جهجاه فقال سيار : دلوي وقال جهجاه : دلوي فضرب جهجاه على وجه سيار فسال منه الدم فنادى سيار بالخزرج ونادى جهجاه بقريش وأخذ الناس السلاح وكاد أن تقع الفتنة .

فسمع عبد الله بن ابيّ النداء فقال : ما هذا ؟ فأخبروه بالخبر فغضب غضباً شديداً ثم قال : قد كنت كارهاً لهذا المسير إني لأذل العرب ما ظننت أني أبقى إلى أن أسمع مثل هذا فلا يكن عندي تغيير .

ثم أقبل على أصحابه فقال : هذا عملكم أنزلتموهم منازلكم وواسيتموهم بأموالكم

ووقيتموهم بأنفسكم وأبرزتم نحوركم للقتل فأرمل نساؤكم وأيتم صبيانكم ولو أخرجتموهم لكانوا عيالاً على غيركم . ثم قال : لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

وكان في القوم زيد بن أرقم وكان غلاماً قد راهق ، وكان رسول الله ﷺ في ظل شجرة في وقت الهاجرة وعنده قوم من أصحابه من المهاجرين والأنصار فجاء زيد فأخبره بما قال عبد الله بن أبيّ فقال رسول الله ﷺ : لعلك وهمت يا غلام ، قال : لا والله ما وهمت . قال : فلعلك غضبت عليه ؟ قال : لا والله ما غضبت عليه ، قال : فلعله سفّه عليك ، فقال : لا والله .

فقال رسول الله لشقران مولاه : أحدج فأحدج راحلته وركب وتسامع الناس بذلك فقالوا : ما كان رسول الله ﷺ ليرحل في مثل هذا الوقت ، فرحل الناس ولحقه سعد ابن عبادة فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فقال : وعليك السلام ، فقال: ما كنت لترحل في مثل هذا الوقت، فقال : أوما سمعت قولاً قال صاحبكم ؟ قال: وأي صاحب لنا غيرك يا رسول الله ؟ قال : عبد الله بن أبيّ زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل ، فقال : يا رسول الله فإنك وأصحابك الأعز وهو وأصحابه الأذل .

فسار رسول الله ﷺ يومه كله لا يكلمه أحد فأقبلت الخزرج على عبد الله بن أبيّ يعذلونه فحلف عبد الله أنه لم يقل شيئاً من ذلك فقالوا : فقم بنا إلى رسول الله حتى نعتذر اليه فلوّى عنقه .

فلما جنّ الليل سار رسول الله ﷺ ليله كله فلم ينزلوا إلا للصلاة فلما كان من الغد نزل رسول الله ﷺ ونزل أصحابه وقد أمهدهم [1] الأرض من السفر الذي أصابهم فجاء عبد الله بن أبيّ إلى رسول الله ﷺ فحلف عبد الله له أنه لم يقل ذلك ، وأنه يشهد أن لا إله إلا الله وأنك لرسول الله وإن زيداً قد كذب عليّ ، فقبل رسول الله ﷺ منه وأقبلت الخزرج على زيد بن أرقم يشتمونه ويقولون له : كذبت على عبد الله سيدنا .

فلما رحل رسول الله ﷺ كان زيد معه يقول : اللهم إنك لتعلم أني لم أكذب على عبد الله بن أبيّ فما سار إلا قليلاً حتى أخذ رسول الله ﷺ ما كان يأخذه من البرحاء [2]

---

(١) أمهدهم الأرض : أي صارت لهم مهاداً فناموا .

(٢) البرحاء : حالة شبه الاغماء كانت تأخذ النبي صلى الله عليه وآله عند نزول الوحي .

عنـد نزول الوحي فثقل حتى كادت ناقته أن تبرك من ثقل الوحي فسري عن رسول الله ﷺ وهو يسكب العرق عن جبهته ثم أخذ باذن زيد بن أرقم فرفعه من الرحل ثم قال: يا غلام صدق قولك ووعى قلبك وأنزل الله فيما قلت قرآناً .

فلما نزل جمع أصحابه وقرأ عليهم سورة المنافقين : « بسم الله الرحمن الرحيم إذا جاءك المنافقون – إلى قوله – ولكن المنافقين لا يعلمون » ففضح الله عبد الله بن أبي .

وفي تفسير القمي أيضاً في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه‌السلام في قوله : « كأنهم خشب مسندة » يقول: لا يسمعون ولا يعقلون « يحسبون كل صيحة عليهم » يعني كل صوت « هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون » .

فلما أنبأ الله رسوله خبرهم مشى اليهم عشائرهم وقالوا افتضحتم ويلكم فأتوا رسول الله يستغفر لكم فلوّوا رؤسهم وزهدوا في الاستغفار، يقول الله: « وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رؤسهم ورأيتهم يصدّون وهم مستكبرون » .

وفي الكافي بإسناده إلى سماعة عن أبي عبدالله عليه‌السلام قال : إن الله تبارك وتعالى فوّض إلى المؤمن أموره كلها ، ولم يفوض اليه أن يذل نفسه ألم تر قول الله سبحانه وتعالى ههنا « لله العزة ولرسوله وللمؤمنين » والمؤمن ينبغي أن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلاً .

أقول : وروى هذا المعنى بإسناده عن داود الرقي والحسن الأحمسي وبطريق آخر عن سماعة .

وفيه بإسناده عن مفضل بن عمر قال : قال أبو عبد الله عليه‌السلام : لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه . قلت : بما يذل نفسه ؟ قال : يدخل فيما يعتذر منه .

(كلام حول النفاق في صدر الإسلام)

يهتم القرآن بأمر المنافقين اهتماماً بالغاً ويكرّ عليهم كرة عنيفة بذكر مساوي أخلاقهم وأكاذيبهم وخدائعهم ودسائسهم والفتن التي أقاموها على النبي ﷺ وعلى المسلمين ، وقد تكرر ذكرهم في السور القرآنية كسورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة والعنكبوت والأحزاب والفتح والحديد والحشر والمنافقون والتحريم .

وقد أوعدهم الله في كلامه أشد الوعيد ففي الدنيا بالطبع على قلوبهم وجعل الغشاوة

على سمعهم وعلى أبصارهم وإذهاب نورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون وفي الآخرة يجعلهم في الدرك الأسفل من النار .

وليس ذلك إلا لشدة المصائب التي أصابت الإسلام والمسلمين من كيدهم ومكرهم وأنواع دسائسهم فلم ينل المشركون واليهود والنصارى من دين الله ما نالوه ، وناهيك فيهم قوله تعالى لنبيه ﷺ يشير اليهم : « هم العدو فاحذرهم » المنافقون : ٤ .

وقـــد ظهر آثار دسائسهم ومكائدهم أوائل ما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة فورد ذكرهم في سورة البقرة وقد نزلت – على ما قيل – على رأس ستة أشهر من الهجرة ثم في السور الاخرى النازلة بعد بالإشارة إلى أمور من دسائسهم وفنون من مكائدهم كانسلالهم من الجند الإسلامي يوم أحد وهم ثلثهم تقريباً ، وعقدهم الحلف مع اليهود واستنهاضهم على المسلمين وبنائهم مسجد الضرار وإشاعتهم حديث الإفك ، وإثارتهم الفتنة في قصة السقاية وقصة العقبة إلى غير ذلك مما تشير اليه الآيات حتى بلغ أمرهم في الإفساد وتقليب الامور على النبي ﷺ إلى حيث هددهم الله بمثل قوله : « لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً » الأحزاب : ٦١ .

وقد استفاضت الأخبار وتكاثرت في أن عبد الله بن أبيّ بن سلول وأصحابه من المنافقين وهم الذين كانوا يقلبون الامور على النبي ﷺ ويتربصون به الدوائر وكانوا معروفين عند المؤمنين يقربون من ثلث القوم وهم الذين خذلوا المؤمنين يوم أحد فانمازوا منهم ورجعوا إلى المدينة قائلين لو نعلم قتالاً لاتبعناكم وهم عبد الله بن أبيّ وأصحابه .

ومن هنا ذكر بعضهم أن حركة النفاق بدأت بدخول الإسلام المدينة واستمرت إلى قرب وفاة النبي ﷺ .

هذا ما ذكره جمع منهم لكن التدبر في حوادث زمن النبي ﷺ والإمعان في الفتن الواقعة بعد الرحلة والاعتناء بطبيعة الاجتماع الفعالة يقضي عليه بالنظر :

أما أولاً: فلا دليل مقنعاً على عدم تسرب النفاق في متبعي النبي ﷺ المؤمنين بمكة قبل الهجرة ، وقول القائل : إن النبي ﷺ والمسلمين بمكة قبل الهجرة لم يكونوا من القوة ونفوذ الأمر وسعة الطول بحيث يهابهم الناس ويتقوهم أو يرجوا منهم خيراً حتى يظهروا لهم الإيمان ظاهراً ويتقربوا منهم بالإسلام ، وهم مضطهدون مفتنون معذبون

بأيدي صناديد قريش ومشركي مكة المعادين لهم المعاندين للحق بخلاف حال النبي ﷺ بالمدينة بعد الهجرة فإنه ﷺ هاجر اليها وقد كسب أنصاراً من الأوس والخزرج واستوثق من أقوياء رجالهم أن يدفعوا عنه كما يدفعون عن أنفسهم وأهليهم ، وقد دخل الإسلام في بيوت عامتهم فكان مستظهراً بهم على العدة القليلة الذين لم يؤمنوا به وبقوا على شركهم ولم يكن يسعهم أن يعلنوا مخالفتهم ويظهروا شركهم فتوقوا الشر بإظهار الإسلام فآمنوا به ظاهراً وهم على كفرهم باطناً فدسّوا الدسائس ومكروا ما مكروا .

غير تام ، فما القدرة والقوة المخالفة المهيبة ورجاء الخير بالفعل والاستدرار المعجل علة منحصرة للنفاق حتى يحكم بانتفاء النفاق لانتفائها فكثيراً ما نجد في المجتمعات رجالاً يتبعون كل داع ويتجمعون إلى كل ناعق ولا يعبؤن بمخالفة القوى المخالفة القاهرة الطاحنة ، ويعيشون على خطر مصرّين على ذلك رجاء أن يوفقوا يوماً لإجراء مرامهم ويتحكموا على الناس باستقلالهم بإدارة رحى المجتمع والعلوّ في الأرض وقد كان النبي ﷺ يذكر في دعوته لقومه أن لو آمنوا به واتبعوه كانوا ملوك الأرض .

فمن الجائز عقلاً أن يكون بعض من آمن به يتبعه في ظاهر دينه طمعاً في البلوغ بذلك إلى أمنيته وهي التقدم والرئاسة والاستعلاء ، والأثر المترتب على هذا النوع من النفاق ليس هو تقليب الامور وتربص الدوائر على الإسلام والمسلمين وإفساد المجتمع الديني بل تقويته بما أمكن وتغذيته بالمال والجاه لينتظم بذلك الامور ويتهيأ لاستفادته منه واستدراره لنفع شخصه . نعم يمكر مثل هذا المنافق بالمخالفة والمضادة فيما إذا لاح من الدين مثلاً ما يخالف أمنية تقدمه وتسلّطه إرجاعاً للأمر إلى سبيل ينتهي إلى غرضه الفاسد .

وأيضاً من الممكن أن يكون بعض المسلمين يرتاب في دينه فيرتد ويكتم ارتداده كما مرّت الإشارة اليه في قوله تعالى : « ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا » الآية ، وكما يظهر من لحن مثل قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم » المائدة : ٥٤ .

وأيضاً الذين آمنوا من مشركي مكة يوم الفتح لا يؤمن أكثرهم أن لا يؤمنوا إيمان صدق وإخلاص ومن البديهي عند من تدبّر في حوادث سني الدعوة أن كفار مكة وما والاها وخاصة صناديد قريش ما كانوا ليؤمنوا بالنبي ﷺ لولا سواد جنود غشيتهم وبريق

سيوف مسلطة فوق رؤسهم يوم الفتح وكيف يمكن مع ذلك القضاء بأنه حدث في قلوبهم والظرف هـذا الظرف نور الإيمان وفي نفوسهم الإخلاص واليقين فآمنوا بالله طوعاً عن آخرهم ولم يدبّ فيهم دبيب النفاق أصلا .

وأما ثانياً: فلأن استمرار النفاق إلى قرب رحلة النبي ﷺ وانقطاعه عند ذلك ممنوع نعم انقطع الخبر عن المنافقين بالرحلة وانعقاد الخلافة وانمحى أثرهم فلم يظهر منهم ما كان يظهر من الآثار المضادة والمكائد والدسائس المشؤمة .

فهل كان ذلك لأن المنافقين وفقوا للاسلام وأخلصوا الإيمان عن آخرهم برحلة النبي ﷺ وتأثرت قلوبهم من موته ما لم يتأثر بحياته ؟ أو أنهم صالحوا أولياء الحكومة الإسلامية على ترك المزاحمة بأن يسمح لهم ما فيه امنيتهم مصالحة سرّية بعد الرحلة أو قبلها ؟ أو أنه وقع هناك تصالح اتفاقي بينهم وبين المسلمين فوردوا جميعاً في مشرعة سواء فارتفع التصاكّ والتصادم ؟

ولعل التدبر الكافي في حوادث آخر عهد النبي ﷺ والفتن الواقعة بعد رحلته يهدي إلى الحصول على جواب شافٍ لهذه الأسئلة .

والذي أوردناه في هذا الفصل إشارة إجمالية إلى سبيل البحث .

* * *

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ــ ٩ . وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ــ ١٠ . وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ــ ١١ .

(بيان)

تنبيه للمؤمنين أن يتجنبوا عن بعض الصفات التي تورث النفاق وهو التلهّي بالمال والأولاد والبخل .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله » الخ، الإلهاء الإشغال ، والمراد بإلهاء الأموال والأولاد عن ذكر الله إشغالها القلب بالتعلق بها بحيث يوجب الإعراض عن التوجه إلى الله بما أنها زينة الحياة الدنيا، قال تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » الكهف:٤٦ ، والاشتغال بها يوجب خلوّ القلب عن ذكر الله ونسيانه تعالى فلا يبقى له إلا القول من غير عمل وتصديق قلبي ونسيان العبد لربه يستعقب نسيانه تعالى له ، قال تعالى : « نسوا الله فنسيهم » التوبة : ٦٧ ، وهو الخسران المبين ، قال تعالى في صفة المنافقين : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم » البقرة : ١٦ .

وإليه الإشارة بما في ذيل الآية من قوله: « ومن يفعل ذلك فاولئك هم الخاسرون ».

والأصل هو نهي المؤمنين عن التلهّي بالأموال والأولاد وتبديله من نهي الأموال والأولاد عن إلهائهم للتلويح إلى أن من طبعها الإلهاء فلا ينبغي لهم أن يتعلقوا بها فتلهيهم عن ذكر الله سبحانه فهو نهي كنائي آكد من التصريح .

قوله تعالى : « وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت » الخ، أمر بالإنفاق في البر أعم من الإنفاق الواجب كالزكاة والكفارات أو المندوب ، وتقييده بقوله : « مما رزقناكم » للإشعار بأن أمره هذا ليس سؤالاً لما يملكونه دونه ، وإنما هو شيء هو معطيه لهم ورزق هو رازقه وملك هو ملّكهم إياه من غير أن يخرج عن ملكه يأمرهم بإنفاق شيء منه فيما يريد فله المنّة عليهم في كل حال .

وقوله : « من قبل أن يأتي أحدكم الموت » أي فينقطع أمد استطاعته من التصرف في ماله بالإنفاق في سبيل الله .

وقوله : « فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب » عطف على قوله : « أن يأتي » الخ ، وتقييد الأجل بالقريب للاشعار بأنه قانع بقليل من التمديد ــ وهو مقدار ما يسع

الإنفاق من العمر - ليسهل إجابته ، ولأن الأجل أياً ما كان فهو قريب ، ومن كلامه عليه‌السلام : كل ما هو آتٍ قريب .

وقوله: « فأصّدّق وأكن من الصالحين » نصب « فأصدق » لكونه في جواب التمني، وجزم « أكن » لكونه في معنى جزاء الشرط ، والتقدير إن أتصدق أكن من الصالحين .

قوله تعالى : « ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها » إيآس لهم من استجابة دعاء من يسأل تأخير الأجل بعد حلوله والموت بعد نزوله وظهور آيات الآخرة ، وقد تكرر في كلامه تعالى أن الأجل المسمّى من مصاديق القضاء المحتوم كقوله : « وإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » يونس : ٤٩ .

وقوله: « والله خبير بما تعملون » حال من ضمير « أحدكم » أو عطف على أول الكلام ويفيد فائدة التعليل، والمعنى : لا تتلهّوا وأنفقوا فإن الله عليم بأعمالكم يجازيكم بها .

(بحث روائي)

في الفقيه وسئل عن قول الله تعالى :« فأصدق وأكن من الصالحين » قال : « أصدق » من الصدقة ، و « أكن من الصالحين » أحج .

أقول : الظاهر أن ذيل الحديث من قبيل الإشارة إلى بعض المصاديق .

وفي المجمع عن ابن عباس قال : ما من أحد يموت وكان له مال فلم يؤد زكاته وأطاق الحج فلم يحج إلا سأل الرجعة عند الموت .

قالوا : يا ابن عباس اتق الله فإنما نرى هذا الكافر يسأل الرجعة فقال : أنا أقرأ به عليكم قرآناً ثم قرأ هذه الآية - يعني قوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم - إلى قوله - من الصالحين » قال : الصلاح هنا الحج ، وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه‌السلام .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن عدة من أرباب الجوامع عن ابن عباس .

وفي تفسير القمي بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه‌السلام في قول الله : « ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها » قال : إن عند الله كتباً موقوفة يقدم منها ما يشاء ويؤخر ما يشاء فإذا كان ليلة القدر أنزل الله فيها كل شيء يكون إلى مثلها فذلك قوله : « ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها » إذا نزله الله وكتبه كتاب السماوات وهو الذي لا يؤخر .

* * *

(سورة التغابن مدنية ، وهي ثماني عشرة آية)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . يُسَبِّحُ لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي
ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ــ ١ . هُوَ
الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ــ ٢ .
خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ
ٱلْمَصِيرُ ــ ٣ . يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ
وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ــ ٤ . أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ــ ٥ . ذٰلِكَ
بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا
وَتَوَلَّوْا وَٱسْتَغْنَى اللهُ وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ــ ٦ . زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ
لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذٰلِكَ عَلَى اللهِ
يَسِيرٌ ــ ٧ . فَآمِنُوا بِٱللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ــ ٨ . يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ
وَمَنْ يُؤْمِنْ بِٱللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ــ ٩ .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ — ١٠ .

(بيان)

السورة شبيهة بسورة الحديد في سياق كسياقها ونظم كنظمها كأنها ملخصة منها وغرضها تحريض المؤمنين وترغيبهم في الإنفاق في سبيل الله ورفع ما يهجس في قلوبهم ويدب في نفوسهم من الأسى والأسف على المصائب التي تهجم عليهم في تحمل مشاق الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله والإنفاق فيها بأن ذلك كله بإذن الله .

والآيات التي أوردناها من صدر السورة تقدمة وتمهيد لبيان الغرض المذكور تبين أن أسماءه تعالى الحسنى وصفاته العليا تقضي بالبعث ورجوع الكل اليه تعالى رجوعاً يساق فيه أهل الإيمان والعمل الصالح إلى جنة خالدة ، وأهل الكفر والتكذيب إلى نار مؤبدة فهي تمهيد للأمر بطاعة الله ورسوله والصبر على المصائب والإنفاق في سبيل الله من غير تأثر من منع مانع ولا خوف من لومة لائم .

والسورة مدنية بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » تقدم الكلام في معنى التسبيح والملك والحمد والقدرة ، وأن المراد بما في السماوات والأرض يشمل نفس السماوات والأرض ومن فيها وما فيها .

وقوله : « له الملك » مطلق يفيد إطلاق الملك وعدم محدوديته بحد ولا تقيده بقيد أو شرط فلا حكم نافذاً إلا حكمه ، ولا حكم له إلا نافذاً على ما أراد .

وكذا قوله : « وله الحمد » مطلق يفيد رجوع كل حمد من كل حامد – والحمد هو الثناء على الجميل الاختياري – اليه تعالى لأن الخلق والأمر اليه فلا ذات ولا صفة ولا فعل جميلاً محموداً إلا منه واليه .

وكذا قوله : « وهو على كل شيء قدير » بما يدل عليه من عموم متعلق القدرة غير محدودة ولا مقيدة بقيد أو شرط .

وإذ كانت الآيات – كما تقدمت الإشارة اليه – مسوقة لإثبات المعـــاد كانت الآية كالمقدمة الاولى لإثباته، وتفيد أن الله منزّه عن كل نقص وشين في ذاته وصفاته وأفعاله يملك الحكم على كل شيء والتصرف فيه كيفما شاء وأراد، – ولا يتصرف إلا جميلا – وقدرته تسع كل شيء فله أن يتصرف في خلقه بالإعادة كما تصرف فيهم بالإبداء – الإحداث والإبقاء – فله أن يبعثهم إن تعلقت به إرادته ولا تتعلق إلا بحكمه .

قوله تعالى : « هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير » الفاء في « فمنكم » تدل على مجرد ترتب الكفر والايمان على الخلق فلا دلالة في التفريع على كون الكفر والايمان مخلوقين لله تعالى أو غير مخلوقين ، وإنما المراد انشعابهم فرقتين : بعضهم كافر وبعضهم مؤمن ، وقدم ذكر الكافر لكثرة الكفار وغلبتهم .

و « من » في قوله : « فمنكم ومنكم » للتبعيض أي فبعضكم كافر وبعضكم مؤمن .

وقد نبه بقوله : « والله بما تعملون بصير » على أن انقسامهم قسمين وتفرقهم فرقتين حق كما ذكر ، وهم متميزون عنده لأن الملاك في ذلك أعمالهم ظاهرها وباطنها والله بما يعملون بصير لا تخفى عليه ولا تشتبه .

وتتضمن الآية مقدمة اخرى لاثبات المعاد وتنجزه وهي أن الناس مخلوقون له تعالى متميزون عنده بالكفر والايمان وصالح العمل وطالحه .

قوله تعالى : « خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم واليه المصير » المراد بالحق خلاف الباطل وهو خلقها من غير غاية ثابتة وغرض ثابت كما قال : « لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا » الأنبياء : ١٧ ، وقال : « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » الدخان : ٣٩ .

وقوله : « وصوركم فأحسن صوركم » المراد بالتصوير إعطاء الصورة وصورة الشيء قوامه ونحو وجوده كما قال : « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » التين : ٤ ، وحسن الصورة تناسب تجهيزاتها بعضها لبعض والمجموع لغاية وجودها ، وليس هو الحسن بمعنى صباحة المنظر وملاحته بل الحسن العام الساري في الأشياء كما قال تعالى : « الذي أحسن كل شيء خلقه » الم السجدة : ٧ .

ولعل اختصاص حسن صورهم بالذكر للتنبيه على أنها ملائمة للغاية التي هي الرجوع إلى الله فتكون الجملة من جملة المقدمات المسوقة لإثبات المعاد على ما تقدمت الإشارة اليه .

وبهذه الآية تتم المقدمات المنتجة للزوم البعث ورجوع الخلق اليه تعالى فإنه تعالى لما كان ملكاً قادراً على الإطلاق له أن يحكم بما شاء ويتصرف كيف أراد وهو منزّه عن كل نقص وشين محمود في أفعاله ، وكان الناس مختلفين بالكفر والإيمان وهو بصير بأعمالهم ، وكانت الخلقة لغاية من غير لغو وجزاف كان من الواجب أن يبعثوا بعد نشأتهم الدنيا لنشأة أخرى دائمة خالدة فيعيشوا فيها عيشة باقية على ما يقتضيه اختلافهم بالكفر والإيمان وهو الجزاء الذي يسعد به مؤمنهم ويشقى به كافرهم .

وإلى هذه النتيجة يشير بقوله : « واليه المصير » .

قوله تعالى : « يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور » دفع شبهة لمنكري المعاد مبنية على الاستبعاد وهي أنه كيف يمكن إعادة الموجودات وهي فانية بائدة وحوادث العالم لا تحصى والأعمال والصفات لا تعدّ ، منها ظاهرة علنية ومنها باطنة سرية ومنها مشهودة ومنها مغيبة ، فاجيب بأن الله يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون .

وقوله : « والله عليم بذات الصدور » قيل : إنه اعتراض تذييلي مقرر لشمول علمه تعالى بما يسرّون وما يعلنون والمعنى : أنه تعالى محيط علماً بالمضمرات المستكنة في صدور الناس مما لا يفارقها أصلا فكيف يخفى عليه شيء مما تسرونه وما تعلنونه .

وفي قوله : « والله عليم » الخ ، وضع الظاهر موضع الضمير والأصل « وهو عليم » الخ والنكتة فيه الإشارة إلى علة الحكم ، وليكون ضابطاً يجري مجرى المثل .

قوله تعالى : « ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم » وبال الأمر تبعته السيئة والمراد بأمرهم كفرهم وما تفرع عليه من فسوقهم .

لما كان مقتضى أسمائه الحسنى وصفاته العليا المعدودة في الآيات السابقة وجوب معاد الناس ومصيرهم إلى ربهم للحساب والجزاء فمن الواجب إعلامهم بما يجب عليهم أن يأتوا به أو يجتنبوا عنه وهو الشرع ، والطريق إلى ذلك الرسالة فمن الواجب إرسال رسول على أساس الإنذار والتبشير بعقاب الآخرة وثوابها وسخطه تعالى ورضاه .

ساق تعالى الكلام بالإنذار بالإشارة إلى نبإ الذين كفروا من قبل وأنهم ذاقوا وبال أمرهم ولهم في الآخرة عذاب أليم ثم انتقل إلى بيان سبب كفرهم وهو تكذيب الرسالة ثم إلى سبب ذلك وهو إنكار البعث والمعاد .

ثم استنتج من ذلك كله وجوب إيمانهم بالله ورسوله والدين الذي أنزله عليه وختم التمهيد المذكور بالتبشير والإنذار بالإشارة إلى ما هيىء للمؤمنين الصالحين من جنة خالدة ولغيرهم من الكفار المكذبين من نار مؤبدة .

فقوله : « ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل » الخطاب للمشركين وفيه إشارة إلى قصص الامم السالفة الهالكة كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، ممن أهلكهم الله بذنوبهم ، وقوله : « فذاقوا وبال أمرهم » إشارة إلى ما نزل عليهم من عذاب الاستئصال وقوله : « ولهم عذاب أليم » إشارة الى عذابهم الاخروي .

قوله تعالى : « ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا » الخ ، بيان لسبب مـــا ذكر من تعذيبهم بعذاب الاستئصال وعذاب الآخرة ، ولذلك جيىء بالفصل دون العطف كأنه جواب لسؤال مقدر كأن سائلاً يسأل فيقول : لم أصابهم ما أصابهم من العذاب؟ فقيل: «ذلك بأنه كانت» الخ، والإشارة بذلك إلى ما ذكر من العذاب.

وفي التعبير عن إتيان الرسل ودعوتهم بقوله : « كانت تأتيهم » الدال على الاستمرار ، وعن كفرهم وقولهم بقوله : « فقالوا وكفروا وتولوا » الدال بالمقابلة على المرة دلالة على أنهم قالوا ما قالوا كلمة واحدة قاطعة لا معدل عنها وثبتوا عليها وهو العناد واللجاج فتكون الآية في معنى قوله تعالى : « تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقـد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين » الأعراف : ١٠١ ، وقوله : « ثم بعثنا من بعده (أي بعد نوح) رسلاً إلى قومهم فجاؤهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين» يونس: ٧٤.

وقوله: « فقالوا أبشر يهدوننا » يطلق البشر على الواحد والجمع والمراد به الثاني بدليل قوله : « يهدوننا » والتنكير للتحقير ، والاستفهام للانكار أي قالوا على سبيل الإنكار : أآحاد من البشر لا فضل لهم علينا يهدوننا ؟

وهذا القول منهم مبني على الاستكبار ، على أن أكثر هؤلاء الامم الهالكة كانوا وثنيين وهم منكرون للنبوة وهو أساس تكذيبهم لدعوة الأنبياء ، ولذلك فرّع تعالى على قولهم: « أبشر يهدوننا » قوله : « فكفروا وتولوا » أي بنوا عليه كفرهم وإعراضهم .

وقوله: «واستغنى الله» الاستغناء طلب الغنى وهو من الله سبحانه – وهو غني بالذات – إظهار الغنى وذلك أنهم كانوا يرون أن لهم من العلم والقوة والاستطاعة ما يدفع عن جمعهم

الفناء ويضمن لهم البقـــاء كأنه لا غنى للوجود عنهم كما حكى الله سبحانه عن قائلهم : « قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً » الكهف : ٣٥ ، وقال : « ولئن أذقناه رحمـة منا من بعد ضرّاء مسّته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة » حم السجدة : ٥٠ .

ومآل هذا الظن بالحقيقة إلى أن لله سبحانه حاجة اليهم وفيهم – وهو الغني بالذات – فإهلاكه تعالى لهم وإفناؤهم إظهار منه لغناه عن وجودهم ، وعلى هـــذا فالمراد بقوله : « واستغنى الله » استئصالهم المدلول عليه بقوله : « فذاقوا وبال أمرهم » .

على أن الإنسان معجب بنفسه بالطبع يرى أن له على الله كرامة كأن من الواجب عليه أن يحسن اليه أينما كان كأن لله سبحانه حاجة إلى إسعاده والإحسان اليه كما يشير اليه قوله تعالى :« وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى» حم السجدة: ٥٠ ، وقوله : « وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدنّ خيراً منها منقلباً » الكهف : ٣٦ .

ومآل هـذا الزعم بالحقيقة إلى أن من الواجب على الله سبحانه أن يسعدهم كيفما كان كأن له اليهم حاجة فإذاقته لهم وبال أمرهم وتعذيبهم في الآخرة إظهار منه تعـــالى لغناه عنهم ، فالمراد باستغنائه تعـالى عنهم مجموع ما أفيد بقوله : « فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم » .

فهذان وجهان في معنى قوله تعالى : « واستغنى الله » والثاني منهما أشمل ، وفي الكلمة على أي حال من سطوع العظمة والقدرة مـا لا يخفى ، وهو في معنى قوله : « ثم أرسلنا رسلنا تترا كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون » المؤمنون : ٤٤ .

وقيل : المراد واستغنى الله بإقامة البرهان وإتمـام الحجة عليهم عن الزيادة على ذلك بإرشادهم وهدايتهم إلى الإيمان .

وقيل : المراد واستغنى الله عن طاعتهم وعبادتهم أزلاً وأبداً لأنـــه غني بالذات ، والوجهان كما ترى .

وقوله : « والله غني حميد » في محل التعليل لمضمون الآية ، والمعنى: والله غني في ذاته محمود فيما فعل ، فيما فعل بهم من إذاقتهم وبال أمرهم وتعذيبهم بعـذاب أليم على كفرهم وتوليهم من غناه وعدله لأنه مقتضى عملهم المردود اليهم .

قوله تعالى : « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير » ذكر ركن آخر من أركان كفر الوثنيين وهو إنكارهم الدين السماوي بإنكار المعاد إذ لا يبقى مع انتفاء المعـــاد أثر للدين المبني على الأمر والنهي والحساب والجزاء ويصلح تعليلاً لإنكار الرسالة إذ لا معنى حينئذ للتبليغ والوعيد .

والمراد بالذين كفروا عامة الوثنيين ومنهم من عاصر النبي ﷺ منهم كأهل مكة وما والاها ، وقيل : المراد أهل مكة خاصة .

وقوله : « قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم » أمر النبي ﷺ أن يجيب عن زعمهم أن لن يبعثوا ، بإثبات ما نفوه بما في الكلام من أصناف التأكيد بالقسم واللام والنون.

و « ثم » في « ثم لتنبؤن » للتراخي بحسب رتبة الكلام ، وفي الجملة إشارة إلى غاية البعث وهو الحساب وقوله: « وذلك على الله يسير » أي ما ذكر من البعث والإنباء بالأعمال يسير عليه تعالى غير عسير ، وفيه رد لإحالتهم أمر البعث على الله سبحانه استبعاداً ، وقد عبر عنه في موضع آخر من كلامه بمثل قوله : « وهو الذي يبدء الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » الروم : ٢٧ .

والدليل عليه ما عده في صدر الآيات من أسمائه تعالى وصفاته من الخلق والملك والعلم وأنه مسبح محمود ، ويجمع الجميع أنه الله المستجمع لجميع صفات الكمال .

ويظهر من هنا أن التصريح باسم الجلالة في الجملة أعني قوله : « وذلك على الله يسير » للإيماء إلى التعليل ، والمفاد أن ذلك يسير عليه تعالى لأنه الله ، والكلام حجة برهانية لا دعوى مجردة .

وذكروا أن الآية ثالثة الآيات التي أمر الله نبيه ﷺ أن يقسم بربه على وقوع المعاد وهي ثلاث : إحداهـــا قوله : « ويستنبؤنك أحق هو قل أي وربي » يونس : ٥٣ ، والثانية قوله : « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم » سبأ : ٣ ، والثالثة الآية التي نحن فيها .

قوله تعالى : « فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير » تفريع على مضمون الآية السابقة أي إذا كنتم مبعوثين لا محالة منبئين بما عملتم وجب عليكم أن تؤمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزله على رسوله وهو القرآن الذي يهدي بنوره الساطع إلى مستقيم الصراط ، ويبين شرائع الدين .

وفي قوله : « والنور الذي أنزلنا » التفات من الغيبة إلى التكلم مع الغير ولعل النكتة فيه تتميم الحجة بالسلوك من طريق الشهادة وهي أقطع للعذر فكم فرق بين قولنا : النور الذي أنزل وهو إخبار ، وقوله : « والنور الذي أنزلنا » ففيه شهادة منه تعالى على أن القرآن كتاب سماوي نازل من عنده تعالى ، والشهادة آكد من الإخبار المجرد .

لا يقال : ماذا ينفع ذلك وهم ينكرون كون القرآن كلامه تعالى النازل من عنده ولو صدقوا ذلك كفاهم ما مر من الحجة على المعاد وأغنى عن التمسك بذيل الالتفات المذكور.

لأنه يقال : كفى في إبطال إنكارهم كونه كلام الله ما في القرآن من آيات التحدي المثبتة لكونه كلام الله ، والشهادة على أي حال آكد وأقوى من الإخبار وإن كان مدللاً.

وقوله : « والله بما تعملون خبير » تذكرة بعلمه تعالى بدقائق أعمالهم ليتأكد به الأمر في قوله: « فآمنوا » والمعنى: آمنوا وجدوا في إيمانكم فإنه عليم بدقائق أعمالكم لا يغفل عن شيء منها وهو مجازيكم بها لا محالة .

قوله تعالى : « يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن » الخ ، « يوم » ظرف لقوله السابق : « لتبعثن ثم لتنبؤن » الخ ، والمراد بيوم الجمع يوم القيامة الذي يجمع فيه الناس لفصل القضاء بينهم قال تعالى : « ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً » الكهف : ٩٩ ، وقد تكرر في القرآن الكريم حديث الجمع ليوم القيامة ، ويفسره أمثال قوله تعالى : « إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » الجاثية : ١٧ ، وقوله : « فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » البقرة : ١١٣ ، وقوله: « إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » السجدة: ٢٥ ، فالآيات تشير إلى أن جمعهم للقضاء بينهم.

وقوله : « ذلك يوم التغابن » قال الراغب : الغبن أن تبخس صاحبك في معاملة بينك وبينه بضرب من الإخفاء . قال : ويوم التغابن يوم القيامة لظهور الغبن في المعاملة المشار اليها بقوله : « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله » وبقوله : « إن الله اشترى من المؤمنين » الآية ، وبقوله : « الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً » فعلموا أنهم غبنوا فيما تركوا من المبايعة وفيما تعاطوه من ذلك جميعاً .

وسئل بعضهم عن يوم التغابن فقال : تبدو الأشياء لهم بخلاف مقاديرهم في الدنيا . انتهى موضع الحاجة .

وما ذكره أولاً مبني على تفسير التغابن بسريان المغبونية بين الكفار بأخذهم لمعاملة

خاسرة وتركهم معاملة رابحـــة ، وهو معنى حسن غير أنه لا يلائم معنى باب التفاعل الظاهر في فعل البعض في البعض .

وما نقل عن بعضهم وجه ثان لا يخـلو من دقة ، ويؤيده مثل قوله تعالى : « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين » الم السجدة : ١٧ ، وقوله : « لهم مـــا يشاؤن فيها ولدينا مزيد » ق: ٣٥ ، وقوله: « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » الزمر: ٤٧ .

ومقتضى هذا الوجه عموم التغابن لجميع أهل الجمع من مؤمن وكافر أما المؤمن فلما أنه لم يعمل لآخرته أكثر ممـا عمل ، وأما الكافر فلأنه لم يعمل أصلاً ، والوجه المشترك بينهما أنهما لم يقدّرا اليوم حق قدره .

ويرد على هذا الوجه ما يرد على سابقه .

وهناك وجه ثالث وهو أن يعتبر التغابن بين أهل الضلال متبوعيهم وتابعيهم فالمتبوعون وهم المستكبرون يغبنون تابعيهم وهم الضعفاء حيث يأمرونهم بأخذ الدنيا وترك الآخرة فيضلون ، والتابعون يغبنون المتبوعين حيث يعينونهم في استكبارهم باتباعهم فيضلون ، فكل من الفريقين غابن لغيره ومغبون من غيره .

وهناك وجه رابع وردت به الرواية وهو أن لكل عبد منزلاً في الجنـة لو أطاع الله لدخله ، ومنزلاً في النار لو عصى الله لدخله ويوم القيامة يعطى منازل أهل النـار في الجنة لأهل الجنة ، ويعطى منازل أهل الجنة في النار لأهل النار فيكون أهل الجنة وهم المؤمنون غابنين لأهل النار وهم الكفار والكفار هم المغبونون .

وقال بعض المفسرين بعد إيراد هذا الوجه: وقد فسّر التغابن قوله ذيلاً: « ومن يؤمن بالله – إلى قوله – وبئس المصير » انتهى . وليس بظاهر ذاك الظهور .

وقوله : « ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً – إلى قوله – وبئس المصير » تقـــدم تفسيره مراراً .

(بحث روائي)

في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله قال : ما من عبد يدخل الجنة إلا أري مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً . وما من عبد يدخل النـار إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة .

أقول : وفي هذا المعنى روايات كثيرة من طرق العامة والخاصة وقد تقدم بعضها في تفسير أول سورة المؤمنون .

وفي تفسير البرهان عن ابن بابويه بإسناده عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام قال : يوم التلاق يوم يلتقي أهل السماء والأرض ، ويوم التناد يوم ينادي أهل النار أهل الجنة « أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » ويوم التغابن يوم يغبن أهل الجنة أهل النار ، ويوم الحسرة يوم يؤتى بالموت فيذبح .

أقول : وفي ذيل آيات صدر السورة المبحوث عنها عدة من الروايات توجه الآيات بشؤون الولاية كالذي ورد أن الإيمان والكفر هما الإيمان والكفر بالولاية يوم أخذ الميثاق ، وما ورد أن المراد بالبينات الأئمة ، وما ورد أن المراد بالنور الإمام وهي جميعاً ناظرة إلى بطن الآيات وليست بتفسرة البتة .

* * *

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ـ ١١ . وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ـ ١٢ . اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ـ ١٣ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ـ ١٤ . إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ـ ١٥ . فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ـ ١٦ . إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ

وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ـ ١٧ . عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ـ ١٨ .

(بيان)

شروع فيما هو الغرض من السورة بعد ما مر من التمهيد والتوطئة وهو الندب إلى الإنفاق في سبيل الله والصبر على ما يصيبهم من المصائب في خلال المجاهدة في الله سبحانه.

وقدّم ذكر المصيبة والإشارة إلى الصبر عليها ليصفو المقام لما سيندب اليه من الإنفاق وينقطع العذر .

قوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم » المصيبة صفة شاع استعمالها في الحوادث السوء التي تصحب الضر ، والإذن الإعلام بالرخصة وعدم المانع ويلازم علم الآذن بما أذن فيه ، وليس هو العلم كما قيل .

فظهر بما تقدم أولاً أن إذنه تعالى في عمل سبب من الأسباب هو التخلية بينه وبين مسببه برفع الموانع التي تتخلل بينه وبين مسببه فلا تدعه يفعل فيه ما يقتضيه بسببيته كالنار تقتضي إحراق القطن مثلاً لولا الفصل بينهما والرطوبة فرفع الفصل بينهما والرطوبة من القطن مع العلم بذلك إذن في عمل النار في القطن بما تقتضيه ذاتها أعني الإحراق .

وقد كان استعمال الإذن في العرف العام مختصاً بما إذا كان المأذون له من العقلاء لمكان أخذ معنى الإعلام في مفهومه فيقال : أذنت لفلان أن يفعل كذا ولا يقال : أذنت للنار أن تحرق ، ولا أذنت للفرس أن يعدو ، لكن القرآن الكريم يستعمله فيما يعم العقلاء وغيرهم بالتحليل كقوله : « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » النساء : ٦٤ ، وقوله : « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه » الأعراف: ٥٨ ، ولا يبعد أن يكون هذا التعميم مبنياً على ما يفيده القرآن من سريان العلم والإدراك في الموجودات كما قدمناه في تفسير قوله : « قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء » حم السجدة : ٢١ .

وكيف كان فلا يتم عمل من عامل ولا تأثير من مؤثر إلا بإذن من الله سبحانه فما كان من الأسباب غير تام له موانع لو تحققت منعت من تأثيره فإذنه تعالى له في أن يؤثر رفعه

الموانع ، وما كان منها تاماً لا مانع له يمنعه فإذنه له عدم جعله له شيئاً من الموانع فتأثيره يصاحب الإذن من غير انفكاك .

وثانياً: أن المصائب وهي الحوادث التي تصيب الانسان فتؤثر فيه آثاراً سيئة مكروهة إنما تقع بإذن من الله سبحانه كما أن الحسنات كذلك لاستيعاب إذنه تعالى صدور كل أثر من كل مؤثر .

وثالثاً : أن هذا الإذن إذن تكويني غير الاذن التشريعي الذي هو رفع الحظر عن الفعل فإصابة المصيبة تصاحب إذناً من الله في وقوعها وإن كانت من الظلم الممنوع فإن كون الظلم ممنوعاً غير مأذون فيه إنما هو من جهة التشريع دون التكوين .

ولذا كانت بعض المصائب غير جائزة الصبر عليها ولا مأذوناً في تحملها ويجب على الإنسان أن يقاومها ما استطاع كالمظالم المتعلقة بالأعراض والنفوس .

ومن هنا يظهر أن المصائب التي ندب إلى الصبر عندها هي التي لم يؤمر المصاب عندها بالنب والامتناع عن تحملها كالمصائب العامة الكونية من موت ومرض مما لا شأن لاختيار الإنسان فيها ، وأما ما للاختيار فيها دخل كالمظالم المتعلقة نوع تعلق بالاختيار من المظالم المتوجهة إلى الأعراض فللإنسان أن يتوقاها ما استطاع .

وقوله : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » كان ظاهر سياق قوله : « ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله » يفيد أن لله سبحانه في الحوادث التي تسوء الإنسان علماً ومشيّة فليست تصيبه مصيبة إلا بعد علمه تعالى ومشيته فليس لسبب من الأسباب الكونية أن يستقل بنفسه فيما يؤثره فإنما هو نظام الخلقة لا رب يملكه إلا خالقه فلا تحدث حادثة ولا تقع واقعة إلا بعلم منه ومشية فلم يكن ليخطئه ما أصابه ولم يكن ليصيبه ما أخطأه .

وهذه هي الحقيقة التي بيّنها بلسان آخر في قوله : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير » الحديد : ٢٢ .

فالله سبحانه رب العالمين ولازم ربوبيته العامة أنه وحده يملك كل شيء لا مالك بالحقيقة سواه ، والنظام الجاري في الوجود مجموع من أنحاء تصرفاته في خلقه فلا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا عن إذن منه ، ولا يفعل فاعل ولا يقبل قابل إلا عن علم سابق منه ومشية لا يخطىء علمه ومشيته ولا يرد قضاؤه .

فالاذعان بكونه تعالى هو الله يستعقب اهتداء النفس إلى هذه الحقائق واطمئنان

القلب وسكونه وعدم اضطرابه وقلقه من جهة تعلقه بالأسباب الظاهرية وإسناده المصائب والنوائب المرّة اليها دون الله سبحانه .

وهذا معنى قوله تعالى : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » .

وقيل : معنى الجملة : ومن يؤمن بتوحيد الله ويصبر لأمر الله يهد قلبه للاسترجاع حتى يقول : إنا لله وإنا اليه راجعون ، وفيه إدخال الصبر في معنى الإيمان .

وقيل : المعنى : ومن يؤمن بالله يهد قلبه إلى مـــا عليه أن يفعل فإن ابتلى صبر وإن أعطي شكر وإن ظلم غفر ، وهذا الوجه قريبٌ مما قدمناه .

وقوله : « والله بكل شيء عليم » تأكيد للاستثناء المتقدم ، ويمكن أن يكون إشارة إلى ما يفيده قوله : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها » الحديد : ٢٢ .

قوله تعالى : «وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين» ظاهر تكرار « أطيعوا » دون أن يقال : أطيعوا الله والرسول اختلاف المراد بالإطاعة ، فالمراد بإطاعة الله تعالى الانقياد له فيما شرّعه لهم من شرائع الدين والمراد بإطاعة الرسول الانقياد له وامتثال ما يأمر به بحسب ولايته الامة على ما جعلها الله له .

وقوله:« فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين » التولي الإعراض، والبلاغ التبليغ ، والمعنى : فإن أعرضتم عن إطاعة الله فيما شرّع من الدين أو عن إطاعة الرسول فيما أمركم به بما أنه وليُّ أمركم ، فلم يكرهكم رسولنا على الطاعة فإنه لم يؤمر بذلك ، وإنمـــا أمر بالتبليغ وقد بلّغ .

ومن هنـــا يظهر أن أمر النبي ﷺ فيما وراء الأحكام والشرائع من تبليغ رسالة الله فأمره ونهيه فيما توليه من أمر الله ونهيه ، وطاعته فيهما من طاعة الله تعـــالى كما يدل عليه إطلاق قوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » النساء : ٦٤ . الظاهر في أن طاعة الرسول فيما يأمر وينهى مطلقاً مأذون فيه بإذن الله ، وإذنه في طاعته يستلزم علمه ومشيّته لطاعته ، وإرادة طاعة الأمر والنهي إرادة لنفس الأمر والنهي فأمر النبي ﷺ ونهيه من أمر الله ونهيه وإن كان فيما وراء الأحكام والشرائع المجعولة له تعالى .

ولما تقدم من رجوع طاعة الرسول إلى طاعة الله التفت من الغيبة إلى الخطاب في قوله:

« رسولنا » وفيه مع ذلك شيء من شائبة التهديد .

قوله تعالى : « الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون » في مقام التعليل لوجوب إطاعة الله على ما تقدم أن طاعة الرسول من طاعة الله، توضيح ذلك أن الطاعة بمعنى الإنقياد والإئتمار للأمر والإنتهاء عن النهي من شؤون العبودية حيث لا أثر لملك المولى رقبة عبده إلا مالكيته لإرادته وعمله فلا يريد إلا ما يريد المولى أن يريده ولا يعمل إلا ما يريد المولى أن يعمله فالطاعة نحو من العبودية كما يشير اليه قوله : « ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان » يس : ٦٠ ، يعاتبهم بعبادة الشيطان وإنما أطاعوه .

فطاعة المطيع بالنسبة إلى المطاع نوع عبادة له ، وإذ لا معبود إلا الله فلا طاعة إلا لله عز اسمه أو من أمر بطاعته فالمعنى : أطيعوا الله سبحانه إذ لا طاعة إلا لمعبود ولا معبود بالحق إلا الله فيجب عليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به بطاعة غيره وعبادته كالشيطان وهوى النفس وهذا معنى كون الجملة في مقام التعليل .

وبما مر يظهر وجه تخصيص صفة الالوهية التي تفيد معنى المعبودية ، بالذكر دون صفة الربوبية فلم يقل : الله لا رب غيره .

وقوله : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » تأكيد لمعنى الجملة السابقة أعني قوله : « الله لا إله إلا هو » .

توضيحه : أن التوكيل إقامة الإنسان غيره مقام نفسه في إدارة أموره ولازم ذلك قيام إرادته مقام إرادة موكله وفعله مقام فعله فينطبق بوجه على الإطاعة فإن المطيع يجعل إرادته وعمله تبعاً لإرادة المطاع فتقوم إرادة المطاع مقام إرادته ويعود عمله متعلقاً لإرادة المطاع صادراً منها اعتباراً فترجع الإطاعة توكيلاً بوجه كما أن التوكيل إطاعة بوجه .

فإطاعة العبد لربه إتباع إرادته لإرادة ربه والإتيان بالفعل على هذا النمط وبعبارة اخرى إيثار إرادته وما يتعلق بها من العمل على إرادة نفسه وما يتعلق بها من العمل .

فطاعته تعالى فيما شرّع لعباده وما يتعلق بها نوع تعلق من التوكل عليه ، وطاعته واجبة لمن عرفه وآمن به فعلى الله فليتوكل المؤمنون وإياه فليطيعوا ، وأما من لم يعرفه ولم يؤمن به فلا تتحقق منه طاعة .

وقد بان بما تقدم أن الإيمان والعمل الصالح نوع من التوكل على الله تعالى .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم » الخ

« من » في « أزواجكم » للتبعيض ، وسياق الخطاب بلفظ « يا أيها الذين آمنوا » وتعليق العداوة بهم يفيد التعليل أي أنهم يعادونهم بما أنهم مؤمنون ، والعداوة من جهة الإيمان لا تتحقق إلا باهتمامهم أن يصرفوهم عن أصل الإيمان أو عن الأعمال الصالحة كالإنفاق في سبيل الله والهجرة من دار الكفر أو أن يحملوهم على الكفر أو المعاصي الموبقة كالبخل عن الإنفاق في سبيل الله شفقة على الأولاد والأزواج والغصب واكتساب المال من غير طريق حله .

فالله سبحانه يعد بعض الأولاد والأزواج عدواً للمؤمنين في إيمانهم حيث يحملونهم على ترك الايمان بالله أو ترك بعض الأعمال الصالحة أو اقتراف بعض الكبائر الموبقة وربما أطاعوهم في بعض ذلك شفقة عليهم وحباً لهم فأمرهم الله بالحذر منهم .

وقوله : « وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم » قال الراغب : العفو القصد لتناول الشيء يقال : عفاه واعتفاه أي قصده متناولاً ما عنده – إلى أن قال – وعفوت عنه قصدت إزالة ذنبه صارفاً عنه ، وقال : الصفح ترك التثريب وهو أبلغ من العفو ، ولذلك قال تعالى : « فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره » وقد يعفو الانسان ولا يصفح ، وقال : الغفر إلباس ما يصونه عن الدنس ، ومنه قيل : اغفر ثوبك في الوعاء واصبغ ثوبك فإنه أغفر للوسخ ، والغفران والمغفرة من الله هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب قال : « غفرانك ربنا » « ومغفرة من ربكم » « ومن يغفر الذنوب إلا الله » انتهى .

ففي قوله : «فاعفوا واصفحوا واغفروا» ندب إلى كمال الاغماض عن الأولاد والأزواج. إذا ظهر منهم شيء من آثار المعاداة المذكورة – مع الحذر من أن يفتتن بهم – .

وفي قوله : « فإن الله غفور رحيم » إن كان المراد خصوص مغفرته ورحمته للمخاطبين أن يعفوا ويصفحوا ويغفروا كان وعداً جميلاً لهم تجاه عملهم الصالح كما في قوله تعالى : « وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم » النور : ٢٢ .

وإن أريد مغفرته ورحمته العامتان من غير تقييد بمورد الخطاب أفاد أن المغفرة والرحمة من صفات الله سبحانه فإن عفوا وصفحوا وغفروا فقد اتصفوا بصفات الله وتخلقوا بأخلاقه .

قوله تعالى : «إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم» الفتنة ما يبتلى ويمتحن

به ، وكون الأموال والبنين فتنة إنمـا هو لكونهما زينة الحياة تنجذب اليهما النفس انجذاباً فتفتتن وتلهو بهما عما يهمها من أمر آخرته وطاعة ربه ، قال تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » الكهف : ٤٦ .

والجملة كناية عن النهي عن التلهي بهما والتفريط في جنب الله بالميّ اليهما ويؤكده قوله : « والله عنده أجر عظيم » .

قوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » الخ ، أي مبلغ استطاعتكم – على ما يفيده السياق فإن السياق سياق الدعوة والندب إلى السمع والطاعة والإنفاق والمجاهدة في الله – والجملة تفريع على قوله : « إنمـا أموالكم » الخ ، فالمعنى : اتقوه مبلغ استطاعتكم ولا تدعوا من الاتقاء شيئاً تسعه طاقتكم وجهدكم فتجري الآية مجرى قوله : « اتقوا الله حق تقاته » آل عمران : ١٠٢ ، وليست الآية ناظرة إلى نفي التكليف بالاتقـــاء فيما وراء الاستطاعة وفوق الطاقة كما في قوله : « ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به » البقرة : ٢٨٦ .

وقد بان مما مرّ :

أولاً : أن لا منافاة بين الآيتين أعني قوله : « فاتقوا الله ما استطعتم » وقوله : « اتقوا الله حق تقاته » وأن الاختلاف بينهما كالاختلاف بالكمية والكيفية ، فقوله : « فاتقوا الله ما استطعتم » أمر باستيعاب جميع الموارد التي تسعها الاستطاعة بالتقوى ، وقوله : « اتقوا الله حق تقاته » أمر بالتلبس في كل من موارد التقوى بحق التقوى دون شبحها وصورتها .

وثانياً : فساد قول بعضهم : إن قوله : « فاتقوا الله ما استطعتم » ناسخ لقوله : « اتقوا الله حق تقاته » وهو ظاهر .

وقوله : « واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خـــيراً لأنفسكم » توضيح وتأكيد لقوله : « فاتقوا الله ما استطعتم » والسمع الاستجابة والقبول وهو في مقام الالتزام القلبي ، والطاعة الانقياد وهو في مقام العمل ، والإنفاق المراد به بذل المال في سبيل الله .

و « خيراً لأنفسكم » منصوب بمحذوف – على ما في الكشاف – والتقدير آمنوا خيراً لأنفسكم ، ويحتمل أن يكون « أنفقوا » مضمناً معنى قدّموا أو مـا يقرب منه بقرينة المقام ، وفي قوله : « لأنفسكم » دون أن يقـال : خيراً لكم زيادة تطييب لنفوسهم أي إن الإنفاق خير لكم لا ينتفع بـه إلا أنفسكم لما فيه من بسط أيديكم وسعة قدرتكم على رفع حوائج مجتمعكم .

وقوله : « ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون » تقدم تفسيره في تفسير سورة الحشر .

قوله تعالى : « إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم » المراد بإقراض الله الإنفاق في سبيله سمّاه الله إقراضاً لله وسمّى المال المنفق قرضاً حسناً حثّاً وترغيباً لهم فيه .

وقوله : « يضاعفه لكم ويغفر لكم » إشارة إلى حسن جزائه في الدنيا والآخرة .

والشكور والحليم وعالم الغيب والشهادة والعزيز والحكيم خمسة من أسماء الله الحسنى تقدم شرحها ، ووجه مناسبتها لما أمر به في الآية من السمع والطاعة والإنفاق ظاهر .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم » وذلك أن الرجل إذا أراد الهجرة تعلق به ابنه وامرأته وقالوا : ننشدك الله أن تذهب عنا فنضيع بعدك فمنهم من يطيع أهله فيقيم فحذرهم الله أبناءهم ونساءهم ونهاهم عن طاعتهم ، ومنهم من يمضي ويذرهم ويقول : أما والله لئن لم تهاجروا معي ثم جمع الله بيني وبينكم في دار الهجرة لا أنفعكم بشيء أبداً.

فلما جمع الله بينه وبينهم أمر الله أن يتوق بحسن وصله فقال : « وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم » .

أقول : وروى هذا المعنى في الدر المنثور عن عدة من أصحاب الجوامع عن ابن عباس.

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » عن ابن مردويه عن عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبي أوفى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال.

أقول : وروى مثله أيضاً عنه عن كعب بن عياض عنه صلى الله عليه وآله وسلم .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم وابن مردويه عن بريدة قال : كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخطب فأقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المنبر فحملهما واحداً من ذا الشق

وواحداً من ذا الشق ثم صعد المنبر فقال : صدق الله قال : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » ، إني لمـــا نظرت إلى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامي ونزلت اليهما .

أقول : والرواية لا تخلو من شيء وأنى تنال الفتنة من النبي ﷺ وهو سيد الأنبياء المخلصين معصوم مؤيد بروح القدس .

وأفظع لحناً من هذا الحديث ما رواه عن ابن مردويه عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ بينما هو يخطب الناس على المنبر خرج الحسين بن علي فوطأ في ثوب كان عليه فسقط فبكى فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر .

فلما رأى الناس أسرعوا إلى الحسين يتعاطونه يعطيه بعضهم بعضاً حتى وقع في يــد رسول الله ﷺ فقال : قاتل الله الشيطان إن الولد لفتنة ، والذي نفسي بيده ما دريت أني نزلت عن منبري .

ومثله ما عن ابن المنذر عن يحيى بن أبي كثير قال : سمع النبي ﷺ بكاء حسن أو حسين فقال النبي ﷺ الولد فتنة لقد قمت اليه وما أعقل .

فالوجه طرح الروايات إلا أن تؤوّل .

وفي تفسير البرهان عن ابن شهرآشوب عن تفسير وكيع حدثنا سفيان بن مرة الهمداني عن عبد خير سألت علي بن أبي طالب عن قوله تعالى : « اتقوا الله حق تقاته » قال: والله ما عمل بها غير أهل بيت رسول الله ﷺ. نحن ذكرنا الله فلا ننساه ونحن شكرناه فلن نكفره ، ونحن أطعناه فلم نعصه .

فلما نزلت هذه قالت الصحابة : لا نطيق ذلك فأنزل الله : « فاتقوا الله ما استطعتم » الحديث .

وفي تفسير القمي حدثني أبي عن الفضل بن أبي مرة قال : رأيت أبا عبد الله عليه السلام يطوف من أول الليل إلى الصباح وهو يقول : اللهم وقني شحّ نفسي فقلت : جعلت فداك ما رأيتك تدعو بغير هذا الدعاء فقال : وأي شيء أشد من شح النفس ؟ إن الله يقول : « ومن يوق شحّ نفسه فاولئك هم المفلحون » .

* * *

(سورة الطلاق مدنية ، وهي اثنتا عشرة آية)

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ . يا أيُّها النَّبيُّ إذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا ٱلعِدَّةَ وَٱتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إلاَّ أنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذٰلِكَ أمراً ــ ١ . فَإذا بَلَغْنَ أجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلهِ ذٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِٱللهِ وَٱليَوْمِ ٱلآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ــ ٢ . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إنَّ اللهَ بالِغُ أمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ــ ٣ . وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ ٱلأَحْمالِ أجَلُهُنَّ أنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أمْرِهِ يُسْراً ــ ٤ . ذٰلِكَ أمْرُ اللهِ أنْزَلَهُ إلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أجْراً ــ ٥ . أسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلا تُضارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإنْ أرْضَعْنَ لَكُمْ

فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى ـــ ٦ . لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً ـــ ٧ .

(بيان)

تتضمن السورة بيان كليات من أحكام الطلاق تعقبه عظة وإنذار وتبشير ، والسورة مدنية بشهادة سياقها .

قوله تعالى : « يا أيها النبي إذا طلّقتم النساء فطلّقوهن لعدّتهن وأحصوا العدّة » إلى آخر الآية ، بُدىء الخطاب بنداء النبي ﷺ لأنه الرسول إلى الامة وإمامهم فيصلح لخطابه أن يشمله وأتباعه من أمته وهذا شائع في الاستعمال يخص مقدّم القوم وسيدهم بالنداء ويخاطب بما يعمّه وقومه فلا موجب لقول بعضهم : إن التقدير يا أيها النبي قل لامّتك : إذا طلقتم النساء « الخ » .

وقوله : « إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن » أي إذا أردتم أن تطلقوا النساء وأشرفتم على ذلك إذ لا معنى لتحقق الطلاق بعد وقوع الطلاق فهو كقوله : « إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا » الآية المائدة : ٦ .

والعدة قعود المرأة عن الزوج حتى تنقضي المدة المرتبة شرعاً ، والمراد بتطليقهن لعدتهن تطليقهن لزمان عدتهن بحيث يأخذ زمان العدة من يوم تحقق التطليقة وذلك بأن تكون التطليقة في طهر لا مواقعة فيه حتى تنقضي أقراؤها .

وقوله : « وأحصوا العدة » أي عدّوا الأقراء التي تعتد بها ، وهو الاحتفاظ عليها لأن للمرأة فيها حق النفقة والسكنى على زوجها وللزوج فيها حق الرجوع .

وقوله : « واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن » ظاهر السياق كون « لا تخرجوهن » الخ ، بدلاً من « اتقوا الله ربكم » ويفيد ذلك تأكيد النهي في « لا تخرجوهن » والمراد

ببيوتهن البيوت التي كن يسكنه قبل الطلاق أضيفت اليهن بعناية السكنى .

وقوله : « ولا يخرجن » نهي عن خروجهن أنفسهن كما كان سابقه نهياً عن إخراجهن .

وقوله : « إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » أي ظاهرة كالزنا والبذاء وإيذاء أهلها كما في الروايات المأثورة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام .

وقوله :« وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » أي الأحكام المذكورة للطلاق حدود الله حدّ بها أعمالكم ومن يتعد ويتجاوز حدود الله بأن لم يراعها وخالفها فقد ظلم نفسه أي عصى ربه .

وقوله:« لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً» أي أمراً يقضي بتغير الحال وتبدّل رأي الزوج في طلاقها بأن يميل إلا الالتيام ويظهر في قلبه محبة حب الرجوع إلى سابق الحال .

قوله تعالى : « فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف – إلى قوله – واليوم الآخر » المراد من بلوغهن أجلهن اقترابهن من آخر زمان العدة وإشرافهن عليه ، والمراد بإمساكهن الرجوع على سبيل الاستعارة ، وبمفارقتهن تركهن ليخرجن من العدة ويبنّ .

والمراد بكون الإمساك بمعروف حسن الصحبة ورعاية ما جعل الله لهن من الحقوق ، وبكون فراقهن بمعروف أيضاً استرام الحقوق الشرعية فالتقدير بمعروف من الشرع .

وقوله : « وأشهدوا ذوي عدو منكم » أي أشهدوا على الطلاق رجلين منكم صاحبي عدل ، وقد مر توضيح معنى العدل في تفسير سورة البقرة .

وقوله : « وأقيموا الشهادة لله » تقدم توضيحه في تفسير سورة البقرة .

وقوله : « ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر» أي ما مر من الأمر بتقوى الله وإقامة الشهادة لله والنهي عن تعدي حدود الله أو بجموع ما مرّ من الأحكام والبعث إلى التقوى والإخلاص في الشهادة والزجر عن تعدي حدود الله يوعظ به المؤمنون ليركنوا إلى الحق وينقلعوا عن الباطل ، وفيه إيهام أن في الإعراض عن هذه الأحكام أو تغييرها خروجاً من الإيمان .

قوله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب – إلى قوله – قدراً » أي « ومن يتق الله » ويتورع عن محارمه ولم يتعد حدوده واحترم

لشرائعه فعمل بها « يجعل له مخرجاً » من مضائق مشكلات الحياة فإن شريعته فطرية يهدي بها الله الإنسان إلى ما تستدعيه فطرته وتقضي به حاجته وتضمن سعادته في الدنيا والآخرة « ويرزقه » من الزوج والمال وكل ما يفتقر اليه في طيب عيشه وزكاة حياته « من حيث لا يحتسب » ولا يتوقع فلا يخف المؤمن أنه إن اتقى الله واحترم حدوده حرم طيب الحياة وابتلي بضنك المعيشة فإن الرزق مضمون والله على ما ضمنه قادر .

« ومن يتوكل على الله » باعتزاله عن نفسه فيما تهواه وتأمر به وإيثاره إرادة الله سبحانه على إرادة نفسه والعمل الذي يريده الله على العمل الذي تهواه وتريده نفسه وبعبارة اخرى تدين بدين الله وعمل بأحكامه « فهو حسبه » أي كافية فيما يريده من طيب العيش ويتمناه من السعادة بفطرته لا بواهمته الكاذبة .

وذلك أنه تعالى هو السبب الأعلى الذي تنتهي اليه الأسباب فإذا أراد شيئاً فعله وبلغ ما أراده من غير أن تتغير إرادته فهو القائل : « ما يبدل القول لدي » ق : ٢٩ ، أو يحول بينه وبين ما أراده مانع فهو القائل : « والله يحكم لا معقب لحكمه » الرعد : ٤١ ، وأما الأسباب الاخر التي يتشبث بها الإنسان في رفع حوائجه فإنما تملك من السببية ما ملكها الله سبحانه وهو المالك لما ملكها والقادر على ما عليه أقدرها ولها من الفعل مقدار ما أذن الله فيه .

فالله كاف لمن توكل عليه لا غيره « إن الله بالغ أمره » يبلغ حيث أراد ، وهو القائل : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » « قد جعل الله لكل شيء قدراً » فما من شيء إلا له قدر مقدور وحدّ محدود والله سبحانه لا يحدّه حد ولا يحيط به شيء وهو المحيط بكل شيء .

هذا هو معنى الآية بالنظر إلى وقوعها في سياق آيات الطلاق وانطباقها على المورد .

وأما بالنظر إلى إطلاقها في نفسها مع الغض عن السياق الذي وقعت فيه فقوله : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب » مفاده أن من اتقى الله بحقيقة معنى تقواه ولا يتم ذلك إلا بمعرفته تعالى بأسمائه وصفاته ثم تورعه واتقاؤه بالاجتناب عن المحرمات وتحرز ترك الواجبات خالصاً لوجهه الكريم ، ولازمه أن لا يريد إلا ما يريده الله من فعل أو ترك ، ولازمه أن يستهلك إرادته في إرادة الله فلا يصدر عنه فعل إلا عن إرادة من الله .

ولازم ذلك أن يرى نفسه وما يترتب عليها من سمة أو فعل ملكاً طلقاً لله سبحانه يتصرف فيها بما يشاء وهو ولاية الله يتولى أمر عبده فلا يبقى له من الملك بحقيقة معناه شيء إلا ما ملّكه الله سبحانه وهو المالك لما ملكه والملك لله عز اسمه .

وعند ذلك ينجيه الله من مضيق الوهم وسجن الشرك بالتعلق بالأسباب الظاهرية « ويجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب » أما الرزق المادي فإنه كان يرى ذلك من عطايا سعيه والأسباب الظاهرية التي كان يطمئن اليها وما كان يعلم من الأسباب إلا قليلاً من كثير كقبس من نار يضيء للانسان في الليلة الظلماء موضع قدمه وهو غافل عما وراءه ، لكن الله سبحانه محيط بالأسباب وهو الناظم لها ينظمها كيف يشاء ويأذن في تأثير ما لا علم له به من خباياها .

وأما الرزق المعنوي الذي هو حقيقة الرزق الذي يعيش به النفس الإنسانية وتبقى فهو مما لم يكن يحتسبه ولا يحتسب طريق وروده عليه .

وبالجملة هو سبحانه يتولى أمره ويخرجه من مهبط الهلاك ويرزقه من حيث لا يحتسب، ولا يفقد من كماله والنعم التي كان يرجو نيلها بسعيه شيئاً لأنه توكل على الله وفوّض إلى ربه ما كان لنفسه « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » دون سائر الأسباب الظاهرية التي تخطىء تارة وتصيب أخرى « إن الله بالغ أمره » لأن الامور محدودة محاطة له تعالى و« قد جعل الله لكل شيء قدراً » فهو غير خارج عن قدره الذي قدّره به .

وهذا نصيب الصالحين من الأولياء من هذه الآية .

وأما من هو دونهم من المؤمنين المتوسطين من أهل التقوى النازلة درجاتهم من حيث المعرفة والعمل فلهم من ولاية الله ما يلائم حالهم في إخلاص الإيمان والعمل الصالح وقد قال تعالى وأطلق : « والله وليّ المؤمنين » آل عمران : ٦٨ ، وقال وأطلق : « والله وليّ المتقين » الجاثية : ١٩ .

وتدينهم بدين الحق وهي سنّة الحياة وورودهم وصدورهم في الامور عن إرادته تعالى هو تقوى الله والتوكل عليه بوضع إرادته تعالى موضع إرادة أنفسهم فينالون من سعادة الحياة بحسبه ويجعل الله لهم مخرجاً ويرزقهم من حيث لا يحتسبون ، وحسبهم ربهم فهو بالغ أمره وقد جعل لكل شيء قدراً .

وعليهم من حرمان السعادة قدر ما دبّ من الشرك في إيمانهم وعملهم وقد قال تعالى:

« وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » يوسف : ١٠٦ ، وقال وأطلق : « إن الله لا يغفر أن يشرك به » النساء : ٤٨ .

وقال : « وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً » طه : ٨٢ ، أي لمن تاب من الشرك وقال وأطلق : « واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » المزمل : ٢٠ .

فلا يرقى المؤمن إلى درجة من درجات ولاية الله إلا بالتوبة من خفيّ الشرك الذي دونها .

والآية من غرر الآيات القرآنية وللمفسرين في جملها كلمات متشتتة أضربنا عنها .

قوله تعالى : « واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدّتهن ثلاثة أشهر » المراد بالارتياب الشك في يأسهن من المحيض أهو لكبر أم لعارض ، فالمعنى : واللائي يئسن من المحيض من نسائكم وشككتم في أمر يأسهن أهو لبلوغ سنهن سن اليأس أم لعارض فعدّتهن ثلاثة أشهر .

وقوله : « واللائي لم يحضن » عطف على قوله : « واللائي يئسن » الخ ، والمعنى : واللائي لم يحضن وهو في سن من تحيض فعدّتهن ثلاثة أشهر .

وقوله : « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن » أي منتهى زمان عدتهن وضع الحمل .

وقوله : « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً » أي يسهل عليه ما يستقبله من الشدائد والمشاق ، وقيل : المراد أنه يسهل عليه امور الدنيا والآخرة إما بفرج عاجل أو عوض آجل .

قوله تعالى : « ذلك أمر الله أنزله اليكم » أي ما بيّنه في الآيات المتقدمة حكم الله أنزله اليكم ، وفي قوله : « ومن يتق الله يكفّر عنه سيئاته ويعظم له أجراً » دلالة على أن اتباع الأوامر من التقوى كاجتناب المحرمات ولعله باعتبار أن امتثال الأمر يلازم اجتناب تركه .

وتكفير السيئات سترها بالمغفرة ، والمراد بالسيئات المعاصي الصغيرة فيبقى للتقوى كبائر المعاصي ، ويكون مجموع قوله : « ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً » في معنى قوله : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً

كريماً » النساء : ٣١ ، ومن الآيتين يظهر أن المراد بالمحارم في قوله عليه السلام في تعريف التقوى : أنها الورع عن محارم الله المعاصي الكبيرة .

ويظهر أيضاً أن مخالفة ما أنزله الله من الأمر في الطلاق والعدة من الكبائر إذ التقوى المذكورة في الآية تشمل ما ذكر من أمر الطلاق والعدة لا محالة فهو غير السيئات المكفرة وإلا اختلّ معنى الآية .

قوله تعالى : « أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم » إلى آخر الآية ، قال في المفردات : وقوله تعالى : « من وجدكم » أي تمكّنكم وقدر غناكم ، ويعبر عن الغنى بالوجدان والجدة ، وقد حكي فيه الوَجد والوِجد والوُجد – بالحركات الثلاث في الواو – انتهى .

وضمير « هن » للمطلقات على ما يؤيده السياق ، والمعنى: أسكنوا المطلقات من حيث سكنتم من المساكن على قدر تمكنكم وغناكم على الموسر قدره وعلى المعسر قدره .

وقوله :«ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن» أي لا توجهوا اليهن ضرراً يشق عليهن تحمّله من حيث السكنى والكسوة والنفقة لتوردوا الضيق والحرج عليهن .

وقوله : « وإن كنّ أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن » معناه ظاهر .

وقوله : « فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن » فلهن عليكم أجر الرضاعة وهو من نفقة الولد التي على الوالد .

وقوله : « وائتمروا بينكم بمعروف » الائتمار بشيء تشاور القوم فيه بحيث يأمر بعضهم فيه بعضاً ، وهو خطاب للرجل والمرأة أي تشاوروا في أمر الولد وتوافقوا في معروف من العادة بحيث لا يتضرر الرجل بزيادة الأجر الذي ينفقه ولا المرأة بنقيصته ولا الولد بنقص مدة الرضاع إلى غير ذلك .

وقوله : « وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى » أي وإن أراد كل منكم من الآخر ما فيه عسر واختلفتم فسترضع الولد امرأة أخرى أجنبيّة غير والدته أي فليسترضع الوالد غير والدة الصبي .

قوله تعالى : « لينفق ذو سعة من سعته » الإنفاق من سعة هو التوسعة في الإنفاق وهو أمر لأهل السعة بأن يوسعوا على نسائهم المطلقات المرضعات أولادهم .

وقوله : « ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله » قدر الرزق ضيقه ، والإيتاء

الإعطاء ، والمعنى : ومن ضاق عليه رزقه وكان فقيراً لا يتمكن من التوسع في الإنفاق فلينفق على قدر ما أعطاه الله من المال أي فلينفق على قدر تمكنه .

وقوله : « لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها » أي لا يكلف الله نفساً إلا بقدر ما أعطاها من القدرة فالجملة تنفي الحرج من التكاليف الإلهية ومنها إنفاق المطلقة .

وقوله : « سيجعل الله بعد عسر يسراً » فيه بشرى وتسلية .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : نزلت سورة النساء القصرى بعد التي في البقرة بسبع سنين .

أقول : سورة النساء القصرى هي سورة الطلاق .

وفيه أخرج مالك والشافعي وعبد الرزاق في المصنف وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وأبو يعلى وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عمر أنه طلق امرأته وهي حائض فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتغيظ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : ليراجعها ثم يمسها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء ، وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم : « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهنّ في قبل عدتهن » .

أقول : قوله : « في قبل عدتهن » قراءة ابن عمر وما في المصحف « لعدتهن » .

وفيه أخرج ابن المنذر عن ابن سيرين في قوله : « لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » قال : في حفصة بنت عمر طلقها النبي صلى الله عليه وسلم واحدة فنزلت « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء – إلى قوله – يحدث بعد ذلك أمراً » قال : فراجعها .

وفي الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال : كل طلاق لا يكون على السنة أو على العدة فليس بشيء . قال زرارة فقلت لأبي جعفر عليه السلام : فسر لي طلاق السنة وطلاق العدة فقال : أما طلاق السنة فإذا أراد الرجل أن يطلق امرأته فينتظر بها حتى تطمث وتطهر فإذا خرجت من طمثها طلقها تطليقة من غير جماع

ويشهد شاهدين على ذلك ثم يدعها حتى تطمث طمثين فتنقضي عدتها بثلاث حيض وقد بانت منه ويكون خاطباً من الخطاب إن شاءت تزوجته وإن شاءت لم تتزوجه ، وعليه نفقتها والسكنى ما دامت في مدتها ، وهما يتوارثان حتى تنقضي العدة .

قال : وأما طلاق العدة الذي قال الله تعالى : « فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة » فإذا أراد الرجل منكم أن يطلق امرأته طلاق العدة فلينتظر بها حتى تحيض وتخرج من حيضتها ثم يطلقها تطليقة من غير جماع ويشهد شاهدين عدلين ويراجعها من نومه ذلك إن أحب أو بعد ذلك بأيام قبل أن تحيض ويشهد على رجعتها ويواقعها وتكون معه حتى تحيض فإذا حاضت وخرجت من حيضها طلقها تطليقة اخرى من غير جماع ويشهد على ذلك ثم يراجعها أيضاً متى شاء قبل أن تحيض ويشهد على رجعتها ويواقعها وتكون معه إلى أن تحيض الحيضة الثالثة فإذا خرجت من حيضتها الثالثة طلقها التطليقة الثالثة بغير جماع ويشهد على ذلك فإذا فعل ذلك فقد بانت منه ولا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره .

قيل له : فإن كانت ممن لا تحيض ؟ قال : مثل هذه تطلق طلاق السنة .

وفي قرب الأسناد بإسناده عن صفوان قال : سمعت، يعني أبا عبد الله وجاء رجل فسأله فقال : إني طلقت امرأتي ثلاثاً في مجلس فقال : ليس بشيء . ثم قال : أما تقرأ كتاب الله تعالى « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » .

ثم قال : ألا تدري « لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » ثم قال : كلما خالف كتاب الله والسنة فهو يردّ إلى كتاب الله والسنة .

وفي تفسير القمي في معنى قوله : « لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » قال: لا يحل لرجل أن يخرج امرأته إذا طلقها ــ وكان له عليها رجعة ــ من بيته وهي لا تحل لها أن تخرج من بيته إلا أن يأتين بفاحشة مبينة .

ومعنى الفاحشة أن تزني أو تسرق على الرجل ، ومن الفاحشة أيضاً السلاطة على زوجها فإن فعلت شيئاً من ذلك حل له أن يخرجها .

وفي الكافي بإسناده عن وهب بن حفص عن أحدهما عليهما السلام في المطلقة تعتدُّ في بيتها ، وتظهر له زينتها لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً .

أقول : وفي هـــذه المعاني ومعاني جمل الآيتين روايات اخرى عن أئمة أهل البيت عليهم السلام .

وفيه بإسناده عن معاوية بن وهب عن أبي عبدالله عليه السلام قال : من أعطي ثلاثاً لم يمنع ثلاثاً : من أعطي الدعاء أعطي الإجابة، ومن أعطي الشكر أعطي الزيادة ، ومن أعطي التوكل أعطي الكفاية .

قال : أتلوت كتاب الله عز وجل ؟ « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » وقال : «ولئن شكرتم لأزيدنكم » وقال : « ادعوني أستجب لكم » .

وفيه بإسناده عن محمد بن مسلم قال : سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عز وجل: « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب » قال : في دنياه .

وفي الدر المنثور أخرج عبد بن حميـد وابن جرير وابن أبي حاتم عن سالم بن أبي الجعد قال : نزلت هذه الآية : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » في رجل من أشجع أصابه جهد وبلاء وكان العدو أسروا ابنه فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : اتق الله واصبر ، فرجع ابن له كان أسيراً قد فكّه الله فأتاهم وقد أصاب أعنزاً فجاء فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : هي لك .

وفيه أخرج أبو يعلى وأبو نعيم والديلمي من طريق عطاء بن يسار عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » قال : من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة .

وفيه أخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن أبي ذر قال : جعل رسول الله يتلو هذه الآية «ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب» فجعل يرددها حتى نعست . ثم قال : يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم والطبراني والخطيب عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله اليها .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبـاس رفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده ، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله .

أقول : وقد تقدم في ذيل الكلام على الآيات معنى هذه الروايات .

وفي الكافي بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال : عدة المرأة التي لا تحيض والمستحاضة التي لا تطهر ثلاثة أشهر ، وعدة التي تحيض ويستقيم حيضها ثلاثة قروء ، وسألته عن قول الله عز وجل : « إن ارتبتم » ما الريبة ؟ فقال : ما زاد على شهر فهو ريبة فلتعتد ثلاثة أشهر ولتترك الحيض . الحديث .

وفيه بإسناده عن محمد بن قيس عن أبي جعفر عليه‌السلام قال : عدة الحامل أن تضع حملها وعليه نفقتها بالمعروف حتى تضع حملها .

وفيه بإسناده عن أبي الصباح الكناني عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال : إذا طلق الرجل المرأة وهي حبلى أنفق عليها حتى تضع حملها فإذا وضعته أعطاها أجرها ولا تضارها إلا أن يجد من هي أرخص أجراً منها فإن رضيت بذلك الأجر فهي أحق بابنها حتى تفطمه .

وفي الفقيه بإسناده عن ربعي بن عبد الله والفضيل بن يسار عن أبي عبد الله عليه‌السلام في قوله عز وجل: « ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله » قال : إن أنفق عليها ما يقيم ظهرها مع الكسوة وإلا فرّق بينهما .

أقول : ورواه في الكافي بإسناده عن أبي بصير عنه عليه‌السلام .

وفي تفسير القمي في قوله : « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن » قال : المطلقة الحامل أجلها أن تضع ما في بطنها إن وضعت يوم طلقها زوجها فلها أن تتزوج إذا طهرت ، وإن تضع ما في بطنها إلى تسعة أشهر لم تتزوج إلا أن تضع .

وفي الكافي بإسناده عن عبد الرحمان بن الحجاج عن أبي الحسن عليه‌السلام قال : سألته عن الحبلى إذا طلقها زوجها فوضعت سقطاً تمّ أو لم يتمّ أو وضعته مضغة ؟ قال : كل شيء وضعته يستبين أنه حمل تمّ أو لم يتمّ فقد انقضت عدتها .

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر عن مغيرة قال : قلت للشعبي : ما أصدق أن علي ابن أبي طالب كان يقول : عدة المتوفى عنها زوجها آخر الأجلين .

قال : بلى فصدق به كأشد ما صدّقت بشيء كان علي يقول : إنما قوله : « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن » في المطلقة .

وفيه أخرج عبد الرزاق عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن أبا عمرو بن حفص بن المغيرة خرج مع علي إلى اليمن فأرسل إلى امرأته فاطمة بنت قيس بتطليقة كانت بقيت من طلاقها ، وأمر لها الحارث بن هشام وعباس بن أبي ربيعة بنفقة فاستقلتها فقالا لها والله ما لك نفقة إلا أن تكوني حاملاً فأتت النبي ﷺ فذكرت له أمرها فقال لها النبي ﷺ : لا نفقة لك فاستأذنته في الانتقال فأذن لها .

فأرسل اليها مروان يسألها عن ذلك فحدثته فقال مروان : لم أسمع بهذا الحديث إلا من امرأة سنأخذ بالعصمة التي وجدنا الناس عليها فقالت فاطمة : بيني وبينكم كتاب الله قال الله عز وجل : « ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » حتى بلغ « لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » قالت : هذا لمن كانت له مراجعة فأي أمر يحدث بعد الثلاث؟ فكيف تقولون : لا نفقة إذا لم تكن حاملاً ؟ فعلام تحبسونها ؟

ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة فإن كانت تحيض فعدتها ثلاث حيض ، وإن كانت لا تحيض فعدتها ثلاثة أشهر ، وإن كانت حاملاً فعدتها أن تضع حملها وإن أراد مراجعتها قبل أن تنقضي عدتها أشهد على ذلك رجلين كما قال الله : « وأشهدوا ذوي عدل منكم » عند الطلاق وعند المراجعة .

فإن راجعها فهي عنده على طلقتين وإن لم يراجعها فإذا انقضت عدتها فقد بانت عدتها منه بواحدة وهي أملك لنفسها ثم تتزوج من شاءت هو أو غيره .

* * *

وَكَأَيِّنْ مِّنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً ــ ٨ . فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً ــ ٩ . أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً ــ ١٠ . رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً
يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ
اللَّهُ لَهُ رِزْقاً ــ ١١ . اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ
مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ
اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ــ ١٢ .

(بيان)

موعظة وإنذار وتبشير تؤكد التوصية بالتمسك بما شرّع الله لهم من الأحكام ومن جملتها ما شرعه من أحكام الطلاق والعدة ولم يوص القرآن الكريم ولا أكد في التوصية في شيء من الأحكام المشرعة كما وصى وأكد في أحكام النساء ، وليس إلا لأن لها نبأ .

قوله تعالى : « وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً » قال الراغب : العتو النبوء عن الطاعة انتهى . فهو قريب المعنى من الاستكبار ، وقال : النكر الدهاء والأمر الصعب الذي لا يعرف انتهى . والمراد بالنكر في الآية المعنى الثاني ، وفي المجمع النكر المنكر الفظيع الذي لم يرَ مثله انتهى .

والمراد بالقرية أهلها على سبيل التجوز كقوله : « واسأل القرية » يوسف : ٨٢ ، وفي قوله : « عتت عن أمر ربها ورسله » إشارة إلى أنهم كفروا بالله سبحانه بالشرك وكفروا كفراً آخر برسله بتكذيبهم في دعوتهم. على أنهم كفروا بالله تعالى في ترك شرائعه المشرعة وكفروا برسله فيما أمروا به بولايتهم لهم كما مر نظيره في قوله : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين » التغابن : ١٢ .

وشدة الحساب المناقشة فيه والاستقصاء لتوفية الأجر كما هو عليه ، والمراد به حساب الدنيا غير حساب الآخرة والدليل على كونه حساب الدنيا قوله تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » الشورى: ٣٠ ، وقوله : « ولو أن أهل القرى

آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » الأعراف : ٩٦ .

فما يصيب الإنسان من مصيبة – وهي المصيبة في نظر الدين – هو حاصل محاسبة أعماله والله يعفو عن كثير منها بالمسامحة والمساهلة في المحاسبة غير أنه تعالى يحاسب العاتين المستكبرين عن أمره ورسله حساباً شديداً بالمناقشة والاستقصاء والتثريب فيعذبهم عذاباً نكراً .

والمعنى : وكم من أهل قرية عتوا واستكبروا عن أمر ربهم ورسله فلم يطيعوا الله ورسله فحاسبناها حساباً شديداً ناقشنا فيه واستقصيناه ، وعذبناهم عذاباً صعباً غير معهود وهو عذاب الاستئصال في الدنيا .

وما قيل : إن المراد به عذاب الآخرة ، والتعبير بالفعل الماضي للدلالة على تحقق الوقوع غير سديد .

وفي قوله : « فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها » التفات من الغيبة إلى التكلم مع الغير ، ونكتته الدلالة على العظمة .

قوله تعالى : « فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً » المراد بأمرها عتوّها واستكبارها ، والمعنى : فأصابتهم عقوبة عتوهم وكان عاقبة عتوهم خساراً كأنهم اشتروا العتو بالطاعة فانتهى إلى أن خسروا .

قوله تعالى : « أعد الله لهم عذاباً شديداً » هذا جزاؤهم في الاخرى كما كان ما في قوله : « فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً فذاقت وبال أمرها » جزاءهم في الدنيا .

والفصل في قوله : « أعدّ الله لهم » الخ ، لكونه في مقام دفع الدخل كأنه لما قيل : « وكان عاقبة أمرها خسراً » ، قيل : ما المراد بخسرهم ؟ فقيل : « أعدّ الله لهم عذاباً شديداً » .

قوله تعالى : « فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله اليكم ذكراً » استنتاج مما تقدم خوطب به المؤمنون ليأخذوا حذرهم ويقوا أنفسهم أن يعتوا عن أمر ربهم ويطغوا عن طاعته فيبتلوا بوبال عتوهم وخسران عاقبتهم كما ابتليت بذلك القرى الهالكة .

وقد وصف المؤمنين باولي الألباب فقال : « اتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا »

استمداداً من عقولهم على ما يريده منهم من التقوى فإنهم لما سمعوا أن قوماً عتو عن أمر ربهم فحوسبوا حساباً شديداً وعذبوا عذاباً نكراً وكان عاقبة أمرهم خسراً ثم سمعوا أن ذلك تكرر مرة بعد مرة وأباد قوماً بعد قوم ، قضت عقولهم بأن العتو والاستكبار عن أمر الله تعرض لشديد حساب الله ومنكر عذابه فتنبههم وتبعثهم إلى التقوى وقد أنزل الله اليهم ذكراً يذكرهم به ما لهم وما عليهم ويهديهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

قوله تعالى : « رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات » الخ ، عطف بيان أو بدل من « ذكراً » فالمراد بالذكر الذي أنزله هو الرسول سمي به لأنه وسيلة التذكرة بالله وآياته وسبيل الدعوة إلى دين الحق ، والمراد بالرسول محمد ﷺ على ما يؤيده ظاهر قوله : « يتلو عليكم آيات الله مبينات » الخ .

وعلى هذا فالمراد بإنزال الرسول بعثه من عالم الغيب وإظهاره لهم رسولاً من عنده بعد ما لم يكونوا يحتسبون كما في قوله : « وأنزلنا الحديد » الحديد : ٢٥ .

وقد دعى ظهور الإنزال في كونه من السماء بعضهم كصاحب الكشاف إلى أن فسّر « رسولاً » بجبريل ويكون حينئذ معنى تلاوته الآيات عليهم تلاوته على النبي ﷺ بما أنه متبوع لقومه ووسيلة الإبلاغ لهم لكن ظاهر قوله : « يتلو عليكم » الخ ، خلاف ذلك.

ويحتمل أن يكون « رسولاً » منصوباً بفعل محذوف والتقدير أرسل رسولاً يتلو عليكم آيات الله ، ويكون المراد بالذكر المنزل اليهم القرآن أو ما بيّن فيه من الأحكام والمعارف .

وقوله : « ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور » تقدم تفسيره في نظائره .

وقوله : « ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً » وعد جميل وتبشير .

وقوله : « قد أحسن الله له رزقاً » وصف لإحسانه تعالى اليهم فيما رزقهم به من الرزق والمراد بالرزق مـا رزقهم من الإيمان والعمل الصالح في الدنيا والجنة في الآخرة ، وقيل المراد به الجنة .

قوله تعالى : « الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن » الخ ، بيان يتأكد به ما تقدم في الآيات من حديث ربوبيته تعالى وبعثه الرسول وإنزاله

الذكر ليطيعوه فيه وأن في تمرده ومخالفته الحساب الشديد والعذاب الأليم وفي طاعته الجنة الخالدة كل ذلك لأنه قدير عليم .

فقوله : « الله الذي خلق سبع سماوات » تقدّم بعض الكلام فيه في تفسير سورة حم السجدة .

وقوله : « ومن الأرض مثلهن » ظاهره المثلية في العدد ، وعليه فالمعنى : وخلق من الأرض سبعاً كما خلق من السماء سبعاً فهل الأرضون السبع سبع كرات من نوع الأرض التي نحن عليها والتي نحن عليها إحداها ؟ أو الأرض التي نحن عليها سبع طبقات محيطة بعضها ببعض والطبقة العليا بسيطها الذي نحن عليه ؟ أو المراد الأقاليم السبعة التي قسّموا اليها المعمور من سطح الكرة؟ وجوه ذهب إلى كل منها جمع وربما لاح بالرجوع إلى ما تقدم في تفسير سورة حم السجدة محتمل آخر غيرها .

وربما قيل : إن المراد بقوله : « ومن الأرض مثلهن » أنه خلق من الأرض شيئاً هو مثل السماوات السبع وهو الإنسان المركب من المادة الأرضية والروح السماوية التي فيها نماذج سماوية ملكوتية .

وقوله : « يتنزل الأمر بينهن » الظاهر أن الضمير للسماوات والأرض جميعاً والأمر هو الأمر الإلهي الذي فسره بقوله : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن » يس : ٨٣ ، وهو كلمة الإيجاد ، وتنزله هو أخذه بالنزول من مصدر الأمر إلى سماء بعد سماء حتى ينتهي إلى العالم الأرضي فيتكوّن ما قصد بالأمر من عين أو أثر أو رزق أو موت أو حياة أو عزة أو ذلة أو غير ذلك قال تعالى : « وأوحى في كل سماء أمرها » حم السجدة : ١٢ ، وقال : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » ألم السجدة : ٥ .

وقيل : المراد بالأمر الأمر التشريعي يتنزل ملائكة الوحي به من السماء إلى النبي وهو بالأرض . وهو تخصيص من غير مخصص وذيل الآيـــة « لتعلموا أن الله » الخ ، لا يلائمـه .

وقوله : « أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً » من الغايات المترتبة على خلقه السماوات السبع ومن الأرض مثلهن وتنزيله الأمر بينهن ، وفي ذلك انتساب الخلق والأمر اليه واختصاصها به فإن المتفكر في ذلك لا يرتاب في قدرته على كل

شيء وعلمه بكل شيء فليتق مخالفة أمره أولوا الألباب من المؤمنين فإن سنة هذا القدير العليم تجري على إثابة المطيعين لأوامره ، ومجازاة العاتين المستكبرين وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « وكأين من قرية » قال : أهل القرية .

وفي تفسير البرهان عن ابن بابويه بإسناده عن الريان بن الصلت عن الرضا عليه السلام في حديث المأمون قال : الذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونحن أهله وذلك بين في كتاب الله حيث يقول في سورة الطلاق : « فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله عليكم ذكراً رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات » قال : فالذكر رسول الله ونحن أهله .

وفي تفسير القمي حدثني أبي عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال : قلت له : أخبرني عن قول الله عز وجل : « والسماء ذات الحبك » فقال : هي محبوكة إلى الأرض وشبك بين أصابعه فقلت : كيف تكون محبوكة إلى الأرض والله يقول : رفع السماوات بغير عمد ترونها ؟ فقال : سبحان الله أليس الله يقول : بغير عمد ترونها ؟ قلت : بلى . قال : فثم عمد ولكن لا ترونها .

قلت : فكيف ذلك جعلني الله فداك ؟ قال : فبسط كفه اليسرى ثم وضع اليمنى عليها فقال : هذه أرض الدنيا والسماء الدنيا فوقها قبة ، والأرض الثانية فوق السماء الدنيا والسماء الثانية فوقها قبة ، والأرض الثالثة فوق السماء الثانية والسماء الثالثة فوقها قبة ، والأرض الرابعة فوق السماء الثالثة والسماء الرابعة فوقها قبة ، والأرض الخامسة فوق السماء الرابعة والسماء الخامسة فوقها قبة ، والأرض السادسة فوق السماء الخامسة والسماء السادسة فوقها قبة ،والأرض السابعة فوق السماء السادسة والسماء السابعة فوقها قبة وعرش الرحمان تبارك وتعـــالى فوق السماء السابعة وهو قول الله عز وجل : الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن .

فأما صاحب الأمر فهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والوصي بعد رسول الله قائم على وجه الأرض فإنما يتنزل الأمر اليه من فوق السماء من بين السماوات والأرضين .

قلت : فما تحتنا إلا أرض واحدة ؟ فقال : ما تحتنا إلا أرض واحدة وإن الست لهن (لهي) فوقنا .

أقول : وعن الطبرسي عن العياشي عن الحسين بن خالد عن الرضا عليه‌السلام مثله .

والحديث نادر في بابه ، وهو وخاصة ما في ذيله من تنزل الأمر أقرب إلى الحمل على المعنى منه إلى الحمل على الصورة والله أعلم .

* * *

(سورة التحريم مدنية ، وهي اثنتا عشرة آية)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ــ ١ . قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ــ ٢ . وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ــ ٣ . إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذٰلِكَ ظَهِيرٌ ــ ٤ . عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ــ ٥ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ

شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ — ٦ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ — ٧ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ — ٨ . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ — ٩ .

(بيان)

تبدأ السورة بالإشارة إلى ما جرى بين النبي ﷺ وبين بعض أزواجه من قصة التحريم فيعاتب النبي ﷺ بتحريمه ما أحلّ الله له ابتغاءً لمرضاة بعض أزواجه ومرجعه إلى عتاب تلك البعض والانتصار له ﷺ كما يدل عليه سياق الآيات .

ثم تخاطب المؤمنين أن يقوا أنفسهم من عذاب الله النار التي وقودها الناس والحجارة وليسوا يجزون إلا بأعمالهم ولا مخلص منها إلا للنبي والذين آمنوا معه ثم تخاطب النبي بجهاد الكفار والمنافقين .

وتختتم السورة بضربه تعالى مثلاً من النساء للكفار ومثلاً منهن للمؤمنين .

وظهور السياق في كون السورة مدنية لا ريب فيه .

قوله تعالى : « يا أيها النبي لم تحرّم ما أحلّ الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم » خطاب مشوب بعتاب لتحريمه ﷺ لنفسه بعض ما أحل الله له ، ولم يصرح تعالى به ولم يبين أنه ما هو ؟ وماذا كان ؟ غير أن قوله : « تبتغي مرضاة أزواجك » يومي

أنه كان عملاً من الأعمال المحللة التي يقترفها النبي ﷺ لا ترتضيه أزواجه فضيّقن عليه وآذينه حتى أرضاهن بالحلف على أن يتركه ولا يأتي به بعد .

فقوله : « يا أيها النبي » علّق الخطاب والنداء بوصف النبي دون الرسول لاختصاصه به في نفسه دون غيره حتى يلائم وصف الرسالة .

وقوله : « لم تحرم ما أحل الله لك » المراد بالتحريم التسبب إلى الحرمة بالحلف على ما تدل عليه الآية التالية فإن ظاهر قوله : « قد فرض الله لكم تحلّة أيمانكم » الخ، أنه ﷺ حلف على ذلك ومن شأن اليمين أن يوجب عروض الوجوب إن كان الحلف على الفعل والحرمة وإن كان الحلف على الترك ، وإذ كان ﷺ حلف على ترك ما أحل الله له فقد حرم ما أحل الله له بالحلف .

وليس المراد بالتحريم تشريعه ﷺ على نفسه الحرمة فيما شرع الله له فيه الحلّية فليس له ذلك .

وقوله : « تبتغي مرضاة أزواجك » أي تطلب بالتحريم رضاهن بدل من « تحرم » الخ ، أو حال من فاعله ، والجملة قرينة على أن العتاب بالحقيقة متوجه اليهن ، ويؤيده قوله خطاباً لهما : « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما » الخ ، مع قوله فيه : « والله غفور رحيم » .

قوله تعالى : « قد فرض الله لكم تحلّة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم » قال الراغب : كل موضع ورد فرض الله عليه ففي الإيجاب الذي أدخله الله فيه ، وما ورد من فرض الله له فهو في أن لا يحظره على نفسه نحو « ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له » وقوله : « قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم » . انتهى . والتحلة أصلها تحللة على وزن تذكرة وتكرمة مصدر كالتحليل ، قال الراغب : وقوله عز وجل : « قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم » أي بيّن ما تحل به عقدة أيمانكم من الكفارة .

فالمعنى : قد قدّر الله لكم – كأنه قدره نصيباً لهم حيث لم يمنعهم عن حل عقدة اليمين – تحليل أيمانكم بالكفارة والله وليّكم الذي يتولى تدبير أموركم بالتشريع والهداية وهو العليم الحكيم .

وفي الآية دلالة على أن النبي ﷺ كان قد حلف على الترك ، وأمر له بتحلة يمينه .

قوله تعالى : « وإذ أسرّ النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله

عليه قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير، السرّ هو الحديث الذي تكتمه في نفسك وتخفيه، والإسرار إفضاؤك الحديث إلى غيرك مع إيصائك بإخفائه، وضمير « نبأت » لبعض أزواجه، وضمير « به » للحديث الذي أسرّه النبي ﷺ اليها، وضمير « أظهره » للنبي ﷺ، وضمير « عليه » لانبائها به غيرها وإفشائها السر، وضمير «عرّف وأعرض » للنبي ﷺ، وضمير « بعضه » للحديث، والإشارة بقوله : « هـــذا » لإنبائها غيره وإفشائها السر .

وحصل المعنى : وإذ أفضى النبي إلى بعض أزواجـــه – وهي حفصة بنت عمر بن الخطاب – حديثاً وأوصاها بكتمانه فلما أخبرت به غيرها وأفشت السر خلافاً لما أوصاها به، وأعلم الله النبي ﷺ أنها نبأت به غيرها وأفشت السر عرّف وأعلم بعضه وأعرض عن بعض آخر، فلما خبرها النبي ﷺ بالحديث قالت للنبي ﷺ : من أنبأك وأخبرك أني نبأت به غيري وأفشيت السر ؟ قال النبي ﷺ : نبأني وخبرني العليم الخبير وهو الله العليم بالسر والعلانية الخبير بالسرائر .

قوله تعالى : « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير » أي إن تتوبا إلى الله فقد تحقق منكما ما يستوجب عليكما التوبة وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه، الخ .

وقد اتفق النقل على أنهما عائشة وحفصة زوجا رسول الله ﷺ .

والصغو الميل والمراد به الميل إلى الباطل والخروج عن الاستقامة وقد كان ما كان منهما من إيذائه والتظاهر عليه ﷺ من الكبائر وقـــد قال تعالى : « إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيـــا والآخرة وأعدّ لهم عذاباً مهيناً » الأحزاب : ٥٧، وقال : « والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم » التوبة : ٦١ .

والتعبير بقلوبكما وإرادة معنى التثنية من الجمع كثير النظير في الاستعمال .

وقوله : « وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه » الخ، التظاهر التعاون، وأصل « وإن تظاهرا » وإن تتظاهرا، وضمير الفصل في قوله : « فإن الله هو مولاه » للدلالة على أن لله سبحانه عناية خاصة به ﷺ ينصره ويتولى أمره من غير واسطة من خلقه، والمولى الولي الذي يتولى أمره وينصره على من يريده بسوء .

و « جبريل » عطف على لفظ الجلالة، و « صالح المؤمنين » عطف كجبريل، والمراد

بصالح المؤمنين على ما قيل الصلحاء من المؤمنين فصالح المؤمنين واحد أريد به الجمع كقولك: لا يفعل هذا الصالح من الناس تريد به الجنس كقولك لا يفعله من صلح منه ومثله قولك: كنت في السامر والحاضر.

وفيه قياس المضاف إلى الجمع إلى مدخول اللام فظاهر صالح المؤمنين غير ظاهر « الصالح من المؤمنين ».

ووردت الرواية من طرق أهل السنة عن النبي ﷺ ومن طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن المراد بصالح المؤمنين علي عليه أفضل السلام، وستوافيك إن شاء الله.

وفي المراد منه أقوال أخر أغمضنا عنها لعدم دليل عليها.

وقوله: « والملائكة بعد ذلك ظهير » إفراد الخبر للدلالة على أنهم متفقون في نصره متحدون صفاً واحداً، وفي جعلهم بعد ذلك أي بعد ولاية الله وجبريل وصالح المؤمنين تعظيم وتفخيم.

ولحن الآيات في إظهار النبي ﷺ على من يؤذيه ويريده بسوء وتشديد العتاب على من يتظاهر عليه عجيب، وقد خوطب فيها النبي ﷺ أولاً وعوتب على تحريمه ما أحل الله له وأشير عليه بتحلة يمينه وهو إظهار وتأييد وانتصار له وإن كان في صورة العتاب.

ثم التفت من خطابه إلى خطاب المؤمنين في قوله: « وإذ أسرّ النبي إلى بعض أزواجه » يشير إلى القصة وقد أبهمها إبهاماً وقد كان أيّد النبي وأظهره قبل الإشارة إلى القصة وإفشائها مختوماً عليها، وفيه مزيد إظهاره.

ثم التفت من خطاب المؤمنين إلى خطابهما وقرر أن قلوبهما قد صغت بما فعلتا ولم يأمرهما أن تتوبا من ذنبهما بل بين لهما أنهما واقعتان بين أمرين إما أن تتوبا وإما أن تظاهرا على من الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك أجمع ثم أظهر الرجاء إن طلقهن أن يرزقه الله نساء خيراً منهن. ثم أمر النبي ﷺ أن يجاهد الكفار والمنافقين ويغلظ عليهم.

وانتهى الكلام إلى ضربه تعالى مثلين مثلاً للذين كفروا ومثلاً للذين آمنوا.

وقد أدار تعالى الكلام في السورة بعد التعرض لحالهما بقوله: « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه » الخ، بين التعرض لحال المؤمنين والتعرض لحال الكفار

فقال : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم » الخ ، و « يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا » الخ ، وقال : « يا أيها الذين آمنوا توبوا » الخ ، و « يا أيها النبي جاهد » الخ ، وقال : « ضرب الله مثلاً للذين كفروا » ، « وضرب الله مثلاً للذين آمنوا » .

قوله تعالى : « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن » إلى آخر الآية استغناء إلهي فإنهن وإن كن مشرفات بشرف زوجية النبي ﷺ لكن الكرامة عند الله بالتقوى كما قال تعالى : « فإن الله أعدّ للمحسنات منكن أجراً عظيماً » الأحزاب : ٢٩ ، انظر إلى مكان « منكن » وقال : « يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً » الأحزاب : ٣١ .

ولذا ساق الاستغناء بترجي إبداله إن طلقهن أزواجاً خيراً منهن ، وعلق الخبر بما ذكر لأزواجه الجديدة من صفات الكرامة وهي أن يكنّ مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات – أي صائمات – ثيّبات وأبكاراً .

فمن تزوج بها النبي ﷺ وكانت متصفة بمجموع هذه الصفات كانت خيراً منهن وليس إلا لأجل اختصاص منها بالقنوت والتوبة أو القنوت فقط مع مشاركتها لهن في باقي الصفات ، والقنوت هو لزوم الطاعة مع الخضوع .

ويتأيد هذا المعنى بما في مثل مريم الآتي في آخر السورة من ذكر القنوت « وكانت من القانتين » فالقنوت هو الذي يفقدنه وهو لزومهن طاعة النبي ﷺ التي فيها طاعة الله واتقاؤهن أن يعصين النبي ﷺ ويؤذينه .

وبما مر يظهر فساد قول من قال إن وجه خيرية أزواجه اللاحقة من أزواجه السابقة إن طلقهن ، هو تزوج النبي ﷺ بهن وانفصال الأزواج السابقة وزوجيته ﷺ شرف لا يقدّر قدره .

وذلك أنه لو كان ملاك ما ذكر في الآية من الخير هو الزوجية كان كل من تزوج ﷺ من النساء أفضل وأشرف منهن إن طلقهن وإن لم تتلبس بشيء مما ذكر من صفات الكرامة فلم يكن مورد لعدّ ما عدّ من الصفات .

قال في الكشاف: فإن قلت: لم أخليت الصفات كلها عن العاطف ووسّط بين الثيّبات والأبكار ؟ قلت: لأنهما صفتان متنافيتان لا يجتمعن فيهما اجتماعهن في سائر الصفات. انتهى.

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة » الخ ، « قوا » أمر من الوقاية بمعنى حفظ الشيء مما يؤذيه ويضرّه ، والوقود بفتح الواو اسم لما توقد به النار من حطب ونحوه . والمراد بالنار نار جهنم وكون الناس المعذبين فيها وقوداً لها معناه اشتعال الناس فيها بأنفسهم كما في قوله تعالى : « ثم في النار يسجرون » المؤمن:٧٢ . فيناسب تجسم الأعمال كما هو ظاهر الآية التالية « يا أيها الذين كفروا » الخ ، وفسرت الحجارة بالأصنام .

وقوله : « عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » أي وكّل عليها لإجراء أنواع العذاب على أهلها ملائكة غلاظ شداد .

والغلاظ جمع غليظ ضد الرقيق والأنسب للمقام كون المراد بالغلظة خشونة العمل كما في قوله الآتي : « جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » الآية ٩ من السورة ، والشداد جمع شديد بمعنى القوي في عزمه وفعله .

وقوله : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » كالمفسر لقوله : « غلاظ شداد» أي هم ملتزمون بما أمرهم الله من أنواع العذاب لا يعصونه بالمخالفة والرد ويفعلون ما يؤمرون به على ما أمروا به من غير أن يفوت منهم فائت أو ينقص منه شيء لضعف فيهم أو فتور فهم غلاظ شداد .

وبهذا يظهر أن قوله : « لا يعصون الله ما أمرهم » ناظر إلى التزامهم بالتكليف ، وقوله : « ويفعلون » الخ ، ناظر إلى العمل على طبقة فلا تكرار كما قيل .

قال في التفسير الكبير في ذيل الآية : وفيه إشارة إلى أن الملائكة مكلفون في الآخرة بما أمرهم الله تعالى به وبما ينهاهم عنه ، والعصيان منهم مخالفة للأمر والنهي .

وفيه أن الآية وغيرها مما تصف الملائكة بمحض الطاعة من غير معصية مطلقة تشمل الدنيا والآخرة فلا وجه لتخصيص تكليفهم بالآخرة .

ثم إن تكليفهم غير سنخ التكليف المعهود في المجتمع الإنساني بمعنى تعليق المكلف - بالكسر - إرادته بفعل المكلف - بالفتح - تعليقاً اعتبارياً يستتبع الثواب والعقاب في ظرف الاختيار وإمكان الطاعة والمعصية بل هم خلق من خلق الله لهم ذوات طاهرة نورية لا يريدون إلا ما أراد الله ولا يفعلون إلا ما يؤمرون ، قال تعالى : « بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » الأنبياء : ٢٧ ، ولذلك لا جزاء لهم

على أعمالهم من ثواب أو عقاب فهم مكلفون بتكليف تكويني غير تشريعي مختلف باختلاف درجاتهم ، قال تعالى : « وما منا إلا له مقام معلوم » الصافات : ١٦٤ ، وقال عنهم : « وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا » مريم : ٦٤ .

والآية الكريمة بعد الآيات السابقة كالتعميم بعد التخصيص فإنه تعالى لما أدّب نساء النبي ﷺ ببيان ما لإيذائهم النبي ﷺ من الأثر السيىء عمم الخطاب فخاطب المؤمنين عامة أن يؤدّبوا أنفسهم وأهليهم ويقوهم من النار التي وقودها نفس الداخلين فيها أي أن أعمالهم السيئة تلزمهم وتعود ناراً تعذبهم ولا مخلص لهم منها ولا مناص عنها .

قوله تعالى : « يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون » خطاب عام للكفار بعدما جوزوا بالنار فإنهم يعتذرون عن كفرهم ومعاصيهم فيخاطبون أن لا تعتذروا اليوم – وهو يوم الجزاء – إنما تجزون نفس ما كنتم تعملون أي إن العذاب الذي تعذبون بها هو عملكم السيىء الذي عملتموه وقد برز لكم اليوم حقيقته وإذ عملتموه فقد لزمكم أنكم عملتموه والواقع لا يتغير وما حقّ عليكم من كلمة العذاب لا يعود باطلاً فهذا ظاهر الخطاب .

وقيل : المعنى : لا تعتذروا – اليوم – بعد دخول النار فإن الاعتذار توبة والتوبة غير مقبولة بعد دخول النار إنما تجزون ما لزم في مقابل عملكم من الجزاء في الحكمة .

وفي إتباع الآيات السابقة بما في هذه الآية من خطاب القهر تهديد ضمني وإشعار بأن معصية الله ورسوله ربما أدى إلى الكفر .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار » الخ ، النصح تحري فعل أو قول فيه صلاح صاحبه ، ويأتي بمعنى الإخلاص نحو نصحت له الود أي أخلصته – على ما ذكره الراغب – فالتوبة النصوح ما يصرف صاحبه عن العود إلى المعصية أو ما يخلص العبد للرجوع عن الذنب فلا يرجع إلى ما تاب منه .

لما أمر المؤمنين بوقاية أنفسهم وأهليهم من النار أمرهم جميعاً ثانياً بالتوبة وفرع عليه رجاء أن يستر الله سيئاتهم ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار .

وقوله : « يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه » قال الراغب : يقال : خزي الرجل يخزى من باب علم يعلم إذا لحقه انكسار إما من نفسه وإما من غيره فالذي يلحقه

من نفسه وهو الحيــاء المفرط مصدره الخزاية ، والذي يلحقه من غيره ويعد ضرباً من الاستخفاف مصدره الخزي والإخزاء من الخزاية والخزي جميعاً قال : وعلى نحو ما قلنا في خزي ذل وهان فإن ذلك متى كان من الإنسان نفسه يقال له الهون – بفتح الهاء – والذل ويكون محموداً ، ومتى كان من غيره يقال له : الهون – بضم الهــاء – والهوان والذل ويكون مذموماً . انتهى ملخصاً .

« فقوله : « يوم » ظرف لما تقدمه ، والمعنى : توبوا إلى الله عسى أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم الجنة في يوم لا يخزي ولا يكسر الله النبي ﷺ بجعلهم محرومين من الكرامة وخلفه ما وعدهم من الوعد الجميل .

وفي قوله : « النبي والذين آمنوا معه » اعتبار المعية في الإيمان في الدنيـــا ولازمه ملازمتهم النبي ﷺ وطاعتهم له من غير مخالفة ومشاقة .

ومن المحتمل أن يكون قوله : « الذين آمنوا » مبتدأ خبره « معه » وقوله : « نورهم يسعى » الخ ، خبراً ثانياً ، وقوله : « يقولون » الخ ، خبراً ثالثاً فيفيد أنهم لا يفارقون النبي ولا يفارقهم يوم القيامة ، وهذا وجه جيد لازمه كون عدم الخزي خاصاً بالنبي ﷺ وسعي النور وسؤال إتمامه خاصاً بالذين معه من المؤمنين وتؤيده آية الحديد الآتية. ومن الممكن أن يكون « معه » متعلقاً بقوله : « آمنوا » وقوله : « نورهم يسعى » الخ ، خبراً أولاً وثانياً للموصول .

وقوله : « يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » تقدم بعض الكلام في معناه في قوله تعالى : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » الحديد : ١٢ ، ولا يبعد أن يكون ما بين أيديهم من النور نور الإيمان وما بأيمانهم نور العمل .

وقوله : « يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير » يفيد السياق أن المغفرة المسؤلة سبب لتمام النور أو هو ملازم لتمام النور فيفيد أن في نورهم نقصاً والنور نور الإيمان والعمل فلهم نقائص بحسب درجات الإيمان أو آثار السيئات التي خلت محالها في صحائفهم من العبودية في العمل فيسألون ربهم أن يتم لهم نورهم ويغفر لهم ، وإليـــه الإشارة بقوله تعالى : « والذين آمنوا بالله ورسله اولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم » الحديد : ١٩ .

قوله تعالى : « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم

وبئس المصير » المراد بالجهاد بذل الجهد في إصلاح الأمر من جهتهم ودفع شرهم ففي الكفار ببيان الحق وتبليغه فإن آمنوا وإلا فالحرب وفي المنافقين باستمالتهم وتأليف قلوبهم حتى تطمئن قلوبهم إلى الإيمان وإلا فلم يقاتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم منافقاً قط .

وقيل : المراد اشدد عليهم في إقامة الحدود لأن أكثر من يصيب الحد في ذلك الزمان المنافقون . وهما كما ترى .

(بحث روائي)

في تفسير القمي بإسناده عن ابن سيار عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله : « يا أيها النبي لم تحرّم ما أحلّ الله لك تبتغي مرضاة أزواجك » قال : اطلعت عائشة وحفصة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو مع معاوية فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : والله لا أقربها فأمر الله أن يكفر بها عن يمينه .

وفي الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن رجل قال لامرأته: أنت عليّ حرام فقال : لو كان لي عليه سلطان لأوجعت رأسه وقلت : الله أحلّها لك فما حرّمها عليك ؟ إنه لم يزد على أن كذب فزعم أن ما أحلّ الله له حرام ولا يدخل عليه طلاق ولا كفارة .

فقلت: قول الله عز وجل: « يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك » فجعل فيه كفارة ؟ فقال : إنما حرم عليه جاريته مارية القبطية وحلف أن لا يقربها ، وإنما جعل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم الكفارة في الحلف ولم يجعل عليه في التحريم .

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه بسند صحيح عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب من شراب عند سودة من العسل فدخل على عائشة فقالت : إني أجد منك ريحاً ، فدخل على حفصة فقالت : إني أجد منك ريحاً فقال : أراه من شراب شربته عند سودة والله لا أشربه ، فأنزل الله: « يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك » الآية .

أقول : والحديث مروي بطرق متشتتة وألفاظ مختلفة ، وفي انطباقها على الآيات – وهي ذات سياق واحد – خفاء .

وفيه أخرج ابن سعد وابن مردويه عن ابن عباس قال: كانت عائشة وحفصة متحابتين فذهبت حفصة إلى بيت أبيها تحدث عنده فأرسل النبي ﷺ إلى جاريته فظلت معه في بيت حفصة وكان اليوم الذي يأتي فيه عائشة فوجدتها في بيتها فجعلت تنتظر خروجها وغارت غيرة شديدة فأخرج النبي ﷺ جاريته ودخلت حفصة فقالت : قد رأيت من كان عندك والله لقد سوأتني ، فقال النبي ﷺ : والله لارضينك وإني مسرّ اليك سراً فاحفظيه ، قالت : ما هو ؟ قال : إني أشهدك أن سريتي هذه عليّ حرام رضاً لك .

فانطلقت حفصة إلى عائشة فأسرّت اليها أن أبشري إن النبي ﷺ قد حرم عليه فتاته فلما أخبرت بسرّ النبي ﷺ أظهر الله النبي ﷺ عليه فأنزل الله : « يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك » .

أقول : انطباق ما في الحديث على الآيات وخاصة قوله : « عرّف بعضه وأعرض عن بعض » فيه خفاء .

وفيه أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : « وإذ أسرّ النبي إلى بعض أزواجه حديثاً » قال : دخلت حفصة على النبي ﷺ في بيتها وهو يطأ مارية ، فقال لها رسول الله ﷺ : لا تخبري عائشة حتى أبشرك ببشارة فإن أباك يلي الأمر بعد أبي بكر إذا أنا متّ .

فذهبت حفصة فأخبرت عائشة فقالت عائشة للنبي ﷺ : من أنبأك هذا ؟ قال : نبّأني العليم الخبير ، فقالت عائشة : لا أنظر اليك حتى تحرّم مارية فحرّمها فأنزل الله « يا أيها النبي لم تحرّم » .

أقول : والآثار في هذا الباب كثيرة على اختلاف فيها ، وفي أكثرها أنه ﷺ حرم مارية على نفسه لقول حفصة لا لقول عائشة ، وأن التي قالت للنبي ﷺ : « من أنبأك هذا » هي حفصة تريد من أخبرك أني أفشيت السر دون عائشة .

وهي مع ذلك لا تزيل إبهام قوله تعالى : « عرّف بعضه وأعرض عن بعض » . نعم فيما رواه ابن مردويه عن علي قال : ما استقصى كريم قط لأن الله يقول : « عرّف بعضه وأعرض عن بعض » ، وروي عن أبي حاتم عن مجاهد ، وابن مردويه عن ابن عباس : أن الذي عرّف أمر مارية والذي أعرض عنه قوله : إن أباك وأباها يليان الناس بعدي مخافة أن يفشو .

ويتوجه عليه أنه ما وجه الكرم في أن يعرّف ﷺ ما قاله من تحريم مارية ويعرض عما أخبرها من ولايتهما مع أن العكس أولى وأقرب .

وقد روي بعدة طرق عن عمر بن الخطاب سبب نزول الآيات ولم يذكر ذلك ففي عدة من جوامع الحديث منها البخاري ومسلم والترمذي عن ابن عباس قال : لم أزل حريصاً أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي اللتين قال الله : « إن تتوبا فقد صغت قلوبكما » حتى حج عمر وحججت معه فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة فتبرّز ثم أتى فصببت على يديه فتوضأ .

فقلت : يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله : « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما » فقال : واعجباً لك يا ابن عباس هما عائشة وحفصة ثم أنشأ يحدثني .

فقال : كنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم فغضبت على امرأتي يوماً فإذا هي تراجعني فأنكرت أن تراجعني فقالت : ما تنكر من ذلك ؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل . قلت : قد خابت من فعلت ذلك منهن وخسرت .

قال : وكان منزلي بالعوالي وكان لي جار من الأنصار كنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ فينزل يوماً فيأتيني بخبر الوحي وغيره وأنزل يوماً فآتيه بمثل ذلك .

قال: وكنا نحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا فجاء يوماً فضرب على الباب فخرجت اليه فقال : حدث أمر عظيم. فقلت : أجاءت غسان ؟ قال : أعظم من ذلك طلق رسول الله ﷺ نساءه . قلت في نفسي : قد خابت حفصة وخسرت قد كنت أرى ذلك كائناً فلما صلينا الصبح شددت عليّ ثيابي ثم انطلقت حتى دخلت على حفصة فإذا هي تبكي فقلت : اطلقكن رسول الله ﷺ ؟ قالت : لا أدري هو ذا معتزل في المشربة فانطلقت فأتيت غلاماً أسود فقلت: استأذن لعمر فدخل ثم خرج إلي فقال : قد ذكرتك له فلم يقل شيئاً فانطلقت إلى المسجد فإذا حول المسجد نفر يبكون فجلست اليهم .

ثم غلبني ما أجد فانطلقت فأتيت الغلام فقلت : استأذن لعمر فدخل ثم خرج فقال : قد ذكرتك له فلم يقل شيئاً فوليت منطلقاً فإذا الغلام يدعوني فقال : ادخل فقد أذن لك فدخلت فإذا النبي ﷺ متكىء على حصير قد رأيت أثره في جنبه فقلت : يا رسول الله

أطلقت نساءك ؟ قال : لا . قلت : الله أكبر لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم فغضبت يوماً على امرأتي فإذا هي تراجعني فأنكرت ذلك فقالت : ما تنكر ؟ فوالله إن أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل فقلت : قد خاب من فعل ذلك منهن ، فدخلت على حفصة فقلت : أتراجع إحداكن رسول الله وتهجره اليوم إلى الليل ؟ قالت : نعم . فقلت : قد خابت من فعلت ذلك منكن وخسرت أتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا هي قد هلكت فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فقلت لحفصة : لا تراجعي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا تسأليه شيئاً وسليني ما بدا لك ولا يغرنك إن كانت جارتك أوسم منك وأحب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتبسم اخرى .

فقلت : يا رسول الله أستأنس قال : نعم . فرفعت رأسي فما رأيت في البيت إلا أهبة ثلاثة فقلت : يا رسول الله ادع الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله فاستوى جالساً وقال : أو في شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا ، وكان قد أقسم أن لا يدخل على أزواجه شهراً فعاتبه الله في ذلك وجعل له كفارة اليمين .

أقول : وهذا المعنى مروي عنه مفصلا ومختصراً بطرق مختلفة ، والرواية -كما ترى- لا تذكر ما أسره النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى بعض أزواجه ؟ وما هو بعض النبإ الذي عرفه وما هو الذي أعرض عنه وله شأن من الشأن .

وهي مع ذلك ظاهرة في أن المراد بالتحريم في الآية تحريم عامة أزواجه وذلك لا ينطبق عليها وفيها قوله تعالى: « لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك » مضافاً إلى أنه لا تبين به وجه التخصيص في قوله : « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه » الخ .

وفي تفسير القمي بإسناده عن أبي بصير قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول : « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين » قال : صالح المؤمنين علي عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

يقول : « وصالح المؤمنين » قال : علي بن أبي طالب .

أقول : ذكر صاحب البرهان بعد إيراد رواية أبي بصير السابقة أن محمد بن العباس أورد في هذا المعنى اثنين وخمسين حديثاً من طرق الخاصة والعامة ثم أورد نبذة منها .

وفي الكافي بإسناده عن عبد الأعلى مولى آل سام عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال : لما نزلت هذه الآية « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » جلس رجل من المؤمنين يبكي وقال : أنا عجزت عن نفسي وكلفت أهلي . فقال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله : حسبك أن تأمرهم بما تأمر به نفسك ، وتنهاهم عما تنهى عنه نفسك .

وفيه بإسناده عن سماعة عن أبي بصير في قوله : « قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » قلت : كيف أقيهم ؟ قال : تأمرهم بما أمر الله وتنهاهم عما نهى الله فإن أطاعوك كنت قد وقيتهم وإن عصوك كنت قد قضيت ما عليك .

أقول : ورواه بطريق آخر عن ذرعة عن أبي بصير عنه عليه‌السلام .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق والفاريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في المدخل عن علي بن أبي طالب في قوله : « قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » قال : علّموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدّبوهم .

وفيه أخرج ابن مردويه عن زيد بن أسلم قال : تلا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله هذه الآية « قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » فقالوا : يا رسول الله كيف نقي أهلنا ناراً ؟ قال: تأمرونهم بما يحبه الله وتنهونهم عما يكره الله .

وفي الكافي بإسناده عن أبي الصباح الكناني قال : سألت أبا عبد الله عليه‌السلام عن قول الله عز وجل: « يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً» قال : يتوب العبد من الذنب ثم لا يعود فيه .

قال محمد بن الفضيل : سألت عنها أبا الحسن عليه‌السلام فقال: يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه ، الحديث .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال معاذ بن جبل : يا رسول الله ما التوبة النصوح ؟ قال: أن يندم العبد على الذنب الذي أصاب فيعتذر إلى الله ثم لا يعود اليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع .

أقول : والروايات في هذا المعنى كثيرة من الفريقين .

وفي الكافي بإسناده عن صالح بن سهل الهمداني قال : قال أبو عبدالله عليه السلام في قوله: « يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » أئمة المؤمنين يوم القيامة يسعى[1] بين أيدي المؤمنين وبأيمانهم حتى ينزلوهم منازل أهل الجنة .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية : من كان له نور يومئذ نجا ، وكل مؤمن له نور .

* * *

ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَةَ نُوحٍ وَٱمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ٱدْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ــ ١٠ . وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ــ ١١ . وَمَرْيَمَ ٱبْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَانِتِينَ ــ ١٢ .

(بيان)

تتضمن الآيات الكريمة مثلين يمثل بهما الله سبحانه حال الكفار والمؤمنين في أن شقاء الكفار وهلاكهم إنما كان بخيانتهم لله ورسوله وكفرهم ولم ينفعهم اتصال بسبب إلى الأنبياء المكرمين ، وأن سعادة المؤمنين وفلاحهم إنما كان بإخلاصهم الإيمان بالله ورسوله والقنوت وحسن الطاعة ولم يضرهم اتصال بأعداء الله بسبب فإنما ملاك الكرامة عند الله التقوى .

(١) يسعون ، ظ .

يمثل الحال أولاً : بحال امرأتين كانتـا زوجين لنبيين كريمين عدّهما الله سبحانه عبدين صالحين – ويا له من كرامة – فخانتاهما فامرتا بدخول النـار مع الداخلين فلم ينفعهما زوجيتهما للنبيين الكريمين شيئاً فهلكتا في ضمن الهالكين من غير أدنى تميّز و كرامة .

وثانياً : بحال امرأتين إحداهما امرأة فرعون الذي كانت منزلته في الكفر بالله أن نادى في الناس فقال : أنا ربكم الأعلى ، فآمنت بالله وأخلصت الإيمان فأنجاها الله وأدخلها الجنة ولم يضرّها زوجية مثل فرعون شيئاً ، وثانيتهما مريم ابنة عمران الصدّيقة القانتة أكرمها الله بكرامته ونفخ فيها من روحه .

وفي التمثيل تعريض ظاهر شديد لزوجي النبي ﷺ حيث خانتـاه في إفشاء سرّه وتظاهرتا عليه وآذتاه بذلك ، وخاصة من حيث التعبير بلفظ الكفر والخيـانة وذكر الأمر بدخول النار .

قوله تعالى : « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما » الخ ، قال الراغب : الخيانة والنفاق واحد إلا أن الخيـانة تقال اعتباراً بالعهد والأمانة ، والنفاق يقال اعتباراً بالدين ثم يتداخلان فالخيـانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر ونقيض الخيانة الأمانة ، يقـال : خنت فلاناً وخنت أمانة فلان . انتهى .

وقوله : « للذين كفروا » إن كان متعلقاً بالمثل كان المعنى : ضرب الله مثـلاً يمثل به حال الذين كفروا أنهم لا ينفعهم الاتصال بالعباد الصالحين ، وإن كان متعلقاً بضرب كان المعنى : ضرب الله الامرأتين وما انتهت اليه حالهما مثلاً للذين كفروا ليعتبروا به ويعلموا أنهم لا ينفعهم الاتصال بالصالحين من عباده وأنهم بخيانتهم النبي ﷺ من أهل النـار لا محالة .

وقوله : « امرأة نوح وامرأة لوط » مفعول « ضرب » ، والمراد بكونهما تحتهـما زوجيتهما لهما .

وقوله: « فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً »ضمير التثنية الاولى للعبدين ، والثانية للامرأتين، والمراد أنه لم ينفع المرأتين زوجيتهما للعبدين الصالحين .

وقوله : « وقيل ادخلا النـار مع الداخلين » أي مع الداخلين فيها من قوميهما كما يلوح من قوله في امرأة نوح : « حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنـا احمل فيها من كل زوجين

اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول » هود : ٤٠ ، وقوله في امرأة لوط : « فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم » هود : ٨١ ، أو المعنى مع الداخلين فيها من الكفار .

وفي التعبير بقيل بالبناء للمفعول ، وإطلاق الداخلين إشارة إلى هوان أمرهما وعدم كرامة لهما أصلاً فلم يبال بهما أين هلكتا .

قوله تعالى : « وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة » الخ ، الكلام في قوله : « الذين آمنوا » كالكلام في قوله: « للذين كفروا » .

وقوله : « إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة » لخص سبحانه جميع ما كانت تبتغيه في حياتها وترومه في مسير عبوديتها في مسألة سألت ربها وذلك أن الإيمان إذا كمل تواطأ الظاهر والباطن وتوافق القلب واللسان فلا يقول الإنسان إلا ما يفعل ولا يفعل إلا ما يقول فيكون ما يرجوه أو يتمناه أو يسأله بلسانه هو الذي يريده كذلك بعمله .

وإذ حكى الله فيما يمثل به حالها ويشير إلى منزلتها الخاصة في العبودية دعاء دعت به دل ذلك على أنه عنوان جامع لعبوديتها وعلى ذلك كانت تسير مدى حياتها ، والذي تتضمنه مسألتها أن يبني الله لها عنده بيتاً في الجنة وينجيها من فرعون وعمله وينجيها من القوم الظالمين فقد اختارت جوار ربه والقرب منه على أن تكون أنيسة فرعون وعشيقته وهي ملكة مصر وآثرت بيتاً يبنيه لها ربها على بيت فرعون الذي فيه مما تشتهيه الأنفس وتتمناه القلوب ما تقف دونه الآمال فقد كانت عزفت نفسها ما هي فيه من زينة الحياة الدنيا وهي لها خاضعة وتعلقت بما عند ربه من الكرامة والزلفى فآمنت بالغيب واستقامت على إيمانها حتى قضت .

وهذه القدم هي التي قدمتها إلى أن جعلها الله مثلاً للذين آمنوا ولخص حالها وما كانت تبتغيه وتعمل له مدى حياتها في مسير العبودية في مسألة حكى عنها وما معناها إلا أنها انتزعت من كل ما يلهوها عن ربها ولاذت بربها تريد القرب منه تعالى والإقامة في دار كرامته .

فقوله : « امرأة فرعون » اسمها على ما في الرواية آسية ، وقوله : « إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة » الجمع بين كون البيت المبنى لها عند الله وفي الجنة لكون الجنة

دار القرب من الله وجوار رب العالمين كما قال تعالى : « بل أحياء عند ربهم يرزقون » آل عمران : ١٦٩ .

على أن الحضور عنده تعالى والقرب منه كرامة معنوية والاستقرار في الجنة كرامة صورية ، وسؤال الجمع بينهما سؤال الجمع بين الكرامتين .

وقوله: « ونجني من فرعون وعمله » تبر منها وسؤال أن ينجيها الله من شخص فرعون ومن عمله الذي تدعو ضرورة المصاحبة والمعاشرة إلى الشركة فيه والتلبس به ، وقيل : المراد بالعمل الجماع .

وقوله : « ونجني من القوم الظالمين » وهم قوم فرعون وهو تبرّ آخر وسؤال أن ينجيها الله من المجتمع العام كما أن الجملة السابقة كانت سؤال أن ينجيها من المجتمع الخاص.

قوله تعالى : « ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا » الخ ، عطف على امرأة فرعون والتقدير وضرب الله مثلاً للذين آمنوا مريم الخ .

ضربها الله مثلاً باسمها وأثنى عليها ولم يذكر في كلامه تعالى امرأة باسمها غيرها ذكر اسمها في القرآن في بضع وثلاثين موضعاً في نيف وعشرين سورة .

وقوله : « التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا » ثناء عليها على عفتها ، وقد تكرر في القرآن ذكر ذلك ولعل ذلك بإزاء ما افتعله اليهود من البهتان عليها كما قال تعالى : « وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً » النساء : ١٥٦ ، وفي سورة الأنبياء في مثل القصة : « والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها » الأنبياء : ٩١ .

وقوله : « وصدقت بكلمات ربها » أي بما تكلم به الله سبحانه من الوحي إلى أنبيائه كما قيل، وقيل: المراد بها وعده تعالى ووعيده وأمره ونهيه، وفيه أنه يستلزم كون ذكر الكتب مستدركاً .

وقوله : « وكتبه » وهي المشتملة على شرائع الله المنزلة من السماء كالتوراة والإنجيل كما هو مصطلح القرآن ولعل المراد من تصديقها كلمات ربها وكتبه كونها صديقة كما في قوله تعالى : « ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة » المائدة : ٧٥ .

وقوله : « وكانت من القانتين » أي من القوم المطيعين لله الخاضعين له الدائمين عليه غلب فيه المذكر على المؤنث .

ويؤيد هذا المعنى كون القنوت بهذا المعنى واقعاً فيما حكى الله من نداء الملائكة لها « يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين » آل عمران : ٤٣ ، وقيل : يجوز أن يراد بالقانتين رهطها وعشيرتها الذين كانت مريم منهم وكانوا أهل بيت صلاح وطاعة ، وهو بعيد لما تقدم .

على أن المناسب لكون المثل تعريضاً لزوجي النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يراد بالقانتين مطلق أهل الطاعة والخضوع لله تعالى .

(بحث روائي)

في تفسير البرهان عن شرف الدين النجفي رفعه عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال قوله تعالى : « ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط » الآية مثل ضربه الله لعائشة وحفصة أن تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأفشتا سره .

وفي المجمع : عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع : آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والطبراني والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : قال رسول الله : أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون مع ما قص الله علينا من خبرهما في القرآن « قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة » .

وفيه أخرج الطبراني عن سعد بن جنادة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله زوجني في الجنة مريم بنت عمران وامرأة فرعون وأخت موسى .

أقول : وامرأة فرعون على ما وردت به الروايات مقتولة قتلها زوجها فرعون لما اطلع أنها آمنت بالله وحده ، وقد اختلفت الروايات في كيفية قتلها .

ففي بعضها أنه لما اطلع على إيمانها كلفها الرجوع إلى الكفر فأبت إلا الإيمان فأمر بها أن ترمى عليها بصخرة عظيمة حتى ترضح تحتها ففعل بها ذلك .

وفي بعضها لما أحضرت للعذاب دعت بما حكى الله عنها في كلامه من قولها : « رب

ابن لي عندك بيتاً في الجنة » الخ ، فاستجاب الله لها ورأت بيتها في الجنة وانتزعت منها الروح وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح .

وفي بعضها أن فرعون وتد لها أربعة أوتاد وأضجعها على صدرها وجعل على صدرها رحى واستقبل بها عين الشمس . والله أعلم .

* * *

(سورة الملك مكية ، وهي ثلاثون آية)

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ . تَبَارَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ــ ١ . ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيٰوةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ــ ٢ . ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوٰاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ــ ٣ . ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ــ ٤ . وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ــ ٥ . وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ــ ٦ . إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ ــ ٧ . تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ــ ٨ . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ــ ٩ . وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ ــ ١٠ .

فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ـــ ١١ . إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ
رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ـــ ١٢ . وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ
اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ـــ ١٣ . أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ
وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ـــ ١٤ .

(بيان)

غرض السورة بيان عموم ربوبيته تعالى للعالمين تجاه قول الوثنية إن لكل شطر من العالم رباً من الملائكة وغيرهم وإنه تعالى رب الأرباب فقط .

ولذا يعد سبحانه كثيراً من نعمه في الخلق والتدبير - وهو في معنى الاحتجاج على ربوبيته - ويفتتح الكلام بتباركه وهو كثرة صدور البركات عنه ، ويكرر توصيفه بالرحمان وهو مبالغة في الرحمة التي هي العطية قبال الاستدعاء فقراً وفيها إنذار ينتهي إلى ذكر الحشر والبعث .

وتتلخص مضامين آياتها في الدعوة إلى توحيد الربوبية والقول بالمعاد .

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير » تبارك الشيء كثرة صدور الخيرات والبركات عنه .

وقوله : « الذي بيده الملك » يشمل باطلاقه كل ملك ، وجعل الملك في يده استعارة بالكناية عن كمال تسلطه عليه وكونه متصرفاً فيه كيف يشاء كما يتصرف ذو اليد فيما بيده ويقلبه كيف يشاء فهو تعالى يملك بنفسه كل شيء من جميع جهاته ، ويملك مـا يملكه كل شيء .

فتوصيفه تعالى بالذي بيده الملك أوسع من توصيفه بالمليك في قوله: «عند مليك مقتدر» القمر : ٥٥ ، وأصرح وآكد من توصيفه في قوله : « له الملك » التغابن : ١ .

وقوله : « وهو على كل شيء قدير » إشارة إلى كون قدرته غير محدودة بحد ولا منتهية

إلى نهاية وهو لازم إطلاق الملك بحسب السياق ، وإن كان إطلاق الملك وهو من صفات الفعل من لوازم إطلاق القدرة وهي من صفات الذات .

وفي الآية مع ذلك إيماء إلى الحجة على إمكان ما سيأتي من أمر المعاد .

قوله تعالى : « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور » الحياة كون الشيء بحيث يشعر ويريد ، والموت عدم ذلك لكن الموت على ما يظهر من تعليم القرآن انتقال من نشأة من نشآت الحياة إلى نشأة اخرى كما تقدم استفادة ذلك من قوله تعالى : « نحن قدّرنا بينكم الموت – إلى قوله – فيما لا تعلمون » الواقعة : ٦١ ، فلا مانع من تعلق الخلق بالموت كالحياة .

على أنه لو أخذ عدمياً كما عند العرف فهو عدم ملكة الحياة وله حظ من الوجود يصحح تعلق الخلق به كالعمى من البصر والظلمة من النور .

وقوله : « ليبلوكم أيكم أحسن عملا » غاية خلقه تعالى الموت والحياة ، والبلاء الامتحان والمراد أن خلقكم هذا النوع من الخلق وهو أنكم تحيون ثم تموتون خلق مقدميّ امتحاني يمتاز به منكم من هو أحسن عملا من غيره ومن المعلوم أن الامتحان والتمييز لا يكون إلا لأمر ما يستقبلكم بعد ذلك وهو جزاء كل بحسب عمله .

وفي الكلام مع ذلك إشارة إلى أن المقصود بالذات من الخلقة هو إيصال الخير من الجزاء حيث ذكر حسن العمل وامتياز من جاء بأحسنه فالمحسنون عملا هم المقصودون بالخلقة وغيرهم مقصودون لأجلهم .

وقد ذيل الكلام بقوله : « وهو العزيز الغفور » فهو العزيز لأن الملك والقدرة المطلقين له وحده فلا يغلبه غالب وما أقدر أحداً على مخالفته إلا بلاء وامتحاناً وسينتقم منهم وهو الغفور لأنه يعفو عن كثير من سيئاتهم في الدنيا وسيغفر كثيراً منها في الآخرة كما وعد .

وفي التذييل بالاسمين مع ذلك تخويف وتطميع على ما يدعو إلى ذلك سياق الدعوة .

واعلم أن مضمون الآية ليس مجرد دعوى خالية عن الحجة يراد به التلقين كما ربما يتوهم بل هي مقدمة قريبة من الضرورة – أو هي ضرورية – تستدعي الحكم بضرورة البعث للجزاء فإن الإنسان المتلبس بهذه الحياة الدنيوية الملحوقة للموت لا يخلو من أن يحصل له وصف حسن العمل أو خلافه وهو مجهز بحسب الفطرة بما لولا عروض عارض السوء لساقه

إلى حسن العمل ، وقلما يخلو إنسان من حصول أحد الوصفين كالأطفال ومن في حكمهم .

والوصف الحاصل المترتب على وجود الشيء الساري في أغلب أفراده غاية في وجوده مقصودة في إيجاده فكما أن الحياة النباتية لشجرة كذا إذ كانت تؤدي في الغالب إلى إثمارها ثمرة كذا يعد ذلك غاية لوجودها مقصودة منها كذلك حسن العمل والصلاح غاية لخلق الإنسان ، ومن المعلوم أيضاً أن الصلاح وحسن العمل لو كان مطلوباً لكان مطلوباً لغيره لا لنفسه ، والمطلوب بالذات الحياة الطيبة التي لا يشوبها نقص ولا يعرضها لغو ولا تأثيم فالآية في معنى قوله: «كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة» الأنبياء: ٣٥.

قوله تعالى : « الذي خلق سبع سماوات طباقاً » الخ ، أي مطابقة بعضها فوق بعض أو بعضها يشبه البعض — على ما احتمل — وقد مرّ في تفسير حم السجدة بعض ما يمكننا من القول فيها .

وقوله : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » قال الراغب : الفوت بعد الشيء عن الإنسان بحيث يتعذر إدراكه ، قال تعالى : « وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار ». قال : والتفاوت الاختلاف في الأوصاف كأنه يفوت وصف أحدهما الآخر أو وصف كل واحد منهما الآخر ، قال تعالى : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » أي ليس فيها ما يخرج عن مقتضى الحكمة . انتهى .

فالمراد بنفي التفاوت اتصال التدبير وارتباط الأشياء بعضها ببعض من حيث الغايات والمنافع المترتبة على تفاعل بعضها في بعض، فاصطكاك الأسباب المختلفة في الخلقة وتنازعها كتشاجر كفتي الميزان وتصارعهما بالثقل والخفة والارتفاع والانخفاض فإنهما في عين أنهما تختلفان تتفقان في إعانة من بيده الميزان فيما يريده من تشخيص وزن السلعة الموزونة .

فقد رتب الله أجزاء الخلقة بحيث تؤدي إلى مقاصدها من غير أن يفوّت بعضها غرض بعض أو يفوت من بعضها الوصف اللازم فيه لحصول الغاية المطلوبة .

والخطاب في « ما ترى » خطاب عام لكل من يمكنه الرؤية وفي إضافة الخلق إلى الرحمن إشارة إلى أن الغاية منه هي الرحمة العامة ، وتنكير « تفاوت » وهو في سياق النفي وإدخال « من » عليه لإفادة العموم .

وقوله : « فارجع البصر هل ترى من فطور » الفطور الاختلال والوهي ، والمراد بإرجاع البصر النظر ثانياً وهو كناية عن المداقّة في النظر والإمعان فيه .

قوله تعالى : «ثم ارجع البصر كرّتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير» الخاسيء من خسأ البصر إذا انقبض عن مهانة كما قال الراغب، وقال أيضاً: الحاسر المعيا لانكشاف قواه ، ويقال للمعيا : حاسر ومحسور : أما الحاسر فتصور أنه بنفسه قد حسر قوّته ، وأما المحسور فتصور أن التعب قد حسره، وقوله عز وجل : « ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير » يصح أن يكون بمعنى حاسر وأن يكون بمعنى محسور . انتهى .

وقوله : « كرّتين » الكرّة الرجعة والمراد بالتثنية التكثير والتكرير ، والمعنى : ثم ارجع البصر رجعة بعد رجعة أي رجعات كثيرة ينقلب اليك البصر منقبضة مهينة والحال أنه كليل معيا لم يجد فطوراً .

فقد أشير في الآيتين إلى أن النظام الجاري في الكون نظام واحد متصل الأجزاء مرتبط الأبعاض .

قوله تعالى : « ولقد زيّنا السماء الدنيا بمصابيح » إلى آخر الآية ، المصابيح جمع مصباح وهو السراج سمّي الكواكب مصابيح لإنارتها وإضاءتها وقد تقدم كلام في ذلك في تفسير سورة حم السجدة .

وقوله : « وجعلناها رجوماً للشياطين » أي وجعلنا الكواكب التي زيّنا بها السماء رجوماً يرجم بها من استرق السمع من الشياطين كما قال تعالى : « إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين » الحجر : ١٨ ، وقال : « إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » الصافات : ١٠ .

قيل : إن الجملة دليل أن المراد بالكواكب المزينة بها السماء مجموع الكواكب الأصلية والشهب السماوية فإن الكواكب الأصلية لا تزول عن مستقرها والكواكب والنجم يطلقان على الشهب كما يطلقان على الأجرام الأصلية .

وقيل : تنفصل من الكواكب شهب تكون رجوماً للشياطين أما الكواكب أنفسها فليست تزول إلا أن يريد الله إفناءها .

وهذا الوجه أوفق للأنظار العلمية الحاضرة ، وقد تقدم بعض الكلام في معنى رمي الشياطين بالشهب .

وقوله : « وأعتدنا لهم عذاب السعير » أي وهيأنا للشياطين وهم أشرار الجن عذاب النار المسعرة المشتعلة .

قوله تعالى : « والذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير » لما أورد بعض آيات ربوبيته تعالى عقبها بالوعيد على من كفر بربوبيته على ما هو شأن هذه السورة من تداخل الحجج والوعيد والإنذار .

والمراد بالذين كفروا بربوبيته أعم من الوثنيين النافين لربوبيته لغير أربابهم القائلين بأنه تعالى رب الأرباب فقط ، والنافين لها مطلقاً والمثبتين لربوبيته مع التفريق بينه وبين رسله كاليهود والنصارى حيث آمنوا ببعض رسله و كفروا ببعض .

والآية مع ذلك متصلة بقوله : « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور » لما فيهـــا من الإشارة إلى البعث والجزاء متصلة بما قبلها كالتعميم بعد التخصيص .

قوله تعالى : « إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور تكاد تميز من الغيظ » قال الراغب : الشهيق طول الزفير وهو رد النفس والزفير مده انتهى ، والفوران كما في المجمع ارتفاع الغليان ، والتميز : التقطع والتفرق ، والغيظ : شدة الغضب ، والمعنى : إذا طرح الكفار في جهنم سمعوا لها شهيقاً – أي تجذبهم إلى داخلها كما يجذب الهواء بالشهيق إلى داخل الصدر – وهي تغلي بهم فترفعهم وتخفضهم تكاد تتلاشى من شدة الغضب .

قوله تعالى : « كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير » الفوج – كما قاله الراغب – الجماعة المارة المسرعة ، وفي قوله : « كلما ألقي فيها فوج » إشارة إلى أن الكفار يلقون في النار جماعة جماعة كما يشير اليه قوله : « وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً » الزمر : ٧١ ، وإنما يلقون كذلك بلحوق التابعين لمتبوعيهم في الضلال كما قال تعالى : « ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم » الأنفال : ٣٧ ، وقد تقدم بعض توضيحه في ذيل الآية من سورة الأنفال .

والخزنة جمع خازن وهو الحافظ على الشيء المدخر والمراد بهم الملائكة الموكلون على النار المدبرون لأنواع عذابها قال تعالى : « عليهـــا ملائكة غلاظ شداد » التحريم : ٦ ، وقال : « وما أدراك ما سقر – إلى أن قال – عليها تسعة عشر وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة » المدثر : ٣١ .

والمعنى : كلما طرح في جهنم جماعة من جماعات الكفار المسوقين اليها سألهم الملائكة الموكلون على النار الحافظون لها – توبيخاً – ألم يأتكم نذير ؟ وهو النبي المنذر .

قوله تعالى : « قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا » إلى آخر الآية حكاية جوابهم لسؤال الخزنة ، وفيه تصديق أنهم قد جاءهم نذير فنسبوه إلى الكذب واعتراف .

وقوله : « ما نزّل الله من شيء » بيان لتكذيبهم ، وكذا قوله : « إن أنتم إلا في ضلال كبير » وقيل : قوله : « إن أنتم » الخ ، كلام الملائكة يخاطبون به الكفار بعد جوابهم عن سؤالهم بما أجابوا ، وهو بعيد من السياق، وكذا احتمال كونه من كلام الرسل الذين كذبوهم تحكيه الملائكة لاولئك الكفار .

قوله تعالى :« وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » يطلق السمع ويراد به إدراك الصوت والقول بالجارحة وربما يراد به ما هو الغاية منه عند العقلاء وهو الالتزام بمقتضاه من الفعل والترك ، ويطلق العقل على تمييز الخير من الشر والنافع من الضار،وربما يراد به ما هو الغاية منه وهو الالتزام بمقتضاه من طلب الخير والنافع واجتناب الشر والضر ، قال تعالى : « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ » الأعراف : ١٧٩ .

وأكثر ما ينتفع بالسمع عامة الناس لقصورهم عن تعقل دقائق الامور وإدراك حقيقتها والاهتداء إلى مصالحها ومفاسدها وإنما ينتفع بالعقل الخاصة .

فقوله :« لو كنا نسمع أو نعقل » أريد بالسمع استجابة دعوة الرسل والالتزام بمقتضى قولهم وهم النصحاء الامناء ، وبالعقل الالتزام بمقتضى ما يدعون اليه من الحق بتعقله والاهتداء العقلي إلى أنه حق ومن الواجب أن يخضع الإنسان للحق .

وإنما قدم السمع على العقل لأن استعماله من شأن عامة الناس وهم الأكثرون والعقل شأن الخاصة وهم آحاد قليلون .

والمعنى : لو كنا في الدنيا نطيع الرسل في نصائحهم ومواعظهم أو عقلنا حجة الحق ما كنا اليوم في أصحاب السعير وهم مصاحبو النار المخلدون فيها .

وقيل : إنما جمع بين السمع والعقل لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل .

قوله تعالى : « فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » كانوا إنما قالوا : « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » ندامة على ما فرّطوا في جنب الله وفوّتوا على

أنفسهم من الخير فاعترفوا بأن ما أتوا به كان تبعته دخول النار وكان عليهم أن لا يأتوا به ، وهذا هو الذنب فقد اعترفوا بذنبهم .

وإنما أفرد الذنب بناء على إرادة معنى المصدر منه وهو في الأصل مصدر .

وقوله : « فسحقاً لأصحاب السعير » السحق تفتيت الشيء كما ذكره الراغب وهو دعاء عليهم .

قوله تعالى : « إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير » لما ذكر حال الكفار وما يجازون به على كفرهم قابله بحال المؤمنين بالغيب لتمام التقسيم وذكر من وصفهم الخشية لأن المقام مقام الإنذار والوعيد .

وعدّ خشيتهم خشية بالغيب لكون ما آمنوا به محجوباً عنهم تحت حجب الغيب .

قوله تعالى : « وأسرّوا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور » رفع شبهة يمكن أن تختلج في قلوبهم مبنية على الاستبعاد وذلك أنه تعالى ساق الكلام في بيان ربوبيته لكل شيء المستتبعة للبعث والجزاء وذكر ملكه وقدرته المطلقين وخلقه وتدبيره ولم يذكر علمه المحيط بهم وبأحوالهم وأعمالهم وهو مما لا يتم البعث والجزاء بدونه .

وكان من الممكن أن يتوهموا أن الأعمال على كثرتها الخارجة عن الإحصاء لا يتأتى ضبطها وخاصة ما تكنّه الصدور منها فإن الإنسان يقيس الأشياء بنفسه ويزنها بزنة نفسه وهو غير قادر على إحصاء جزئيات الأعمال التي هي حركات مختلفة متقضية وخاصة أعمال القلوب المستكنّة في زواياها .

فدفعه بأن إظهار القول وإخفاءه سواء بالنسبة اليه تعالى فإنه عليم بذات الصدور ، والسياق يشهد أن المراد استواء خفايا الأعمال وجلاياها بالنسبة اليه ، وإنما ذكر إسرار القول وجهره من حيث ظهور معنى الخفاء والظهور فيه بالجهر والإسرار .

قوله تعالى : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » استفهام إنكاري مأخوذ حجة على علمه تعالى بأعمال الخلق ظاهرها وباطنها وسرّها وجهرها وذلك أن أعمال الخلق – ومن جملتها أعمال الإنسان الاختيارية – وإن نسبت إلى فواعلها لكن الله سبحانه هو الذي يريدها ويوجدها من طريق اختيار الإنسان واقتضاء سائر الأسباب فهو الخالق لأعيان الأشياء والمقدر لها آثارها كيفما كانت والرابط بينها وبين آثارها الموصل لها إلى آثارها ، قال تعالى : « الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل » الزمر: ٦٢ ، وقال:

« الذي خلق فسوّى والذي قدّر فهدى » الأعلى : ٣ ، فهو سبحانه محيط بمبين من خلقه وأثره ومن أثره أعماله الظاهرة والباطنة وما أسرّه وما جهر به وكيف يحيط به ولا يعلمه.

وفي الآية إشارة إلى أن أحوال الأشياء وأعمالها غير خارجة عن خلقها لأنه تعالى استدلّ بعلمه بمن خلق على علمه بخصوصيات أحواله وأعماله ولولا كون الأحوال والأعمال غير خارجة عن وجود موضوعاتها لم يتم الاستدلال .

على أن الأحوال والأعمال من مقتضيات موضوعاتها والذي ينتسب اليه وجود الشيء ينتسب اليه آثار وجوده .

وقوله : « وهو اللطيف الخبير » أي النافذ في بواطن الأشياء المطّلع على جزئيات وجودها وآثارها ، والجملة حالية تعلل ما قبلها والاسمان الكريمان من الأسماء الحسنى ذيّلت بها الآية لتأكيد مضمونها .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن سفيان بن عيينة عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : « ليبلوكم أيكم أحسن عملا » قال: ليس يعني أكثركم عملا ولكن أصوبكم عملاً ، وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة والخشية .

ثم قال : الإبقاء على العمل حتى يخلص أشد من العمل .

ألا والعمل الخالص الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلا الله ، والنية أفضل من العمل ألا وإن النية هي العمل . ثم تلا قوله : « قل كلٌّ يعمل على شاكلته » يعني على نيّته .

وفي المجمع قال أبو قتادة : سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن قوله تعالى: « أيكم أحسن عملاً » ما عنى به ؟ فقال: يقول: أيكم أحسن عقلا. ثم قال: أتمّكم عقلا وأشدكم لله خوفاً ، وأحسنكم فيما أمر الله به ونهى عنه نظراً وإن كان أقلكم تطوّعاً .

وفيه عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه تلا قوله تعالى : « تبارك الذي بيده الملك – إلى قوله – أيكم أحسن عملاً » ثم قال : أيكم أحسن عقلاً ، وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « الذي خلق سبع سماوات طباقاً » قال : بعضها طبق لبعض .

وفيه في قوله تعالى : « من تفاوت » قال : من فساد .
وفيه في قوله تعالى : « ثم ارجع البصر » قال : انظر في ملكوت السماوات والأرض.
وفيه في قوله تعالى : « بمصابيح » قال : بالنجوم .
وفيه في قوله تعالى : « سمعوا لها شهيقاً » قال : وقعاً .
وفيه في قوله تعالى : « تكاد تميّز من الغيظ » قال : على أعداء الله .
وفيه في قوله تعالى : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » قال: قد سمعوا وعقلوا ولكنهم لم يطيعوا ولم يقبلوا ، والدليل على أنهم قد سمعوا وعقلوا ولم يقبلوا ، قوله : « فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » .

أقول : يعني عليه السلام أنه يدل على أن المراد من عدم السمع والعقل عدم الإطاعة والقبول بعد السمع والعقل أنه تعالى سمّى قولهم ذلك اعترافاً بالذنب ، ولا يعدّ فعل ذنباً من فاعله إلا بعد العلم بجهة مساءته بسمع أو عقل .

* * *

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ــ ١٥ . ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ــ ١٦ . أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ــ ١٧ . وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ــ ١٨ . أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ــ ١٩. أَمَّنْ هٰذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ إِنِ ٱلْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ــ ٢٠ . أَمَّنْ هٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ

لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ – ٢١ . أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ – ٢٢ .

(بيان)

في الآيات كرّة بعد كرّة بآيات التدبير الدالّة على ربوبيته تعالى مقرونة بالإنذار والتخويف أعني قوله : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً » الآية ، وقوله : « أولم يروا إلى الطير » الآية بعد قوله : « الذي خلق الموت والحياة » الآية ، وقوله : « الذي خلق سبع سماوات » الآية ، وقوله : « ولقد زيّنا » الآية .

قوله تعالى : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » الذلول من المراكب ما يسهل ركوبه من غير أن يضطرب ويجمح والمناكب جمع منكب وهو مجتمع ما بين العضد والكتف واستعير لسطح الأرض ، قال الراغب : واستعارته للأرض كاستعارة الظهر لها في قوله : « ما ترك على ظهرها من دابة » وتسمية الأرض ذلولاً وجعل ظهورها مناكب لها يستقر عليها ويمشي فيها باعتبار انقيادها لأنواع التصرفات الإنسانية من غير امتناع ، وقد وجّه كونها ذلولاً ذا مناكب بوجوه مختلفة تؤل جميعها إلى ما ذكرنا .

والأمر في قوله : « وكلوا من رزقه » للإباحة والنشور والنشر إحياء الميت بعد موته وأصله من نشر الصحيفة والثوب إذا بسطها بعد طيّها .

والمعنى : هو الذي جعل الأرض مطاوعة منقادة لكم يمكنكم أن تستقروا على ظهورها وتمشوا فيها تأكلون من رزقه الذي قدّره لكم بأنواع الطلب والتصرف فيها .

وقوله : « وإليه النشور » أي ويرجع اليه نشر الأموات بإخراجهم من الأرض وإحيائهم للحساب والجزاء ، واختصاص رجوع النشر به كناية عن اختصاص الحكم بالنشور به والإحياء يوم القيامة فهو ربكم المدبّر لأمر حياتكم الدنيا بالإقرار على الأرض والهداية إلى مآرب الحياة ، و' الحكم بالنشور للحساب والجزاء .

وفي عدّ الأرض ذلولاً والبشر على مناكبها تلويح ظاهر إلى ما أدّت اليه الأبحاث العلمية

أخيراً من كون الأرض كرة سيّارة .

قوله تعالى : « ءأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور » إنذار وتخويف بعد إقامة الحجة وتوبيخ على مساهلتهم في أمر الربوبية وإهمالهم أمر الشكر على نعم ربهم بالخضوع لربوبيته ورفض ما اختلقوه من الأنداد .

والمراد بمن في السماء الملائكة المقيمون فيها الموكلون على حوادث الكون وإرجاع ضمير الإفراد إلى « من » باعتبار لفظه وخسف الأرض بقوم كذا شقها وتغييبهم في بطنها والمور على ما في المجمع التردد في الذهاب والمجيء مثل الموج .

والمعنى : ءأمنتم في كفركم بربوبيته تعالى الملائكة المقيمين في السماء الموكلين بامور العالم أن يشقوا الأرض ويغيّبوكم فيها بأمر الله فإذا الأرض تضطرب ذهاباً ومجيئاً بزلزالها .

وقيل : المراد بمن في السماء هو الله سبحانه والمراد بكونه في السماء كون سلطانه وتدبيره وأمره فيها لاستحالة أن يكون تعالى في مكان أو جهة أو محاطاً بعالم من العوالم ، وهذا المعنى وإن كان لا بأس به لكنه خلاف الظاهر .

قوله تعالى : « أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير » الحاصب الريح التي تأتي بالحصاة والحجارة ، والمعنى : ءأمنتم من في السماء أن يرسل عليكم ريحاً ذات حصاة وحجارة كما أرسلها على قوم لوط قال تعالى : « إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط » القمر : ٣٤ .

وقوله : « فستعلمون كيف نذير » النذير مصدر بمعنى الإنذار والجملة متفرعة على ما يفهم من سابق الكلام من كفرهم بربوبيته تعالى وأمنهم من عذابه والمعنى ظاهر .

وقيل : النذير صفة بمعنى المنذر والمراد به النبي ﷺ وهو سخيف .

قوله تعالى : « ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير » المراد بالنكير العقوبة وتغيير النعمة أو الإنكار ، والآية كالشاهد يستشهد به على صدق ما في قوله : « فستعلمون كيف نذير » من الوعيد والتهديد .

والمعنى : ولقد كذب الذين من قبلهم من الامم الهالكة رسلي وجحدوا بربوبيتي فكيف كان عقوبتي وتغييري النعمة عليهم أو كيف كان إنكاري ذلك عليهم حيث أهلكتهم واستأصلتهم .

وفي الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله : « من قبلهم » إشعاراً بسقوطهم

– لجهالتهم وإهمالهم في التدبر في آيات الربوبية وعدم مخافتهم من سخط ربهم – عن تشريف الخطاب فأعرض عن مخاطبتهم فيما يلقى اليهم من المعارف إلى خطاب النبي ﷺ.

قوله تعالى : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمان إنه بكل شيء بصير » المراد بكون الطير فوقهم طيرانه في الهواء ، وصفيف الطير بسطه جناحه حال الطيران وقبضه قبض جناحه حاله ، والجمع في « صافات ويقبضن » لكون المراد بالطير استغراق الجنس .

وقوله : « ما يمسكهن إلا الرحمان » كالجواب لسؤال مقدّر كأن سائلاً يسأل فيقول: ما هو المراد بإلفات نظرهم إلى صفيف الطير وقبضه فوقهم؟ فاجيب بقوله : « ما يمسكهن إلا الرحمان » .

وقرار الطير حال الطيران في الهواء من غير سقوط وإن كان مستنداً إلى أسباب طبيعية كقرار الإنسان على بسيط الأرض والسمك في الماء وسائر الامور الطبيعية المستندة إلى علل طبيعية تنتهي اليه تعالى لكن لما كان بعض الحوادث غير ظاهر السبب للإنسان في بادي النظر سهل له إذا نظر اليه أن ينتقل إلى أن الله سبحانه هو السبب الأعلى الذي ينتهي اليه حدوثه ووجوده،ولذا نبههم الله سبحانه في كلامه بإرجاع نظرهم اليها ودلالتهم على وحدانيته في الربوبية .

وقد ورد في كلامه تعالى شيء كثير من هذا القبيل كإمساك السماوات بغير عمد وإمساك الأرض وحفظ السفن على الماء واختلاف الأثمار والألوان والألسنة وغيرها مما كان سببه الطبيعي القريب خفياً في الجملة يسهل للذهن الساذج الانتقال إلى استناده اليه تعالى ثم إذا تنبه لوجود أسبابه القريبة بنوع من المجاهدة الفكرية وجد الحاجة بعينها في أسبابه حتى تنتهي اليه تعالى وأن إلى ربك المنتهى .

قال في الكشاف : فإن قلت : لم قيل : ويقبضن ولم يقل : وقابضات ؟ قلت : لأن الأصل في الطيران هو صف الأجنحة لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء والأصل في السباحة هو مد الأطراف وبسطها وأما القبض فطارىء على البسط للاستظهار به على التحرك فجيء بما هو طار غير أصل بلفظ الفعل على معنى أنهن صافات ويكون منهن القبض تارة كما يكون من السابح . انتهى .

وهو مبني على أن تكون الآية هي مجموع قوله : « صافات ويقبضن » وهو الطيران ،

ويمكن أن يستفاد أن الآية عدم سقوطهن وهن صافات ، وآية أخرى أنهن ربما يقبضن ولا يسقطن حينما يقبضن .

ولا يخفى ما في ذكر طيران الطير في الهواء بعد ذكر جعل الأرض ذلولاً والإنسان على مناكبها من اللطف .

قوله تعالى : « أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمان إن الكافرون إلا في غرور » توبيخ وتقريع لهم في اتخاذهم آلهة من دون الله لينصروهم ولذا التفت عن الغيبة إلى الخطاب فخاطبهم ليشتد عليهم التقريع .

وقوله : « أمن هذا الذي » الخ ، معناه بل من الذي يشار اليه فيقال : هذا جند لكم ينصركم من دون الرحمان إن أرادكم بسوء أو عذاب ؟ فليس دون الله من ينصركم عليه ، وفيه إشارة إلى خطإهم في اتخاذ بعض خلق الله آلهة لينصروهم في النوائب وهم مملوكون لله لا يملكون لأنفسهم نفعاً وضراً ولا لغيرهم .

وإذ لم يكن لهم جواب أجاب تعالى بقوله : « إن الكافرون إلا في غرور » أي أحاط بهم الغرور وغشيهم فخيل اليهم ما يدعون من ألوهية آلهتهم .

قوله تعالى : « أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتوّ ونفور » أي بل من الذي يشار اليه بأن هذا هو الذي يرزقكم إن أمسك الله رزقه فينوب مقامه فيرزقكم ؟ ثم أجاب سبحانه بقوله : « بل لجوا في عتو ونفور » أي إن الحق قد تبين لهم لكنهم لا يخضعون للحق بتصديقه ثم اتباعه بل تمادوا في ابتعادهم من الحقّ ونفورهم منه ، ولجوا في ذلك .

قوله تعالى : « أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم » إكباب الشيء على وجهه إسقاطه عليه ، وقال في الكشاف : معنى أكبّ دخل في الكب وصار ذا كب .

استفهام إنكاري عن استواء الحالين تعريضاً لهم بعد ضرب حجاب الغيبة عليهم وتحريمهم من تشريف الحضور والخطاب بعد استقرار اللجاج فيهم، والمراد أنهم بلجاجهم في عتو عجيب ونفور من الحق كمن يسلك سبيلاً وهو مكب على وجهه لا يرى ما في الطريق من ارتفاع وانخفاض ومزالق ومعاثر فليس هذا السائر كمن يمشي سوياً على صراط مستقيم فيرى موضع قدمه وما يواجهه من الطريق على استقامة ، وما يقصده من الغاية

وهؤلاء الكفار سائرون سبيل الحياة وهم يعاندون الحق على علم به فيغمضون عن معرفة ما عليهم أن يعرفوه والعمل بما عليهم أن يعملوا به ولا يخضعون للحق حتى يكونوا على بصيرة من الأمر ويسلكوا سبيل الحياة وهم مستوون على صراط مستقيم فيأمنوا الهلاك .

وقد ظهر أن ما في الآية مثل عام يمثل حال الكافر الجاهل اللجوج المتمادي على جهله والمؤمن المستبصر الباحث عن الحق .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن سعد عن أبي جعفر عليه السلام قال : القلب أربعة : قلب فيه نفاق وإيمان ، وقلب منكوس ، وقلب مطبوع ، وقلب أزهر . فقلت : ما الأزهر ، قال : فيه كهيئة السراج .

فأما المطبوع فقلب المنافق ، وأما الأزهر فقلب المؤمن إن أعطاه شكر وإن ابتلاه صبر ، وأمـا المنكوس فقلب المشرك ثم قرأ هذه الآية « أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم » ، فأما القلب الذي فيه إيمان ونفاق فقوم كانوا بالطائف فإن أدرك أحدهم أجله على نفاقه هلك وإن أدركه على إيمانه نجى .

أقول : ورواه في تفسير البرهان عن ابن بابويه بإسناده عن الفضيل عن سعد الخفاف عن أبي جعفر عليه السلام قال : إن القلوب أربعة ، وساق الحديث إلى آخره إلا أن فيـه : وقلب أزهر أنور .

وقوله : « فهم قوم كانوا بالطائف » المراد به الطائف الشيطاني الذي ربما يمس الإنسان قال تعالى : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » ، الأعراف : ٢٠١ ، فالمعنى أنهم يعيشون مع طائف شيطاني يمسهم حيناً بعد حين فإن أدركهم الأجل والطائف معهم هلكوا وإن أدركهم وهم في حال الإيمان نجوا .

واعلم أن هناك روايات تطبق قوله : « أفمن يمشي مكباً على وجهه » الآية على من حاد عن ولاية علي عليه السلام ومن يتبعه ويواليه ، وهي من الجري والله أعلم .

* * *

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ
قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ــ ٢٣ . قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ــ ٢٤ . وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ــ ٢٥ .
قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ــ ٢٦ . فَلَمَّا رَأَوْهُ
زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ــ ٢٧.
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ
مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ــ ٢٨ . قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا
فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ــ ٢٩ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ
مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ــ ٣٠ .

(بيان)

آيات أخر يذكّرهم الله تعالى بها دالّة على وحدانيته تعالى في الخلق والتدبير مقرونة بالإنذار والتخويف ، جارية على غرض السورة وهو التذكرة بالوحدانية مع الإنذار غير أنه تعالى لما أشار إلى لجاجهم وعنادهم للحق في قوله السابق: « بل لجّوا في عتوّ ونفور» غيّر السياق بالإعراض عن خطابهم والالتفات إلى خطاب النبي ﷺ بأمره أن يتصدّى خطابهم ويقرع أسماعهم آياته في الخلق والتدبير الدالة على توحده في الربوبيـة وإنذارهم بعـذاب الله ، وذلك قوله : « قل هو الذي أنشأكم » الخ ، « قل هو الذي ذرأكم » الخ ، قل إنما العلم » الخ ، « قل أرأيتم إن أهلكني الله » الخ ، « قل هو الرحمن » الخ ، « قل رأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً » الخ .

قوله تعالى : « قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون » الإنشاء إحداث الشيء ابتداءً وتربيته .

ما في ذيل الآية من لحن العتاب في قوله : « قليلاً ما تشكرون » وقد تكرّر نظيره في غير موضع من كلامه كما في سورة المؤمنون [١] والم السجدة [٢] يدلّ على أن إنشاءه تعالى الإنسان وتجهيزه بجهاز الحس والفكر من أعظم نعمه تعالى التي لا يقدّر قدرها .

وليس المراد بإنشائه مجرد خلقه كيفما كان بل خلقه وإحداثه من دون سابقة في مادته كما أشار اليه في قوله يصف خلقه طوراً بعد طور : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة – إلى أن قال – ثم أنشأناه خلقاً آخر » المؤمنون : ١٤ فصيرورة المضغة إنساناً سميعاً بصيراً متفكراً بتركيب النفس الإنسانية عليها خلق آخر لا يسانخ أنواع الخلقة المادية الواردة على مادة الإنسان من أخذها من الأرض ثم جعلها نطفة ثم علقة ثم مضغة فإنما هي أطوار مادية متعاقبة بخلاف صيرورتها إنساناً ذا شعور فلا سابقة لها تماثلها أو تشابهها فهو الإنشاء .

ومثله قوله : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » الروم:٢٠ (انظر إلى موضع إذا الفجائية) .

فقوله : « هو الذي أنشأكم » إشارة إلى خلق الإنسان .

وقوله : « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » إشارة إلى تجهيزه بجهاز الحسّ والفكر ، والجعل إنشائي كجعل نفس الإنسان كما يشير اليه قوله : « وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون » المؤمنون : ٧٨ .

فالإنسان بخصوصية إنشائه وكونه بحيث يسمع ويبصر يمتاز من الجماد والنبات – والاقتصار بالسمع والبصر من سائر الحواس كاللمس والذوق والشم لكونها العمدة ولا يبعد أن يكون المراد بالسمع والبصر مطلق الحواس الظاهرة من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل – وبالفؤاد وهو النفس المتفكرة يمتاز من سائر الحيوان .

---

(١) الآية ٧٨ .
(٢) الآية ٩ .

وقوله : « قليلاً ما تشكرون » أي تشكرون قليلاً على هذه النعمة – أو النعم – العظمى فما زائدة وقليلاً مفعول مطلق تقديره تشكرون شكراً قليلاً، وقيل: ما مصدرية والمعنى : قليلاً شكركم .

قوله تعالى : « قل هو الذي ذرأكم في الأرض واليه تحشرون » الذرء الخلق والمراد بذرئهم في الأرض خلقهم متعلقين بالأرض فلا يتم لهم كمالهم إلا بأعمال متعلقة بالمادة الأرضية بما زينها الله تعالى بما تنجذب اليه النفس الإنسانية في حياتها المعجلة ليمتاز به الصالح من الطالح قال تعالى : « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً » الكهف : ٨ .

وقوله : « واليه تحشرون » إشارة إلى البعث والجزاء ووعد جازم .

قوله تعالى : « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » المراد بهذا الوعد الحشر الموعود ، وهو استعجال منهم استهزاء .

قوله تعالى : « قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين » جواب عن قولهم : « متى هذا الوعد » الخ ، ومحصله أن العلم به عند الله لا يعلم به إلا هو كما قال : « لا يجليها لوقتها إلا هو » الأعراف : ١٨٧ ، وليس لي إلا أني نذير مبين أمرت أن أخبركم أنكم اليه تحشرون وأما أنه متى هو فليس لي بذلك علم .

هذا على ما يفيده وقوع الآية في سياق الجواب عن السؤال عن وقت الحشر ، وعلى هذا تكون اللام في العلم للعهد ، والمراد العلم بوقت الحشر ، وأما لو كانت للجنس على ما تفيده جملة « إنما العلم عند الله » في نفسها فالمعنى : إنما حقيقة العلم عند الله ولا يحاط بشيء منه إلا بإذنه كما قال : « ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » البقرة : ٢٥٥ ، ولم يشأ أن أعلم من ذلك إلا أنه سيقع وأنذركم به وأما أنه متى يقع فلا علم لي به .

قوله تعالى : « فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا » الخ، الزلفة القرب والمراد به القريب أو هو من باب زيد عدل ، وضمير « رأوه » للوعد وقيل للعذاب والمعنى : فلما رأوا الوعد المذكور قريباً قد أشرف عليهم ساء ذلك وجوه الذين كفروا به فظهر في سيماهم أثر الخيبة والخسران .

وقوله : « وقيل هـــذا الذي كنتم به تدعون » قيل تدعون وتدّعون بمعنى واحد

كتدخرون وتدّخرون والمعنى: وقيل لهم: هذا هو الوعد الذي كنتم تسألونه وتستعجلون به بقولكم: متى هذا الوعد، وظاهر السياق أن القائل هم الملائكة بأمر من الله، وقيل القائل من الكفار يقوله بعضهم لبعض.

قوله تعالى: «قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم» «إن» شرطية شرطها قوله: «أهلكني الله» وجزاؤها قوله: «فمن يجير» الخ، والمعنى: قل لهم أخبروني إن أهلكني الله ومن معي من المؤمنين أو رحمنا فلم يهلكنا فمن الذي يجير ويعيد الكافرين - وهم أنتم كفرتم بالله فاستحققتم أليم العذاب - من عذاب أليم يهددهم تهديداً قاطعاً أي إن هلاكي ومن معي وبقاؤنا برحمة ربي لا ينفعكم شيئاً في العذاب الذي سيصيبكم قطعاً بكفركم بالله.

قيل: إن كفار مكة كانوا يدعون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك فأمر ﷺ أن يقول لهم إن أهلكنا الله تعالى أو أبقانا فأمرنا إلى الله ونرجو الخير من رحمته وأما أنتم فما تصنعون؟ من يجيركم من أليم العذاب على كفركم بالله؟

قوله تعالى: «قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين» الضمير للذي يدعو إلى توحيده وهم يدعونه عليه، والمعنى: قل الذي أدعوكم إلى توحيده وتدعونه علي وعلى من معي هو الرحمن الذي عمت نعمته كل شيء آمنا به وعليه توكلنا من غير أن نميل ونعتمد على شيء دونه فستعلمون أيها الكفار من هو في ضلال مبين؟ نحن أم أنتم؟

قال في الكشاف: فإن قيل: لمَ أخّر مفعول «آمنّا» وقُدّم مفعول «توكلنا»؟ قلت: لوقوع آمنّا تعريضاً بالكافرين حين ورد عقيب ذكرهم كأنه قيل: آمنّا ولم نكفر كما كفرتم، ثم قال: وعليه توكلنا خصوصاً لم نتّكل على ما أنتم متكلون عليه من رجالكم وأموالكم.

قوله تعالى: «قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين» الغور ذهاب الماء ونضوبه في الأرض والمراد به الغائر، والمعين الظاهر الجاري من الماء، والمعنى: أخبروني إن صار ماؤكم غائراً ناضباً في الأرض فمن يأتيكم بماء ظاهر جار.

وهناك روايات تطبّق الآيات على ولاية علي عليه السلام ومحادّته، وهي من الجري وليست بمفسّرة.

* * *

(سورة القلم مكية ، وهي اثنتان وخمسون آية)

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ . نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ــ ١ . مَا
أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ــ ٢ . وَإِنَّ لَكَ لَأَجراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ــ ٣ .
وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ــ ٤ . فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ــ ٥ . بِأَيِّكُمُ
ٱلْمَفْتُونُ ــ ٦ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِٱلْمُهْتَدِينَ ــ ٧ . فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ــ ٨ . وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ
فَيُدْهِنُونَ ــ ٩ . وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ــ ١٠ . هَمَّازٍ مَشَّاءٍ
بِنَمِيمٍ ــ ١١ . مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ــ ١٢ . عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ
زَنِيمٍ ــ ١٣ . أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ــ ١٤ . إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا
قَالَ أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ــ ١٥ . سَنَسِمُهُ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ــ ١٦ . إِنَّا
بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ــ ١٧ .
وَلَا يَسْتَثْنُونَ ــ ١٨ . فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ــ ١٩ .
فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ــ ٢٠ . فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ــ ٢١ . أَنِ ٱغْدُوا
عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ ــ ٢٢ . فَٱنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ــ ٢٣ .
أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ ــ ٢٤ . وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ
قَادِرِينَ ــ ٢٥ . فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ــ ٢٦ . بَلْ نَحْنُ

مَحْرُومُونَ ـــ ٢٧ . قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ ـــ ٢٨ . قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ـــ ٢٩ . فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاَوَمُونَ ـــ ٣٠ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ـــ ٣١ . عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ـــ ٣٢ . كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ـــ ٣٣ .

(بيان)

السورة تعزّي النبي صلى الله عليه وآله وسلم إثر ما رماه المشركون بالجنون وتطيّب نفسه بالوعد الجميل والشكر على خلقه العظيم وتنهاه نهياً بالغاً عن طاعتهم ومداهنتهم ، وتأمره أمراً أكيداً بالصبر لحكم ربه .

وسياق آياتها على الجملة سياق مكي ، ونقل عن ابن عباس وقتادة أن صدرها إلى قوله : سنسمه على الخرطوم – ستة عشرة آية – مكي ، وما بعده إلى قوله : « لو كانوا يعلمون – سبع عشرة آية – مدني ، وما بعده إلى قوله : « يكتبون – خمس عشرة آية – مكي ، وما بعده إلى آخر السورة – أربع آيات مدني .

ولا يخلو من وجه بالنسبة إلى الآيات السبع عشرة « إنا بلوناهم – إلى قوله – لو كانوا يعلمون » فإنها أشبه بالمدنية منها بالمكية .

قوله تعالى : « ن » تقدم الكلام في الحروف المقطعة التي في أوائل السور في تفسير سورة الشورى .

قوله تعالى : « والقلم وما يسطرون » القلم معروف ، والسطر بالفتح فالسكون وربما يستعمل بفتحتين - كما في المفردات – الصف من الكتابة ، ومن الشجر المغروس ومن القوم الوقوف وسطر فلان كذا كتب سطراً سطراً .

أقسم سبحانه بالقلم ومـا يسطرون به وظاهر السياق أن المراد بذلك مطلق القلم

ومطلق ما يسطرون به وهو المكتوب فإن القلم وما يسطر به من الكتابة من أعظم النعم الإلهية التي اهتدى اليها الإنسان يتلو الكلام في ضبط الحوادث الغائبة عن الأنظار والمعاني المستكنة في الضمائر ، وبه يتيسر للإنسان أن يستحضر كل ما ضرب مرور الزمان أو بعد المكان دونه حجاباً .

وقد امتنّ الله سبحانه على الإنسان بهدايته اليها وتعليمها له فقال في الكلام « خلق الإنسان علمه البيان » الرحمان : ٤ ، وقال في القلم : « علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » العلق : ٥ .

فإقسامه تعالى بالقلم وما يسطرون إقسام بالنعمة ، وقد أقسم تعالى في كلامه بكثير من خلقه بما أنه رحمة ونعمة كالسماء والأرض والشمس والقمر والليل والنهار إلى غير ذلك حتى التين والزيتون .

وقيل : « ما » في قوله : « وما يسطرون » مصدرية والمراد به الكتابة .

وقيل : المراد بالقلم القلم الأعلى الذي في الحديث أنه أول ما خلق الله وبما يسطرون ما يسطره الحفظة والكرام الكاتبون واحتمل أيضاً أن يكون الجمع في « يسطرون » للتعظيم لا للتكثير وهو كما ترى ، واحتمل أن يكون المراد ما يسطرون فيه وهو اللوح المحفوظ واحتمل أن يكون المراد بالقلم وما يسطرون أصحاب القلم ومسطوراتهم وهي احتمالات واهية .

قوله تعالى : « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » مقسم عليه والخطاب للنبي ﷺ ، والباء في « بنعمة » للسببية أو المصاحبة أي ما أنت بمجنون بسبب النعمة – أو مع النعمة – التي أنعمها عليك ربك .

والسياق يؤيد أن المراد بهذه النعمة النبوة فإن دليل النبوة يدفع عن النبي كل اختلال عقلي حتى تستقيم الهداية الإلهية اللازمة في نظام الحياة الإنسانية ، والآية ترد ما رموه به من الجنون كما يحكى عنهم في آخر السورة « ويقولون إنه لمجنون » .

وقيل : المراد بالنعمة فصاحته ﷺ وعقله الكامل وسيرته المرضية وبراءته من كل عيب واتصافه بكل مكرمة فظهور هذه الصفات فيه ﷺ ينافي حصول الجنون فيه وما قدمناه أقطع حجة والآية وما يتلوها كما ترى تعزية للنبي ﷺ وتطييب لنفسه الشريفة وتأييد له كما أن فيها تكذيباً لقولهم .

قوله تعالى : « وإن لك لأجراً غير ممنون » الممنون من المن بمعنى القطع يقال : منّه السير مناً إذا قطعه وأضعفه لا من المنة بمعنى تثقيل النعمة قولاً .

والمراد بالأجر أجر الرسالة عند الله سبحانه ، وفيه تطييب لنفس النبي ﷺ وأن له على تحمل رسالة الله أجراً غير مقطوع وليس يذهب سدى .

وربما أخذ المن بمعنى ذكر المنعم إنعامه على المنعم عليه بحيث يثقل عليه ويكدر عيشه بتقريب أن ما يعطيه الله أجر في مقابل عمله فهو يستحقه عليه تعالى فلا منة عليه وهو غير سديد فإن كل عامل مملوك لله سبحانه بحقيقة معنى الملك بذاته وصفاته وأعماله فما يعطيه العبد من ذلك فهو موهبة وعطية وما يملكه العبد من ذلك فإنما يملكه بتمليك الله وهو المالك لما ملكه من قبل ومن بعد فهو تفضل منه تعالى ولئن سمى ما يعطيه بإزاء العمل أجراً وسمى ما بينه وبين عبده من مبادلة العمل والأجر معاملة فذلك تفضل آخر فلله سبحانه المنة على جميع خلقه والرسول ومن دونه فيه سواء .

قوله تعالى : « وإنك لعلى خلق عظيم » الخلق هو الملكة النفسانية التي تصدر عنها الأفعال بسهولة وينقسم إلى الفضيلة وهي الممدوحة كالعفة والشجاعة ، والرذيلة وهي المذمومة كالشره والجبن لكنه إذا أطلق فهم منه الخلق الحسن .

قال الراغب : والخلق – بفتح الخاء – والخلق – بضم الخاء – في الأصل واحد كالشرب والشُرب والصرم والصُرم لكن خصّ الخلق – بالفتح – بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر ، وخص الخلق – بالضم – بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة قال تعالى : « وإنك لعلى خلق عظيم » انتهى .

والآية وإن كانت في نفسها تمدح حسن خلقه ﷺ وتعظمه غير أنها بالنظر إلى خصوص السياق ناظرة إلى أخلاقه الجميلة الاجتماعية المتعلقة بالمعاشرة كالثبات على الحق والصبر على أذى الناس وجفاء أجلافهم والعفو والإغماض وسعة البذل والرفق والمداراة والتواضع وغير ذلك ، وقد أوردنا في آخر الجزء السادس من الكتاب ما روي في جوامع أخلاقه ﷺ .

ومما تقدم يظهر أن ما قيل : إن المراد بالخلق الدين وهو الإسلام غير مستقيم إلا بالرجوع إلى ما تقدم .

قوله تعالى : « فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون » تفريع على محصل ما تقدم أي فإذا لم تكن مجنوناً بل متلبساً بالنبوة ومتخلقاً بالخلق ولك عظيم الأجر من ربك فسيظهر أمر دعوتك وينكشف على الأبصار والبصائر من المفتون بالجنون أنت أو المكذبون الرامون لك بالجنون .

وقيل : المراد ظهور عاقبة أمر الدعوة له ولهم في الدنيا أو في الآخرة ؟ الآية تقبل الحمل على كل منها . ولكل قائل ، ولا مانع من الجمع فإن الله تعالى أظهر نبيه عليهم ودينه على دينهم ، ورفع ذكره ﷺ ومحا أثرهم في الدنيـــا وسيذوقون وبال أمرهم غداً ويعلمون [١] أن الله هو الحق المبين يوم هم [٢] على النار يفتنون ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون .

وقوله : « بأيكم المفتون » الباء زائدة للصلة ، والمفتون اسم مفعول من الفتنة بمعنى الإبتلاء يريد به المبتلى بالجنون وفقدان العقل ، والمعنى : فستبصر ويبصرون أيكم المفتون المبتلى بالجنون ؟ أنت أم هم ؟

وقيل : المفتون مصدر على زنة مفعول كمعقول وميسور ومعسور في قولهم : ليس له معقول ، وخذ ميسوره ، ودع معسوره ، والباء في « بأيكم » بمعنى في والمعنى : فستبصر ويبصرون في أي الفريقين الفتنة .

قوله تعالى : « إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين لما أفيد بما تقدم من القول أن هناك ضلالاً واهتداء، وأشير إلى أن الرامين للنبي ﷺ بالجنون هم المفتونون الضالون وسيظهر أمرهم وأن النبي ﷺ مهتد وكان ذلك ببيان من الله سبحانه أكد ذلك بأن الله أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين لأن السبيل سبيله وهو أعلم بمن هو في سبيله ومن ليس فيه وإليه أمر الهداية .

قوله تعالى : « فلا تطع المكذبين » تفريع على المحصل من معنى الآيات السابقــة وفي المكذبين معنى العهد والمراد بالطاعة مطلق الموافقة عملاً أو قولاً ، والمعنى : فإذا كان هؤلاء المكذبون لك مفتونين ضالين فلا تطعهم .

---

(١) النور : ٢٥ .

(٢) الذاريات : ١٤ .

قوله تعالى : « ودّوا لو تدهن فيدهنون » الإدهان من الدهن يراد بـه التليين أي ودّ وأحبّ هؤلاء المكذبون أن تليّنهم بالاقتراب منهم في دينك فيليّنوك بالاقتراب منك في دينهم ، ومحصله أنهم ودّوا أن تصالحهم ويصالحوك على أن يتسامح كل منكم بعض المسامحة في دين الآخر كما قيــل : إنهم عرضوا عليه أن يكفّ عن ذكر آلهتهم فيكفّوا عنه وعن ربه .

وبما تقدم ظهر أن متعلق مودّتهم مجموع «لو تدهن فيدهنون» وأن الفاء في«فيدهنون» للتفريع لا للسببية .

قوله تعالى : « ولا تطع كل حلاّف مهين – إلى قوله – زنيم » الحلاف كثير الحلف ، ولازم كثرة الحلف والإقسام في كل يسير وخطير وحق وباطل أن لا يحترم الحالف شيئاً مما يقسم به ، وإذا كان حلفه بالله فهو لا يستشعر عظمة الله عز اسمه وكفى به رذيلة .

والمهين من المهانة بمعنى الحقارة والمراد به حقارة الرأي ، وقيل : هو المكثار في الشر ، وقيل : هو الكذاب .

والهمّاز مبالغة من الهمز والمراد به العيّاب والطعّان ، وقيل: الطعّان بالعين والإشارة وقيل : كثير الاغتياب .

والمشّاء بنميم النميم : السعاية والإفساد ، والمشاء به هو نقّال الحديث من قوم إلى قوم على وجه الإفساد بينهم .

والمنّاع للخير كثير المنع لفعل الخير أو للخير الذي ينال أهله .

والمعتدي من الاعتداء وهو المجاوزة للحدّ ظلماً .

والأثيم هو الذي كثر إثمه حتى استقر فيه من غير زوال والإثم هو العمل السيىء الذي يبطىء الخير .

والعتلّ بضمتين هو الفظ الغليظ الطبع ، وفسّر بالفـاحش السيىء الخلق ، وبالجافي الشديد الخصومة بالباطل ، وبالأكول المنوع للغير ، وبالذي يعتلُ الناس ويجرُّهم إلى حبس أو عذاب .

والزنيم هو الذي لا أصل له ، وقيل : هو الدعيّ الملحق بقوم وليس منهم ، وقيل : هو المعروف باللؤم ، وقيل : هو الذي له عـلامة في الشر يعرف بها وإذا ذكر الشر سبق هو إلى الذهن ، والمعاني متقاربة .

فهذه صفات تسع رذيلة وصف الله بها بعض أعداء الدين ممن كان يدعو النبي ﷺ إلى الطاعة والمداهنة ، وهي جماع الرذائل .

وقوله : « عتلّ بعد ذلك زنيم » معناه أنه بعدما ذكر من مثالبه ورذائله عتل زنيم قيل : وفيه دلالة على أن هاتين الرذيلتين أشد معايبه .

والظاهر أن فيه إشارة إلى أن له خبائث من الصفات لا ينبغي معها أن يطاع في أمر الحق ولو أغمض عن تلك الصفات فإنه فظ خشن الطبع لا أصل له لا ينبغي أن يعبأ بمثله في مجتمع بشري فليطرد ولا يطع في قول ولا يتّبع في فعل .

قوله تعالى : «أن كان ذا مال وبنين» الظاهر أنه بتقدير لام التعليل وهو متعلق بفعل محصل من مجموع الصفات الرذيلة المذكورة أي هو يفعل كذا وكذا لأن كان ذا مال وبنين فبطر بذلك وكفر بنعمة الله وتلبّس بكل رذيلة خبيثة بدل أن يشكر الله على نعمته ويصلح نفسه ، فالآية في إفادة الذم والتهكم تجري مجرى قوله : « ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك » .

وقيل : إنه متعلق بقوله السابق « لا تطع »، والمعنى : لا تطعه لكونه ذا مال وبنين أي لا يحملك كونه ذا مال وبنين على طاعته ، والمعنى المتقدم أقرب وأوسع .

قيل : ولا يجوز تعلقه بقوله : « قال » في الشرطية التالية لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله عند النحاة .

قوله تعالى : « إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين » الأساطير جمع اسطورة وهي القصة الخرافية ، والآية تجري مجرى التعليل لقوله السابق : « لا تطع » .

قوله تعالى : « سنسمه على الخرطوم » الوسم والسمة وضع العلامة ، والخرطوم الأنف، وقيل : إن في إطلاق الخرطوم على أنفه وإنما يطلق في الفيل والخنزير تهكماً ، وفي الآية وعيد على عداوته الشديدة لله ورسوله وما نزّله على رسوله .

والظاهر أن الوسم على الأنف أريد به نهاية إذلاله بذلّة ظاهرة يعرفه بها كل من رآه فإن الأنف مما يظهر فيه العزة والذلة كما يقال : شمخ فلان بأنفه وحمي فلان أنفه وأرغمت أنفه وجدع أنفه .

والظاهر أن الوسم على الخرطوم مما سيقع يوم القيامة لا في الدنيا وإن تكلف بعضهم في توجيه حمله على فضاحته في الدنيا .

قوله تعالى : «إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة – إلى قوله – كالصريم» البلاء الاختبار وإصابة المصيبة ، والصرم قطع الثمار من الأشجار ، والاستثناء عزل البعض من حكم الكل وأيضاً الاستثناء قول إن شاء الله عند القطع بقول وذلك أن الأصل فيه الاستثناء فالأصل في قولك : أخرج غداً إن شاء الله هو أخرج غداً إلا أن يشاء الله أن لا أخرج ، والطائف العذاب الذي يأتي بالليل ، والصريم الشجر المقطوع ثمره ، وقيل : الليل الأسود ، وقيل : الرمل المقطوع من سائر الرمل وهو لا ينبت شيئاً ولا يفيد فائدة .

الآيات أعني قوله : « إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة » إلى تمام سبع عشرة آية وعيد لمكذبي النبي ﷺ الرامين له بالجنون ، وفي التشبيه والتنظير دلالة على أن هؤلاء المكذبين معذبون لا محالة والعذاب الواقع عليهم قائم على ساقه ، غير أنهم غافلون وسيعلمون ، فهم مولعون اليوم بجمع المال وتكثير البنين مستكبرون بها معتمدون عليها وعلى سائر الأسباب الظاهرية التي توافقهم وتشايع أهواءهم من غير أن يشكروا ربهم على هذه النعم ويسلكوا سبيل الحق ويعبدوا ربهم حتى يأتيهم الأجل ويفاجئهم عذاب الآخرة أو عذاب دنيوي من عنده كما فاجأهم يوم بدر فيروا انقطاع الأسباب عنهم وأن المال والبنين سدىً لا ينفعهم شيئاً كما شاهد نظير ذلك أصحاب الجنة من جنتهم وسيندمون على صنيعهم ويرغبون إلى ربهم ولا يرد ذلك عذاب الله كما ندم أصحاب الجنة وتلاوموا ورغبوا إلى ربهم فلم ينفعهم ذلك شيئاً كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ، هذا على تقدير اتصال الآيات بما قبلها ونزولها معها .

وأما على ما رووا أن الآيات نزلت في القحط والسنة الذي أصاب أهل مكة وقريشاً إثر دعاء النبي ﷺ عليهم بقوله : اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف ، فالمراد بالبلاء إصابتهم بالقحط وتناظر قصتهم قصة أصحاب الجنة غير أن في انطباق ما في آخر قصتهم من قوله : « فأقبل بعضهم على بعض » الخ ، على قصة أهل مكة خفاء .

وكيف كان فالمعنى : « إنا بلوناهم » أصبناهم بالبليّة « كما بلونا » وأصبنا بالبليّة « أصحاب الجنة » وكانوا قوماً من اليمن وجنتهم فيها وسيأتي إن شاء الله قصتهم في البحث الروائي الآتي «إذ» ظرف لبلونا « أقسموا » وحلفوا «ليصرمنّها » أي ليقطعنّ ويقطفن ثمار جنتهم « مصبحين » داخلين في الصباح وكأنهم ائتمروا وتشاوروا ليلاً فعزموا على

الصرم صبيحة ليلتهم « ولا يستثنون » لم يقولوا إلا أن يشاء الله اعتماداً على أنفسهم واتكاءً على ظاهر الأسباب . أو المعنى : قالوا وهم لا يعزلون نصيباً من ثمارهم للفقراء والمساكين .

« فطاف عليها » على الجنة « طائف » أي بلاء يطوف عليها ويحيط بها ليلاً « من » ناحية « ربك » فأصبحت » وصارت الجنة « كالصريم » وهو الشجر المقطوع ثمره أو المعنى : فصارت الجنة كالليل الأسود لما اسودّت بإحراق النار التي أرسلها الله اليها أو المعنى : فصارت الجنة كالقطعة من الرمل لا نبات بها ولا فائدة .

قوله تعالى : « فتنادوا مصبحين – إلى قوله – قادرين » التنادي نداء بعض القوم بعضاً ، والإصباح الدخول في الصباح ، وصارمين من الصرم بمعنى قطع الثمار من الشجرة ، والمراد به في الآية القاصدون لقطع الثمار ، والحرث الزرع والشجر ، والخفت الإخفاء والكتمان ، والحرد المنع وقادرين من القدر بمعنى التقدير .

والمعنى : « فتنادوا » أي فنادى بعض القوم بعضاً « مصبحين » أي والحال أنهم داخلون في الصباح « أن أغدوا على حرثكم » تفسير للتنادي أي بكروا مقبلين على جنتكم – فأغدوا أمر بمعنى بكروا مضمن معنى أقبلوا ولذا عدي بعلى ولو كان غير مضمن عدي بإلى كما في الكشاف – « إن كنتم صارمين » أي قاصدين عازمين على الصرم والقطع .

« فانطلقوا » وذهبوا إلى جنتهم « وهم يتخافتون » أي والحال أنهم يأتمرون فيما بينهم بطريق المخافتة والمكاتمة « أن لا يدخلنها » أي الجنة « اليوم عليكم مسكين » أي أخفوا ورودكم الجنة للصرم من المساكين حتى لا يدخلوا عليكم فيحملكم ذلك على عزل نصيب من الثمر المصروم لهم « وغدوا » وبكروا إلى الجنة « على حرد » أي على منع للمساكين « قادرين » مقدرين في أنفسهم أنهم سيصرمونها ولا يساهمون المساكين بشيء منها .

قوله تعالى : « فلما رأوها قالوا إنا لضالون بل نحن محرومون » أي فلما رأوا الجنة وشاهدوها وقد أصبحت كالصريم بطواف طائف من عند الله قالوا : إنا لضالون عن الصواب في غدونا اليها بقصد الصرم ومنع المساكين .

وقيل : المراد إنا لضالون طريق جنتنا وما هي بها .

وقوله : « بل نحن محرومون » إضراب عن سابقه أي ليس بمجرد الضلال عن الصواب بل حرمنا الزرع .

قوله تعالى : « قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون – إلى قوله – راغبون » أي

« قال أوسطهم » أي أعدلهم طريقاً وذلك أنه ذكرهم بالحق وإن تبعهم في العمل وقيل: المراد أوسطهم سناً وليس بشيء « ألم أقل لكم » وقد كان قال لهم ذلك وإنما لم يذكر قبل في القصة إيجازاً بالتعويل على ذكره ههنا .

« لولا تسبحون » المراد بتسبيحهم له تعالى تنزيههم له من الشركاء حيث اعتمدوا على أنفسهم وعلى سائر الأسباب الظاهرية فأقسموا ليصرمنها مصبحين ولم يستثنوا لله مشية فعزلوه تعالى عن السببية والتأثير ونسبوا التأثير إلى أنفسهم وسائر الأسباب الظاهرية ، وهو إثبات للشريك ، ولو قالوا : لنصرمنها مصبحين إلا أن يشاء الله كان معنى ذلك نفي الشركاء وأنهم إن لم يصرموا كان لمشية من الله وإن صرموا كان ذلك بإذن من الله فلله الأمر وحده لا شريك له .

وقيل: المراد بتسبيحهم لله ذكر الله تعالى وتوبتهم اليه حيث نووا أن يصرموها ويحرموا المساكين منها ، وله وجه على تقدير أن يراد بالاستثناء عزل نصيب من الثمار للمساكين .

قوله تعالى : « قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين » تسبيح منهم لله سبحانه إثر توبيخ أوسطهم لهم ، أي ننزه الله تنزيهاً من الشركاء الذين أثبتناهم فيما حلفنا عليه فهو ربنا الذي يدبر بمشيته أمورنا لأنا كنا ظالمين في إثباتنا الشركاء فهو تسبيح واعتراف بظلمهم على أنفسهم في إثبات الشركاء .

وعلى القول الآخر توبة واعتراف بظلمهم على أنفسهم وعلى المساكين .

قوله تعالى : « فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون » أي يلوم بعضهم بعضاً على ما ارتكبوه من الظلم .

قوله تعالى : « قالوا يا ويلنا – إلى قوله – راغبون » الطغيان تجاوز الحد وضمير « منها » للجنة باعتبار ثمارها والمعنى : قالوا يا ويلنا إنا كنا متجاوزين حد العبودية إذ أثبتنا شركاء لربنا ولم نوحده ، ونرجو من ربنا أن يبدلنا خيراً من هذه الجنة التي طاف عليها طائف منه لأنا راغبون اليه معرضون عن غيره .

قوله تعالى : « كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » العذاب مبتدأ مؤخر ، وكذلك خبر مقدم أي إنما يكون العذاب على ما وصفناه في قصة أصحاب الجنة وهو أن الإنسان يمتحن بالمال والبنين فيطغى مغتراً بذلك فيستغني بنفسه وينسى ربه ويشرك بالأسباب الظاهرية وبنفسه ويجترىء على المعصية وهو غافل عما يحيط به من وبال

عمله ويهيؤ له من العذاب كذلك حتى إذا فاجأه العذاب وبرز له بأهول وجوهه وأمرّها انتبه من نومة الغفلة وتذكر ما جاءه من النصح قبلاً وندم على ما فرّط بالطغيان والظلم وسأل الله أن يعيد عليه النعمة فيشكر كما انتهى اليه أمر أصحاب الجنة ، ففي ذلك إعطاء للضابط بالمثال .

وقوله : « ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » لأنه ناش عن قهر إلهي لا يقوم له شيء لا رجاء للتخلص منه ولو بالموت والفناء كما في شدائد الدنيا ، محيط بالإنسان من جميع أقطار وجوده لا كعذاب الدنيا دائم لا انتهاء لأمده كما في الابتلاءات الدنيوية .

(بحث روائي)

في المعاني بإسناده عن سفيان بن سعيد الثوري عن الصادق عليه‌السلام في تفسير الحروف المقطعة في القرآن قال : وأما ن فهو نهر في الجنة قال الله عز وجل : اجمد فجمد فصار مداداً ثم قال للقلم: اكتب فسطر القلم في اللوح المحفوظ ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة فالمداد مداد من نور والقلم قلم من نور واللوح لوح من نور .

قال سفيان : فقلت له : يا بن رسول الله بين أمر اللوح والقلم والمداد فضل بيان وعلمني مما علمك الله فقال : يا ابن سعيد لولا أنك أهل للجواب ما أجبتك فنون ملك يؤدي إلى القلم وهو ملك ، والقلم يؤدي إلى اللوح وهو ملك، واللوح يؤدي إلى إسرافيل وإسرافيل يؤدي إلى ميكائيل وميكائيل يؤدي إلى جبرائيل وجبرائيل يؤدي إلى الأنبياء والرسل . قال : ثم قال : قم يا سفيان فلا آمن عليك .

وفيه بإسناده عن إبراهيم الكرخي قال : سألت جعفر بن محمد عليه‌السلام عن اللوح والقلم قال : هما ملكان .

وفيه بإسناده عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه‌السلام : «ن والقلم وما يسطرون» القلم قلم من نور وكتاب من نور في لوح محفوظ يشهده المقربون وكفى بالله شهيداً .

أقول : وفي المعاني المتقدمة روايات اخرى عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ، وقد تقدم في ذيل قوله تعالى : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق » الجاثية : ٢٩ ، حديث القمي عن عبد الرحيم القصير عن الصادق عليه‌السلام في اللوح والقلم وفيه : ثم ختم على فم القلم فلم ينطق بعد ذلك ولا ينطق أبداً وهو الكتاب المكنون الذي منه النسخ كلها .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير عن معاوية بن قرّة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « ن والقلم وما يسطرون » قال : لوح من نور وقلم من نور يجري بما هو كائن إلى يوم القيامة .

أقول : وفي معناه روايات أخر ، وقوله : يجري بما هو كائن الخ ، أي منطبق على متن الكائنات من دون أن يتخلف شيء منها عما كتب هناك ونظيره ما في رواية أبي هريرة : ثم ختم على في القلم فلم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيامة .

وفي المعاني بإسناده عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل : « وإنك لعلى خلق عظيم » قال : هو الإسلام .

وفي تفسير القمي عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » قال : على دين عظيم .

أقول : يريد اشتمال الدين والإسلام على كمال الخلق واستنانه ﷺ به ، وفي الرواية المعروفة عنه ﷺ : بعثت لاتمم مكارم الأخلاق .

وفي المجمع بإسناده عن الحاكم بإسناده عن الضحاك قال : لما رأت قريش تقديم النبي ﷺ علياً وإعظامه له نالوا من علي وقالوا : قد افتتن به محمد فأنزل الله تعالى : « ن والقلم وما يسطرون » قسم أقسم الله به « ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجراً غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم – يعني القرآن – إلى قوله – بمن ضلّ عن سبيله » وهم النفر الذين قالوا ما قالوا « وهو أعلم بالمهتدين » يعني علي بن أبي طالب .

أقول : ورواه في تفسير البرهان عن محمد بن العباس بإسناده إلى الضحاك وساق نحواً مما مر وفي آخره : وسبيله علي بن أبي طالب .

وفيه في قوله تعالى : « ولا تطع كل حلاف » الخ ، قيل : يعني الوليد بن المغيرة عرض على النبي ﷺ المال ليرجع عن دينه ، وقيل : يعني الأخنس بن شريق عن عطاء ، وقيل: يعني الأسود بن عبد يغوث عن مجاهد .

أقول : وفي ذلك روايات في الدر المنثور وغيره تركنا إيرادها من أرادها فليراجع جوامع الروايات .

وفيه عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : لا يدخل الجنة جوّاظ ولا جعظري ولا عتل زنيم . قلت : فما الجواظ ؟ قال : كل جمّاع منّاع . قلت : فما الجعظري ؟

قال : الفظ الغليظ. قلت: فما العتل الزنيم ؟ قال : كل رحيب الجوف سيىء الخلق أكول شروب غشوم ظلوم زنيم .

وفيه في معنى الزنيم : قيل هو الذي لا أصل له .

وفي تفسير القمي في قوله : « عتل بعد ذلك زنيم » قال : العتل العظيم الكفر الزنيم الدعي .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: « إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة » إن أهل مكة ابتلوا بالجوع كما ابتلي أصحاب الجنة وهي كانت في الدنيا وكانت باليمن يقال له الرضوان على تسعة أميال من صنعاء .

وفيه بإسناده إلى ابن عباس أنه قيل له إن قوماً من هذه الامة يزعمون أن العبد يذنب فيحرم به الرزق ، فقال ابن عباس : فوالله الذي لا إله إلا هو هذا أنور في كتاب الله من الشمس الضاحية ذكره الله في سورة ن والقلم .

إنه كان شيخ وكان له جنة وكان لا يدخل إلى بيته ثمرة منها ولا إلى منزله حتى يعطي كل ذي حق حقه فلما قبض الشيخ ورثه بنوه وكان له خمس من البنين فحملت جنتهم في تلك السنة التي هلك فيها أبوهم حملاً لم يكن حملته قبل ذلك فراحوا الفتية إلى جنتهم بعد صلاة العصر فأشرفوا على ثمرة ورزق فاضل لم يعاينوا مثله في حياة أبيهم .

فلما نظروا إلى الفضل طغوا وبغوا وقال بعضهم لبعض : إن أبانا كان شيخاً كبيراً قد ذهب عقله وخرف فهلموا نتعاقد فيما بيننا أن لا نعطي أحداً من فقراء المسلمين في عامنا شيئاً حتى نستغني ويكثر أموالنا ثم نستأنف الصنيعة فيما استقبل من السنين المقبلة فرضي بذلك منهم أربعة وسخط الخامس وهو الذي قال الله : « قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبّحون » .

فقال الرجل : يا ابن عباس كان أوسطهم في السن ؟ فقال : لا بل كان أصغرهم سناً وأكبرهم عقلاً وأوسط القوم خير القوم ، والدليل عليه في القرآن قوله : إنكم يا أمة محمد أصغر الامم وخير الامم قوله عز وجل : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » .

قال لهم أوسطهم : إتقوا وكونوا على منهاج أبيكم تسلموا وتغنموا فبطشوا به وضربوه ضرباً مبرحاً فلما أيقن الأخ منهم أنهم يريدون قتله دخل معهم في مشورتهم كارهاً لأمرهم غير طائع .

فراحوا إلى منازلهم ثم حلفوا بالله ليصرمنّ إذا أصبحوا ولم يقولوا إن شاء الله فابتلاهم الله بذلك الذنب وحال بينهم وبين ذلك الرزق الذي كانوا أشرفوا عليه فأخبر عنهم في الكتاب فقال : « إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم » قال : كالمحترق .

فقال الرجل : يا ابن عبـــاس ما الصريم ؟ قال : الليل المظلم ، ثم قال : لا ضوء له ولا نور

فلمـا أصبح القوم « فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين » قال : « فانطلقوا وهم يتخافتون » قال الرجل : وما التخافت يا ابن عباس ؟ قال : يتشاورون فيشاور بعضهم بعضاً لكيلا يسمع أحد غيرهم فقالوا : « لا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين وغدوا على حرد قادرين » في أنفسهم أن يصرموها ولا يعلمون ما قد حلّ بهم من سطوات الله ونقمته .

« فلما رأوها » وما قد حلّ بهم « قالوا إنا لضالّون بل نحن محرومون » فحرمهم الله ذلك الرزق بذنب كان منهم ولم يظلمهم شيئاً .

« قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبّحون قالوا سبحان ربنـــا إنا كنا ظالمين فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون » قال: يلومون أنفسهم فيما عزموا عليه «قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون » فقال الله : « كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » .

أقول : وقد ورد ما يقرب من مضمون هذا الحديث والذي قبله في روايات أخر وفي بعض الروايات أن الجنة كانت لرجل من بني إسرائيل ثم مات وورثه بنوه فكان من أمرهم ما كان .

* * *

إنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ – ٣٤ . أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ – ٣٥ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ – ٣٦ . أَمْ لَكُمْ

كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ــ ٣٧ . إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ــ ٣٨ . أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ــ ٣٩ . سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ــ ٤٠ . أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ــ ٤١ . يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ــ ٤٢ . خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ــ ٤٣ . فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ــ ٤٤ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ــ ٤٥ . أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ــ ٤٦ . أَمْ عِنْدَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ــ ٤٧ . فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ــ ٤٨ . لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ــ ٤٩ . فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ــ ٥٠ . وَإِنْ يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ــ ٥١ . وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ــ ٥٢ .

(بيان)

فيها تذييل لما تقدم من الوعيد لمكذبي النبي ﷺ وتسجيل العذاب عليهم في الآخرة إذ المتقون في جنات النعيم ، وتثبيت أنهم والمتقون لا يستون بحجة قاطعة فليس لهم أن

يرجوا كرامة من الله وهم مجرمون فما يجدونه من نعم الدنيا استدراج وإملاء .

وفيها تأكيد أمر النبي ﷺ بالصبر لحكم ربه .

قوله تعالى : « إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم » بشرى وبيان لحال المتقين في الآخرة قبال ما بين من حال المكذبين فيها .

وفي قوله : « عند ربهم » دون أن يقال : عند الله إشارة إلى رابطة التدبير والرحمة بينهم وبينه سبحانه وأن لهم ذلك قبال قصرهم الربوبية فيه تعالى وإخلاصهم العبودية له.

وإضافة الجنات إلى النعيم وهو النعمة للإشارة إلى أن ما فيها من شيء نعمة لا تشوبها نقمة ولذة لا يخالطها ألم ، وسيجيء إن شاء الله في تفسير قوله تعالى : « ثم لتسألنّ يومئذ عن النعيم » التكاثر : ٨ ، أن المراد بالنعيم الولاية .

قوله تعالى : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين » تحتمل الآية في بادىء النظر أن تكون مسوقة حجة على المعاد كقوله تعالى : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » ص : ٢٨ ، وقد تقدم تفسيره .

وأن تكون رداً على قول من قال منهم للمؤمنين : لو كان هناك بعث وإعادة لكنا منعمين كما في الدنيا وقد حكى سبحانه ذلك عن قائلهم : « وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى » حم السجدة : ٥٠ .

ظاهر سياق الآيات التالية التي ترد عليهم الحكم بالتساوي هو الاحتمال الثاني ، وهو الذي رووه أن المشركين لما سمعوا حديث البعث والمعاد قالوا : إن صح ما يقوله محمد والذين آمنوا معه لم تكن حالنا إلا أفضل من حالهم كما في الدنيا ولا أقل من أن تتساوى حالنا وحالهم .

غير أنه يرد عليه أن الآية لو سيقت لرد قولهم ، سنساويهم في الآخرة أو نزيد عليهم كما في الدنيا ، كان مقتضى التطابق بين الرد والمردود أن يقال : أفنجعل المجرمين كالمسلمين وقد عكس .

والتدبر في السياق يعطي أن الآية مسوقة لرد دعواهم التساوي لكن لا من جهة نفي مساواتهم على إجرامهم للمسلمين بل تزيد على ذلك بالإشارة إلى أن كرامة المسلمين تأبى أن يساويهم المجرمون كأنه قيل : إن قولكم : سنتساوى نحن والمسلمون باطل فإن الله لا يرضى أن يجعل المسلمين بما لهم من الكرامة عنده كالمجرمين وأنتم مجرمون .

فالآية تقيم الحجة على عدم تساوي الفريقين من جهة منافاته لكرامة المسلمين عليه تعالى لا من جهة منافاة مساواة المجرمين للمسلمين عدله تعالى .

والمراد بالإسلام تسليم الأمر لله فلا يتبع إلا ما أراده سبحانه من فعل أو ترك يقابله الإجرام وهو اكتساب السيئة وعدم التسليم

والآية وما بعدها إلى قوله : « أم عندهم الغيب فهم يكتبون » في مقام الرد لحكمهم بتساوي المجرمين والمسلمين حالاً يوم القيامة تورد محتملات هذا الحكم من حيث منشئه في صور استفهامات إنكارية وتردها .

وتقرير الحجة : أن كون المجرمين كالمسلمين يوم القيامة على ما حكموا به إما أن يكون من الله تعالى موهبة ورحمة وإما أن لا يكون منه .

والأول إما أن يدل عليه دليل العقل ولا دليل عليه كذلك وذلك قوله : « ما لكم كيف تحكمون » .

وإما أن يدل عليه النقل وليس كذلك وهو قوله : « أم لكم كتاب » الخ ، وإما أن يكون لا لدلالة عقل أو نقل بل عن مشافهة بينهم وبين الله سبحانه عاهدوه وواثقوه على أن يسوي بينهما وليس كذلك فهذه ثلاثة احتمالات .

وإما أن لا يكون من الله فإما أن يكون حكمهم بالتساوي حكماً جدياً أو لا يكون فإن كان جدياً فإما أن يكون التساوي الذي يحكمون به مستنداً إلى أنفسهم بأن يكون لهم قدرة على أن يصيروا يوم القيامة كالمسلمين حالاً وإن لم يشإ الله ذلك وليس كذلك وهو قوله : « سلهم أيهم بذلك زعيم » أو يكون القائم بهذا الأمر المتصدي له شركاؤهم ولا شركاء وهو قوله : « أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم » الخ .

وإما أن يكون ذلك لأن الغيب عندهم والامور التي ستستقبل الناس قدرها وقضاؤها منوطان بمشيتهم تكون وتقع كيف يكتبون فكتبوا لأنفسهم المساواة مع المسلمين ، وليس كذلك ولا سبيل لهم إلى الغيب وذلك قوله : « أم عندهم الغيب فهم يكتبون » وهذه ثلاثة احتمالات .

وإن لم يكن حكمهم بالمساواة حكماً جدّياً بل إنما تفوّهوا بهذا القول تخلصاً وفراراً من اتّباعك على دعوتك لأنك تسألهم أجراً على رسالتك وهدايتك لهم إلى الحق فهم مثقلون من غرامته ، وليس كذلك ، وهو قوله : « أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون »

وهذا سابع الاحتمالات .

هذا ما يعطيه التدبر في الآيات في وجه ضبط ما فيها من الترديد وقد ذكروا في وجه الضبط غير ذلك من أراد الوقوف عليه فليراجع المطوّلات .

فقوله : « ما لكم كيف تحكمون » مسوق للتعجب من حكمهم بكون المجرمين يوم القيامة كالمسلمين ، وهو إشارة إلى تأبّي العقل عن تجويز التساوي ، ومحصله نفي حكم العقل بذلك إذ معناه : أي شيء حصل لكم من اختلال الفكر وفساد الرأي حتى حكمتم بذلك ؟

قوله تعالى : « أم لكم كتاب فيه تدرسون إن لكم لما تخيّرون » إشارة إلى انتفاء الحجة على حكمهم بالتساوي من جهة السمع كما أن الآية السابقة كانت إشارة إلى انتفائها من جهة العقل .

والمراد بالكتاب الكتاب السماوي النازل من عند الله وهو حجة ، ودرس الكتاب قراءته ، والتخيّر الاختيار ، وقوله : « إن لكم لما تخيّرون » في مقام المفعول لتدرسون والاستفهام إنكاري .

والمعنى : بل ألكم كتاب سماوي تقرؤن فيه إن لكم في الآخرة – أو مطلقاً – لما تختارونه فاخترتم السعادة والجنة .

قوله تعالى : « أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون » إشارة إلى انتفاء أن يملكوا الحكم بعهد ويمين شفاهي لهم على الله سبحانه .

والأيمان جمع يمين وهو القسَم ، والبلوغ هو الانتهاء في الكمال فالأيمان البالغة هي المؤكدة نهاية التوكيد ، وقوله : « إلى يوم القيامة » على هذا ظرف مستقر متعلق بمقدر والتقدير : أم لكم علينا أيمان كائنة إلى يوم القيامة مؤكدة نهاية التوكيد ، الخ .

ويمكن أن يكون « إلى يوم القيامة » متعلقاً ببالغة والمراد ببلوغ الأيمان انطباقها على امتداد الزمان حتى ينتهي إلى يوم القيامة .

وقد فسروا الأيمان بالعهود والمواثيق فيكون من باب إطلاق اللازم وإرادة الملزوم كناية ، واحتمل أن يكون من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل .

وقوله: « إن لكم لما تحكمون » جواب القسم وهو المعاهد عليه ، والاستفهام للانكار.

والمعنى : بل ألكم علينا عهود أقسمنا فيها إقساماً مؤكداً [illegible] القيامة [illegible] سلمنا

لكم أن لكم لما تحكمون به .

قوله تعالى : « سلهم أيّهم بذلك زعيم » إعراض عن خطابهم والتفات إلى النبي ﷺ بتوجيه الخطاب لسقوطهم عن درجة استحقاق الخطاب ولذلك أورد بقية السؤالات وهي مسائل أربع في سياق الغيبة أولها قوله : « سلهم أيّهم بذلك زعيم » والزعيم القائم بالأمر المتصدي له ، والاستفهام إنكاري .

والمعنى : سل المشركين أيّهم قائم بأمر التسوية الذي يدّعونه أي إذا ثبت أن الله لا يسوّي بين الفريقين لعدم دليل يدلّ عليه فهل الذي يقوم بهذا الأمر ويتصدّاه هو منهم؟ فأيّهم هو ؟ ومن الواضح بطلانه لا يتفوّه به إلا مصاب في عقله .

قوله تعالى : « أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين » ردّ لهم على تقدير أن يكون حكمهم بالتساوي مبنياً على دعواهم أن لهم آلهة يشاركون الله سبحانه في الربوبية سيشفعون لهم عند الله فيجعلهم كالمسلمين والاستفهام إنكاري يفيد نفي الشركاء .

وقوله : « فليأتوا بشركائهم » الخ ، كناية عن انتفاء الشركاء يفيد تأكيد ما في قوله : « أم لهم شركاء » من النفي .

وقيل : المراد بالشركاء شركاؤهم في هذا القول ، والمعنى : أم لهم شركاء يشاركونهم في هذا القول ويذهبون مذهبهم فليأتوا بهم إن كانوا صادقين .

وأنت خبير بأن هذا المعنى لا يقطع الخصام .

وقيل : المراد بالشركاء الشهداء والمعنى : أم لهم شهداء على هذا القول فليأتوا بهم إن كانوا صادقين .

وهو تفسير بما لا دليل عليه من جهة اللفظ . على أنه مستدرك لأن هؤلاء الشهداء شهداء على كتاب من عند الله أو وعد بعهد ويمين وقد رد كلا الاحتمالين فيما تقدم .

وقيل : المراد بالشركاء شركاء الالوهية على ما يزعمون لكن المعنيّ من إتيانهم بهم إتيانهم بهم يوم القيامة ليشهدوا لهم أو ليشفعوا لهم عند الله سبحانه .

وأنت خبير بأن هذا المعنى أيضاً لا يقطع الخصام .

قوله تعالى : « يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون — إلى قوله — وهم سالمون » يوم ظرف متعلق بمحذوف كاذكر ونحوه ، والكشف عن الساق تمثيل في اشتداد الأمر اشتداداً بالغاً لما أنهم كانوا يشمّرون عن سوقهم إذا اشتد الأمر

للعمل أو للفرار قال في الكشاف : فمعنى « يوم يكشف عن ساق » في معنى يوم يشتد الأمر ويتفاقم ، ولا كشف ثم ولا ساق كما تقول للأقطع الشحيح : يده مغلولة ولا يد ثم ولا غل وإنما هو مثل في البخل انتهى .

والآية وما بعدها إلى تمام خمس آيات اعتراض وقع في البين بمناسبة ذكر شركائهم الذين يزعمون أنهم سيسعدونهم لو كان هناك بعث وحساب فذكر سبحانه أن لا شركاء لله ولا شفاعة وإنما يحرز الإنسان سعادة الآخرة بالسجود أي الخضوع لله سبحانه بتوحيد الربوبية في الدنيا حتى يحمل معه صفة الخضوع فيسعد بها يوم القيامة .

وهؤلاء المكذبون المجرمون لم يسجدوا لله في الدنيا فلا يستطيعون السجود في الآخرة فلا يسعدون ولا تتساوى حالهم وحال المسلمين فيها البتة بل الله سبحانه يعاملهم في الدنيا لاستكبارهم عن سجوده معاملة الاستدراج والإملاء حتى يتم لهم شقاؤهم فيردوا العذاب الأليم في الآخرة .

فقوله : « يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون » معناه اذكر يوم يشتد عليهم الأمر ويدعون إلى السجود لله خضوعاً فلا يستطيعون لاستقرار ملكة الاستكبار في سرائرهم واليوم تبلى السرائر [١] .

وقوله : « خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة » حالان من نائب فاعل يدعون أي حال كون أبصارهم خاشعة وحال كونهم يغشاهم الذلة بقهر ، ونسبة الخشوع إلى الأبصار لظهور أثره فيهـا .

وقوله : « وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » المراد بالسلامة سلامتهم من الآفات والعاهات التي لحقت نفوسهم بسبب الاستكبار عن الحق فسلبتها التمكن من إجابة الحق أو المراد مطلق استطاعتهم منه في الدنيا .

والمعنى : وقد كانوا في الدنيا يدعون إلى السجود لله وهم سالمون متمكنون منه أقوى تمكن فلا يجيبون اليه .

وقيل : المراد بالسجود الصلاة وهو كما ترى .

---

(١) الطارق الآية ٩ .

قوله تعالى : « فذرني ومن يكذب بهذا الحديث » المراد بهذا الحديث القرآن الكريم وقوله : « فذرني ومن يكذب » الخ ، كناية عن أنه يكفيهم وحده وهو غير تاركهم وفيه نوع تسلية للنبي ﷺ وتهديد للمشركين .

قوله تعالى : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » استئناف فيه بيان كيفية أخذه تعالى لهم وتعذيبه إياهم المفهوم من قوله : « فذرني » الخ .

والاستدراج هو استنزالهم درجة فدرجة حتى يتم لهم الشقاء فيقعوا في ورطة الهلاك وذلك بأن يؤتيهم الله نعمة بعد نعمة وكلما أوتوا نعمة اشتغلوا بها وفرطوا في شكرها وزادوا نسياناً له وابتعدوا عن ذكره .

فالإستدراج إيتاؤهم النعمة بعد النعمة الموجب لنزولهم درجة بعد درجة واقترابهم من ورطة الهلاك ، وكونه من حيث لا يعلمون إنما هو لكونه من طريق النعمة التي يحسبونها خيراً وسعادة لا شر فيها ولا شقاء .

قوله تعالى : « وأملي لهم إن كيدي متين » الإملاء الإمهال ، والكيد ضرب من الاحتيال ، والمتين القوي .

والمعنى : وأمهلهم حتى يتوسعوا في نعمنا بالمعاصي كما يشاؤن إن كيدي قوي .

والنكتة في الالتفات الذي في « سنستدرجهم » عن التكلم وحده إلى التكلم مع الغير الدالة على العظمة وأن هناك موكلين على هذه النعم التي تصب عليهم صباً ، والالتفات في قوله : « وأملي لهم » عن التكلم مع الغير إلى التكلم وحده لأن الإملاء تأخير في الأجل ولم ينسب أمر الأجل في القرآن إلى غير الله سبحانه قال تعالى : « ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده » الأنعام : ٢ .

قوله تعالى : « أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون » المغرم الغرامة ، والإثقال تحميل الثقل ، والجملة معطوفة على قوله : « أم لهم شركاء » الخ .

والمعنى : أم تسأل هؤلاء المجرمين ـ الذين يحكمون بتساوي المجرمين والمسلمين يوم القيامة ـ أجراً على دعوتك فهم من غرامة تحملها عليهم مثقلون فيواجهونك بمثل هذا القول تخلصاً من الغرامة دون أن يكون ذلك منهم قولاً جدياً .

قوله تعالى : « أم عندهم الغيب فهم يكتبون » ظاهر السياق أن يكون المراد بالغيب

غيب الأشياء الذي منه تنزل الامور بقدر محدود فتستقر في منصة الظهور ، والمراد بالكتابة على هذا هو التقدير والقضاء ، والمراد بكون الغيب عندهم تسلطهم عليه وملكهم له .

فالمعنى : أم بيدهم أمر القدر والقضاء فهم يقضون كما شاؤا فيقضون لأنفسهم أن يساووا المسلمين يوم القيامة .

وقيل : المراد بكون الغيب عندهم علمهم بصحة ما حكموا به والكتابة على ظاهر معناه والمعنى : أم عندهم علم بصحة ما يدّعونه اختصوا به ولا يعلمه غيرهم فهم يكتبونه ويتوارثونه وينبغي أن يبرزوه .

وهو بعيد بل مستدرك والاحتمالات الاخر المذكورة مغنية عنه .

وإنما أخّر ذكر هذا الاحتمال عن غيره حتى عن قوله : « أم تسألهم أجراً » مع أن مقتضى الظاهر أن يتقدم عليه ، لكونه أضعف الاحتمالات وأبعدها .

قوله تعالى : « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم » صاحب الحوت يونس النبي عليه‌السلام والمكظوم من كظم الغيظ إذا تجرعه ولذا فسر بالمختنق بالغم حيث لا يجد لغيظه شفاء ، ونهيه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عن أن يكون كيونس عليه‌السلام وهو في زمن النداء مملوء بالغم نهي عن السبب المؤدي إلى نظير هذا الإبتلاء وهو ضيق الصدر والاستعجال بالعذاب .

والمعنى : فاصبر لقاء ربك أن يستدرجهم ويملي لهم ولا تستعجل لهم العذاب لكفرهم ولا تكن كيونس فتكون مثله وهو مملوء غماً أو غيظاً ينادي الله بالتسبيح والاعتراف بالظلم أي فاصبر واحذر أن تبتلي بما يشبه ابتلاءه ، ونداؤه قوله في بطن الحوت : « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » كما في سورة الأنبياء .

وقيل : اللام في « لحكم ربك » بمعنى إلى وفيه تهديد لقومه ووعيد لهم أن سيحكم الله بينه وبينهم ، والوجه المتقدم أنسب لسياق الآيات السابقة .

قوله تعالى : « لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم » في مقام التعليل للنهي السابق : « لا تكن كصاحب الحوت » والتدارك الإدراك واللحوق ، وفسرت النعمة بقبول التوبة ، والنبذ الطرح ، والعراء الأرض غير المستورة بسقف أو نبات ، والذمّ مقابل المدح .

والمعنى: لولا أن أدركته ولحقت به نعمة من ربه وهو أن الله قبل توبته لطرح بالأرض العراء وهو مذموم بما فعل .

لا يقال : إن الآية تنافي قوله تعالى : « فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون » الصافات : ١٤٤ ، فإن مدلوله أن مقتضى عمله أن يلبث في بطنه إلى يوم القيامة ومقتضى هذه الآية أن مقتضاه أن يطرح في الأرض العراء مذموماً وهما تبعتان متنافيتان لا تجتمعان .

فإنه يقـــال : الآيتان تحكيان عن مقتضيين مختلفين لكل منهما أثر على حدة فآية الصافات تذكر أنه عليه‌السلام كان مداوماً للتسبيح مستمراً عليه طول حيـــاته قبل ابتلائه ـ وهو قوله : كان من المسبحين ـ ولولا ذلك للبث في بطنه إلى يوم القيـامة ، والآية التي نحن فيها تدل على أن النعمة ـ وهو قبول توبته في بطن الحوت ـ شملته فلم ينبذ بالعراء مذموماً.

فمجموع الآيتين يدل على أن ذهابه مغاضباً كان يقتضي أن يلبث في بطنه إلى يوم القيامة فمنع عنه دوام تسبيحه قبل التقامه وبعده ، وقدّر أن ينبذ بالعراء وكان مقتضى عمله أن ينبذ مذموماً فمنع من ذلك تدارك نعمة ربه له فنبذ غير مذموم بل اجتباه الله وجعله من الصالحين فلا منافاة بين الآيتين .

وقد تكرر في مباحثنا السابقة أن حقيقة النعمة الولاية وعلى ذلك يتعين لقوله : « لولا أن تداركه نعمة من ربه » معنى آخر .

قوله تعالى : « فاجتباه ربه فجعله من الصالحين » تقدم توضيح معنى الاجتباء والصلاح في مباحثنا المتقدمة .

قوله تعالى : « وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر » إن مخففة من الثقيلة ، والزلق هو الزلل ، والإزلاق الإزلال وهو الصرع كناية عن القتل والإهلاك.

والمعنى : أنه قارب الذين كفروا أن يصرعوك بأبصارهم لما سمعوا الذكر .

والمراد بإزلاقه بالأبصار وصرعه بها ـ على ما عليه عامة المفسرين ـ الإصابة بالأعين ، وهو نوع من التأثير النفساني لا دليل على نفيه عقلاً وربما شوهد من الموارد ما يقبل الانطباق عليه ، وقد وردت في الروايات فلا موجب لإنكاره .

وقيل : المعنى أنهم ينظرون اليك إذا سمعوا منك الذكر الذي هو القرآن نظراً مليئاً بالعداوة والبغضاء يكادون يقتلونك بحديد نظرهم .

قوله تعالى : « ويقولون إنه لمجنون وما هو إلا ذكر للعالمين » رميهم له بالجنون عندما سمعوا الذكر دليل على أن مرادهم به رمي القرآن بأنه من إلقاء الشياطين ، ولذا ردّ قولهم بأن القرآن ليس إلا ذكراً للعالمين .

وقد ردّ قولهم : « إنه لمجنون » في أول السورة بقوله : « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » وبه ينطبق خاتمة السورة على فاتحتها .

(بحث روائي)

في المعاني بإسناده عن الحسين بن سعيد عن أبي الحسن عليه‌السلام في قوله عز وجل : « يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود » قال : حجاب من نور يكشف فيقع المؤمنون سجّداً وتدمج أصلاب المنافقين فلا يستطيعون السجود .

وفيه بإسناده عن عبيد بن زرارة عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال : سألته عن قول الله عز وجل : « يوم يكشف عن ساق » قال : كشف إزاره عن ساقه فقال : سبحان ربي الأعلى.

أقول : قال الصدوق بعد نقل الحديث : قوله : سبحان ربي الأعلى تنزيه الله سبحانه أن يكون له ساق. انتهى. وفي هذا المعنى رواية أخرى عن الحلبي عن أبي عبدالله عليه‌السلام.

وفيه بإسناده عن معلى بن خنيس قال : قلت لأبي عبد الله عليه‌السلام : ما يعني بقوله : « وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » قال : وهم مستطيعون .

وفي الدر المنثور أخرج البخاري وابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد : سمعت النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يقول : يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً .

وفيه أخرج ابن مندة في الرد على الجهمية عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : « يوم يكشف عن ساق » قال : يكشف الله عن ساقه .

وفيه أخرج إسحاق بن راهويه في مسنده وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا والطبراني والآجري في الشريعة والدارقطني في الرؤية والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال : يجمع الله الناس يوم القيامة وينزل الله في ظلل من الغمام فينادي منادياً أيها الناس ألم ترضوا من ربكم [الذي] خلقكم وصوركم

ورزقكم أن يولي كل إنسان منكم ما كان يعبد في الدنيا ويتولى ؟ أليس ذلك من ربكم عدلاً ؟ قالوا : بلى .

قال : فينطلق كل إنسان منكم إلى ما كان يعبد في الدنيا ويتمثل لهم ما كانوا يعبدون في الدنيا فيتمثل لمن كان يعبد عيسى شيطان عيسى ، ويتمثل لمن كان يعبد عزيزاً شيطان عزيز حتى يمثل لهم الشجرة والعود والحجر .

ويبقى أهل الإسلام جثوماً فيتمثل لهم الرب عز وجل فيقول لهم : مالكم لم تنطلقوا كما انطلق الناس ؟ فيقولون : إن لنا رباً ما رأيناه بعد فيقول : فبم تعرفون ربكم إن رأيتموه ؟ قالوا : بيننا وبينه علامة إن رأيناه عرفناه ؟ قال : وما هي ؟ قالوا : يكشف عن ساق .

فيكشف عند ذلك عن ساق فيخرّ كل من كان يسجد طائعاً ساجداً ويبقى قوم ظهورهم كصياصي البقر يريدون السجود فلا يستطيعون . الحديث .

أقول : والروايات الثلاث مبنية على التشبيه المخالف للبراهين العقلية ونص الكتاب العزيز فهي مطروحة أو مؤولة .

وفي الكافي بإسناده عن سفيان بن السمط قال : قال أبو عبد الله عليه‌السلام : إن الله إذا أراد بعبد خيراً فأذنب ذنباً أتبعه بنقمة وذكره الاستغفار ، فإذا أراد بعبد شراً فأذنب ذنباً أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى بها ، وهو قول الله عز وجل : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » بالنعم والمعاصي .

أقول : وقد تقدم بعض روايات الاستدراج في ذيل قوله تعالى : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » الآية ١٨٢ من سورة الأعراف .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « إذ نادى وهو مكظوم » في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه‌السلام : يقول : مغموم .

وفيه في قوله تعالى : « لولا أن تداركه نعمة من ربه » قال : النعمة الرحمة .

وفيه في قوله تعالى : « لنبذ بالعراء » قال : الموضع الذي لا سقف له .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : « وإن يكاد الذين كفروا » أخرج البخاري عن ابن عباس أن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال : العين حق .

وفيه أخرج أبو نعيم في الحلية عن جابر أن النبي ﷺ قال: العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر.

أقول: وهناك روايات تطبق الآيات السابقة على الولاية وهي من الجري دون التفسير ولذلك لم نوردها.

* * *

(سورة الحاقة مكية، وهي اثنتان وخمسون آية)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . ٱلْحَاقَّةُ ـ ١ . مَا ٱلْحَاقَّةُ ـ ٢ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ـ ٣ . كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِٱلْقَارِعَةِ ـ ٤ . فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِٱلطَّاغِيَةِ ـ ٥ . وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ـ ٦ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ـ ٧ . فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ ـ ٨ . وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَٱلْمُؤْتَفِكَاتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ـ ٩ . فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ـ ١٠ . إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ ـ ١١ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ـ ١٢ .

(بيان)

السورة تذكر الحاقة وهي القيامة وقد سمّتها أيضاً بالقارعة والواقعة.

وقد ساقت الكلام فيها في فصول ثلاثة: فصل تذكر فيه إجمالاً الامم الذين كذّبوا بها

فأخذهم الله أخذة رابية ، وفصل تصف فيه الحاقة وانقسام الناس فيها إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال واختلاف حالهم بالسعادة والشقاء ، وفصل تؤكد فيه صدق القرآن في إنبائه بها وأنه حق اليقين ، والسورة مكية بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة » المراد بالحاقة القيامة الكبرى سميت بها لثبوتها ثبوتاً لا مردّ له ولا ريب فيه ، من حقّ الشيء بمعنى ثبت وتقرّر تقرّراً واقعياً .

و « ما » في « ما الحاقة » استفهامية تفيد تفخيم أمرها ، ولذلك بعينه وضع الظاهر موضع الضمير ولم يُقل : ما هي ، والجملة الاستفهامية خبر الحاقة .

فقوله : « الحاقة ما الحاقة » مسوق لتفخيم أمر القيامة يفيد تفخيم أمرها وإعظام حقيقتها إفادة بعد إفادة .

وقوله : « وما أدراك ما الحاقة » خطاب بنفي العلم بحقيقة اليوم وهذا التعبير كناية عن كمال أهمية الشيء وبلوغه الغاية في الفخامة ولعل هذا هو المراد مما نقل عن ابن عباس: أن ما في القرآن من قوله تعالى: « ما أدراك » فقد أدراه وما فيه من قوله: « ما يدريك » فقد طوى عنه ، يعني أن « ما أدراك » كناية و « ما يدريك » تصريح .

قوله تعالى : « كذّبت ثمود وعاد بالقارعة » المراد بالقارعة القيامة وسميت بها لأنها تقرع وتدكّ السماوات والأرض بتبديلها والجبال بتسييرها والشمس بتكويرها والقمر بخسفها والكواكب بنثرها والأشياء كلها بقهرها على ما نطقت به الآيات ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال : كذبت ثمود وعاد بها فوضع القارعة موضع الضمير لتأكيد تفخيم أمرها.

وهذه الآية وما يتلوها إلى تمام تسع آيات وإن كانت مسوقة للاشارة إلى إجمال قصص قوم نوح وعاد وثمود وفرعون ومن قبله والمؤتفكات وإهلاكهم لكنها في الحقيقة بيان للحاقة ببعض أوصافها وهو أن الله أهلك أمماً كثيرة بالتكذيب بها فهي في الحقيقة جواب للسؤال بما الاستفهامية كما أن قوله : « فإذا نفخ في الصور » الخ ، جواب آخر .

ومحصل المعنى : هي القارعة التي كذبت بها ثمود وعاد وفرعون ومن قبله والمؤتفكات وقوم نوح فأخذهم الله أخذة رابية وأهلكهم بعذاب الاستئصال .

قوله تعالى : « فأما ثمود فاهلكوا بالطاغية » بيان تفصيلي لأثر تكذيبهم بالقارعة ،

والمراد بالطاغية الصيحة أو الرجفة أو الصاعقة على اختلاف ظاهر تعبير القرآن في سبب هلاكهم في قصتهم قال تعالى : « وأخذ الذين ظلموا الصيحة » هود : ٦٧ ، وقال أيضاً : « فأخذتهم الرجفة » الأعراف : ٨٧ ، وقال أيضاً : « فأخذتهم صاعقة العذاب الهون » حم السجدة : ١٧ .

وقيل : الطاغية مصدر كالطغيان والطغوى والمعنى : فأما ثمود فاهلكوا بسبب طغيانهم ، ويؤيده قوله تعالى : « كذب ثمود بطغواها » الشمس : ١١ .

وأول الوجهين أنسب لسياق الآيات التالية حيث سيقت لبيان كيفية إهلاكهم من الإهلاك بالريح أو الأخذ الرابي أو طغيان الماء فليكن هلاك ثمود بالطاغية ناظراً إلى كيفية إهلاكهم .

قوله تعالى : « وأما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية » الصرصر الريح الباردة الشديدة الهبوب ، وعاتية من العتوّ بمعنى الطغيان والابتعاد من الطاعة والملاءمة .

قوله تعالى : « سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية » تسخيرها عليهم تسليطها عليهم ، والحسوم جمع حاسم كشهود جمع شاهد من الحسم بمعنى تكرار الكي مرات متتالية ،وهي صفة لسبع أي سبع ليال وثمانية أيام متتالية متتابعة وصرعى جمع صريع وأعجاز جمع عجز بالفتح فالضم آخر الشيء ، وخاوية الخالية الجوف الملقاة والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « فهل ترى لهم من باقية » أي من نفس باقية ، والجملة كناية عن استيعاب الهلاك لهم جميعاً ، وقيل : الباقية مصدر بمعنى البقاء وقد أريد به البقية وما قدمناه من المعنى أقرب .

قوله تعالى : « وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة » المراد بفرعون فرعون موسى ، وبمن قبله الامم المتقدمة عليه زماناً من المكذبين ، وبالمؤتفكات قرى قوم لوط والجماعة القاطنة بها ، « وخاطئة » مصدر بمعنى الخطاء والمراد بالمجيء بالخاطئة إخطاء طريق العبودية ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية » ضمير « عصوا » لفرعون

ومن قبله والمؤتفكات ، والمراد بالرسول جنسه ، والرابية الزائدة من ربا يربو ربوة إذا زاد ، والمراد بالأخذة الرابية العقوبة الشديدة وقيل : العقوبة الزائدة على سائر العقوبات وقيل : الخارقة للعادة .

قوله تعالى : « إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية » إشارة إلى طوفان نوح والجارية السفينة ، وعد المخاطبين محمولين في سفينة نوح والمحمول في الحقيقة أسلافهم لكون الجميع نوعاً واحداً ينسب حال البعض منه إلى الكل والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » تعليل لحملهم في السفينة فضمير « لنجعلها » للحمل باعتبار أنه فعلة أي فعلنا بكم تلك الفعلة لنجعلها لكم أمراً تتذكرون به وعبرة تعتبرون بها وموعظة تتعظون بها .

وقوله : « وتعيها أذن واعية » الوعي جعل الشيء في الوعاء ، والمراد بوعي الاذن لها تقريرها في النفس وحفظها فيها لترتب عليها فائدتها وهي التذكر والاتعاظ .

وفي الآية بجملتيها إشارة إلى الهداية الربوبية بكلا قسميها أعني الهداية بمعنى إراءة الطريق والهداية بمعنى الإيصال إلى المطلوب .

توضيح ذلك أن من السنة الربوبية العامة الجارية في الكون هداية كل نوع من أنواع الخليقة إلى كماله اللائق به بحسب وجوده الخاص بتجهيزه بما يسوقه نحو غايته كما يدل عليه قوله تعالى : « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » طه : ٥٠ ، وقوله : « الذي خلق فسوّى والذي قدّر فهدى » الأعلى : ٣ ، وقد تقدم توضيح ذلك في تفسير سورتي طه والأعلى وغيرهما .

والإنسان يشارك سائر الأنواع المادية في أن له استكمالاً تكوينياً وسلوكاً وجودياً نحو كماله الوجودي بالهداية الربوبية التي تسوقه نحو غايته المطلوبة ويختص من بينها بالاستكمال التشريعي فإن للنفس الإنسانية استكمالاً من طريق أفعالها الاختيارية بما يلحقها من الأوصاف والنعوت وتتلبس به من الملكات والأحوال في الحياة الدنيا وهي غاية وجود الإنسان التي تعيش بها عيشة سعيدة مؤبدة .

وهذا هو السبب الداعي إلى تشريع السنة الدينية بإرسال الرسل وإنزال الكتب والهداية اليها « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » النساء : ١٦٥ ، وقد تقدم تفصيله في أبحاث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب وغيره ، وهذه هداية بمعنى إراءة

الطريق وإعلام الصراط المستقيم الذي لا يسع الإنسان إلا أن يسلكه ، قال تعالى : « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » الدهر : ٣ ، فإن لزم الصراط وسلكه حيّ بحياة طيبة سعيدة وإن تركه وأعرض عنه هلك بشقاء دائم وتمّت عليه الحجة على أي حال ، قال تعالى : « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة » الأنفال : ٤٢ .

إذا تقرر هذا تبيّن أن من سنة الربوبية هداية الناس إلى سعادة حياتهم بإراءة الطريق الموصل اليها ، وإليها الإشارة بقوله : « لنجعلها لكم تذكرة » فإن التذكرة لا تستوجب التذكر ممن ذكّر بها بل ربما أثرت وربما تخلفت .

ومن سنة الربوبية هداية الأشياء إلى كمالاتها بمعنى إنهائها وإيصالها اليها بتحريكها وسوقها نحوه ، وإليها الإشارة بقوله : « وتعيها أذن واعية » فإن الوعي المذكور من مصاديق الاهتداء بالهداية الربوبية وإنما لم ينسب تعالى الوعي إلى نفسه كما نسب التذكرة إلى نفسه لأن المطلوب بالتذكرة إتمام الحجة وهو من الله وأما الوعي فإنه وإن كان منسوباً اليه كما أنه منسوب إلى الإنسان لكن السياق سياق الدعوة وبيان الأجر والمثوبة على إجابة الدعوة والأجر والمثوبة من آثار الوعي بما أنه فعل للانسان منسوب اليه لا بما أنه منسوب إلى الله تعالى .

ويظهر من الآية الكريمة أن للحوادث الخارجية تأثيراً في أعمال الإنسان كما يظهر من مثل قوله : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » الأعراف : ٩٦ أن لأعمال الإنسان تأثيراً في الحوادث الخارجية وقد تقدم بعض الكلام فيه .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : « لنجعلها لكم تذكرة » قال : لامة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وكم من سفينة قد هلكت وأثر قد ذهب يعني ما بقي من السفينة حتى أدركته أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فرأوه كانت ألواحها ترى على الجودي .

أقول : وتقدم ما يؤيد ذلك في قصة نوح في تفسير سورة هود .

وفيه أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن مكحول قال : لما نزلت « وتعيها أذن واعية » قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : سألت ربي أن يجعلها

أذن علي . قال مكحول : فكان علي يقول : ما سمعت عن رسول الله شيئاً فنسيته .

وفيه أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والواحدي وابن مردويه وابن عساكر وابن النجاري عن بردة قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: إن الله أمرني أن أدنيك ولا أقصيك وأن أعلمك وأن تعي وحقّ لك أن تعي فنزلت هذه الآية « وتعيها أذن واعية » .

وفيه أخرج أبو نعيم في الحلية عن علي قال : قال رسول الله ﷺ : يا علي : إن الله أمرني أن أدنيك وأعلمك لتعي فانزلت هذه الآية « وتعيها أذن واعية » فأنت أذن واعية لعلمي .

أقول : وروى هذا المعنى في تفسير البرهان عن سعد بن عبد الله بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام ، وعن الكليني بإسناده عنه عليه السلام ، وعن ابن بابويه بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام .

ورواه أيضاً عن ابن شهرآشوب عن حلية الأولياء عن عمر بن علي ، وعن الواحدي في أسباب النزول عن بريدة ، وعن أبي القاسم بن حبيب في تفسيره عن زرّ بن حبيش عن علي عليه السلام .

وقد روى في غاية المرام من طرق الفريقين ستة عشر حديثاً في ذلك وقال في البرهان إن محمد بن العباس روى فيه ثلاثين حديثاً من طرق العامة والخاصة .

* * *

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ـ ١٣ . وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ـ ١٤ . فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ـ ١٥ . وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ـ ١٦ . وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ـ ١٧ . يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ـ ١٨ . فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ـ ١٩ . إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ـ ٢٠ .

فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ــ ٢١ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ــ ٢٢ . قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ــ ٢٣ . كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ــ ٢٤ . وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ــ ٢٥ . وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ــ ٢٦ . يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ــ ٢٧ . مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ــ ٢٨ . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ــ ٢٩ . خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ــ ٣٠ . ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ــ ٣١ . ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ــ ٣٢ . إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ ــ ٣٣ . وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ــ ٣٤ . فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هٰهُنَا حَمِيمٌ ــ ٣٥ . وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ــ ٣٦ . لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ــ ٣٧ .

(بيان)

هذا هو الفصل الثاني من الآيات يعرّف الحاقة ببعض أشراطها ونبذة مما يقع فيها .

قوله تعالى : « فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة » قد تقدم أن النفخ في الصور كناية عن البعث والاحضار لفصل القضاء ، وفي توصيف النفخة بالواحدة إشارة إلى مضي الأمر ونفوذ القدرة فلا وهن فيه حتى يحتاج إلى تكرار النفخة ، والذي يسبق إلى الفهم من سياق الآيات أنها النفخة الثانية التي تحيي الموتى .

قوله تعالى : « وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة » الدك أشد الدق وهو كسر الشيء وتبديله إلى أجزاء صغار ، وحمل الأرض والجبال إحاطة القدرة بها ، وتوصيف الدكة بالواحدة للإشارة إلى سرعة تفتتها بحيث لا يفتقر إلى دكة ثانية .

قوله تعالى : « فيومئذ وقعت الواقعة » أي قامت القيامة .

قوله تعالى: «وانشقت السماء فهي يومئذ واهية» انشقاق الشيء انفصال شطر منه من شطر آخر، وواهية من الوهي بمعنى الضعف، وقيل: من الوهي بمعنى شق الأديم والثوب ونحوهما.

ويمكن أن تكون الآية أعني قوله: «وانشقت السماء فهي يومئذ واهية والملك على أرجائها» في معنى قوله: «ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا» الفرقان: ٢٥.

قوله تعالى: «والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية» قال الراغب: رجا البئر والسماء وغيرهما جانبها والجمع أرجاء قال تعالى: «والملك على أرجائها» انتهى، والملك - كما قيل - يطلق على الواحد والجمع والمراد به في الآية الجمع.

وقوله: «ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية» ضمير «فوقهم» على ظاهر ما يقتضيه السياق للملائكة، وقيل: الضمير للخلائق.

وظاهر كلامه أن للعرش اليوم حملة من الملائكة قال تعالى: «الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا» المؤمن: ٧، وقد وردت الروايات أنهم أربعة، وظاهر الآية أعني قوله: «ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية» أن الحملة يوم القيامة ثمانية وهل هم من الملائكة أو من غيرهم؟ الآية ساكتة عن ذلك وإن كان لا يخلو السياق من إشعار ما بأنهم من الملائكة.

ومن الممكن - كما تقدمت الإشارة اليه - أن يكون الغرض من ذكر انشقاق السماء وكون الملائكة على أرجائها وكون حملة العرش يومئذ ثمانية بيان ظهور الملائكة والسماء والعرش للإنسان يومئذ، قال تعالى: «وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبّحون بحمد ربهم» الزمر: ٧٥.

قوله تعالى: «يومئذ تعرضون لا يخفى منكم خافية» الظاهر أن المراد به العرض على الله كما قال تعالى: «وعرضوا على ربك صفا» الكهف: ٤٨، والعرض إراءة البائع سلعته للمشتري ببسطها بين يديه، فالعرض يومئذ على الله وهو يوم القضاء إبراز ما عند الإنسان من اعتقاد وعمل إبرازاً لا يخفى معه عقيدة خافية ولا فعلة خافية وذلك بتبدل الغيب شهادة والسر علناً قال: «يوم تبلى السرائر» الطارق: ٩، وقال: «يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء» المؤمن: ١٦.

وقد تقدم في أبحاثنا السابقة أن ما عد في كلامه تعالى من خصائص يوم القيامة

كاختصاص الملك بالله ، وكون الأمر له ، وأن لا عاصم منه ، وبروز الخلق له وعدم خفاء شيء منهم عليه وغير ذلك ، كل ذلك دائمية الثبوت له تعالى ، وإنما المراد ظهور هذه الحقائق يومئذ ظهوراً لا ستر عليه ولا مرية فيه .

فالمعنى : يومئذ يظهر أنكم في معرض على علم الله ويظهر كل فعلة خافية من أفعالكم .

قوله تعالى : « فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه » قال في المجمع : هاؤم أمر للجماعة بمنزلة هاكم ، تقول للواحد : هاءَ يا رجل ، وللاثنين : هاؤما يا رجلان ، وللجماعة : هاؤم يا رجال ، وللمرأة : هاءِ يا امرأة بكسر الهمزة وليس بعدها ياء ، وللمرأتين : هاؤما ، وللنساء : هاؤنّ . هذه لغة أهل الحجاز .

وتميم وقيس يقولون : هاءَ يا رجل مثل قول أهل الحجاز ، وللاثنين : هاءآ ، وللجماعة : هاؤا ، وللمرأة : هائي ، وللنساء : هاؤنَ .

وبعض العرب يجعل مكان الهمزة كافاً فيقول : هاكَ هاكما هاكم هاكِ هاكما هاكنّ ، ومعناه : خذ وتناول ، ويؤمر بها ولا ينهى . انتهى .

والآية وما بعدها إلى قوله : « الخاطؤن » بيان تفصيلي لاختلاف حال الناس يومئذ من حيث السعادة والشقاء ، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى : « فمن أوتي كتابه بيمينه » أسرى : ٧١ كلام في معنى إعطاء الكتاب باليمين ، والظاهر أن قوله : « هاؤم اقرؤا كتابيه » خطاب للملائكة ، والهاء في « كتابيه » وكذا في أواخر الآيات التالية للوقف وتسمى هاء الاستراحة .

والمعنى : فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول للملائكة : خذوا واقرؤا كتابيه أي إنها كتاب يقضي بسعادتي .

قوله تعالى : « إني ظننت أني مُلاقٍ حسابيه » الظن بمعنى اليقين ، والآية تعليل لما يتحصل من الآية السابقة ومحصل التعليل إنما كان كتابي كتاب اليمين وقاضياً بسعادتي لأني أيقنت في الدنيا أني سالاقي حسابي فآمنت بربي وأصلحت عملي .

قوله تعالى : « فهو في عيشة راضية » أي يعيش عيشة يرضاها فنسبة الرضا إلى العيشة من المجاز العقلي .

قوله تعالى : « في جنة عالية – إلى قوله – الخالية » أي هو في جنة عالية قدراً فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وقوله : « قطوفها دانية » القطوف جمع قطف بالكسر فالسكون وهو ما يجتنى من الثمر والمعنى : أثمارها قريبة منه يتناوله كيف يشاء .

وقوله : « كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية » أي يقال لهم : كلوا واشربوا من جميع ما يؤكل فيها وما يشرب حال كونه هنيئاً لكم بما قدمتم من الإيمان والعمل الصالح في الدنيا التي تقضّت أيامها .

قوله تعالى : « وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه » وهؤلاء هم الطائفة الثانية وهم الأشقياء المجرمون يؤتون صحيفة أعمالهم بشمالهم وقد مر الكلام في معناه في سورة الإسراء ، وهؤلاء يتمنون أن لو لم يكونوا يؤتون كتابهم ويدرون ما حسابهم يتمنون ذلك لما يشاهدون من أليم العذاب المعد لهم .

قوله تعالى : « يا ليتها كانت القاضية » ذكروا أن ضمير « ليتها » للموتة الاولى التي ذاقها الإنسان في الدنيا .

والمعنى : يا ليت الموتة الاولى التي ذقتها كانت قاضيــة على تقضي بعدمي فكنت انعدمت ولم أبعث حياً فأقع في ورطة العذاب الخالد وأشاهد ما أشاهد .

قوله تعالى : « ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه » كلمتا تحسر يقولها حيث يرى خيبة سعيه في الدنيا فإنه كان يحسب أن مفتاح سعادته في الحياة هو المال والسلطان يدفعان عنه كل مكروه ويسلطانه على كل ما يحب ويرضى فبذل كل جهده في تحصيلها وأعرض عن ربه وعن كل حق يدعى اليه وكذب داعيه فلما شاهد تقطع الأسباب وأنه في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ذكر عدم نفع ما له وبطلان سلطانه تحسراً وتوجعاً وماذا ينفع التحسر ؟

قوله تعالى : « خذوه فغلوه – إلى قوله – فاسلكوه » حكاية أمره تعالى الملائكة بأخذه وإدخاله النار ، والتقدير يقال للملائكة خذوه الخ ، و « غلوه » أمر من الغل بالفتح وهو الشد بالغل الذي يجمع بين اليد والرجل والعنق .

وقوله : « ثم الجحيم صلوه » أي أدخلوه النار العظيمة وألزموه إياها .

وقوله : « ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » السلسة القيد ، والذرع الطول ، والذراع بُعد ما بين المرفق ورأس الأصابع وهو واحد الطول وسلوكه فيه جعله فيه ، والمحصّل ثم اجعلوه في قيد طوله سبعون ذراعاً .

قوله تعالى : « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين » الحضّ التحريض والترغيب ، والآيتان في مقام التعليل للأمر بالأخذ والإدخال في النار أي إن الأخذ ثم التصلية في الجحيم والسلوك في السلسلة لأجل أنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحرض على طعام المسكين أي يساهل في أمر المساكين ولا يبالي بما يقاسونه .

قوله تعالى : « فليس له اليوم ههنا حميم - إلى قوله - الخاطؤن » الحميم الصديق والآية تفريع على قوله : « إنه كان لا يؤمن » الخ ، والمحصل : أنه لما كان لا يؤمن بالله العظيم فليس له اليوم ههنا صديق ينفعه أي شفيع يشفع له إذ لا مغفرة لكافر فلا شفاعة.

وقوله: « ولا طعام إلا من غسلين » الغسلين الغسالة وكأن المراد به ما يسيل من أبدان أهل النار من قيح ونحوه والآية عطف على قوله في الآية السابقة : « حميم » ومتفرع على قوله : « ولا يحض » الخ ، والمحصل : أنه لما كان لا يحرض على طعام المسكين فليس له اليوم ههنا طعام إلا من غسلين أهل النار .

وقوله : « لا يأكله إلا الخاطؤن » وصف لغسلين والخاطؤن المتلبسون بالخطيئة والإثم.

(بحث روائي)

في الدر المنثور في قوله تعالى : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يحمله اليوم أربعة ويوم القيامة ثمانية .

أقول : وفي تقييد الحاملين في الآية بقوله : « يومئذ » إشعار بل ظهور في اختصاص العدد بالقيامة .

وفي تفسير القمي وفي حديث آخر قال : حمله ثمانية أربعة من الأولين وأربعة من الآخرين فأما الأربعة من الأولين فنوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وأما الأربعة من الآخرين فمحمد وعلي والحسن والحسين عليهم السلام .

أقول : وفي غير واحد من الروايات أن الثمانية مخصوصة بيوم القيامة ، وفي بعضها أن حملة العرش - والعرش العلم - أربعة منا وأربعة ممن شاء الله .

وفي تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: أنه إذا كان يوم القيامة يدعى كل أناس بإمامه الذي مات في عصره فإن أثبته أعطي كتابه بيمينه لقوله : « يوم ندعو

كل أناس بإمامهم ، فمن أوتي كتابه بيمينه فاولئك يقرأون كتابهم ، واليمين إثبات الإمام لأنه كتابه يقرؤه - إلى أن قال - ومن أنكر كان من أصحاب الشمال الذين قال الله : « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم » الخ .

أقول : وفي عدة من الروايات تطبيق قوله : « فأما من أوتي كتابه بيمينه » الخ ، على علي عليه السلام ، وفي بعضها عليه وعلى شيعته ، وكذا تطبيق قوله : « وأما من أوتي كتابه بشماله » الخ ، على أعدائه ، وهي من الجري دونَ التفسير

وفي الدر المنثور أخرج الحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : لو أن دلوا من غسلين يهراق في الدنيا لأنتن بأهل الدنيا .

وفيه أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن صعصعة بن صوحان قال : جاء أعرابي إلى علي بن أبي طالب فقال : كيف هذا الحرف : لا يأكله إلا الخاطون ؟ كلٌّ والله يخطو . فتبسّم علي وقال : يا أعرابي « لا يأكله إلا الخاطئون » قال : صدقت والله يا أمير المؤمنين ما كان الله ليسلم عبده .

ثم التفت علي إلى أبي الأسود فقال : إن الأعاجم قد دخلتْ في الدين كافة فضع للناس شيئاً يستدلّون به على صلاح ألسنتهم فرسم لهم الرفع والنصب والخفض .

وفي تفسير البرهان عن ابن بابويه في الدروع الواقية في حديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ولو أن ذراعاً من السلسلة التي ذكرها الله في كتابه وضع على جميع جبال الدنيا لذابت عن حرّها.

* * *

فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ـ ٣٨ . وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ ـ ٣٩ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ـ ٤٠ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ ـ ٤١ . وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ـ ٤٢ . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ـ ٤٣ . وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ـ ٤٤ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ـ ٤٥ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ـ ٤٦ . فَمَا

مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ـ ٤٧ . وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ـ ٤٨ .
وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ـ ٤٩ . وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ـ ٥٠ .
وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ـ ٥١ . فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ـ ٥٢ .

(بيان)

هذا هو الفصل الثالث من آيات السورة يؤكد ما تقدّم من أمر الحاقة بلسان تصديق القرآن الكريم ليثبت بذلك حقّية ما أنبأ به من أمر القيامة .

قوله تعالى : « فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » ظاهر الآية أنه إقسام بما هو مشهود لهم وما لا يشاهدون أي الغيب والشهادة فهو إقسام بمجموع الخليقة ولا يشمل ذاته المتعالية فإن من البعيد من أدب القرآن أن يجمع الخالق والخلق في صف واحد ويعظمه تعالى وما صنع تعظيماً مشتركاً في عرض واحد .

وفي الإقسام نوع تعظيم وتجليل للمقسم به وخلقه تعالى بما أنه خلقه جليل جميل لأنه تعالى جميل لا يصدر منه إلا الجميل وقد استحسن تعالى فعل نفسه وأثنى على نفسه بخلقه في قوله : « الذي أحسن كل شيء خلقه » الم السجدة : ٧ ، وقوله : « فتبارك الله أحسن الخالقين » المؤمنون : ١٤ . فليس للموجودات منه تعالى إلا الحسن وما دون ذلك من مساءة فمن أنفسها وبقياس بعضها إلى بعض .

وفي اختيار ما يبصرون وما لا يبصرون للإقسام به على حقّية القرآن ما لا يخفى من المناسبة فإن النظام الواحد المتشابك أجزاؤه الجاري في مجموع العالم يقضي بتوحّده تعالى ومصير الكل اليه وما يترتب عليه من بعث الرسل وإنزال الكتب والقرآن خير كتاب سماوي يهدي إلى الحق في جميع ذلك وإلى طريق مستقيم .

ومما تقدم يظهر عدم استقامة ما قيل : إن المراد بما تبصرون وما لا تبصرون الخلق والخالق فإن السياق لا يساعد عليه ، وكذا ما قيل : إن المراد النعم الظاهرة والباطنة ، وما قيل : إن المراد الجن والإنس والملائكة أو الأجسام والأرواح أو الدنيا والآخرة أو ما يشاهد من آثار القدرة وما لا يشاهد من أسرارها فاللفظ أعم مدلولاً من جميع ذلك .

قوله تعالى : « إنه لقول رسول كريم » الضمير للقرآن ، والمستفاد من السياق أن المراد برسول كريم النبي ﷺ وهو تصديق لرسالته قبال ما كانوا يقولون إنه شاعر أو كاهن .

ولا ضير في نسبة القرآن إلى قوله فإنه إنما ينسب اليه بما أنه رسول والرسول بما أنه رسول لا يأتي إلا بقول مرسله ، وقد بيّن ذلك فضل بيان بقوله بعد : « تنزيل من رب العالمين » .

وقيل : المراد برسول كريم جبريل ، والسياق لا يؤيده إذ لو كان هو المراد لكان الأنسب نفي كونه مما نزلت به الشياطين كما فعل في سورة الشعراء .

على أن قوله بعد : « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل » وما يتلوه إنما يناسب كونه ﷺ هو المراد برسول كريم .

قوله تعالى : « وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون » . نفي أن يكون القرآن نظماً ألّفه شاعر ولم يقل النبي ﷺ شعراً ولم يكن شاعراً .

وقوله: « قليلاً ما تؤمنون » توبيخ لمجتمعهم حيث إن الأكثرين منهم لم يؤمنوا وما آمن به إلا قليل منهم .

قوله تعالى : « ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكّرون » نفي أن يكون القرآن كهانة والنبي ﷺ كاهناً يأخذ القرآن من الجن وهم يُلقونه اليه .

وقوله : « قليلاً ما تذكّرون » توبيخ أيضاً لمجتمعهم .

قوله تعالى : « تنزيل من رب العالمين » أي منزّل من رب العالمين وليس من صنع الرسول نسبه إلى الله كما تقدّمت الإشارة اليه .

قوله تعالى : « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل – إلى قوله – حاجزين » يقال: تقوّل على فلان أي اختلق قولاً من نفسه ونسبه اليه ، والوتين – على ما ذكره الراغب – عرق يسقي الكبد وإذا انقطع مات صاحبه ، وقيل : هو رباط القلب .

والمعنى : « ولو تقوّل علينا » هذا الرسول الكريم الذي حمّلناه رسالتنا وأرسلناه اليكم بقرآن نزّلناه عليه واختلق « بعض الأقاويل » ونسبه الينا « لأخذنا منه باليمين » كما يقبض على المجرم فيؤخذ بيده أو المراد قطعنا منه يده اليمنى أو المراد لانتقمنا منه بالقوة كما في رواية القمي « ولقطعنا منه الوتين » وقتلناه لتقوّله علينا « فما منكم من أحد عنه

حاجزين ، تحجبونه عنا وتنجونه من عقوبتنا وإهلاكنا .

وهـذا تهديد للنبي ﷺ على تقدير أن يفتري على الله كذباً وينسب اليه شيئاً لم يقله وهو رسول من عنده أكرمه بنبوّته واختاره لرسالته .

فالآيات في معنى قوله : « لولا أن ثبّتناك لقـد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً إذن لأذقناك ضعف الحيـاة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً » أسرى : ٧٥ ، وكذا قوله في الأنبياء بعد ذكر نعمه العظمى عليهم: « ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون» الأنعام : ٨٨ .

فلا يرد أن مقتضى الآيات أن كل من ادّعى النبوة وافترى على الله الكذب أهلكه الله وعاقبه في الدنيا أشدّ العقاب وهو منقوض ببعض مدّعي النبوة من الكذابين .

وذلك أن التهديد في الآية متوجبة إلى الرسول الصادق في رسالته لو تقول على الله ونسب اليه بعض مـا ليس منه لا مطلق مدّعي النبوة المفتري على الله في دعواه النبوة وإخباره عن الله تعالى .

قوله تعالى : « وإنه لتذكرة للمتقين » يذكرهم كرامة تقواهم ومعارف المبدأ والمعاد بحقائقها ، ويعرفهم درجاتهم عند الله ومقاماتهم في الآخرة والجنة وما هذا شأنه لا يكون تقوّلاً وافتراء فالآية مسوقة حجة على كون القرآن منزهاً عن التقول والفرية .

قوله تعالى : « وإنا لنعلم أن منكم مكذبين وإنه لحسرة على الكافرين » ستظهر لهم يوم الحسرة .

قوله تعالى : « وإنه لحق اليقين فسبح باسم ربك العظيم » قد تقدم كلام في نظيرتي الآيتين في آخر سورة الواقعة ، والسورتان متحدتان في الغرض وهو وصف يوم القيامة ومتحدتان في سياق خاتمتها وهي الإقسام على حقيقة القرآن المنبىء عن يوم القيامة ، وقد ختمت السورتان بكون القرآن وما أنبأ به عن وقوع الواقعة حق اليقين ثم الأمر بتسبيح اسم الرب العظيم المنزّه عن خلق العالم باطلا لا معاد فيه وعن أن يبطل المعارف الحقة التي يعطيها القرآن في أمر المبدأ والمعاد .

– تمّ والحمـــد لله –

بعض المواضيع المبحوث عنها في الكتاب

السورة	الموضوع	نوع البحث	الصحيفة
سورة القمر ١ — ٨	كلام فيه إجمال القول في شق القمر	قرآني وعقلي وتاريخي	٦٠
٩ — ٤٢	كلام في سعادة الأيام ونحوستها في فصول : ١ — في سعادة الأيام ونحوستها ٢ — في سعادة الكواكب ونحوستها ٣ — في التفاؤل والتطيّر	قرآني وروائي وعقلي	٧١
٤٣ — ٥٥	كلام في القــــدر	قرآني وروائي وعقلي	٩٠
الجمعـــة ١ — ٨	كلام في معنى تعليم الحكمة	قرآني وعقلي	٢٦٩
المنافقون ١ - ٨	كلام حول النفاق في صدر الإسلام	قرآني وتاريخي	٢٨٧